محمد نعمة السماوي



والتقنيات المتطورة لصناعة الإرهاب

دار الكتب التاريخية
ناشرون


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

الخلايا النائمة

والتقنيات المتطورة لصناعة الإرهاب

هوية الكتاب

اسم الكتاب : الخلايا النائمة والتقنيات المتطورة لصناعة الإرهاب

المؤلف : محمّد نعمة السماوي

الطبعة : الأولى

سنة الطبع : ٢٠١٥م - ١٤٣٦هـ

دار النشر : دار الكتب التأريخية ناشرون

الموقع الإلكتروني : darkitab.taarekheya@gmail.com

الخلايا النائمة

والتقنيات المتطورة لصناعة الإرهاب

محمد نعمة السماوي

دار الكتب التأريخية
ناشرون


بسم الله الرحمن الرحيم

الخلايا النائمة

والتقنيّات المتطوّرة

لصناعة الإرهاب (حرب المستقبل)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تمهيد

إن الناس عندما لا يكونون مهيئين للتصرف بإزاء شرّ من الشرور، فإنهم يكتفون بالبحث عن أصله.

كاداريه

مع أن الكوارث الكبرى التي تدمر حياة الآلاف، تحدث بشكل غير منقطع، إلا أنها تمرّ ويتعافى منها الناس. كارثة الثلاثاء، الحادي عشر من أيلول - سبتمبر ٢٠٠١، التي كانت بتدبير بشري مبتكر، لم تكن أكبرها من حيث عدد الضحايا والأضرار الماديّة، لكنها الأشدّ وقعاً. فقد تركت آثاراً قاتلة ستظل معاناتها قائمة إلى أمد غير محدود، لا في البلد الذي حصلت فيه وإنما في عالمنا كله.

وإذ أن من قاموا بها ينتمون إلى عالم سرّي غير ملحوظ بدأت ملامحه تتشكل بعد الغزو السوفيتي لأفغانستان في عقد الثمانينات من القرن الماضي، فلابد من البحث في ظاهرة هؤلاء وفي الخلفية الثقافية والأيديولوجية التي جعلتهم يقدمون على عملهم الإنتحاري الصاعق. لا ليكون البحث هو نهاية المطاف - كما يقول كاداريه - وإنما بداية لتصرفات مسؤولة من شأنها أن تمنع وقوع العالم بين مخالب أشخاص كهؤلاء.

❍ ❍ ❍

إن تأريخ الحركات السريّة يشير دائماً إلى أن العمل في الظلام يخلب ألباب العديد من المهووسين الذين لا يجدون في آليات التحرك الحياتي المألوف أية متعة تذكر. فابتداء من لصوص السطو العاديين وأعضاء المافيات المنظّمة، وانتهاء ببعض أعضاء الأحزاب أو الحركات السرّية الممنوعة، نجد أنّ بعض هؤلاء قد جعل التخفّي هوايته الكبرى في الحياة. وهذا أمر قد يشير إلى نزوع بشري عام لحماية النفس. غير أن ما تميّز به بعض هؤلاء، التوجّه المفرط نحو العنف. وهو ما لايمكن تبريره بأي حال من الأحوال، لأنهم لم يضطروا إليه دائماً لمواجهة عنف مقابل، وإنما وجدوه وسيلة فعالة للردع والهيمنة على (الآخر - العدو).

على أن الفئة الأخطر من هؤلاء جميعاً هم الذين يرون الجميع الذين يمارسون الحياة العامة وفق آليات القوانين المفروضة والذين يعيشون في النور ببساطة ودون غطاء أو تستر، وحتى الذين لا يمارسون أيّ دور سياسي أو إجتماعي فعال، هو (العدو) دائماً. أيّ أنهم يرون أنفسهم في محيط من الأعداء عليهم مكافحته وإزالته والتغلّب عليه.

إن دوافع هذه النظرة قد تكون أيديولوجية أو نفسية عصابية أو ذهانيّة أو ناجمة عن تفكير قهري أو هستيري أو هوس أو اكتئاب أو فصام أو بسبب جهل مطبق بحقيقة الحياة أو حتى المبادىء التي يعتنقونها ولايجدون وسيلة لفهم حقيقتها. لذلك فإن من يريدون تجنيدهم والتأثير عليهم يطرقون دائماً العصب الحسّاس لدى كل منهم، أيّ أنهم يأتون إليهم من المقتل أو النقطة الأضعف.

أيديولوجيا التطرف تجعل العنف وسيلتها الأفضل، إما للوقوف بوجه عنف مقابل، أو مواجهة أيديولوجيات أخرى لا تعتمد نفس أساليبها الأفضل أو محاربة القوانيين والسلطات المكلفة بحماية المجتمع. وبتصعيد وتائر المواجهة غير المنضبطة يكون العنف الوسيلة الوحيدة في العمل.

إن بحوث هذا الكتاب إستجابة ملحة لتساؤلات بدأت تراود العديد من سكان كوكبنا (القرية) نتيجة المخاوف الجدية التي بدأت تنتابهم من مستقبل لن يستطيع أحد التكهن به. فمعاناتهم أصبحت غير مسبوقة نتيجة (عولمة العنف) الذي أخذ ينتشر بسرعة وتطّورِ أساليبه وممارساته وآليات تصديره وانكماشه وتقريب المسافات كان ينبغي أن يعطينا شعوراً مريحاً بأننا يمكن الإستفادة من كل شيء في عالمنا الصغير، وإن توصلنا وتعاوننا من الآخرين أصبح متيسراً وسهلاً. إلا أننا وجدنا - على العكس من ذلك - أن بعض أوجه هذه العولمة التي تعني مرحلة ما بعد النهضة، أرجعتنا إلى مراحل إرتكاسية متدنية، أتيحت الفرصة فيها لعناصر هابطة غير منضبطة لبسط سطوة غير عادية وإستعراض دمويتها وميلها الملحوظ للعنف. وقد استفادت من المعلومات ووسائل التكنولوجيا المتطورة التي كان ينبغي أن توظف لخدمة الإنسان لا لتدميره، والتي أصبح الحصول عليها متيسراً لمهمّات قذرة لم يكن يفكر بها حتى إبليس.

لقد استخلصت الأفكار والعقائد الدينية المنحرفة التي تزعم النزوع للأصولية والسلفية، وكذلك بعض الأفكار الليبرالية والتنظيمات السياسية المتنوعة، في إيجاد دوائر صراع غير متكافئة وغير متوازنة، أريد للجميع أن ينغمروا فيها ويدفعوا ثمنا باهضاً من حياتهم وأمنهم. وهكذا وجدت المبررات لمغامرات وحروب جديدة لم يكن منشؤها الحقيقي إلا نتيجة طموحات ونوازع شخصية مشوهة وغير مسؤولة.

إن سرعة وتطور وسائل إنتاج العنف بشكل غير مسبوق، وتجنيد وسائل إعلام ومعلومات متطورة لأدلجته وتسويقه وتقديم مبررات مقبولة له تؤشر لاكتشاف جديد من سيوف مخملية تذبح دون إراقة قطرة دم. فهي تساهم بجعل الجميع يترقبون مفاجآت غير سارّة على يد جماعات غير منضبطة تتغلغل في

صفوفهم وتتخفى في دهاليز مظلمة ولن يكون بالإمكان كشف أمرها إلا بعد أن تقوم بضربات ماحقة تشل حركتهم.

○ ○ ○

إن (الخلية النائمة) نسخة أخيرة معدّلة عن التنظيمات التقليدية. فهي تنظيمات مجهرية لا تخضع للتسلسل الهرمي المعروف في الأحزاب والمنظمات السرية والعلنية. وقد تضم عدداً من الأعضاء لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة. وربما تتألف حتى من فرد واحد يتبنى مسألة التنظير وإصدار الفتوى والتنفيذ.

إن تغلغلها وتموضعها في جغرافية أيّ مجتمع قد لايكون متعذراً عندما يلجأ أعضاؤها إلى وسائل تمويه وتخفّ مبتكرة وغير متوقعة. ففي حالات كثيرة ثبت أن هؤلاء قد فاجأوا مجتمعاتهم وبعض من تعاملوا وعاشوا معهم حتى من أقربائهم وذويهم عندما اكتشف هؤلاء أنهم كانوا ورآء أشد اعمال العنف وحشية بعد أن كانوا يبدون لهم بمظهر وديع مسالم لا ينمّ عن شيء.

إن مصطلح (الخلايا النائمة) استحدث على خلفية الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي الشيوعي والغربي الرأسمالي بعد الحرب العالمية الثانية. وكان يعني مجموعات التجسّس والتخريب التابعة لكل معسكر والتي تعمل في أراضي المعسكر المقابل وتقوم بالأعمال السرّية التي لا تتيحها العلاقات العلنية والأعراف الدبلوماسية بين الدول.

لكن اليوم يتم بعثه بعد تصدير موجات العنف والإرهاب الجديدة من قبل (القاعدة) ومجموعة الحركات والأحزاب الجهادية القتالية التي تدعي وراثة السلف والوصاية على المسلمين. فهذه الحركات - وفق رؤيتها - تجد أنّ عليها الآن تغيير العالم بالقوة وأن تتحكم فيه وفق قانونها وأن المستقبل

سيكون لها بعد تحطيم القوى العظمى وسقوط الخطاب الإسلامي (الآخر - المعتدل) المنبوذ من قبلها والذي يبدو أن وقعه عليها صاعق أو مؤرق.

لقد ادّعت (الوهّابية) وصايتها على الجميع بعد أن أصبحت مرجعية متنفذة لأغلب الأحزاب والتنظيمات المتأسلمة ذات الإتجاه المتطرف والتي تبّنت رؤيتها ومنهجها في العمل وكل مفاصل حراكها وخطابها المتشنج الرافض للآخر المذهبي والديني. فخطاب (اللابّد) أو الطريق الواحد المسدود تقاطع مع جميع الطرق الممتدة على الفضاء الواسع لأي مجتمع تعددي متسامح نابذ للعنف والتطرف. وكانت الذرائع والشعارات الدينية، التي قدمتها المؤسسة الوهّابية لتبرير ذلك التطرف قد وضعت في سلة واحدة مع الأهداف (الجميلة) المعلنة التي قدمتها السلالة السعودية والتي تدعي إصلاح حال القبائل وعموم المسلمين وتنقية الإسلام من الخرافات والبدع!

إن دور أية خلية نائمة لا يكرس لأية فعاليات ثقافية أو إجتماعية أو تربوية بنّاءة، وإنما هو دور تنفيذي أو كالصاعق الذي يفجر أطناناً من المواد المتفجرة لا يمكن لأحد أن يتكهن بقدراتها التدميرية. إنها تنتظر الزمان والمكان المناسبين لتجربة ابتكارها الجديد الذي لم يسبق أن فكر به أحد لغرض شلّ الجميع وإصابتهم برعب قاتل. وهذا ما حدث في ثلاثاء أيلول الأسود عندما حولت طائرات السفر العادية إلى قاذفات للدمار والموت، وسلبت في لحظات قليلة أرواح آلاف الأبرياء الآمنين.

❍ ❍ ❍

إن سيناريو الموت قد يجري تحويره والتلاعب به من قبل عبقرية شيطانية ليطيح بمصير ومستقبل شعوب بأكملها. فما دام الغطاء الأيديولوجي جاهزاً على الدوام لتبرير جرائم الإرهابيين، ومادام فقهاء العنف والتكفير يستنفرون التشنج المذهبي والديني ويحكمون على الآخرين بالكفر والردة وعقوبة

الموت، فإن سعادة هؤلاء الفقهاء التكفيريين لا تعادلها إلا سعادة المنفذّين الإنتحاريّين المغفلين المبهورين بفقهائهم وثقافة العنف الدخيلة التي يحملونها.

○ ○ ○

إن الزلزال الذي هزّ العالم في ١١ أيلول ٢٠٠١، كشف حقيقة الإرهابيين الذين تلفعوا بعباءة الإسلام وحاولوا مصادرة خطابه وتزويره لينسجم مع ما أعلنوه من أهداف وشعارات. كما أنه أوضح الحاجة لتسلّح الجميع - العرب والمسلمين قبل غيرهم - بوعي معرفي جاد عن حقيقة هؤلاء وطبيعة أهدافهم وشعاراتهم ذات الرنين الصاخب والمضلّل وادعائهم تمثيل كافة المسلمين رغم عددهم الضئيل الذي لايتجاوز واحداً بالمائة من مجموعهم عبر تحركهم بمرونة عبر وسائط اتصال داخلية أو إقليمية أو عالمية بفضل ما أتيح لمؤسساتهم الراعية من ثروات هائلة.

وإذ أن تحركهم خلال القرنين السابقين لم يتعد العراق الذي أثارت ثرواته شهية الغزاة الجياع من الوهّابيين البدو، وكان مسرحاً لتصادم النزلاء في غزوات وحروب عنيفة دفع العراقيون ثمنها من أرواحهم وأموالهم، فإن شهيتهم الفائقة للدم والغزوات جعلتهم بعد ذلك يبحثون عن مسارح جديدة في مختلف بقاع الأرض.

وسواء كانت الأرض المغزوّة (المفتوحة)، بغداد أو نيويورك، فإن حَمَلَة الخطاب الوهّابي توسلّوا دائماً بخطابهم الراديكالي الجذروي الشمولي لتصريف ونشر أفكارهم التي جاءت مطابقة للنسخة الأصلية لخطاب شيخهم (محمد بن عبد الوهّاب).

إنهم يعملون بنَفس إمبراطوري متعالي يدعي وصايته وملكيته لكل الأرض. هكذا يحاولون عبور الجغرافيا المذهبية والدينية والتموضع في أماكن

أخرى لنشر أفكارهم وخصوصية مرجعيتهم الدينية التي جعلوها الجهة الوحيدة المخوّلة بتفسير الإسلام والحكم باسمه.

○○○

لقد أتاح (الوهّابيون) لأتباعهم (النمط المتلقي) في العراق أو المغرب العربي أو مصر أو أفغانستان أو غيرها، فرصة محاكاة النموذج الأصلي للخطاب الوهّابي عندما فتحوا أبواب إجتهاد منفلت لايمّت إلى أيّ منهج معرفي أو مذهبي إسلامي آخر. وسوّغوا لهم إصدار فتاوى بتدمير أيّ بلد بكل وسائل التدمير الشاملة إذا ما رأوا ذلك. وهو الأمر الذي فسح المجال لكل من يستطيع فك رموز الخط العربي منهم أو قراءة القرآن أن يضيء بإيقاع عقوبة الموت ولو على شعب بأكمله.

○○○

يتألف هذا الكتاب من سبعة فصول، يتحدث أغلبها عن ظاهرة التطرف في بعض الأجنحة أو التيارات المنحرفة عن الإسلام والتي لها رؤيتها الخاصة البعيدة عنه ابتداء من (الخوارج) الذين انقرضوا منذ مايقارب ١٣٠٠ عام وبقيت ظاهرتهم، وانتهاء بـ(الوهّابيّين) المعاصرين الذين يتربعون على عرش المرجعية الدينية والفكرية للأحزاب والتنظيمات القتالية (الجهادية) المتأسلمة التي تلعب أدواراً فاعلة الآن، ومنها (الخلايا النائمة) المزروعة في أغلب بقاع الأرض، والتي قد تفاجئ العالم بهجمات صاعقة أخرى قد تتفوق على هجمات الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١.

وقد تناولت فصولُه مصطلَحَي (الخلايا النائمة) و(الإرهاب) وتداعيات العمليات الإرهابية قبل وبعد أيلول الأسود، وإشكالية الصراع مع الإرهاب وأيديولوجيا التطرف وورثته (الوهّابيّين) وقراءة في تأريخهم وأدبياتهم والمطابقات الوهّابية مع الخوارج.

كما تناولت بإسهاب الفلسفة أو المنظومة التربوية (المناهج، المدرسيّن، المؤسسة الدينية) التي تنتج التطرف والوهّابية كغطاء أيديولوجي لحركات التطرف وخلاياه النائمة ودورها في إنتاج هذه الخلايا وموضوعات أخرى عديدة.

ولابد عند الحديث عن الخلايا النائمة من التأكيد على ضرورة إفراد فصول تتحدث عن محاور رئيسية لمعرفة آليات العمل والتنظيم والأرضية الفكرية للتطرف(١) والعوامل المنتجة له وحواضنه وسيكولوجية التطرف وغير

(١) ترد في هذه الدراسة مصطلحات مثل (التطرف) و(التشدد) و(الإرهاب)، وهي كلمات ذات مدلولات لفظية خاصة للتعريف ببعض الحالات السلوكية الشاذة التي تمنع أصحابها عن التعايش مع الآخرين بسلام، أو قبول رؤيتهم أو طريقتهم في العيش على أنّها حق مشروع، وتجعلهم غير قادرين على إيجاد حلول وسطى أو التوصل إلى آليات للحوار أو التفاهم.
القواميس اللغوية تشير إلى أنّ المتطرف هو الذي يبلغ في رؤيته وسلوكه أقصى مدى ولا يعرف الإعتدال (فالطَرْف هو نهاية كل شيء) ويلجأ لتحقيق هدفه إلى أشد الوسائل إيلاماً وهو العنف الذي وصف بأنه المعاملة بشدة وقسوة، وهو ضد الرفق واللين.
والأمر نفسه مع المتشدد أو الشديد وهو: بَيِّنُ الشِدَّة، والقوي الوثيق الصعب. أما الإرهاب فهو: التخويف والترويع. ولذا يفخر الإرهابيون بأساليبهم العنيفة التي يدّعون أن الغرض منها إخافة خصومهم حتى لو طالت الأبرياء.
وترد هذه المصطلحات المتلازمة لوصف أفعال الجماعات المتشددة أو المتعصبة التي تريد وضع العالم في حالة حرب أو صراع. وغالباً ما يلجأ المتطرفون المتأسلمون من (القاعدة) والحركات (الجهادية) الأخرى إلى تصنيف العالم - رغم امتزاج الشعوب - إلى فسطاطين أو دارين (دار كفر ودار إيمان) و(دار سِلْم ودار حرب) ووضع قوانين وتعليمات للتصرف عند كل حالة. ويظل هاجس الخصومة والعداوة هو الطاغي والغالب عليهم. ولعل مصطلح (الإرهاب) المتداول حالياً يعني الإستعمال المنظّم للعنف لتمرير أجندات سياسية أو للضغط على الخصوم واللجوء إلى أعمال نوعية ذات أثر تدميري ودعائي بالغ بدلاً من المواجهات العسكرية.

ذلك من المحاور المتعلقة بالموضوع. ويمكن وضع تخطيط أولي للفصول العامة المتعلقة به، حيث لم تُعد عنه دراسات تخصصيّة كافية لحد الآن.

- الخلفية الفكرية والثقافية للمتطرّفين، وبدايات التطرّف في العالم الإسلامي.
- أحاديث عن المذهب الوهّابي، ووراثة الخط المتشدّد، ومرجعية الشيخ محمد بن عبد الوهّاب، وهيمنتها على الساحة الإسلامية العامة والحركية (الحزبية) مؤخراً.
- حواضن التطرّف الحالية في العالم الإسلامي (عوالم منغلقة). محاولة نقل التجربة.
- صناعة التطرّف والعوامل المنتجة له: (جغرافيا الولاء المذهبي/ العائلة والمجتمع/ الدوائر الصغيرة من الأصدقاء والأقارب/ المدارس والجامعات/ المساجد/ الجمعيات الدينية والخيرية/ المؤسسة الدينية وهيئاتها ومراكزها/ الفتاوى المنفلتة/ حركة النشر غير المنضبطة/ الفضائيات/ الإنترنت. . . إلخ).
- سايكولوجية التطرّف وعوامل الشحن والتعبئة الفكرية والإجتماعية.
- المواجهة الأيديولوجية والعسكرية مع المتطرّفين وأدوات الرصد والردع، الأداء العالمي وعدم التشخيص الدقيق للمشكلة بسبب التباين الثقافي وعدم إدراك حجم الخطر المتوقع.

إن من الأمور التي ينبغي أن يعرفها المعنيّون بالتطرف في العالم، هي أن حركة المتطرّفين مهما بلغ ضجيجها الإعلامي، ومهما بدت قوية في بعض مراحلها، وما ألحقته من خسائر وأضرار بخصومها من المسلمين وغيرهم، هي حركة نزيلة طارئة ليس لها ما يبرّرها في أدبيّات وتراث وواقع الدين

الإسلامي، القائم على التسامح والحوار والتعايش السلمي بين الأمم والشعوب وأنها ستزول بزوال مسبّباتها.

وإذا ما أُدركت هذه الحقيقة، أصبحت المواجهة أسهل وأقل عبئاً. ولن يتاح لمحدودي الثقافة وقليلي الخبرة والمتسرّعين فرض مخططاتهم القاصرة إذا ما شاركوا في الحرب القائمة على الإرهاب ليزيدوا المشكلة إتساعاً. فالمواجهة الحقيقية ليست مع حوالي مليار ونصف مليار مسلم، إنما مع فئات صغيرة انفصلت عن الجسم الإسلامي الكبير تحاول أن تقوده وفق رؤيتها السطحية الناقصة.

وهذا أمر سيعلمه المسلمون وغيرهم، ونأمل أن لا يكون ذلك بعد فوات الأوان. ولا بد أن توضع آليات مناسبة لمواجهتها وإيقافها إذا ما تضافرت الجهود مع النوايا الحسنة، وإن كنا نشكّ أن تكون النوايا كلها حسنة دائماً.

إن هذه الموضوعات قد تستدعي قيام مؤسسات بحثية جادة لدراستها على حدة وتكليف باحثين أكاديميين متخصصين بهذه المهمة، وعدم الإكتفاء بتناولها إعلامياً من قبل أناس غير متخصصين. فقد يصعّد الضجيج الإعلامي غير المسؤول وتائر العداوة والقطيعة دون أن يساعد على إيجاد حلول، وقد يمهد لحروب وسجالات لاحقة لن تجلب إلا الدمار عندما يكون التصرف العام مبنياً على ردود أفعال غير منضبطة تصعّدها وسائل الشحن الإعلامية أو السياسية.

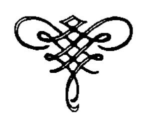
ولعل الشعور بالمسؤولية للحفاظ على حقوق الجميع بالحياة الآمنة المستقرة، وهو شعور فطري طبيعي، لا يزعم أحد أنه يتمتع به دون الآخرين هو الدافع من وراء وضع هذا الكتاب. فليس بمقدور فرد أو أمة أن يتخلى عن التعايش مع الآخرين أو ينعزل في فردوس خاص لايناله فيه ما ينالهم. فمصير الجميع رهن بسلامة تصرف الجميع دون استثناء وإن اختلفت أديانهم أو توجهاتهم الفكرية أو أنماط حياتهم ومعيشتهم.

ونأمل أن يكون هذا الكتاب مساهمة جادة في تخفيف المعاناة التي ينتجها التطرف، وأن يلفت أنظار الباحثين لوضع دراسات تخصصّية جادة من شأنها أن تجعل الحياة أكثر سراً، والتعايش السلمي بديلاً عن الحروب وحالات الطوارىء التي ترهق أعصاب الجميع، وأن لا تكون إستعراضية لا تقدم حلولاً وخططاً لتحقيق ذلك، وأن يتصف أصحابها بشيء من الموضوعية والشجاعة وعدم المهادنة مع أية جهة داعية للإرهاب أو داعمة له.

وإذا ما كان الجميع مهيأين للتصرف بشجاعة إزاء كل شر بعد معرفة أصله ومنبته، فسوف يكونون قادرين على اقتلاعه بدلاً من تغطيته ليعود من جديد، وأن لا تكون هذه هي النتيجة الوحيدة من كل دراساتنا وجهودنا التي نخرج بها ثم غالباً ما نضعها على الرفوف كما أشار كاداريه.

محمد نعمة السماوي

ميتشغن، الولايات المتحدة



الفصل الأول

الخلايا النائمة والإرهاب
بين المصطلح والممارسة الواقعية

أولاً: الخلايا النائمة

يتمّ الآن تداول، وربما تدويل مصطلح (**الخلايا النائمة**) في بُعدين:

الأول: الدلالي (المضمون).

والثاني: التعبيري (الشكل). إذْ يتمّ استعماله على نطاق عالمي بعد هجمات أيلول الأسود سنة ٢٠٠١ وتفجيرات لندن ومدريد، ومحاولة تفجير (تايمز سكوير) مؤخراً في نيويورك في مطلع مايس ٢٠١٠ من قبل (طالبان باكستان).

لقد ساعد على انتشار هذا المصطلح مؤخراً، تطوّر آليات العنف ووسائله، وتبنّي الرؤية الوهّابية الإستدمائية في نسختها الأولى مِن قبل المنخرطين في المشروع (الجهادي) الذي أفرزته هذه الرؤية. وكذلك بعد نجاح محاولات (القاعدة) في إيجاد بؤر وحاضنات تتقبّلها وتدعو إلى خطابها.

إنّ ذلك يتمّ عادة من خلال استنفار التشنّج المذهبي والديني المصدّر من الحاضنة الأم - المملكة السعودية - وثم في أماكن أخرى مثل أفغانستان وباكستان وأغلب مناطق العالم الإسلامي.

ولا شكّ أنّ المقصود به أعضاء الشبكات الإرهابية المجهرية الضئيلة التي لا تنتهج الطرق التقليدية في التنظيم والإدارة والعمل. فهي قد تظهر بأشكال وأماكن غير متوقعة، كما أنها قد تلجأ إلى وسائل مبتكرة لتنفيذ عمليات قتالية عشوائية أو ما يسمّى (الأرض المحروقة) التي تطال الأبرياء - عادة - أو الذين ليس لهم دور ملموس في السياسية أو إدارة الحياة العامة وليسوا من

المسؤولين الرئيسيين في بلدانهم، وذلك لغرض إثارة الرعب لدى الناس وإضعاف ثقتهم في حكوماتهم. إضافة لقيامها بدعاية ذات أثر نفسي كبير حول فاعليتها وقوتها وقدرتها على التغيير أو لعب الأدوار الكبيرة.

إنّ (**الخلايا النائمة**) مصطلح إستخباراتي، استحدث على خلفية زرع أجهزة المخابرات السوفياتية أيام الحرب الباردة، **جماعات تجسُّسية صغيرة** في أوربا والولايات المتحدة الأمريكية.

ويستعمل الآن لتعريف الجماعات الصغيرة المنتمية **(للقاعدة)** أو التي تتبنى أفكارها، وكذلك الجماعات المتطرفة المشابهة لها والمزروعة في مختلف مناطق العالم، والتي تعمل بعيداً عن مرجعيّاتها وتنظيماتها الهرميّة التقليدية. وذلك يتيح لها التخفّي والإختباء والقدرة على توجيه أشد الضربات قسوة بحرّية ومرونة.

ويستند أعضاء الخلايا المنتمون لتنظيمات وأفكار **(القاعدة)** إلى توجّه فكري قائم على قراءة خاطئة وسطحية للإسلام والنصوص الدينيّة. فهم يصنّفون الناس إلى فريقين أو فسطاطين على حد تعبيرهم:

الفريق الأول هم **(المشركون من المسلمين)** و**(الكفرة من غيرهم)**. وهؤلاء جميعاً ينبغي القضاء عليهم في هذه الحياة الدنيا وجعلها جحيماً عليهم قبل ورودهم جحيم الآخرة!

أما الفريق الثاني، فيتمثّل بهم وحدهم باعتبارهم **(الفرقة الناجية أو المنصورة)** التي تمتلك الحقيقة من بين الجميع. وسيكون من حقهم - إستناداً إلى تصوراتهم - أن يستأثروا بالجنة دون غيرهم بعد أن يبطشوا بهم.

○ ○ ○

إنَّ هذه **(التنظيمات)** غير المنظورة وغير المرصودة جيداً، وربما تكون في

طور الولادة والتكوّن، تحمل أجندات تصادمّية إحترابية، تصعّدها أحلام السيطرة الإمبراطورية القديمة لبعض العائلات الحاكمة المعروفة مثل العائلتين الأموية والعباسية، وتحاول تنفيذها عن طريق الغزو المزدوج للسيف والأفكار.

وتبدو مواجهتها لحد الآن تقليدية وناقصة، مع أنّ الجهات التي تدير هذه المواجهة تنتمي لأقوى دول العالم وأكثرها تطوراً في مجال العلوم والتكنولوجيا والمعلومات مثل الولايات المتحدة وأوربا.

وقد أصبح واضحاً أنّ هذه التنظيمات المتشدّدة، تحاول المزاوجة بين الدعوة العقائدية، التي تبدو برّاقة في ظاهرها والعمل الحركي التنظيمي المدعوم سراً وعلناً من قبل بعض الحكومات وعشرات الجمعيات والمؤسسات الدينية والخيرية في العالم الإسلامي وخصوصاً في دول الخليج، وتلجأ إلى آليات العنف المتطورة لتحقيق مشاريعها.

إنها تحاول الآن - وقد أدركت قوة وإمكانية الدول المتصدية لها - إلى إنتهاج أكثر الأساليب سرية وتخفّياً، لتظل بعيدة عن الرصد والمراقبة، ولتتمكن بالتالي من توجيه ضرباتها الماحقة بقوة ويسر.

ويقوم أسلوبها الأساسي في العمل على تعزيز منهجها العقائدي والفكري وترسيخه في أذهان أتباعها بأساليب تلقينية نسقية ومثابرة غير عادية تدل على قناعة مطلقة بهذا المنهج القائم على أفكار الشيخ محمد بن عبد الوهّاب (١٧٠٣-١٧٩٢م) التي تتسم بالتطرّف والنزوع إلى العنف.

○ ○ ○

وإذا ما نظرنا بعين الجد إلى ما كتبه (ريتشارد كلارك)، المستشار السابق للبيت الأبيض لمكافحة الإرهاب في كتابه (**الحرب الإلكترونية.. التهديد**

الأمني القومي المقبل)، والذي ذكر فيه أنّ الولايات المتحدة قد تتعرض لهجوم إلكتروني قد يدمّرها في غضون ١٥ دقيقة، فسندرك أنّ احتمالات كارثية يمكن أن تحصل. أو كما ذكر في هذا الكتاب الذي نشرت صحيفة «الديلي تلغراف» البريطانية مقتطفات منه، أنّ هذه الإحتمالات يمكن أن تحصل إذا ما تعرضت خدمة الإنترنيت للتشويش مثل إندلاع النيران وإنفجارات في مصافي في فلادلفيا وهيوستن وتعطّل المصانع الكيماوية وانتشار غيوم من غاز الكلور القاتل في الجو. «ومن الإحتمالات الكارثية أيضاً عمليات اصطدام للطائرات وتحطّم قطارات الإنفاق في نيويورك وواشنطن وغيرهما، وسيعم الظلام في أكثر من ١٥٠ مدينة أميركية وسيموت عشرات الآلاف من الأميركيين في هجوم لا يختلف عن الهجوم النووي، وكل ذلك يمكن أن يحصل خلال ١٥ دقيقة، وعلى يد إرهابي واحد فقط».

ولنا أن نتصّور المخاطر التي يمكن أن تحدث في مجالات أخرى كأسلحة الدمار الشامل البايلوجية والكيمياوية المتطورة والفتاكة والتي قد تكون تقنيّات إنتاجها متاحة لإرهابيين غير منضبطين وغير ملتزمين بقانون أخلاقي إلّا قانونهم الخاص الذي يدعو لاستئصال وإبادة كل من يخالفهم المعتقد والرؤية.

ولذلك فإن مخاوف العالم من وقوع المزيد من الهجمات الكارثية، تظلّ مبررة ومشروعة، فهو لا يمكن ان يظل مستنفراً إلى ما لا نهاية. كما ان الحروب العسكرية الباهضة التي لم تستطع أن توقف العنف إلّا بعنف مماثل ولأمد محدود، ربما لا تتيح تحقيق نصر كامل في المستقبل بمثل هذه الأساليب الدفاعية القاصرة التي قد تكون ردود فعل سريعة غير مدروسة.

ولن يتمكن أحد من التكهّن بالوقت الذي يمكن أن تستيقظ فيه خلية إرهابية نائمة أو متخفية وكذلك المكان الذي تنشط فيه ونوعية الدمار الذي يمكن ان تلحقه. فطالما أنّ هناك من يؤمن بالوسائل الإرهابية ويعتقد أنّ

اللجوء إليها مشروع بل ضروري (لردع) خصومه، ويجد مَن يتفاعل مع أفكاره، فإن منابع الإرهاب ستظل متدفقه على الدوام تصب بمختلف الإتجاهات.

إنّ الشباب الذين يقدمون دماءهم بسخاء، ليكونوا أول ضحايا أعمالهم المرعبة، لا بد أنّهم قد توصلوا إلى قناعات أكيدة بصحة ما يقومون به، واستندوا إلى أيديولوجيا ناتجة عن إجتهادات فكرية مجردة غير قائمة على منطق مدروس، جعلت تدمير العالم وسيلتها لتحقيق أهدافها.

وهكذا، فلن يفكر أحد بإمكان دحر العنف إذا لم يكن بالمستطاع مواجهة أيديولوجيا الإرهابيين المتسترة بالدين، بأيديولوجيا مقابلة، تقنع المجتمعات الإسلامية - والشباب على وجه الخصوص - بسذاجة الفكر الإنتحاري المتشدّد وعدم جدواه وعدم وجود ركائز مبدئية له يقرها الإسلام أو أيّ دين سماوي آخر. والأمر نفسه ينطبق على أيّ فكر آخر يتخذ من الذرائع الدينية سبباً لنشاطاته التي لا تتسم بأقلّ قدر من التسامح أو التوجه الإنساني البّناء. إنّ ما هو مطلوب مقابل ذلك أن يكون التعارف والحوار هو القاعدة بينما الخلاف والتشدد هو الإستثناء.

○ ○ ○

(الخلايا النائمة) التي قد تعيش حالة سبات مؤقت، أو المتربصة التي تترقب نوم الأجهزة الأمنية أو المنافسين والخصوم الآخرين لتستيقظ وتعمل، هي حالة استثنائية في التنظيمات الحزبية والحروب وتنظيمات العصابات، وهي نوع من طابور مندسّ في العديد من مفاصل المجتمعات الإنسانية.

إنها لا تعتمد هيكلية التنظيم الحزبي بأشكالها السرية والعلنية المعروفة. وهي ليست علاقات خيطية مجردة بين أفراد التنظيم، تجعل الحلقة الأولى أو الرأس الأول بمعزل عن الحلقة الثالثة لضمان عدم الكشف عن الجميع

وحسب، وإنما هي تنظيمات متكاملة من حيث البُنية، كائن حي ضئيل غير منظور، يتمثل بمجموعة أشخاص يتعاطون نفس المشاعر والتوجه الفكري والعقائدي، بينهم ميثاق شرف غير مكتوب يتعهدون فيه بالمضي في مهماتهم القتالية إلى النهاية.

إنها قد تضم (أميراً) و(مفتياً) و(منفذيّن - مجاهدين إنتحاريين) ينتمون لنفس الخليّة. وقد يضم هيكلها مجموعة متضامنة تبدو في الظاهر مقطوعة عن الأصل أو القيادة العليا أو الراعية، إلا أنها تملك حرية إصدار القرار (**الفتوى**) وتنفيذه بالكيفية التي تراها، حسب قناعات (**المفتي**) وقراءته.

لابد أن نشير هنا إن المرجعية الدينية العليا لجميع أفراد الخلايا النائمة هو فكر الشيخ محمد بن عبد الوهّاب غير المنضبطة والمشحونة بالعداوة والسخط.

إنّ هذا الإستنتاج ليس قفزاً على الحقائق واستباقها، وإنما هو قائم على دراسة مبنيّة على فهم موضوعي للفكر السلفي الوهّابي ومتبّنياته وتقاطعاته مع كافة المذاهب الإسلامية المعروفة ناهيك عن الأديان الأخرى.

ولم نجد - إلا نادراً - من يشير إلى خطورة هذا الفكر وتداعيات انتشاره وكونه الحاضن الأساس للإرهاب، رغم وجود بعض المحاولات من قبل بعض المسلمين المستهدفين بناره لمناقشة بعض عناصره وجوانبه الرئيسية. كأنما هم يواجهون فكراً عقلانياً على استعداد للتخلي عن بعض ثوابته أو آلياته، متناسين الأجندة التي وضعها مؤسّسه منذ البداية لتحطيم العالم الإسلامي والعالم كله فيما بعد بدعوى الإصلاح الديني بنبذ بعض الممارسات التي اتخذها ذريعة للبطش وخوض أشد الحروب دموية في التأريخ.

إنّ آليات الدين الوهّابي وبتائره وروح العداوة الكامنة فيه، والتي تستهدف جميع أبناء العالم لم تدرس دراسة كافية أو واقعية، وربما يعود ذلك

إلى طريقة عرضه الجذابة من قبل أقطاب المؤسسة الدينية الوهّابية ورديفتها المؤسسة السعودية الحاكمة المتنفذة في العالم الإسلامي بسبب ثرائها وكرمها المفرط مع من يروّجون لأفكارها. وربما يعود أيضاً إلى دعم أغلب المؤسسات الرسمية في الخليج وبعض المنظمات والجمعيات الخيرية وغيرها بأعتباره (**التيار الوسطي**) الذي يمثل أغلبية المسلمين ولا علاقة له بما يجري من عنف، وأنه سفينة (**الفرقة الناجية**) إلى برّ الامان!

إنّ هذا ما يتبجّح به أقطاب ومنتسبو المدرسة الوهّابية، في الوقت الذي نجد أنّها أصبحت ذات سطوة طاغية ومرجعية لكل الحركات العنفية بما فيها (**قاعدة بن لادن**) و(**طالبان**) أفغانستان وباكستان، فهذه الحركات تتمسك بكل دقة بما أرسته منذ نشوئها. وربما يكون من المستحيل على أيّ باحث إقناعهم بعكس ذلك.

○ ○ ○

ثانياً: الإرهاب - المصطلح والممارسة الواقعية

— ١ —

يظل الباحثون (**الستراتجيّون**) العرب حبيسي هواجس تعريف مصطلح (**الإرهاب**) بينما يصر زملاؤهم الغربيون وكل المؤسسات المعنّية بالدراسات السياسية والإجتماعية وغيرها على إلتزام الصمت وكأنهم توصلوا إلى التعريف فعلاً، أو أنهم لا يرون ضرورة ليشاركوا الآخرين فهمهم، أو أنهم لا يرون ضرورة للتعريف أصلاً.

وعادة ما يلجأ الباحثون العرب إلى قواميسهم اللغوية ومأثوراتهم وتراثهم الديني للتدليل على صحة التعريف الذي (توصلوا) إليه، ويحاولون إقناع

الآخرين (الغربيين) بذلك لـِ (حشرهم) ضمن حدوده و(ضوابطه)، وكأن هؤلاء قد بحثوا وعجزوا عن الخروج بهذا التعريف (الواضح) الذي توصل إليه (الزملاء) العرب(١).

ومابين إصرار العرب المسلمين المتّهمين بالإرهاب، على توضيح المصطلح ووضع فصول كاملة في كتبهم ودراساتهم عنه، وإصرار الغربيين على الصمت والعمل ضمن متبنّياتهم وأجنداتهم وما توصلوا هم إليه، يظل العالم رهن مخاوف تتصاعد من حين لآخر وعمليات إرهابية وحروب يقوم بها أشخاص ومنظمات سرية وحكومات يدور الجميع في دوامتها التي لا تبعث على السرور والإرتياح بل تشير لمستقبل كالح لا يدعو للتفائل أو الأطمئنان.

لذا ،فإن الحديث عن ظاهرة الإرهاب وفق النسق المألوف والبحث عن تعريفات محدّدة، توقِع الجميع بإشكالية ناتجة عن جدال لفظي لا حلّ لها بين المسلمين والغرب تبعدهم جميعاً عن معرفة حقيقتها وفهم نظرة كل طرف لها.

ولا شكّ أن الجميع يدركون - بدون الحاجة إلى الدفاع أو الإتهام المتبادل - أن بعض التنظيمات العربية و(الإسلامية) مثل (القاعدة) وخلاياها النائمة قد أصبحت الآن الوريث الأيديولوجي لأشد حركات العنف في عصرنا المتأخر وما قبله، أيّ منذ قرنين ونصف وهي الحركة الوهّابية التي تتبنى أعمال العنف، وتتيح المجال لردود الفعل العنيفة من قبل الغرب والولايات المتحدة.

(١) إذ يقول: (إن القيادات الإسلامية في الوقت الذي تشجب فيه الإرهاب بشدة، إلّا أنها لا تتفق مع المنظور الأمريكي لتفسير الإرهاب، بل أن بعضها يُشكل على أمريكا بإتباعها معايير مزدوجة في تفسير الإرهاب. لذلك تدعو هذه القيادات إلى تبنّي تعريف معتمد بوصّف الإرهاب). المصدر: الجوادي، علاء: «بحث بعنوان Selected Case Studies أي القيادات الإسلامية والموقف من الإرهاب». مجلة العهد، العدد ٤، ص ١٤٢. (معهد الدراسات العربية والإسلامية، لندن، بريطانيا).

ولا ندري سرّ (الخجل) عن كشف هذه الحقيقة والحرص على الإدّعاء أن المسلمين جميعاً يناوئون الإرهاب ويقفون ضده[١] في محاولة لدرء التهمة عن الجميع دون إستثناء. مع أن دوافع الإرهاب والسلوك العنفي تتخطى كل الحواجز ولا علاقة لها بالأديان إلا بالقدر الذي يحلو فيه للبعض تسييس الدين بحثاً عن الإمتيازات وتحقيق المصالح. فالمسلم أو المسيحي أو اليهودي أو غيرهم قد يلجأوون - على حد سوآء - إلى العنف وارتكاب أشد الأعمال الإرهابية بشاعة إذا ما وجدوا المبرر لذلك سوآء أكان هذا المبرر خاصاً أو مصلحياً أو أيديولوجياً ينظّر لوسائل الفتك والترويع لتحقيق أهدافه. إنّ هذا الإدّعاء إذا ما قوبل بادّعاء مماثل من قبل الآخرين بمعنى يصور جميع البشر ملائكة وأن هذه الأرض فردوس حقيقي قد سادها السلام دائماً ولم تشهد أيّ نوع من الحروب أو الانتهاكات. وهذا ما تناقضه المسيرة العامة للبشرية منذ بدء التأريخ وإلى الآن، إذ كان تأريخ عنف ونزاعات وحروب حتى بين أبناء المنظومة الدينية الواحدة (ذات المذاهب المتعددة).

وغالباً ما نجد أمراء أو ملوكاً أو قادة طموحين مسلحين، ومدعومين بسلطة دينية رديفة تروّج لمشاريعهم وتصدّر الفتاوى لمساندتهم وتكفير أعدائهم، يخوضون نزاعات وحروباً شرسة ضد أولئك (الأعداء) لاستئصالهم وإبادتهم.

إن أمراء الحروب هؤلاء لا تزال لهم نفس الصولة السابقة ولا يزالون يتكررون ويجدون مبررات جديدة لاستئناف نشاطات أسلافهم السابقين. ومع أن الدين قد زوي عن الحياة العامة للعديد من المجتمعات ولم يعد المحور

---

(١) (إن التوجهات الإرهابية داخل المسلمين لا تمثل إلا فئات صغيرة جداً ومحددة ضمن قطاعات سلفية متعصبة تنطلق من تكفير الآخرين من مسلمين وغيرهم وتجيز قتلهم...).
م. ن.

الأول أو الرئيسي الذي تدور عليه تلك المجتمعات، إلا أن شعاراته الحماسية تتصاعد حالما تدق أجراس خصومات أو حروب جديدة. ودعوات (**الجهاد في سبيل الله**) سرعان ما تقابلها صرخات الدعوة إلى حروب مقدسة أو صليبية جديدة. . . مع أن مفاهيم الجهاد والحروب المقدسة لم تتضح بشكل صحيح بعد ولم يشهد العالم منها إلا أشكالها القتالية المدمرة.

وتبدو مهمة تبرئة الجميع من تهمة الإرهاب مهمة عبثية تدخل في نطاق الجدل العقيم. فهناك تيارات فاعلة ومهيمنة في كل أنحاء العالم تتبنى العنف كوسيلة حاسمة وسريعة لتحقيق أهدافها. والعالم الإسلامي لا يخلو من مثل هذه التيارات ذات السطوة والنفوذ والتي تعمل على توظيف الموروث الديني واستخدام بعض الشعارات المضللة والسوابق التأريخية لبعض الحكام و(**الخلفاء**) (**المسلمين**) لتعزيز منهجها القائم على الإحتراب والقطيعة حتى مع بقية المسلمين (**من غير مذهبهم**) بل إن لذلك أولوية لديهم على القطيعة مع (الآخر) الديني.

وإذ أن هذه السطوة لا تزال سائدة وتدعمها إمكانات مالية هائلة وكتائب من الفقهاء والوعّاظ المحترفين والمتسلحين بنصوص دينية وأساليب خطابية وقدرات تمثيلية ويمتلكون صلاحيات التواصل مع الجماهير والتحدث إليهم في المساجد والمدارس والمؤسسات العامة وغيرها، فإن هيمنة التيارات المتطرفة ستظل مستمرة طالما أنها تجد المبررات الكافية لتصعيد شعارات ووتائر العنف. وطالما أن هناك طرفاً منافساً آخر يرّوج العنف أيضاً ويوجد مبرراته ويدعو للحرب بدعوى القضاء عليه وربما استخدم هو أيضاً المبررات الدينية أو شعارات حقوق الإنسان والحفاظ على الحريات وتحرير الشعوب.

— ٢ —

لقد تحدث المؤرخون المسلمون عن ثلاث حركات متطرفة ظهرت في فترات متفاوتة. ولعلّ أولى هذه الحركات هي حركة الخوارج[١] التي تبلورت في نهاية النصف الأول من القرن الأول الهجري. ثم حركة القرامطة[٢] التي اشتدت عند ضعف الخلافة العباسية. وبعد ذلك حركة الحشّاشين[٣] في نفس العهد لكن في طرف آخر من أطرف تلك الإمبراطورية.

ورغم أن تلك الحركات اشتهرت بدمويتها وميلها للعنف.. فإن دموية أغلب الأطراف المتصارعة معها وهي الجهات التي استلمت الحكم من الخلفاء والأمراء والسلاطين لم تكن أقّل منها إن لم تكن قد تفوقت عليها.

وعن هذه الجهات التي مثلّت (السلطة الشرعية) كان حديث المؤرخين

(١) سيأتي الحديث عن هذه الفرقة في الصفحات القادمة.

(٢) القَرامِطَة مذهب أسّسه شخص من بلاد الأحواز يدعى حمدان بن الأشعث الذي كان يلقب بـ «قُرْمُط». كان إسماعيلياً باطنياً، ثم بعد انتقاله الى الكوفة وتمركزه فيها دعا الناس الى مذهبه وأظهر أموراً لم تكن سائدة. وكانوا لا يظهرون عقائدهم إلا بالألغاز والكلمات الكهنوتية الغريبة، كما أنهم استخدموا العنف لفرض سيطرتهم. كثر أنصارهم بقوة وانتشروا في كثير من البلدان حتى بلغ مذهبهم البحرين والشام والمغرب العربي، وتأسست لهم دولة في البحرين وغيرها. انتهت دولتهم وتقسمت على عدد من القبائل التي ساندتها وعلى القبائل المحلية حيث كانت فارضة سيطرتها.

(٣) الحشاشون، طائفة أسسها الحسن بن الصبّاح وجماعة من الفاطميين في القرن الخامس الهجري. اتخذوا من جبال آلموت في بلاد فارس مقراً لهم وثم في الشام. قلدوا نزار بن المستنصر بالله الإمامة وسموا أيضاً بالنزارية. وكانت لهم سجالات وحروب مع السلاجقة والأيوبيين واشتهروا بالعمليات الانتحارية والإغتيالات. وكان القادة يدربوهم على تناول أفيون الحشيش ليعيشوا بهجة الجنة والحور العين وأنهار الخمر والعسل، ثم يلقي عليهم الشيخ موعظته لينطلقوا في عملياتهم بأقصى الحماس. فإن قتل أحدهم فإنه يبشر بتلقيه الملائكة ليصعد بروحه الى الجنة.

هادئاً، بل هو أقرب إلى الحميميّة والود. فقد اختزن العقل العربي والمسلم فكرة قبول تسلط (وليّ الأمر - الحاكم) حتى لو كان ظالماً ومنحرفاً كأمرٍ واقع وكحالةٍ متكررة تقبّلتها الأجيال من قبل وأصبح الخروج عليها يمّثل الخروج على المقدس السائد الذي روّج له فقهاء السلطة منذ بداية العهد الأموي والى هذا اليوم. مع أن هذه المعادلة التي يتدخل فيها هؤلاء الفقهاء كعامل مساعد للسلطة بدأت تضعف بفعل ظهور الحركات الإسلامية الحديثة التي انتبهت إلى البعد التلفيقي للأحاديث المنسوبة للنبي ﷺ حول هذا الموضوع، والتي بدأت تخوض صراعات ضد أنظمة الحكم التقليدية المتسلحة بفتاوى الفقهاء، وبفعل الحركات التنويرية الأخرى وأجواء الثقافة الحديثة التي بدأت تنتشر كالكتب والمدارس ووسائل الإعلام والإتصال التي تتطور كل يوم.

ـــ ٣ ـــ

إن الوهّابية ظهرت كحركة رديفة أو مساندة لنمط جديد ولكن متكرر أيضاً من حكم تقليدي حاول المزاوجة بين القبليّة القائمة على الغزو وعلى تراث متحجر من منظومة علاقات بدوية ضاربة في القدم وبين (الموروث) الديني الملفق غالباً والذي أريد له أن يكون مقدساً لا يحقّ لأحد الخروج عليه أو مناقشته. وهو فكر مستنسخ عن (الأموية) التي مهّدت له وأرست قواعده لتستفيد منه كل سلاسل الحكم المتعاقبة حتى تلك التي نافسته أو أعلنت العداوة عليه مثل العائلة العباسية التي حكمت أكثر من خمسمائة عام وكانت أكبر وأطول إمبراطورية في تأريخ العالم كله.

ويعرف أبسط مطّلِع على تأريخ الحركة الوهّابية والدولة السعودية - التي قامت قبل أكثر من قرنين ونصف (١٧٤٦م) في نجد ثم في شبه الجزيرة العربية - ولَعَ مؤسِّسَي هذه الدولة (الشيخ محمد بن عبد الوهّاب والشيخ

محمد بن سعود) بالغزو وإراقة الدماء والعنف غير المبرر بحق مسلمي شبه الجزيرة وغيرهم.

وتعرض الأدبيات الوهّابية بما فيها كتب التأريخ والشعر الشعبي المتوارث والقصص وأخبار (الفروسية)، عمليات الغزو المرّوعة على أنها أعمال بطولية جديرة بأبناء الصحراء الأشاوس الذين حفظوا لأجداهم تراثهم القديم ونجدتهم وبأسهم وصبرهم...، وكأن العالم رهين بحياة الصحراء المتخلفة التي لا تريد أن يتحدث أحد عن قيم أو حياة مغايرة لها.

إنها تتحدث بفخر(١) عن بسالة الرجال الذين جُندوا لإقامة تلك الدولة وكيف أنهم روّوا الصحراء بدماء أعدائهم وقتلوا أطفالهم واستحوذوا على نسائهم وأموالهم وخربوا بيوتهم وزروعهم.

ومهما تكن المبررات التي ساقوها فإن ما قاموا به لا يمكن أن يدرج تحت أيّ فعل إنساني مقبول. ولا يمكن للذرائع الدينية أن تقنع أحداً بصوابه. ومع ذلك فإنه أصبح من (**المقدس**) بعد أن تبنّته أكثر الحركات (الإسلامية) تطرفاً مثل (القاعدة) وبعد أن أصبح في خانة المسكوت عنه طالما أن هناك من يستفيد من نهجه وأنه لا يضر إلا أهله أو القريب الديني بالدرجة الأولى وهم العرب والمسلمون الذين قد لا يكونون محل عناية العالم أو رعايته.

---

(١) راجع على سبيل المثال:

- ابن غنّام، حسين: «تأريخ نجد أو روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام»، تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد. (ط ٤، دار الشروق، بيروت / القاهرة، ١٩٩٤م).
- النجدي، عثمان بن بُشْر: «عنوان المجد في تأريخ نجد». (ط ١، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، طبع في مجلدين بدون تأريخ).
- مؤلف مجهول: «لَمْعُ الشّهاب في سيرة محمد بن عبدالوهّاب»، تحقيق د. محمد مصطفى أبو حاكمة. (ط دار الثقافة، بيروت).

— ٤ —

لقد استفاد أقطاب العنف المعاصرون من السوابق القديمة باعتبار أنها سوابق إسلامية. وكأن الذي قام به هو الرسول محمد ﷺ مع أن أبطالها هم من فئة الحكام المتأخرين الذين أرادوا تقوية مراكزهم ونفوذهم بكل بطريقة مدعّين أن ما يقومون به من قتل وترويع إنما هو لوجه الله ولحفظ الدين! مع أن الأمر ليس كذلك طبعاً.

إن هذا التبرير (للأعمال المريعة) أريد له أن يكون مقبولاً وأن تكون سوابق أبطال الإنحراف والظلم السابقين سوابق إسلامية، ومن يتحدث في هذا الأمر فلرقبته السيف.

وقد إلتفت أحد الحكماء والمفكرين الإسلاميين(١) إلى ذلك وأراد منع

(١) وهو عبد الله بن المقفع المولود سنة ١٠٦هجرية. (صاحب مكانة رفيعة في الأدب العربي، وله حظ وافر من الثقافة العربية واليونانية والفارسية. وهو من أوائل من ترجم كتب أرسطو في المنطق والجدل والقياس والمقولات. المصدر: حسين، طه. «من تأريخ الأدب العربي». ج ٢، ص ٤٤٤. (ط دار العلم للملايين، بيروت).
كتب ابن المقفع «رسالة الصحابة» وأرسلها للمنصور العباسي واقترح عليه العناية بالجنود الخراسانيّين وضمان أرزاقهم ووضع قانون يحميهم من جور الولاة والحكام. كما أوصى بأهل العراق خيراً لأنهم ظلموا أيام الدولة الأموية. كما أشار عليه توحيد الأحكام حتى لا يكون تناقض أو اضطراب في القضاء. راجع: ابن المقفع، أبو محمد عبد الله: «رسالة الصحابة». ط ١، ص ٢٠٧ و٢٠٨. (ط دار البيان، بيروت، ١٩٦٠م).
و(لجرأته) هذه أمر المنصور واليه على البصرة بقتله. فدعاه هذا إلى ديوان الحكومة وأدخله مقصورة بها تنور وأخذ يقطع من جسمه أجزاء ويضع قطعه في النار وهو يراها تحترق حتى مات. المصدر: ابن كثير، اسماعيل بن عمر: «البداية والنهاية». ج ١٠، ص ٩٩. (ط دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م).
وقيل للناس إنه قتل بسبب الزندقة. ويقول د. طه حسين (المصدر السابق ص٤٤٥) (أما أنا فأرجّح جداً إن الذي قتله ليست الزندقة وإنما هذه الرسالة التي تسمى رسالة =

هذه السوابق من التكرار حتى لا يكون العنف نهجاً مبرراً ومشروعاً و(سنّة)، فقد كتب للمنصور العباسي نصاً يقول فيه:

«أمّا مَن يدّعي لزوم السُنّة.. فيجعل ما ليس سُنّة سُنّة، حتى يبلغ ذلك به إلى أن يسفك الدَّم بغير بيّنة ولا حجّة على الأمر الذي يزعُم أنّه سُنّة. وإذا سُئل عن ذلك لم يستطع أن يقول: هُريق (أريق) فيه دمٌ على عهد رسول الله ﷺ أو أئمة الهدى من بعده. وإذا قيل له: أيّ دم سُفك على هذه السُنّة التي تزعُمون؟ قال: فعل ذلك عبدُ الملك بن مروان أو أميرٌ من بعض أولئك الأمراء».

إنه يشير إلى مَن جعلوا أنفسهم قضاة ويحكمون على الناس وفق سوابق قام بها أشخاص أمثال عبد الملك بن مروان وأقطاب دولته من الحكام والولاة الذين لا يهمهم سوى تثبيت ملكهم وسلطانهم. وبهذا الصدد نشير إلى قضية قتل (**الجُعَد** بن دَرهَم) أستاذ (**الجُهَم** بن صَفوان) الذي نسبت له (**الجُهْمية**)[1]، على يد خالد بن عبد الله القسري الوالي الأموي على الكوفة سنة ١٢٤هـ بأمرٍ من هشام بن عبدالملك. وقد زُعم أنه تبنى (القدريّة)[2] وقال بخلق القرآن... ومن المعلوم أن الأمويين أنفسهم تبنّوا مذهب (القدر) وقالوا بأن الله جعلهم خلفاء بسابق علمه! فهل من المعقول أن يقتل الأمويون مَن يتبّنى أيدلوجيتهم

= الصحابة). راجع أيضاً: إمام، عبدالفتاح: «الطاغية». ص ٢٣٥. (ط سلسلة عالم المعرفة، الكويت).

(١) الجُهْمية: فرقة تنسب الى مؤسسها الجُهَمْ بن صفوان الترمذي. وهو كوفي تأثر بأفكار الجُعَد بن دَرْهم من أهالي الشام وصار له أتباع ونفي الى منطقة تِرْمِذْ بخراسان إيران. قتل سنة ١٢٨ هجرية في معارك مع الأمويين.

(٢) القدرية: فرقة تنسب الى غيلان القدري وهو من أوائل من خرج على المعتقدات الإسلامية العامة حيث رأى أن الله لا يعلم شيئاً إلا بعد وقوعه. وأن الوقائع تقع بمشيئة الإنسان وليس بمشيئة الله. ظهر أيام الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز وقتل صلباً على أبواب الشمام أيام الخليفة هشام بن عبد الملك.

ويرسّخها لدى الآخرين؟ لاشكّ أن سبب قتله يعود إلى معارضته للأمويين وأساليبهم التعسفيّة في الحكم (فالأخبار عن حياته وآرائه فقيرة في الكتب التأريخية، غير أن المعلوم عنه ثورته على الأمويين ومطالبته بالشورى والمساواة وتبنّيه قضية الموالي وكان يسعى لإسقاط الدولة الأموية)[١].

إن (محمد بن عبدالوهّاب) يستند إلى سابقة خالد بن عبدالله القسري الوالي الأموي على الكوفة وقيامه بقتل الجعد بن درهم المعارض للدولة والثائر عليها بحجة أنه جحد شيئاً من صفات الله مع إنه (أي ابن عبدالوهّاب) اعترف أنه كان من أشهر الناس بالعلم والعبادة.

ولأن ابن عبد الوهّاب جعل القتل وسيلة لنشر دينه على حد زعمه فإنه جعل إقدام خالد بن عبد الله القسري على قتل الجعد بن درهم ذريعة لبطشه وغزواته. ولنورد قصة مارواه ابن عبد الوهّاب بنفسه:

«... الجعد بن درهم، وكان من أشهر الناس بالعلم والعبادة. فلما جحد شيئاً من صفات الله - مع كونها مقالة خفيّة عند الأكثر - ضحّى به خالد ابن عبد الله القسري يوم عيد الأضحى، فقال: أيها الناس، ضحّوا تقبّل الله ضحاياكم، فإني مضحّ بالجعد بن درهم، فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً. ثم نزل فذبحه!. ولم يُعلم أنّ أحداً من العلماء أنكر ذلك عليه، بل ذكر ابن القيّم إجماعهم على استحسانه فقال:

شكر الضحية كلُّ صاحب سنّة ... لله دَرُّك من أخي قربان»[٢]

فإذا كان رجل من أشهر الناس بالعلم والعبادة، وأخذ العلم عن

(١) عطوان، حسين: «الفرق الإسلامية في بلاد الشام في العصر الأموي». ص ٣٢٥. (ط دار الجليل، بيروت، ١٩٨٦).

(٢) عبد الوهّاب، محمد: «مختصر سيرة الرسول»، تحقيق هناء ماجد جزماتي. ص ٣٤. (ط دار الكتاب العربي، بيروت).

الصحابة، أجمعوا على استحسان قتله، فأين هذا من اعتقاد أعداء الله في البدو؟

كما يورد قصة مقتل المختار الثقفي على يد مصعب بن الزبير بحجة أنه ادعى النبوة (مع إقامته لشعائر الإسلام). كما يعترف بصواب قتل إمرأته التي رفضت لعنه أو تكفيره أو البراءة منه[١].

ومن المعلوم أن المختار كان من أشد معارضي الدولتين المروانية والزبيرية وقد أظهر باعتراف ابن عبدالوهّاب شرائع الإسلام وكان هو الذي يصلي بالناس الجمعة والجماعة... إلخ. فكيف يدعي النبوة من يصلي بالناس الجمعة والجماعة ويظهر شرائع الإسلام؟

إن محمد عبد الوهّاب في محاولة منه لتنفيذ مخططه أراد إيقاع الآخرين في الفخ الذي حذّر منه عبد الله بن المقفّع. لذلك فإنه لجأ إلى تلفيق نفس التهم التي لفّقها الحكام السابقون لمعارضيهم وفي مقدمتها (الردّة) وهو مفهوم مطاط أمكن التلاعب به وتفسيره من وجوه عديدة، كما أمكن التلاعب بتفسير النصوص القرآنية وتزوير الأحاديث النبوية.

لقد أراد الشيخ الوهّابي بسط نفوذه بالقوة والغزو وأراد إيجاد مبررات (شرعية) قائمة على أفعال ارتكبت من قِبَل أشخاص في عهد (الصحابة) أو (التابعين) وأقرّها بعض هؤلاء أو سكتوا عنها ربما خوفاً أو احتجوا ولم تصل أصواتهم. وإلّا فهل ما قام به مصعب بن الزبير أو خالد بن عبد الله القَسَري أو عبدالملك بن مروان يعّد ملزماً للآخرين أو يبريء ذمتهم إذا ما قاموا بأعمال مماثلة؟ وهل أنّ التأريخ سجّل لنا إعتراضات المعترضين من الصحابة والتابعين؟

---

(١) م. ن. ص٣٣.

ويبدو تلذذ ابن عبد الوهّاب وشهيته للدم واضحة عندما يذكر عمليات القتل التي قام بها مصعب أو خالد وغيرهما ويبدو أنها تثير لديه مزيداً من الشهية لدماء من يسمّيهم بالبدو، مع إنه نفسه هو نتاج ثقافة هؤلاء البدو التي تميل للغزو والقتل، ولنستمع إليه في معرض التعليق على قتل زوجة المختار التي رفضت تكفير زوجها أو لعنه. . «. . وإذا كان الصحابة قتلوا المرأة التي من بنات الصحابة لمّا امتعنت من تكفيره، فكيف بمن لم يكفّر البدو مع إقراره بحالهم، فكيف بمن زعم أنهم من أهل الإسلام، ومن دعاهم إلى الإسلام وهو الكافر؟ ياربنا نسألك العفو والعافية»(١).

ولاندري هل كان مصعب بن الزبير أو خالد القسري أو عبدالملك من الصحابة؟ وهل أن ما فعلوه من القتل لتعزيز سلطتهم وكيانهم سنّة إسلامية نبوية ينبغي الأخذ بها إلى ما لانهاية؟

لقد أراد ابن عبد الوهّاب استدراج الآخرين لاعتماد القتل وسيلة أساسية للردع والتبشير بعقائده التي تتماهى إلى حد كبير مع العقيدة القدرية التي سعى الأمويون إلى نشرها بغية تخدير الناس والتستر على انتهاكاتهم وخروجهم الواضح عن الإسلام. ولم يكتف بتوظيف النصوص القرآنية وتأويلها وكذلك الأحاديث النبوية التي لفق أغلبها وفق مصالح الكيانات الحاكمة وإنما لجأ إلى السوابق التأريخية لتلك الكيانات لاستخدامها لنفسالغرض.

فهل إنه لم يعرف حجم الإنتهاكات الأموية حتى يذهب إلى الترويج لهم ولمنهجهم في الحكم والحياة ويضفي عليه طابع القداسة والسابقة أو البدعة الإسلامية الخلّاقة؟!

○ ○ ○

(١) م. ن. ص ٣٤.

إنّ أتباع الشيخ الوهّابي أعادوا له هيبته ومكانته وبعثوا فكره من جديد بفضل النفوذ الذي حققته أموال البترول. ولكرمهم المفرط مع من يستجيبون لهم فإنهم وجدوا من يروّج لهذا الفكر ويتلقف أطروحات الشيخ وتمويهاته المضللة ويتغنى بها وينشرها.

وإذ أن للشيخ مبرراته الخاصة التي يبحث عنها في بطون التأريخ وفي ممارسات حكام التعسف اعتباراً من أن مشروعه في بث الدعوة قائم على الغزو والقتل، فلا ندري ما الذي يدعو (**علّامة**) متنوّراً للتلذذ بذكر (**تضحية - ذبح**) الجعد بن درهم بضمير مطمئن، سوى لبداهات الذبح الذي تحوّل إلى مأثرة إسلامية. فقد سبق لـ (**العلّامة**) محمد أحمد شاكر أن حدثنا بتلذذ وبهجةعن قتل خالد القسري للجعد بن درهم وهو شيخ الجهم بن صفوان الذي قتل بدوره. إذ يعبّر (العلّامة) شاكر عن بهجته (**الإلتذاذية**) بقتل الجعد بعبارة «ضحى به خالد القسري في أول أيام عيد الأضحى». علماً بأنّ (العلامة) من هو شديد التبحر في العلوم(١).

ـــ ٥ ـــ

ولو أننا نظرنا إلى الدين الإسلامي كما تنظر إليه الوهّابية التي أصبحت مرجعية لأغلب حركات التطرف (الإسلامية) مثل (القاعدة) و(طالبان) و(الجهاد) و(التكفير والهجرة) وغيرها، لبدا لنا هذا الدين صاعقة من السماء تتنزل بالغضب على رؤوس الناس ولما بدت فيه أقل مسحة من الرحمة والخير

---

(١) عيد، عبدالفتاح: «سدنة هياكل الوهم، يوسف القرضاوي». ص ٢٣. (ط ١، دار الطلبة، بيروت، ٢٠٠٥م). لكن يغيب عن بال الدكتور عبد الفتاح عيد أن (العلامة) محمد أحمد شاكر يردد هنا كلمات الشيخ محمد عبدالوهّاب كما أشرنا إليه، وإن ثقافة الشيخ الوهّابي تقمصت العلامة الذي أولع بالتوحيد الصحيح الذي تروج له المؤسسات الدينية الوهّابية بدأب لا يعرف الكلل.

والمحبة. فهل هو كذلك حقاً؟ أو أن شيطاناً مجنوناً استحوذ على عقلية مريضة استطاعت نشر أفكارها الشريرة بفعل ضربة حظ (موفقة) فجرت البترول في أرض النشوء، واعتمدتها دولة أقامت شرعيتها عليها ونشرتها في أرجاء العالم الإسلامي، فكانت كارثة (الوهّابية) التي ألقت بظلالها السوداء وأنتجت كل هذا العنف غير المبرر الذي يُعاني منه العالم؟

وعلى هذا فإن المسلمين - قبل غيرهم - لن يكونوا سُعداء أبداً إذا ما تغلب الخط الوهّابي (السلفي) وتربع زعماء حركات العنف أمثال (بن لادن) و(الظواهري) و(القرضاوي) على سدة الحكم. فلا شكّ أنهم سيحيلون حياة الناس إلى جحيم وسينشرون ظلام العصور المتخلفة وينهون الحياة من على هذه الأرض. وهذا ليس استطراداً عاطفياً أو خطابياً لأن هؤلاء لايملكون مشروعاً حياتياً متكاملاً بل يدورون في فلك تصورات وهمية يحسبون فيها أن العالم سيزدهر كما (ازدهر) في ظل الأمويين والعباسيين الذين جعلوا أرض (الفتوحات) حدائق خلفية لقصورهم وجعلوا الناس عبيداً لهم. مع أنهم كانوا يتظاهرون بمظهر الحريص على الدين وتطبيق (أحكام الشريعة). ومافعلوه حقاً هو أنهم سعوا إلى حرف الدين الإسلامي وعرض نسخ مزورة منه يبدلونها حسب دواعي العرض والطلب ووفق ما تقتضيه مصالحهم وامتيازاتهم.

— ٦ —

يعتقد الكثيرون أن الإرهاب وسيلة فعّالة وسريعة لردع (العدو)، بل وحتى الصديق أحياناً الذي قد ينقلب إلى عدو محتمل، لمنعه من تحقيق أية غلبة أو نصر ولو على صعيد المعارك الكلامية والسجال الحواري أو النقدي. فالإرهابي لا يوجّه ضربته إلى آراء خصمه، بل إلى جمجمته(١)... كما

(١) على حد تعبير تروتسكي برونشتاين في وصف ستالين.

يعتقدون إن شدة الصعقة الناتجة عن أيّ عمل إرهابي كبير كفيلة بتحقيق الأهداف المتوخاة بشكل لا تتيحه آليات الصراعات التقليدية.

ولعل صاحب المثل العربي القديم (رَهَبوت خير من رَحَموت)(١)، أيّ لئن تُرهب خيرٌ من أن ترحَمْ، قد سبق الشاعر الذي وصف غير المستبد بالعاجز بقوله: (إنما العاجز من لا يستبد)، فتأريخ البشرية تأريخ إستبداد وعنف وطغيان. وقد اقترن ذلك كله بالإرهاب متجاوزاً حدود المكان والزمان والجنسية.

إنهما قد سبقا السياسي الإيطالي المشهور مكيافيلي(٢) (١٤٦٩-١٥٢٧ م) بقوله (**إنّ من الأفضل أن يخافك الناس على أن يحبوك**)(٣).

ولأنّ الإرهابي قد لا يرى نفسه إرهابياً لأنّه يظن نفسه على حق ويرى خصمه معتدياً ظالماً، فما يلجأ إليه من وسائل عنيفة يجد أنها من وسائل الردع

---

(١) الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر: «مختار الصحاح». باب (ر هـ ب)، ص٢٥٩. (ط دار الكتاب العربي، بيروت). رَهِبَ: خاف. رجلٌ رَهَبوت أي (مرهوب) و(أرهَبَه) و(استرهَبَه) أخافه.

(٢) ولد في (فلورنسه) وكتب عدة كتب في السياسة والتأريخ أشهرها كتاب «الأمير» الذي طبع بعد وفاته عشرات الطبعات، عرض فيه بعض آرائه السياسية، وغدا مرجعاً لكل المتعاطين بالسياسة. وقد اختلفت الآراء بشأن الكاتب والكتاب.

(٣) مكيافيلي، نيقولا: «الأمير». ص ١٤٢ - ١٤٦. (ط ٢٢، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٩٩م). وجاء في النص: «على الأمير أن لا يكترث بوصمه بتهمة القسوة. .! وهنا يقوم السؤال عما إذا كان من الأفضل أن تكون محبوباً أكثر من أن تكون مهاباً أو أن يخافك الناس أكثر من أن يحبوك. . ولكن لما كان من العسير أن تجمع بين الأمرين فإن من الأفضل أن يخافوك على أن يحبوك. . لا يتردد الناس في الإساءة إلى ذلك الذي يجعل نفسه محبوباً بقدر ترددهم في الإساءة إلى من يخافونه. . على الأمير أن يفرض الخوف منه بطريقة يتجنب بواسطتها الكراهية إذا لم يضمن الحب. إذ أن الخوف وعدم وجود الكراهية قد يسيران معاً جنباً إلى جنب. . الناس يحبون تبعاً لأهوائهم وإرادتهم الخاصة ولكنهم يخافون وفقاً لأهواء الأمير وإرادته».

المطلوبة التي (يجبره) عليها الخصم نفسه. فهو في حالة حرب دائمية لن يتخلى عنها كما لن يتخلى عن سلاحه طالما كان خصمه مسلحاً، وإن كان سلاحه فكرة أو أعتقاداً أو حتى نية للإعتراض أو النقد.

لقد كان الإرهاب سلاح الطغاة واللصوص وعصابات الجريمة المنظمة والحكام الطموحين المستبدين والمتعصّبين الدينييّن ومدّعي الإصلاح والمغامرين وأجهزة القمع الرديفة والمؤيدة للإستبداد ودعاة الهيمنة والغلبة ونظائرهم ممن لايمكن إحصاء تسمياتهم أو الكشف عن نواياهم التي لا يمكن أن تكون خيّرة بأي حال من الأحوال. لذلك فإن الإرهاب سيظل مزدهراً وذا شوكة طاغية وستظل الشعوب تعاني من تداعياته وسطوته. فما من ضمانة لوقوفه ولن تستطيع جهود فردية أو محددة تحقيق ذلك. أما المواقف الإنفعالية وردود الفعل المتسرعة أو غير المدروسة فمن شأنها أن تؤزم الأوضاع وتزيدها سوءاً طالما أنها لا تحقق حلولاً جذرية أو كاملة.

وعودة إلى معاجمنا اللغوية القديمة ترينا أن هذه الكلمة قد استعملت على نحو محدود. فقد ذكر الزبيدي[1] أن (الإرهاب بالكسر يعني الإزعاج والإخافة) هو تعريف لا يدل على المعنى الحقيقي للإرهاب دلالة تامة.

ولم يتخط ابن منظور في معجمه حدود هذا التعريف المقتضب والناقص وتحدث فيه ذاكراً أنه مشتق من (رَهِبَ بالكسر، يَرهَبُ رهبةً ورُهبا بالضم، ورَهَباً بالتحريك، أيّ خاف. ورَهَب الشيء رهباً ورَهَبةً: خافة. والإسم: الرُّهّب والرُّهبى، والرَّهَبوت والرَّهَبوتي)[2].

---

(١) الزبيدي، المرتضى: «تاج العروس من جواهر القاموس». ج ١، ص ٢٨١.
(٢) ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي بن أبي الفضل جمال الدين: «لسان العرب». ج ٥، ص ٣٣٧.

وذكر الزمخشري مثلاً يتضمن هذه الكلمة: (**يقشعر الإهاب إذا وقع منه الإرهاب**)(١).

وقد أصبح مصطلح الإرهاب يعني الآن اللجوء غير القانوني وغير المنضبط لأقصى وتائر العنف من قبل الحكومات أو المنظمات أو الأفراد لتحقيق أهداف معينة وإشاعة الرعب والفوضى.

لقد وردت اللفظة في القرآن الكريم لتدل على معنىً معيّن يختص بوقائع خاصة، وبذلك جاء قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾(٢) أي أرهبوهم. أما اصطلاح إرهاب العدو بمعنى إخافته فقد وردت مرة واحدة. فقد جاء في الذكر الحكيم: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾(٣). وقد استخدم في بعض السور للدلالة على مخافة الله(٤).

لذلك فلا يمكن ممارسة (**الإرهاب**) أو (**الترهيب**) تأسيساً على نص قرآني وتمرير أجندات وأغراض سياسية باستخدام النص الذي ورد ليدل على معنى يختص بوقائع معينة.

إننا نقع أمام إشكاليات قد تعمق القطيعة والخلاف بين المسلمين والغرب بخصوص هذا المفهوم. فاننا نجد في الغرب من يصرّ على تحميل الإسلام والنصوص الدينية الإسلامية (والقرآنية على وجه الخصوص) مسؤولية ترسيخ

---

(١) الزمخشري، محمود بن عمر الخوارزمي: «ط أساس البلاغة». ص ١٧٩ - ١٨١.
(٢) القرآن الكريم: سورة الأعراف، آية ١١٦.
(٣) القرآن الكريم: سورة الأنفال، آية ٦٠.
(٤) لاحظ قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]. ويراجع أيضاً سورة البقرة آية ٤٠، وسورة النحل آية ٥١، وسورة الأنفال آية ٦٠، وسورة القصص آية ٣٢، وسورة الحشر آية ٣١، وسورة الأنبياء آية ٩٠.

النهج الإرهابي لدى المسلمين وذلك من خلال قراءة ناقصة وغير دقيقة لها. متجاهلين التقاطع الواضح بين حقيقة الدين وبين ممارسته الواقعية من قبل المسلمين. إنهم يحمّلون الإسلام مسؤولية تصرف بعض أتباعه، مع أنّ أغلب هؤلاء الاتباع (وهو ما تثبته الوقائع التأريخية) وقعوا في صراعات سياسية ومذهبية وعقائدية أججتها طموحات شخصية لقادة وزعماء وحكام انطلقوا لتحقيق تلك الطموحات بكافة السبل. وكانت ورقة الدين تبدو بنظرهم راجحة ومضمونة الربح، لذلك لم يترددوا باستعمالها واستغلالها.

وإذ أنها لا تزال كذلك فإننا نجد من يلجأ إليها، لنجد في المقابل من يشهِّر بالإسلام على أساس ذلك. إن دفع المسلمين تهمة الإرهاب عن دينهم ترافقها محاولة إقناع الآخرين بأنهم عموماً لا شأن لهم بالإرهاب أيضاً طالما أن دينهم لا يحض عليه بل يمنعه، وأنهم أول الضحايا لإرهاب المستبدين والحركات المتشددة التي ظهرت على مر التأريخ.

وعلى ذلك فلا يمكن نفي التهمة عن أغلب السلطات الحكومية في العالم الإسلامي وعن بعض المنظات (المتأسلمة) التي أعلنت القطيعة والبراءة والحرب على مجتمعاتها والعالم. ولا يمكن تبرئتها من الإرهاب الذي برّرته وجعلته جزءاً أساسياً من أيديولوجيتها وثقافتها. ولا يمكن مسح تأريخها الحافل بجرائم العنف والإبادة والوحشية المفرطة والحروب غير المبرّرة، حتى ليمكن القول أنّ تأريخنا هو تأريخ العذاب وهدر كرامة الإنسان على أيدي هؤلاء.

إن دفع تهمة الإرهاب عن الإسلام - وهو بريء منها فعلاً إذ هو دين للتسامح والعدالة والتواصل مع الآخر مهما كان لونه أو جنسه[1] - لا يعني

(١) مما جاء في القرآن الكريم في ذلك: =

أننا سننجح بدفع التهمة عن جميع المسلمين على إمتداد تأريخهم. ولا يعني أن (الآخر) في الغرب سينجح أيضاً في دفع التهم المقابلة عن نفسه طالما أن العديد من أتباع كل الديانات لجأوا إلى الإرهاب والعنف في كل مراحل التأريخ أيضاً ومتجاوزين شرعية كل الأديان التي لا تجيز ذلك. غير أن الجنسية الدينية لكل فئة، ورفع شعارات الدين حتى مع غياب التدين تجعل مسألة الصراع تبدو وكأنها قائمة فعلاً بين الأديان أو الحضارات. مع أن الأمر ليس كذلك. فما يحرك الصراع هو دوافع الهيمنة والسيطرة على المقدرات والثروات.

ولا يمكن إغفال إشكالية قراءة الغرب للإسلام والنصوص الدينية. فأمام تصاعد هجمات المتشددين **(الإسلاميين)** وإعلانهم الحرب أو ما يسمّونه الجهاد على **(الغرب الصليبي)** وأعوانه من المشركين أو المرتدين المسلمين مستخدمين في ذلك الموروث الديني المقدس للمسلمين القرآن الكريم وتأويله حسب حاجتهم ومتطلباتهم وكذلك الحديث النبوي القابل للوضع والتزوير حيث وضعت مقابل الأحاديث النبوية الصحيحة أحاديث مزورة ومفتعلة لتبرير العديد من الممارسات العنفيّة والإستبدادية، أمام كل ذلك تصاعدت دعوات

= ■ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]

■ ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

■ ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

■ ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢].

من الغرب لحذف بعض النصوص القرآنية(١) وهي ليست دعوات بريئة وغير مقصودة. وكأن هذا الأمر بيد المسلمين أنفسهم يستطيعون فعله في أيّ وقت.

إنّ مثل هذا الطلب المستحيل سيزيد من توتير الأجواء وسيمهد لمزيد من العداوة والحروب وعمليات العنف المنفلتة. فإذا ما أردت أن تطاع وأن يتسجيب لك الآخرون فأمر بما يستطاع لابما لا يمكن تحقيقه إلّا من قبل الله نفسه. إن هذه الإشكالية تتمثل بالطلب بمسح دين كامل واستبداله بدين آخر. وهذا ما ينبغي الإلتفات إليه بدقة ومعقولية.

إن ما يمكن تحقيقه هو الدعوة لقراءة النصوص الدينية (القرآنية والحديثية) قراءة صحيحة متصلة بأسبابها وظروفها التأريخية وحث المؤسسات التربوية والدينية لتعزيز المناهج التي تقرر النهج التسامحي للإسلام حيال كل أهل الأديان الأخرى ونشر الثقافة التي تدعو لذلك بين أتباع المذاهب المختلفة لنفس الدين طالما أن لكل مذهب قراءاته وإجتهاداته. فالمتضرر الأول من ثقافة الكراهية والقطيعة وادّعاء الحقيقة لن يكون سوى المسلمين أنفسهم.

ومن الغريب أنّ من يروجون الحديث المنسوب للنبي محمد ﷺ والقائل بأن المسلمين سيضعفون في آخر الزمان أو في المراحل المتأخرة وستتداعى

---

(١) كتناقلهم المقطع ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٥ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝٧﴾ [التوبة: ٥-٧]. بينما يهملون باقي النص الذي يشير من جهة الى سلمية الدين وضرورة توفير الأمن لغير المسلم أيضاً، فضلاً عن أن مورد نزول الحكم في خصوص قوم نكثوا معاهدة السلام وأعلنوا الحرب على المسلمين.

عليهم الأمم غير الإسلامية أيّ تتحد وتفرض عليهم هيمنتها بسبب تفرقهم لا بسبب قلة عددهم، هم أنفسهم من يؤججون الصراع بين المسلمين وبين بقية هذه الأمم القوية التي تتحالف ضدهم ربما بسبب نهجهم أيّ المتشدّدين الذين يرفعون شعارات الإسلام ويدّعون حرصهم على بسط تطبيقه حتى في أرض (الكفار) أي أبناء الديانات الأخرى بالقوة. فإذا ما أقرّوا حقيقة ذلك واعترفوا بأنهم ضعفاء فلماذا يثيرون عوامل الصراع والحروب مع الأقوى؟

— ٧ —

لم يرد استعمال كلمة (إرهاب) في الأدبيات الإسلامية وعلى الخصوص القرآن الكريم إلا بشكل محدود تؤشر أغلب معانيه إلى المخافة من الله كليّ القدر كما هو اعتقاد المؤمنين به والذي هو وحده أجدر أن يخاف ويرهب دون غيره من مخلوقاته[١].

---

(١) كقوله تعالى:

- ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤].
- ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].
- ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١].
- ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

هذه إشارات صريحة من الله تعالى أن من هو جدير بالرهبة والرغبة أيضاً هو نفسه جلّ وعلا. وجدير بالجميع أن يرهبوه هو كـ (رب) وإله قاهر لا أن يرهبوا غيره.

وفي آيات أخرى تأتي كلمة الرهبة بمعنى الخشية أو الخوف في سياقات عادية تتحدث عن مواقف أو قصص. مثلاً:

- ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]. أي أصبحوا يخشون ويخافون.
- ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢]. والرهب أي الخوف. والكلام موجّه =

....

= من الله لموسى عليه السلام. والمراد به أن يجمع يديه على صدره إذا عرضه الخوف عند مشاهدة انقلاب العصا حيّة ليذهب ما في قلبه من الخوف ليجدّ في أمر الرسالة ولا يعيقه الخوف عن ذلك.

■ ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾ [الحشر: ١٣]. والرهبة هنا بمعنى الخشية. وضمائر الجمع للمنافقين والآية في مقام التعليل.

■ ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤]. الرهبان جمع راهب. والرهبة والرهب هو المخافة مع تحرز. والترهيب التعبد. والرهبانية غلو في تحمل التعبد من فرط الرهبة. وهذا إيضاح بأوضح المصاديق وأهمها في إفساد المجتمع الإنساني الصالح وإبطال غرض الدين. فالجرائم المالية والتعدي المالي تتعلق بإفساد المجتمع الإنساني ولا مفسد مثلها. وإلى الأحبار والرهبان تقود تربية الأمة وإصلاح المجتمع إن كانوا مخلصين في ذلك ولم يستغلوا نفوذهم ومراكزهم.

■ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢]. أي أن فيهم علماء لايزالون يذكرونهم مقام الحق ومعارف الدين ويذكرونهم عظمة ربهم وأهمية سعادتهم الأخروية والدنيوية عملاً. وفيهم عدم الإستكبار عن قبول الحق.

■ ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]. وهو الإصغاء لهم وإطاعتهم من غير قيد أو شرط. ولايطاع كذلك إلا الله سبحانه.

■ ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ [الحديد: ٢٧]. وهنا إشارة إلى الإبتداع أي إلى إتيان مالم يسبق إليه في دين أو سنّة أو صنعة، وقد ابتدعوها من عند أنفسهم ابتغاء رضوان الله.

■ ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وهذه هي المرة الوحيدة التي تستعمل هذه الكلمة بمعنى إخافة العدو وإرهابه. فالإعداد هو التهيئة للظفر والقوة وكل ما تقتضيه الحرب والدفاع من أنواع الأسلحة. والرباط مبالغة في الربط. والإرهاب قريب المعنى من التخويف. وقد جاءت هنا في مقام التعليل، أي وأعدوا لهم ذلك لترهبوا وتخوفوا به عدو الله وعدوكم. والإرهاب بإعداد القوة، وإن كان في نفسه من الأغراض الصحيحة التي تتفرع عنها فوائد عظيمة، غير أنه ليس تمام الغرض المقصود من إعداد القوة. والغرض الحقيقي هو التمكن من الدفع مبلغ الإستطاعة وحفظ المجتمع من العدو. وهو لغرض الدفاع عن حقوق المجتمع ومنافعه =

وإذا ما توصلنا إلى حقيقة أن إصطلاح إرهاب لم يستعمل الّا مرة واحدة في القرآن بمعنى إخافة العدو، فلا يعني أننا ننفي خلو تأريخ المسلمين من العنف والإرهاب الذي استعمل ضدهم بالدرجة الأولى، وبالمقابل لا ينفي ذلك خلو تأريخ العالم منذ أن دوّن هذا التأريخ من العنف والإرهاب أيضاً.

فالإرهاب عمل بشري تمت ممارسته منذ بدء الخليقة، إقتضته الحياة غير المنضبطة في غياب القوانين العادلة التي تمثل مصالح الناس لا الفئات التي أرادت أن تسيطر على مقدراتهم وعلى حياتهم. (فالمتمعن في الخلفية التأريخية للعمل الإرهابي) يخلص إلى البديهية التالية وهي: أن العديد من أتباع الديانات السماوية الثلاث كانوا قد اقترفوا أعمال العنف - إرهاب - لا تستمد شرعيتها من نص ديني أو من إجماع شعوبهم. تأسيساً على ذلك فإن الخوض في هذه الجزئية من زاوية المقارنة يجعل المرء يستبعد مبدأ الخصوصية والتي تحرص جميع الأطراف المتنازعة على إلصاقه بالآخر إنطلاقاً من المقولة الفلسفية الشهيرة لجان بول سارتر من أنّ «الآخر يمثل الجحيم»(١).

ويبدو أن مفهوم الإرهاب في الخضم الهائل للتعريفات والشروح والبيانات الشخصية والدولية مفهوماً أدبياً مطاطاً، بإمكان الشعراء والأدباء

= والتظاهر بالقوة يتيح إرهاب العدو لأنه ينتج السلم في نهاية المطاف ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]. والسلم هو الحالة المطلوبة.

ويبدو أن هذا هو الأمر المطلوب والواقعي إذ نرى الدول الكبرى تلجأ إلى امتلاك أشد أسلحة الدمار الشامل فتكاً كالأسلحة النووية والكيمياوية والبايولوجية للتهديد والتخويف بها، غير أنها لا تلجأ بالضرورة إلى استعمالها. أما أسلحة المسلمين فهي تشبه السيوف والعصي التي واجه بها المصريون قوات نابليون بونابرت عندما غزا مصر نسبة إلى الأسلحة المتطورة الأخرى التي تنتجها تلك الدول الكبرى الآن.

(١) أبو صَوّة، محمود أحمد: «صناعة الإرهاب، قراءة في استراتيجية الهيمنة». ص ٢٢. (ط١، إشراقات للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٥). ترجمة عبارة: (l'autre c'est l'enfer).

والكتاب وكل من له خيال فني أو قدرة لغوية على الخوض فيه وطرح معنى جديد له.

وإذ أنّ العالم أصبح مفتوحاً وأتيحت لنا عبر وسائل الإعلام والإتصالات المتنوعة مشاهدة أغلب ما يجري من أعمال إرهابية وأعمال عنف في العالم فإن الجميع أصبحوا مسكونين بهاجس التخلص منها. وطبيعي أن تكون الدول هي التي تمسك زمام القيادة المناهضة للإرهاب. وهنا نتساءل:

هل أنها تلجأ إلى ذلك بوسائل سلمية أو بوسائل عنف مقابلة ربما تكون تداعياتها أخطر وأشدّ؟ وهل أن دوافع هذه الدول لمناهضة الإرهاب واحدة، أم أن بعضها يستفيد من ذلك لغرض فرض هيمنتهاونفوذها ومصالحها؟

وهل أن جميع قيادات العالم مجموعة من الملآئكة لا تنشد إلا المصلحة والمباديء الإنسانية العليا؟ ألا تتفوق بعضها على أشد المنظمات الإرهابية دموية وفتكاً؟

إن هذا أمر يستدعي دراسة حال كل دولة على حدة ما يستدعي تشكيل فِرَق كاملة من خبراء ومتخصصين إذا ما أردنا أن نظل ضمن سياق تعريف (المفهوم). وسنجد حشداً من التعريفات الدولية والعالمية ولدى الهيئات واللجان والمنظمات الفاعلة تشير كلها إلى أن تعريف الإرهاب أصبح يفصّل على المقاييس التي تناسب مصالح كل دولة أومنظمة أو منظومة دولية. فما هو إرهاب بنظر البعض قد لا يبدو كذلك بنظر البعض الآخر. وقد يراد تفصيله لترمى تهمته على الخصم.

إن المتهم الرئيسي بالإرهاب عادة هم أشخاص أو منظمات أو أحزاب دينية أو غير دينية. وقد تتهم دول محدودةالعدد جداً بالإرهاب لأسباب سياسية أو نزاعات معينة.

ولا تعني الحقيقة القائلة ان الدين بكل اشكاله لا يدعو للإرهاب، أن هناك من لا يسعى لتوظيفه واستخدامه لتصعيد وتائر الشحن والقطيعة والعداوة وتفسير نصوصه تفسيراً تعسفياً لهذا الغرض. بل إن أول ما يعمد إليه أصحاب الأجندات الخاصة هو اللجوء إلى النصوص الدينية (المقدسة) لأي دين وجعلها مظلة لشرعنة نشاطاتهم وتجييش الرأي العام في بلدانهم ليقف إلى جانبهم. وربما أصبحت لغة (المصلحة القومية) في بعض البلدان بديلاً عن المقدس الديني، إذ أصبحت هي المقدس الواقعي الذي ينبغي الدفاع عنه ضد من يريد النيل منه.

إن تسخير (المقدس) الديني والقومي لكل طرف يستدعي في أحيان كثيرة الحطّ من شأن المقدس الآخر واتهامه بالتحريض على الإرهاب لكسر شوكته وجعله عدواً قائماً مخيفاً أو خطراً ماثلاً ينبغي الإستعداد له والوقوف بوجهه. فعملية استنفار الرأي العام ودفعه للوقوف لدعم المخططين والفاعلين الحكوميين يستدعي ذلك ويقتضيه.

كما أن النسق الذي يراد اعتماده عند الكتابة عن الإرهاب قد لايؤدي إلى الوصول إلى نتيجة حاسمه لتعريفه ومن ثم الوصول إلى آليات محدده لإيقافه ومنعه. فهذه الآليات لا يمكن أن يؤسس لها وتنفذ من قبل جهات عليا، حكومية أو غيرها، ما لم تحوز على قناعة المواطنين العاديين الذين لهم أولوياتهم الحياتية الضرورية التي تتعلق بأمنهم المعيشي العام الذي يضمن لهم الحصول على الغذاء والتعليم والحد الضروري من الخدمات الأساسية وهذا أمر لا يتعلق بمجرد منع الإرهاب بإرادة خاصة عليا وإنما من خلال برامج تنموية وإصلاحية عامة تفتقر إليها النظم السياسية العربية وعموم النظم السياسية في العالم الثالث وغيره.

— ٨ —

ولا شكّ إن الإهتمام بظاهرة الإرهاب ودراستها في دول هذا العالم الثالث لم يأخذ منحى جدياً، بل اقتصر في كل بلد على تجنّب وقوع عمليات إرهابية فيه من قبل المعارضين باللجوء إلى الوسائل البوليسية ووسائل القمع المتّسمة بالشدة والعمليات (**الإستباقية**) التي تحاسب على النوايا أو الظواهر والتي تترصد حركات المواطنين وتحصي أنفاسهم، وهي عمليات تعسفية تزيد من الشعور بالظلم لدى هؤلاء وتدعم مشاعرهم المعادية لأنظمة الحكم في بلدانهم.

فلم نجد في أيّ بلد عربي أو إسلامي مؤسسة بحثية ولو ذات إمكانات متواضعة ترقى حتى إلى إمكانات مؤسسة بحثية خاصة في الغرب، تزود صاحب القرار والسلطة بالصورة الحقيقة لما يجري في البلد والعالم. وإذا ما أضفنا إلى ذلك عدم وجود مؤسسات مماثلة تعنى بجوانب الحياة الأخرى، السياسية أو الاقتصادية أو الإجتماعية أدركنا الفارق الكبير في أنماط وأشكال وممارسات الدول... فكأن دول العالم الثالث تعيش عالم القرن السابع عشر... إذ أن إرادة واحدة لحاكم أو زعيم هي التي تتحكم في كل شيء وتفكر نيابة عن الجميع... ولا يزال هذا العالم بعيداً عن العقلية المؤسساتية وعن التخطيط والبحث والإعداد للمستقبل... ولا يزال يعيش حالة الجمود في عوالم متغيرة ومتطورة.

ويمكن القول أنّ إهتماماً ما وإن كان بسيطاً بدأ يشغل بعض هذه الدول إثر أحداث نيويورك الدامية في ٩/١١ عندما بدأت أصابع الإتهام توجه إليها إما باعتبارها راعية أو حاضنة للإرهاب أو مستهدفة من قبل المجاميع الإرهابية التي لا تزال تتحرك بتأثير مذهبي تعصبي يفتعل أسباباً غير واقعية لأعماله

ونشاطاته ويطال القريب المذهبي (**المشرك**) أكثر مما يطال البعيد الديني (**الكافر**)...

وغالباً ما ينظر الدارسون أو الباحثون العرب في شؤون حركات التطرف المتأسلمة باستهانة وعدم اهتمام إلى جذور التطرف وأسبابها لدى هذه الحركات التي بدأت تنشط في أعقاب فشل وإخفاق الحركات القومية أو الشيوعية الأممية وكذلك الأنظمة الشمولية والدكتاتورية في المنطقة الإسلامية وتعتقد إنها البديل الصحيح لهذه الحركات والأنظمة وإن لديها الحلول لكل مشكلات العالم وفق رؤيتها ومنظورها. لذلك فهي تعتقد أنها الجهة (الشرعية) والبديل الوحيد لكل ذلك ولديها حل لجميع مشكلاته... رغم أن ثقافة مؤسسيها الأصليين ومنظّريها لا تتيح لهم إمكانية استخلاص نظرية متكاملة للحكم والحياة مستخلصة من الإسلام...

ولو أخذنا (الوهّابية) مثالاً على ذلك وهي تعتمد الآن مرجعية كبرى للحركات الإسلامية المتطرفة لوجدنا أن مؤسسها فقيهٌ من الصفوف الخلفية إعتمد على قراءته الإبتدائية للقرآن والنصوص الدينية ولم يعتمد منهج أيّ مدرسة فقهية معروفة... ومع ذلك فإنه بفعل ظروف مؤاتية استطاع نشر ثقافته هذه في أوساط متلقّين لايملكون أية حصيلة معرفية من بدو شبه الجزيرة العربية أولاً، ثم في أوساط أخرى تتماهى معهم في جغرافية الإنتماء والبعد عن مراكز الثقافة والتحضر الديني. ولأنها انتشرت بفعل أموال المؤسسة السعودية الحاكمة وتبنتها مؤسسة دينية أصبحت تمتلك إمكانات مادية هائلة ووظفت عشرات المتخصصين في الدراسات الدينية من مختلف الاقطار العربية، أصبحت الآن تستهوي أعداداً كبيرة لا في الحاضنة الأم وإنما في أماكن متعددة من العالم الإسلامي، وغير الإسلامي أيضاً.

إن متابعتنا للوهابية ستتيح لنا اكتشاف فقرها الثقافي وقصور نظرتها

الأيديولوجية القائمة على مفردات لا تلامس الحياة وتطوراتها وديناميتها التي تتجه للأفضل. وقد عززت شرعيتها - بفعل الدولة السعودية الراعية التي عزّزت شرعيتها بالمقابل - بالغطاء الديني الذي منحته هذه الحركة الرديفة لها.

لقد بدأ حراكها في أجواء التخلف التي أفرزت ممارسات لايقرها الإسلام. وقد استغلت ذلك لا لتوعية المسلمين بما ينبغي عليهم القيام به وإنما لإلصاق تهم **(الشرك)** و**(الردة)** بهم لتمرير مخططها في الغزو والتوسع وجعله مبرراً ومقبولاً.

فأي مشروع إصلاحي تحمله **(الوهّابية)** التي اعتُمدت أساساً للحكم في شبه الجزيرة العربية منذ أكثر من قرنين ونصف (١٧٤٦م) في وقت أن بيئة نشوئها من أكثر البيئات الإسلامية تخلفاً وأكثرها حاجة لبرامج إصلاحية جادة في مجال الحكم والسياسة والإقتصاد والإجتماع؟

وفي غياب المشروع وجلجلة الإدّعاء بالإصلاح يتضح لنا فقر هذه الحركة التي لاتزال على الصعيد الواقعي تجتذب المتطرفين وتجندهم وتمدهم بزخم معنوي للقيام بأشد الأعمال فتكاً وتدميراً.

إن هذا ما سوف نتحدث عنه في غضون هذا الكتاب غير أننا نشير إلى أن الحركات المشابهة الأخرى لا تملك مشروعاً تغييرياً قائماً على مرتكزات إسلامية أصيلة منفتحة على الآخر المذهبي والآخر الديني ومد الجسور والتواصل والإفادة من خبرة المجتمعات البشرية.

ورغم وجود دراسات جادة لبعض الباحثين العرب في هذا المضمار، وهي دراسات نادرة تحاول تحاشي نفوذ الدول التي يعيشون في ظلها والتي لها توجه إيديولوجي قد لا يتيح التحدث بحرية وطلاقة، إلا أن أغلب الإصدارات بهذا الشأن لا تتعدى ضجيجاً إعلامياً صاخباً يحاول تبرءة المسلمين جميعاً من تهمة الإرهاب على إساس حقيقة أن الإسلام نفسه بريء من هذه التهمة.. غير

أن أصحاب هذه الإصدارات من كتب وخطب ومقالات ومساجلات حوارية تناسوا صراعات المسلمين المسيّسة غالباً مع بعضهم والتي تنحى منحى مذهبياً وطائفياً حاداً له جذور قديمة ومتأصلة. ويبدون الآن بمظهر من لا يريد نشر غسيله القذر أمام الآخر. صحيح أن الغالبية العظمى من المسلمين ترفض انتهاج العنف والتي كانت هي أول ضحية له غير أن الأقلية التي تمسك بزمام المصالح والحكم ليس لديها أدنى استعداد للتساهل أو التنازل عن مصالحها وامتيازاتها وتعتبرها نتيجة جهود مشروعة لآباء مكافحين هم دائماً على حق ما داموا قد حققوا لهم كل تلك الامتيازات.

وهكذا يمكن القول عن تأريخ الدول الإسلامية أنه تأريخ القهر والتسلط والحرمان والعذاب. وليس معنى ذلك أن غيرهم انفرد عنهم بعدالة ملائكية... إلا أن ذلك أصبح لديهم شيئاً من الماضي الغابر الذي لن يتكرر. أما لدينا نحن، فإن استنساخ التجارب السابقة على عِلّاتها يمثل النجاح المطلق رغم تغيير الظروف والثقافات الحصيلة المعرفية للشعوب. وهكذا فإن العمل بنفس الآليات السابقة للآباء والأجداد وعدم التفكير بشكل جدي بالقيام بإصلاحات حقيقية وعدم وجود خطط وبرامج للتنمية لمواكبة شعوب العالم يمهد لغليان شعبي في هذه الدول.

وإذا ما كان الخوف في السابق من إنقلابات عسكرية أو عائلية في أنظمة الحكم كما كان يحدث في السابق فإن الخوف ينبغي أن يكون هنا من الشعوب التي لايدري أحد كيف يمكن أن تجتمع وترص صفوفها وبأي أسلوب يمكن أن تواجه نظام حكم متعسف. وإلّا فهل حسب أحدٌ حساباً لما يحدث في مصر وتونس وليبيا وغيرها؟

إن البيئة المناسبة لنمو الإرهاب هي بيئة التعسف والقهر والفقر والجهل والتخلف. ولن ينجو أحد حتى لو وضع نفسه في برج عاجي من النجاة من دواعي تعسفه وتجاهله الحاجات الحقيقية للمواطنين.

وإذا ما حسب أيّ حاكم أنه قد يستفيد من الحالة الإرهابية ليوظفها ضد جاره أو يستخدمها لغرض معين فإنه يخطيء بذلك خطأ كبيراً. فالأمر قد ينقلب عليه في النهاية.

وإذا ما أخذنا مثالين على ذلك تتضح لنا الصورة بشكل كامل:

أولهما، مثال تجنيد المقاتلين أو (**المجاهدين**) العرب في أفغانستان ضد الإتحاد السوفيتي الذي كانت شمسه آفلة بدون جهود هؤلاء المجاهدين. فعند خروج قواته من أفغانستان عاد هؤلاء المجاهدون إلى أوطانهم وأغلبهم من المملكة السعودية ليجدوا أنفسهم عاطلين عن العمل كمقاتلين سابقين وموضع حفاوة من المجتمع الذي اعتقد أنهم حقاً قد طردوا الإتحاد السوفيتي. إن الذي مارس هواية القتال لا يمكن أن يتخلى عنها ويجلس بهدوء. وإذا ما استراح لفترة فإنه يبحث عن أماكن أخرى للعمل مقاتلاً وإلا فسوف لن يجد هذه الأماكن إلّا في بلده.

إن (**المجاهد**) السعودي الذي تعرّف على أفكار تنظيمية وتوجهات أيديولوجية أخرى متقدمة عليه نسبياً بفعل الثقافة المتقدمة على ثقافته لدى المقاتلين الآخرين الذي ينتمون للجهات التنظيمية (**الجهادية**) المختلفة القادمة من مصر أو المغرب العربي لا بد أن يفتح عينيه جيداً إذا ما عاد إلى السعودية ليجد أن خوض ميدان الجهاد في بلاده أفضل من خوضه في أماكن أخرى.. وهكذا فسيكون مراقباً يقظاً لكل انتهاكات نظام الحكم الأخطبوطي للعائلة السعودية ومكتشفاً جديداً لذلك.. ولن يسر حتى يعلن اكتشافه و(يثقف) به الآخرين أيضاً..

وهكذا يواجه النظام السعودي، الذي لا يزال يعمل بآليات عتيقة متداعية لا ترقى حتى إلى آليات عمل مؤسس المملكة (عبدالعزيز آل سعود)، هذه التنظيمات ويجد أن الخطر لا بد أن يأتي من قبلها.. فلم تعد مسلّماته الملفقة بضرورة إطاعة أو اتباع الحاكم الظالم أو الفاسق مقنعة.

وإذ أن حرب تحرير العراق من الدكتاتورية أتاحت له رفع شعارات الجهاد ثانية ليتخلص من هؤلاء المقاتلين ويزجهم في محرقة العراق والكمين الذي أعد لاستقبالهم فإنه رأى أنه سيتخلص منهم أولاً برميهم في هذه المحرقة وسيحرز رصيداً لدى التيار المتطرف من السعوديين باعتباره حامياً للإسلام وممثلاً للمسلمين. غير أن إنحسار نشاطهم في العراق وضعه في معضلة أخرى. وقد يحاول - للتخلص منها - إرسالهم إلى سوريا أو الأردن أو لبنان أو مصر أو غيرها.

أما **المثال الثاني**، فهو الدول الأخرى المجاورة للعراق مثل سوريا التي دربت الإرهابيين على أراضيها وغضت النظر - رغم أن نظرها في المجال الإستخباراتي والأمني لاتشوبه شائبة - عن نشاطات وتدريبات وتسلل هؤلاء من مختلف الدول إليها ثم إلى العراق لقتل العراقيين بحجة إيواء القوات الأميركية ومساعدتها.

وإذا ما وجد هؤلاء المقاتلون الجرأة الكافية لتفخيخ أنفسهم وتفجيرها في العراق فإن هذه الجرأة لن تنقصهم عندما يعودون إلى بلدانهم ليقوموا بأعمال مماثلة.

وهذا خطأ استراتيجي ارتكبه حكام هذه الدول إذ لم يعد بالإمكان الإمساك بزمام هؤلاء وتقييد حركاتهم أو توجيه نشاطاتهم. فقد رأوا أن عملياتهم **(الجهادية)** أصبحت أمام فضاء مفتوح وأن ميادين **(الجهاد)** في كل مكان وفي أوطانهم بالذات. ولايدري أحد تداعيات نشاطاتهم كما لايعلم أحد تداعيات حركة الشعوب الإسلامية ووعيها المتنامي.

إن خلاصة مانريد قوله هنا إن أغلب دراساتنا غير موضوعية. كما أنها تتصف بالإنفعال والتحيز. ولذلك فهي لن تؤدي إلى نتيجة مفيدة وستفاقم المتاعب للجميع. ومالم نلجأ إلى مؤسسات بحثية جادة ملحقة بالجامعات

ودوائر القرار وندعمها بالإمكانات المناسبة، فإننا سنظل كمن يغمض عينيه حتى لايراه الناس. فنحن في سباق مع الزمن والأحداث قد تتجه إتجاهاً لا يمكن حرفه أو الخلاص منه.

— ٩ —

ورغم تجاهل التعريفات العربية والإسلامية للإرهاب والتي تلقي أسبابه عادة إلى تحيّز الولايات المتحدة والغرب لأسرائيل التي تتجاهل القرارات الأممية وتقوم بتوسيع الإستيطان والتنكيل بالشعب الفلسطيني، والى قيام الولايات المتحدة بضرب أفغانستان واحتلال العراق وما إلى ذلك من مبررات، متجاهلة الأسباب الأخرى المتمثلة بعدم وجود خطط تنموية جادة لتحسين ظروف المواطنين وظروف القمع وانعدام الحريات، فإن المؤسسات الغربية المولعة بالبحث والدراسة تتناول الموضوع وفقاً لمصالح ورؤية بلدانها. وإن كان بعضها يقوم بدراسات موضوعية، فليس هناك مطابقة في التعريفات والأهداف وإن زعم الجميع أن هدفهم واحد وهو القضاء على الإرهاب. وإذ أن هناك اختلافاً في تشخيص مسبباته فإن هناك نقصاً أو إخفاقاً في تحقيق الهدف المشترك. فما هو إرهاب بنظر الباحثين الغربيين قد لايكون كذلك بنظر زملائهم العرب أو المسلمين.

لقد اتسعت وتعددت التعريفات الغربية للإرهاب وتحدث باحثون غربيون ضمن رصد تأريخي لهذه الظاهرة بين أبناء الديانتين اليهودية والمسيحية منذ عام ٦٦م وحتى عهد البابا غريغوري الثالث عشر الذي بارك مذابح عيد القديس بارثولوميو. غير أن أهم رصد لهذا المصطلح تم إثر الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م التي اعتمدت نهج بث الرعب في أعدائها لتخليص الثورة وتنقيتها منهم. وقد اعتمد ذلك أساساً لفعالياتها الدموية المبالغ فيها أيام روبسبير

وسان جوست وكوتون حتى اتهم روبيسبير (بالإرهاب) وحكم عليه بالموت. وفي هذه الفترة ظهر إصطلاح (Terrorisme)[١].

وقد تعددت التعريفات في كل بلد أوربي وفي الولايات المتحدة وكندا كذلك إلا أنها تتفق على أن الأعمال الإرهابية هي أعمال عنف تستخدم كورقة ضغط فاعله للضغط على الحكومات لاتخاذ موقف أو سياسة معينة تجاه قضية ما وأنها قد تكون بدوافع أيديولوجية أو سياسية أو دينية.

على أن صفة الإرهاب غالباً ما تنزع عن الدول وتلصق بالأفراد والجماعات، وسبب ذلك يعود برأي الدكتور أبو صوّة إلى حرص الغرب والولايات المتحدة على وجه الخصوص على ابتكار منافس غير قوي والتنويه بقدراته ثم هزيمته بسهولة[٢] غير أن هذه المسألة برأينا تنطبق حتى على الدول أو الأفراد والجماعات. فأمام التقدم التكنولوجي والعسكري تبدو بعض الدول وليس الأفراد أو الجماعات فحسب، كأطفال في سن الرضاعة أمام عمالقة قد احترفوا المصارعة أو الملاكمة. بل قد يبدو نزال بعض الدول والتغلب عليها أسهل من خوض حرب أشباح مع جماعات متخفية تجيد ألعاب الكرّ والفرّ والتسلل والتنكر والإختباء. غير أن المصالح الإقتصادية للدول الكبرى قد تكون عاملاً أساسياً في مواقف هذه الدول والتي غالباً ما تتغير وفقاً لطبيعة الظروف والأحداث.

---

(١) العكرة، أدونيس: «الإرهاب السياسي»، بحث في أصول الظاهرة وأبعادها الإنسانية. ص ٣٧. (ط دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٣م). راجع أيضاً: أبو صَوّة، محمود أحمد: «صناعة الإرهاب، قراءة في استراتيجية الهيمنة». ص ١٤ و١٥. (ط ١، إشراقات للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٥). وقد خلص هذا الباحث إلى أن تعريف الإرهاب في المعاجم الغربية يعني اللجوء لأعمال غايتها إنزال الرعب في النفوس... وهو قيام أفراد أو مجموعات باستخدام العنف ضد الأفراد والأملاك العامة والأعداء السياسيين ليس بهدف الإخضاع فحسب (Subjugation) بل والعمل على استمراره. ص ١٦.

(٢) م. ن. ص ١٧ و١٨.

وتكاد تعريفات الجهات الرسمية العربية أو التابعة لها مثل الجامعة العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي التي تسكنها هواجس حفظ كياناتها ضد أيّ خطر محتمل لا تختلف عن التعريفات الغربية والأمريكية بل تكاد تستنسخها. وقد أدرجت التهديد كعمل رديف للعنف باعتباره يهدف إلى ترويع الناس وإلقاء الرعب بينهم. كما أدرجت فقرة تعتبر إلحاق الضرر بالبيئة عملاً إرهابياً! بل واعتبرت تهديد الإستقرار أو السلامة الإقليمية أو الوحدة السياسية أو سيادة الدول المستقلة يدخل ضمن نطاق العميات الإرهابية[1].

— ١٠ —

ورغم تعدد مراكز البحث الستراتيجي الغربية حول ظاهرة العنف والإرهاب إلا أن هناك تجاهلاً شبه متعمّد للأسباب الحقيقية لهذه الظاهرة. فهي لا تكتفي بعدم التعرض لهذه الأسباب، بل وتكاد تجعل جميع المسلمين متهمين بالإرهاب ليكون هاجسهم جميعاً مع حكوماتهم ومنظماتهم إتخاذ موقف دفاعي أمام الآخرين، بالرغم أن التوجهات العنفيّة تلجأ إليها جماعات محدودة، وأن عموم المسلمين لا شأن لهم بالإرهاب. وإن كان هذا الأمر صحيحاً فلماذا لم تعمد مراكز البحوث العربية والجهات الرسمية الداعمة والراعية بتسمية هذه المنظمات أو الجهات (وأغلبها قائمة على ايديولوجية دينية متماهية مع أغراض سياسية أو مذهبية معينة) لتشخيص خطرها للحد من تأثيرها ونشاطاتها؟

(١) ولذلك بررت المملكة السعودية تدخلها في البحرين بأنه يدخل في نطاق الحفاظ على السلامة الإقليمية لدول مجلس التعاون العربي وأن تدخلها يستمد شرعيته من حرصها على سلامة (مملكة البحرين) من العمليات الإرهابية. مع أن شعب البحرين لم يستخدم السلاح ولم يلجأ إلى العنف أو التهديد بل طالب بحقوقه المدنية التي اعتبرت خروجاً صارخاً عن الواقع المألوف للأنظمة القبلية والعائلية الوراثية التي لا تريد تغيير هذا (الواقع) الذي لا يتماشى ومتطلبات العصر.

إن هذا الأمر قد لا يُعطى أولوية الآن اعتقاداً بأن المنظمات أو الجهات الإرهابية يمكن أن تكون تحت السيطرة دائماً وإن فعالياتها ستكون محدودة، لكن المستقبل قد يحمل معه مفاجآت كبيرة كتلك التحولات التي تحدث في العالم العربي ولا يعلم أحد أين ستنتهي فقد فاقت توقعات جميع المراقبين وصِنّاع القرار والسياسين.

إن الإرهابيين قد يلجأون إلى وسائل متطورة غير عادية وقد يفجرون العالم ويطيحون بأمنه وإستقراره إلى أمد غير منظور أو محسوب، ولن تقف جرأتهم عند حد القيام بالأعمال التي اعتاد العالم مشاهدتها ورصدها حتى الآن.

وقد لاتكون الجرعة الحالية من صعقة الرعب التي يقومون بها كافية بنظرهم لرد اعتبارهم أو عرض قضاياهم بشكل لافت أكثر مما هو واقع الآن، وحينئذٍ قد يكون البحث مجدداً عن حقيقتهم أو هوياتهم أو إنتمائهم الأيديولوجي الذي يبرر لهم القيام بأشد الاعمال بشاعة، غير مجدٍ ومتأخر.

— ١١ —

قد يسوّق الشريك السعودي، وهو شريك ظاهري منافق للغرب والولايات المتحدة، في ما قد يسمى الحملة العالمية للقضاء على الإرهاب، فكرة مؤداها أن الأيديولوجية الوهّابية معتدلة ولا يمكن أن تنتج إرهاباً بدليل أن الدولة السعودية القائمة على أسس هذه الشرعية الوهّابية هي نفسها معتدلة وإنها شريك حقيقي في حملة مكافحة الإرهاب.

وهذان إدعاءان لا يمكن أن تؤيدهما الوقائع. إذ أنتجت الوهّابية طيلة أكثر من قرنين ونصف عنفاً لم يعهد مثله في العالم. ولاتزال ثقافتها سائدة في أوساط جهات وحركات متأسلمة عديدة في مختلف أنحاء العالم كما أن تراثها

وتأريخها في القتل والقمع لا يزال محل فخر واعتزاز من قبل كل حملة عقيدتها المتطرفة.

ولئن ألقى الشريك السعودي اللّوم على تلك الحركات وحدها فلا يمكن تناسي دوره في تنميتها وتغذيتها حتى الوقت الراهن.

إن المخالب المخملية لهذه الدولة التي يراهن عليها الغرب والولايات المتحدة تتجه إلى هؤلاء الشركاء الغربيّين الذين يحسبون أن الخطر قد يأتي من غيرها. ويبدو رهانهم عليها كالرهان على (جوكي) بدأ يترهل ويفقد مرونته. إذ قد تطيح به عثرة لفرسه أو اندفاعة غير محسوبة.

وقد لا تفسح مراكز البحث حيزاً كافياً للحديث عن خطر هذه الحركة المسيّسة منذ البداية لكنها قد تفعل ذلك إذا ما أصبحت الوهّابية بديلاً للعديد من أنظمة الحكم في المنطقة وفي مقدمتها السعودية. لكن الوقت سيكون متأخراً لإعداد الدفاعات ضدها والإستعداد لها جيداً.

الفصل الثاني

إشكالية الصراع مع الإرهاب
إستهداف المتطرفين
ومهادنة أفكار التطرف

أيديولوجيا التطرف

تبدو الحرب العالمية الراهنة على الإرهاب بأدائها الحالي، غير فعالة وعقيمة أحياناً، رغم أنها حققت بعض الإنجازات الهامة. فالملاحظ أنها تركّز على الفعاليات القتالية المتسمة بالعنف، باستخدام أحدث الأسلحة المتطورة، ليقابَل هذا العنف بعنف مضاد من قبل الإرهابيين، وردود فعل غاضبة من قبل المدنيّين الذين تطالهم بعض العمليات العشوائية.

ورغم مساندة أجهزة استخبارات رديفة، ذات خبرة وإمكانات متطورة لإنجاح هذه الفعاليات في إطار الخطط الموضوعة لها، إلّا أنّ هذه الأجهزة تركّز عادة على العمليات اللوجستية والمعلوماتية والتحركات الميدانية أكثر من تركيزها على الدوافع الفكرية والعقائدية للمتطرفين. بل تبدو أنها غير معنيّة بها رغم أنها الحافز الأول وربما الوحيد الذي يدفع هؤلاء المتطرفين للانخراط في العمليات القتالية التي تديرها **(منظماتهم)** في كل أنحاء العالم.

إنّ الحاجة تدعو لمعرفة ماهيّة تلك الأفكار والعقائد التي ترفضها أغلبية المسلمين، لكنها تهيمن بفعل إدارة بارعة وتنظيم دقيق على شرائح واسعة من الشباب.

فتجاهلها يعني الجهل بمن تحارب. إذ أن **(القاعدة)**، بكل أشكال تنظيماتها تبدو كجيش أشباح متخفّ يمكن أن يتسلل إلى أيّ مكان في العالم لتدميره عن طريق خلاياه النائمة أو المتناومة أو المتربصة.

وإذا ما شهدنا انتصارات عسكرية ظاهرية في بعض الأماكن - ولنأخذ أفغانستان مثلاً، حيث أُلحقت أضرار جسيمة ب (طالبان) و(القاعدة) - فهل

يمكن الإحتفاظ بهذه الانتصارات؟ وهل ستختفي (طالبان) أو (القاعدة)؟ أم أن الذي سيخرج في النهاية هو قوات حلف الناتو من هذا البلد الذي أدمن القتال وأصبح جزءاً من ثقافته؟

لا شكّ أنّ هذه القوات لن تظل هناك إلى الأبد، بل على العكس من ذلك، فإن تجربة (**طالبان أفغانستان**) أنتجت (**طالبان باكستان**)، عندما وجدت لها صدى مقبولاً في البلد الجار ذي الأغلبية الأقرب في الثقافة والإنتماء، فانتقلت إليه للعمل بحرّية ومرونة. كما أنها حاولت التسلل إلى أماكن أخرى في شبه الجزيرة العربية والمغرب العربي وبعض الدول الأفريقية والأسيوية وحتى إلى أوربا والولايات المتحدة الأميركية وغيرها.

إنها تبدو قادرة على تفجير الوضع هناك واستمالة أعداد كبيرة إلى جانبها ونشر ثقافتها القائمة على العداوة والكراهية.

ولابد هنا من الإشارة إلى حقيقة مهمة وهي:

إنّ الايديولوجيا التي تتسلّح بها (القاعدة) تحديداً وأغلب ما يسمى بالحركات الجهادية تستند إلى مرجعية الفكر السلفي الوهّابي، بنسخته الأولى غير المعدّلة والممهورة بختم الشيخ محمد بن عبد الوهّاب، وهو الفكر الذي يراد له أن يلقى قبولاً ورواجاً بفعل حملة ثقافية واسعة تقودها المؤسسات السلفية الوهّابية في منطقة الخليج وفي مقدمتها المملكة السعودية الحاضنة التأريخية لأفكار التطرف وراعيته الأولى في العالم.

○ ○ ○

الحرب على الإرهاب: مسؤولية الجميع

وتبدو الدوائر الغربية محتارة بشأن هذه الحرب، وحتى بشأن مسمّياتها[١]، وكأنّ من شأنهذه المسمّيات أن تحسمها إلى الأبد، مع أنها حرب شرسة قائمة، ولو أنها خفيّة وغامضة ومعقدة. إنها في بعض جوانبها تبدو كحرب على كائنات غير مرئية أو مخلوقات لا تنتمي إلى عالمنا هذا. فما دام الإرهابيون يتسللون إلى عقول الشباب المتحمسين، وقليلي الخبرة بأدوات وشعارات دينية مقدسة لاستمالتهم ودفعهم لخوض العمليات الإنتحارية، باعتبارها - حسب زعمهم - مضمونة النتائج في حالتي الفشل والنجاح، فإن سيل هؤلاء الإنتحاريين لن ينقطع، ولن يتكهن أحد بما سيقومون به في المستقبل.

وإذ أنّ من شأن ذلك أن يؤزّم العلاقات بين دول العالم، ويعرِّض العالم الإسلامي - على الخصوص - وهو الأفقر والأضعف في المجال التكنولوجي والتسليحي والعلمي والإقتصادي، فإن كوارث متوقعة لا بد أن تحصل ويدفع المسلمون جميعاً ثمن المواجهة التي يحاول المتشدّون زجّه فيها.

ولا بد في هذه الحالة أن يتحمل الجميع مسؤولياتهم لإيقاف هذه المواجهة التي تخضع لأمزجة ورؤى وفهم أعداد محدودة من قيادات تنظيمات التطرف والفقهاء المتعصبين.

وإذا ما بدا التكاسل عن هذه المهمة واضحاً بهذا المجال، فلن يحتار

---

(١) فقد نقلت وكالات الأنباء العالمية عن الرئيس الاميركي باراك أوباما تخلّي إداراته عن مصطلح (**الحرب ضد الإرهاب**)، ولعلها بذلك لاتريد استفزاز الخطوط العربيّة المتنفذة التي تساعد (**القاعدة**) سراً، وقد اتخذ هذا القرار في الخامس والعشرين من مايس ٢٠١٠م.

المرء كثيراً عندما يبحث عن أسباب ذلك. فالعجلة المالية والإعلامية لمساندي التطرف وأعضاء الخطوط الخلفية المتنفّذين ستسحق كل تحرك مضاد لهم. فقد أتّقن أقطابها الوسائل التي يستطيعون بها إسكات خصومهم واستمالة البعض إلى جانبهم..

○ ○ ○

المرجعية الوهّابية لحركات التطرف

وليس من المعقول أن يتنبّه باحثون أجانب لا يحملون ثقافتنا أو معاناتنا إلى ما لم نتنبّه نحن إليه - بل وربما تجاهلناه عن عمد - وهو مرجعية الوهّابية لكل حركات وتنظيمات التطرف(١). وربما كان ذلك في محاولة من البعض

(١) يقول المؤرخ الاميركي (برنارد لويس) صاحب كتاب (صدام الحضارات): «إنّ العمليات الإنتحارية تمثل إنحرافاً أيديولوجياً عن الإسلام. في الإسلام، الإنتحار يمثل خطيئة مميتة والمنتحر يخلّد في النار. ولكن المتطرفين أفتوا بأنّ الإنتحار مقبول، شرط أن يأخذ المنتحر معه عدداً كافياً من الأعداد. إنّ هذا الزعم يمثل قطيعة من قرون من السنّة الإسلامية». وهو يعزو هذا الإنحراف بصورة خاصة إلى (الوهّابية) التي يعتبرها جماعة بعيدة عن التسامح، وعنيفة ومتعصبة، لاتقل هامشية في الإسلام عن جماعة (كوكلوكس كلان) في المسيحية. وبعكس الذين يتوقعون أن تُحكم الأصولية! سيطرتها على الإسلام، فإن برنارد لويس يعتقد أنّ القوى الديمقراطية تتقدم في العالم الإسلامي. ويقول: «إن عدداً من مباديء الديمقراطية مثل التشاور مع المحكومين والتفويض التعاقدي للسلطة يندرج ضمن التراث الإسلامي».
ويعتبر برنارد لويس أن (صدام الحضارات) الذي كان عنوان أحد كتبه، له معنى ديني حصراً، فهو يعني «مجابهة بين حقائق عالمية وحصريّة». ويقول في معرض نقده للتحليلات الغربية حول الحرب الدائرة: «نحن نبعث على الخوف، وننشر ترددنا على الملأ، وذلك خطأ نفسي مزدوج والزعم بأنّنا في حرب ضد الإرهاب يعادل القول بأننا كنا في حرب ضد الطائرات والغواصات إبان الحرب العالمية الثانية. إنّ الإرهاب تكتيك. الإرهاب ليس قضية وليس عدواً، وإذا استمرت الأمور على هذا النحو فإنه لايعتبر مستحيلاً حدوث سيناريو يدّمرفيه الغرب والعالم الإسلامي بعضهما البعض». =

لتجنّب المواجهة مع الراعي السعودي وعدم إثارة غضبه أو فقدان تعاطفه أو كرمه، مع أنّ أصوات كثيرة بدأت ترتفع من داخل المؤسسة السعودية وبعض إمارات الخليج منددة بإنحراف المتشدّدين عن الخط الإسلامي المتسامح.

○ ○ ○

إنّ شغف أعضاء المنظمات القتالية بالعنف، ومبالغتهم المفرطة في عمليات التدمير والقتل الجماعي العشوائي دون اعتبار لأية ضوابط إنسانية أو دينية، يثير مخاوف العالم وقلقه وغضبه كما أنه يستنفر الدول التي تتمتع بإمكانات هائلة في مجال التسلح والخبرة الأمنيّة للتصدي بشراسة مقابلة، رداً على هجماتهم الوحشية غير المبررة إلا بفهمهم الخاطيء للإسلام ونصوص القرآن.

ونتيجة لذلك فإن هذه التنظيمات المحنكة في مجال القتل والتخفّي لجأت إلى أساليب جديدة في العمل لحماية أعضائها وضمان أكبر قدر من المرونة والتحرك.

فتنظيم (القاعدة) - على سبيل المثال - قد تخلّى عن التسلسل الهرمي التقليدي، ولجأ إلى زرع خلايا في أماكن مختلفة تقوم بعمليات مستقلّة، وهو الأمر الذي يثير المزيد من المخاوف والقلق.

= فهو لايؤمن بهذه الفرضية المتشائمة، والأرجح - بنظره - أنه «ستنشأ مجتمعات مفتوحة وسيستعيد الإسلام مكانته اللائقة في العالم».

ومهما تكن تصورات برنارد لويس فإن بعضها ينبغي أن يؤخذ بنظر الإعتبار خصوصاً إشاراته إلى الوهّابية وهي إشارة موفقة يدل عليها ويؤيدها تأريخ هذه الحركة التي اتسم أصحابها بالعنف والتشدّد منذ عهد مؤسسها وإلى عهد (ابن لادن) و(الظواهري) و(الزرقاوي) وغيرهم.

إنّ اعضاء هذه الخلايا الذين يحملون تصورات إحترابية، يتصرفون على أساس أنهم أعداء دائميون لكل من يخالفهم الرأي والمعتقد[١]. إنهم يحاولون جر المسلمين إلى معارك غير مبرّرة وغير متكافئة، ويجدون دائماً من يستجيب لتوجهاتهم القتالية. . كما أنّ حماسهم واندفاعهم لاختيار القتال بديلاً عن كل شيء، لايتفوق عليه إلا حماسهم لكسب المزيد من الشباب الذين سيصبحون في المستقبل أعضاء في خلايا نائمة وذلك بفضل مثابرتهم وسعيهم المتواصل لنشر أفكار التطرف عبر وسائل إعلامية متفوقة قد لا تستطيع أجهزة الرصد المخابراتية المعادية إدراك مدى فعاليتها وقوتها.

وهذا جانب لا بد من الإلتفات إليه جيداً قبل التفكير بأي نوع من المواجهات ومنها المواجهة العسكرية.



(١) قال زكريا موسوي - فرنسي من أصل مغربي - جواباً عن سؤال القاضي الذي أدار محاكمته عن سبب كراهيته أميركا والأميركيّين: «من الناحية الشرعية يشير القرآن في السورة التاسعة الآية ٢٩ إلى إلتزام المسلم بضرورة أنْ يصبح قوة عظمى. . ويقاتل ضد هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله. . ولذا، من وجهة النظر الإسلامية علينا أن نصبح القوة العظمى. يجب أن نكون فوقكم ويجب إخضاعكم. . وبعد ذلك لأن أميركا هي القوة العظمى وتريدون القضاء علينا وعلى الإسلام، أنتم في حملة مثلما قال جورج دبليو بوش أنتم أمة مسيحية، ونحن في حالة حرب مع اليهود والمسيحين لمدة ١٤٢٧ سنة. . .).
إن موسوي يصادر أفكار وآراء عشرات العلماء والمفكرين المسلمين، ويفسر الإسلام على هواه، مدعياً وصايته على المسلمين. ولا يزال كأمثاله من الحالمين يتسلح بأحلام تكوين الإمبراطورية الإسلامية على غرار الإمبراطوريات التي أقامها الأمويون والعباسيون ويضع الجميع في حالة حرب إلى ان تتحقق تلك الأحلام في ظل **(خلفاء)** و**(أمراء للمؤمنين)** مثل **(بن لادن)** أو **(الظواهري)** أو **(ملا عمر)** وغيرهم ممن ينتمون إلى كهوف العصور المظلمة.

نبذ التنظيم الهرمي ونشر الخلايا النائمة

يمكن للمتخصصين بالفكر القاعدي الوهّابي أن يتوقعوا لهذا الفكر تداعيات ذات سطوة فعالة على منظماته الإرهابية المحنكة والمدرّبة، وأن تكون آثار فعالياتها التدميرية مزلزلة لأمن العالم وإستقراره.

فقد أدرك قادة (القاعدة) والتنظيمات المشابهة لها، المستفيدة من تجارب العمليات المسلحة السابقة، (نجاحاتها وإخفاقاتها)، أنها لن تكون بمستوى المواجهة في الحرب العالمية الراهنة على الإرهاب، إذا ما بقيت تنتهج الأساليب المعروفة في العمل مثل التنظيم الهرمي والسلسلة المترابطة للمسؤولين الحزبيين والأعضاء المرتبطين بهم. ففي كل ذلك ثغرات يمكن النفاذ منها لكشفها وإفشال خططها.

وقد بدا لها أنها إذا ما عمدت إلى تفكيك التنظيم الأوسع إلى (خلايا) صغيرة أو غير مرئية، تتألف من عدة أشخاص (وخصوصاً في بعض الأماكن البعيدة عن المراكز الساخنة أو التي تشهد عمليات حربية من نوع ما)، فإن ذلك يجعلها خارج دائرة الضوء أو الرصد. وبذلك فإنها تستطيع أن تكون أكثر فاعلية ودقة في توجيه ضرباتها الصاعقة.

فهي لن تفقد جماهيرها (المنتظِمة معها على صعيد العمل والتوجّه العقائدي)، ولن تخسر خسارة ظاهرية ملموسة بينما تظل محافظة على قدرتها في اختيار العناصر القادرة على الضرب والإقتحام، حيث تستطيع توجيهها إمّا عن طريق شخص واحد غير مكشوف، أو عن طريق رسالة مشفّرة أو فتوى مستلمة عن طريق الإنترنيت، أو بمنح (الخلية) أو كافة الخلايا صلاحية العمل وإِصدار القرار (الفتوى) بالضرب دون الرجوع إلى المرجعيات الحزبية العليا. . .

وعند تحقيق أيّ (إنجاز) تدميري ستحصل على مكاسب جماهيرية ودعم شعبي في صفوف حاضناتها من أفراد الخط السلفي المتشدد، الذي بدأ يتوسع ويستقطب أعداداً أخرى في العديد من أقطار العالم بفعل الأموال الطائلة التي تنفق لتعزيز وجودها ودورها، وبفعل ما أثارته من إعجاب (**بالإنجازات الجهادية**) المتحققة على صعيد إقتحام معاقل (**العدو**).

○ ○ ○

مبرّرات الخوف من الخلايا النائمة

إنّ هناك مبررات قوية لمخاوف العالم من هذه الخلايا اللّامرئية المنتشرة، والتي يصعب رصدها ومراقبتها أو الحد من انتشارها بفعل الأساليب التمويهية المتطورة التي تلجأ إليها وطبيعة الأشخاص المنتمين اليها.

فأعضاؤها قد لا يكونون - بالضرورة - من المتديّنين المعروفين بتشدّدهم أو محافظتهم على الشعائر الدينية أو المظهر الديني المألوف - بلحية طويلة أو ماشابه ذلك، بل قد يكونون ممن عرفوا بالتساهل وعدم الإهتمام بالدين، بل والإنحراف عنه بارتياد الحانات والأماكن المشبوهة...

وهذا قد يضلل أية مراقبة أو رصد لفعالياتهم، لأن دائرة الموضوعين تحت المراقبة ستتسع إلى حد كبير ولن يتاح التركيز على الخطر الحقيقي.

ومعلوم أنّ فتاوى قد صدرت عن بعض مراجعهم، تتيح لهم التظاهر بعكس حقيقتهم (**من حيث المظهر أو الممارسات السلوكية**) لغرض التمويه وتضليل المراقبين.

إنّ الأمر المقلق حقاً هو أنّ المستوى الدراسي والعلمي لبعضهم يتيح لهم التعامل مع التكنولوجيا المتطورة ومختلف أنواع اسلحة الدمار الشامل، التي يمكن حملها في حقائب صغيرة ووضعها في أماكن حساسة في أية عاصمة أو

مدينة كبيرة، وربما يمكن لبعضهم تصنيعها محلياً دون الحاجة إلى نقلها إلى أماكن بعيدة.

وإذا ما حصل ذلك - وهو متوقع إلى حدّ كبير - بعد كل الجهود التي تبذل لمنع مثل هذه الجرائم، فلنا أن نتصور الإحباط والشعور بالفشل الذي سيصيب المعنيّين بالمواجهة وكذلك الرعب الهائل والشلل الذي سيصيب العالم وفقدان الثقة الذي سيشعر به تجاه هؤلاء. فنحن نجد فعلاً أنّ معلومة - قد تكون مضلّلة - بوجود قنبلة هنا أو هناك تصيب الكثيرين بالذعر وتبطء عجلة الحياة وتصعّد مخاوف حقيقية في نفوس الناس.

○ ○ ○

كهنة التطرف وتلقين المفاهيم

إنّ الاجيال ذات الفئات العمرية الصغيرة من المراهقين والشباب التي يراد لها أنْ تتبنى الفكر (الحركي القتالي)، تلقَّن كمّاً كبيرا من الكلمات والمفاهيم والمصطلحات الجاهزة ذات التأثير الساحر لتجعلهم واثقين من صحة الخط الذي يراد جذبهم إليه وأصوله السلفية الوهّابية.

ولايبدو أن هناك تدرجاً معقولاً في طريقة تلقين هذه المفاهيم، وإنما تضّخ في أدمغتهم المستعده لتقبل كل شيء بشكل نسقي متواصل لإثارتهم ودفعهم للإنبهار والإعجاب بالقادة الحركيّين ذوي الوجوه الصارمة والذين يتحدثون اللغة العربية بالأداء الكلاسيكي القديم المتقعر والمتكلّف، بل والمتجّهم البعيد عن روح هذه اللغة التي ظلت حية وقادرة على مواجهة تغيرات الحياة واستيعاب متطلباتها.

لقد أريد لكلمات مثل **(الجهاد)** و**(الفتوى)** و**(الحكم الشرعي)** و**(الأمة)** و**(الكتاب والسّنة)** و**(الدولة الإسلامية)** و**(الأنظمة الطاغوتية)** و**(الجاهلية)**

و(**الردّة**) و(**الكفر**) و(**الشرك**)... وعشرات غيرها أن تتردد كمطرقة يراد لها تحطيم وتذويب كل شيء في تلك الأدمغة الغضة، دون إيجاد بديل واقعي معاش، وأن ترسخ رنينها المفرغ من كل شيء في إطار قاموس لغوي خاص يراد تكوينه في أذهانهم. ويتم كل ذلك بعيداً عن الحصيلة المعرفية الواقعية التي لم تكتمل بعدُ لهم كما لم تكتمل لشيوخهم وقادتهم من قبل.

إنّ شحنها في عقول اليانعين قليلي الخبرة وغير المتبصرين يتم بأداء حماسي مقصود، كأنما يراد وضعهم في أجواء مشاهد تراثية قديمة مقدسة. إنها تؤدّى في إطار تمثيلي متخيَّل (ولكنه واقعي وجذاب بنظرهم)، ليتسنى نقلهم إلى عهود (القدوات والرموز) من الآباء، وهم رجال العهود الأولى من التأريخ الإسلامي الذين يعرضون عادة كفئة مخلصة للإسلام، نقية من شوائب العهد الجاهلي الذي سبقه.

لقد أريد طوال عدة مئات من السنين ترسيخ قناعات تامة بأنهم كانوا متفاعلين حقا مع الرسالة الإسلامية ولم ينحرف أيّ واحد منهم عنها قيد شعرة.

ولا شكّ أنّ المقصود من كل ذلك وضع (**المجاهدين الجدد**)، أيّ الأجيال الحالية أو القادمة من الإنتحاريين في حالة نفسية خاصة من خلال استنساخ السلوك المتخيل لتلك الشخصيات الأولى حتى في ملابسهم وأسمائهم وكناهم وألقابهم وطريقة كلامهم، وربما طريقة معيشتهم، حتى يكون ذلك مقبولاً بل محبباً لهم.

إنّ قدرة الوهّابيين على إنتاج (**فقهاء**) و(**مفتين**) لايتمتعون حتى بالحدّ الأدنى من القابليّة على (**الإجتهاد**) المنضبط المسؤول والملتزم بالقواعد المتعارف عليها لدى أبناء المذاهب الإسلامية الأخرى، لاتعادلها إلّا قدرة هؤلاء المفتين على إنتاج الكم الكبير من **فتاوى التكفير والقتل وإباحة الدماء**

والأعراض والأموال. كل ذلك بدعوى خروج المجتمعات الإسلامية عن الإسلام وعداوة المجتمعات الأخرى له.

فلقد شخّصت كلّها كمجتمعات جاهلية معادية يجب إبادتها ومحوها بكل الوسائل المتاحة.

○ ○ ○

أحلام السيطرة وعودة الفتوحات

وتثير فتاوى التكفير والقتل حماس الملتحقين الجدد بالتنظيمات (الجهادية)، وتجعلهم متلهفين للقيام بعمليات الكرّ والفرّ وتجعلهم يتسابقون لتحقيق ما وعدهم به قادتهم من المفتين ورؤساء الأجنحة العسكرية والمحرّضين الآخرين من الخطباء والمدرسين وغيرهم.

إنها تجعلهم يتطلعون إلى عهود الفتوحات (الزاهرة) التي بسطت فيها إمبراطوريات إسلامية نفوذها على مناطق واسعة من العالم. .

ولاتزال تراود أذهان الكثيرين منهم أحلام السيطرة القديمة على تلك المناطق حتى أنّ بعضهم لا يزال يدعو لاستعادة (الأندلس: اسبانيا) باعتبارها إحدى المحميات التي غزاها المسلمون في السابق وظلت تحت حكمهم لعدة قرون. مع أن سوء تصرفهم وإدارتهم هو الذي جعلها تعود لأهلها الأصليين.

○ ○ ○

مشروع الدولة الإسلامية بدون مشروع

المطلعون على شؤون الحركات الجهادية التي تتبّنى العنف، يلاحظون عدم وجود المشروع السياسي الكامل للدولة التي يزمعون إقامتها. ورغم جهل فقهائهم ومنظّريهم بطبيعة تلك الدولة والتفصيلات المتعلقة بأليات عملها

وإدارتها، فانهم يتحدثون بنبرة عالية وثقة مبالغ فيها عن أحلامهم الوهمية في إقامة حكومة دينية مستنسخة عن حكومات الصدر الأول أو الامبروطوريات اللّاحقة. فهم يتوهمون أنها الشكل المثالي الذي يجسد الإسلام ويحقق عدالته. وربما يأتي هذا من اعتقادهم أنهم قد استوعبوا حقيقة هذا الدين وأصبح بإمكانهم وحدهم التحدث باسمه. وقد أصدروا فتاواهم وأحكامهم (الشرعية) وتبجّحوا على الدوام بأنهم الأكفأ والأقدر على إلزام الآخرين بقوانين الدولة الجديدة وقدرتهم على تطبيقها، مع أنهم لايعرفون حقيقة تلك القوانين.

○ ○ ○

إحتراف القتال، وقتل الأقرب، خطأ التحالفات

لابد من الإشارة هنا إلى ان خطأ من يستخدم هذه الحركات (الجهادية) أو يتحالف معها لايقل عن خطايا أعضاء هذه الحركات الذين لجأوا إلى أقصى وتائر العنف في عملياتهم. فالذين استخدموا (الأفغان العرب) لم يرصدوا أو يتابعوا نمو ظاهرتهم واعتيادهم على الممارسات العنيفة حتى بعد انتهاء الحرب مع السوفيت. فهؤلاء لا يمكن ان يعيشوا بهدوء وارتياح بعد فترة الحرب التي تغنّوا بها واعتقدوا أنهم قد حققوا معجزات باهرة فيها تعادل ما حققه المسلمون الأوائل في معركة (بدر) وغيرها.

لقد أصبحت الحرب بنظرهم مرتبطة بأسباب ودوافع دينية وفق أيديولوجيا الخط الوهّابي القائم على العداوة والإحتراب، وأصبحوا مقاتلين محترفين مستنفرين نفسياً لمزاولة نهجهم في المواجهة الذي لا يمكن أن يتخلوا عنه لأي سبب.

وإذا كان تسريح جيش نظامي أمراً بالغ الصعوبة، فإن تسريح جيش غير

نظامي أمر مستحيل. فإن مَن تدرب ليمتهن القتال، يتطلع دائماً ليجرب قوّته ويفرغ طاقاته القتالية التي أصبحت هوايته المفضلة. إنّه سيمارسها حتى ضد المجتمع الذي ينتمي اليه، إذا ما أُفهم أن هذا المجتمع منحرف ومرتد، تجب مقاتلته وإبادته.

البراعات القتالية لديه لا بد أن تجد متنفساً بممارسة القتل والذبح، حتى ولو كان هو أحد الضحايا. ولا بد من الترويج لفلسفته القائمة على ذلك لكي تلقى مزيداً من القبول بين الشباب وصغار السن.

ونجد الآن من يتغنى بأمجاد المقاتلين السابقين في أفغانستان، وكيف انهم (بتسديد وتدخل الهي مباشرين)(١)، استطاعوا أن يهزموا المحتل السوفيتي منها. مع ان المراقبين الستراتيجيين يعلمون أنّ هذا المحتل ربما لم يعد يجد من المناسب البقاء هناك وتقديم تضحيات أكبر بعد أن تضافرت إرادة دولية واسعة تقودها الولايات المتحدة لإخراجه.

لا شكّ أنّ منهم من كان مخلصاً في نواياه. غير انهم أصبحوا جميعاً مطايا لتنفيذ نوايا الآخرين. إن تلهفهم على ممارسة الهوايات القتالية يحفزّه فهمهم أو تصورهم أنّ المجتمعات الإسلامية قد ارتدّت وغيّرت دين الله ولم

---

(١) أصدر أحد أقدم (المجاهدين) في أفغانستان كتّيباً تحدث فيه عن (الكرامات) التي حدثت أيام القتال مع القوات السوفيتية مثل مدافعة الطيور عن (المجاهدين) ومشاركتها إياهم القتال، اضافة لمشاركة العقارب والحيّات، وانطلاق النيران على السوفييت دون أن تكون هناك رشاشات أو مدافع. وتنكّر الملائكة بصفة خيول ليركبوها، وعدم اختراق الرصاص أجسادهم وغير ذلك من الحكايات العجيبة التي فنّدها أحد المجاهدين العائدين بعد ذلك.
وقد ذكر المؤلف أنّ الكرامات التي تنزّلت على الأفغانيين أكثر من الكرامات التي تنزّلت على الصحابة. راجع: العزّام، الدكتور عبد الله: «آيات الرحمن». (ط دار الدعوة، الاسكندرية، ١٩٨٥م).

تحكم به، وأنها قد تنكرت لدين الآباء والأجداد من الصحابة وغيرهم الذين استطاعوا حكم مساحات واسعة من العالم.

وطالما أنّ الأنظمة التي تحكم هذه المجتمعات مفروضة عن طريق المدفع والدبابة فإن مواجهتها تكون عن طريق المدفع والدبابة ايضاً. وقد وسعوا دائرة المواجهة لتشمل قتل النساء والأطفال. وهو ما فعلوه بدم بارد ودون أيّ شعور بالذنب. وأصبح ذلك بالتقادم الزمني والتكرار من (المباحات الشرعية)[١]، التي يجيزونها لأنفسهم.

○ ○ ○

(التجهيل) و(الحماس): وسيلة المتطرفين لكسب الشباب

من الطبيعي أنْ تنتشر الخلايا النائمة الآن في كل مكان من العالم. كما أنها قد تنشط في أوقات محددة تختارها هي، تتزامن مع أحداث قائمة أو مفتعلة.

معطيات الفكر (القاعدي الوهّابي) التصادمي يجعل من (الخلايا النائمة) مشروعاً قائماً متجدداً، وأصبح خلقها أمراً ممكناً لتوفّر العوامل المساعدة والحاضنات والدعم الكبير.

---

(١) اعترف عمر محمود (أبو قتادة) في المقابلة التي أجريت معه على قناة (الجزيرة) الفضائية في ٣/ ٤/ ٢٠٠٤ بأنّه أفتى في مجلة (الأنصار) التي تصدرها الجماعات المسلحة في الجزائر بتحليل قتل النساء والأطفال. وقد ادّعى أن الغرض من ذلك هو ردع الحكومة الجزائرية من مواجهتهم. وقال في المقابلة: «إنها وسيلة مشروعة تحت باب درء المصيبة الواقعة على المجاهدين من الأمة».

وقد رأينا الأعداد الكبيرة من ضحاياهم من النساء والأطفال في العراق. تم ذلك بنفس الذريعة السابقة وبدعوى أن الشيعة هم الذين تعاونوا مع القوات الأميركية مع أنّ هذه القوات لها أجندتها وخططها وتوقيتاتها الخاصة.

ورغم أنها قد لاتكون تابعة لتنظيم واحد، مثل (القاعدة)، إلّا أنها قد تحمل نفس الأفكار القائمة على الخلفّية المتشدّدة. وربما تدفعها وحدة الهدف مثل مناهضة عدو مشترك مثل الولايات المتحدة وحلفائها لمزيد من النشاط المتطور لتنفيذ اعتداءات إرهابية مبتكرة.

إنّ حماس الشباب واليافعين الذي يطغى عادة على خبرتهم ومعرفتهم في أمور الحياة العامة والعقيدة الدينية يجعل منهم مادة أساسية لنشوء خلايا نائمة. ولَن يكتفي الذين يجنّدون هؤلاء ليكونوا حملة فكر مجرد دون أن يسعوا لتجسيده ممارسات عنفيّة ضد المجتمعات التي يتواجدون فيها.

مع أنّ من المتوقع أنْ تنمو هذه الخلايا وتعمل في مناطق التوتر كما هو الحال في أفغانستان وباكستان والعراق، إلا أنّ انفتاح الأجواء أمام الفكر المروّج للإرهاب والذي ينتقل بحرية عبر المنابر الالكترونية والفضائيات وأدوات الشحن التقليدية، يجعل العالم ساحة واحدة يمكن ان تجد له ملاذاً في أية زاوية فيها.

لقد أتاحت وسائل الإتصالات الفضائية الحديثة إضافة للوسائل التقليدية الأخرى الفرصة لمتشدّدي القاعدة ومناصريهم لتصوير الحرب القائمة ضدهم وكأنها حرب على المسلمين جميعاً.

وبذلك أتيحت لهم فرصة التأثير على جماهير واسعة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي وكسب تعاطفها ولفت أنظارها إلى ما تقوم به من أعمال وفعاليات بدعوى ردّ العدوان والدفاع عن الإسلام، وجعلتها تتغاضى عن البشاعة التي تلّون عملياتها القتالية وتطال الأبرياء في مختلف أنحاء العالم.

وإذا ما لاحظ المراقبون أنّ الخلايا النائمة نشطت بعد معارك أفغانستان، وأنها وجدت في العراق مسرحاً جديداً لممارسة فعالياتها. . فإن من المتوقع أن يُعتبر المقاتلون العائدون إلى بلدانهم، بعد انحسار نشاطهم في هذا البلد

بسبب التضييق عليهم - أن جولة الحرب التي خاضوها ليست الأخيرة وأن أمامهم جولات في أماكن أخرى، ربما تكون بلدانهم نفسها.

○ ○ ○

العراق وأحلام الخلافات الإمبراطورية

ولعلهم اعتبروا غزو العراق فرصة ذهبية لممارسة مهاراتهم القتالية، وكسب متعاطفين جدد من الشباب وغيرهم. وهكذا نجد أنّ حجم التعاطف معهم على صعيد الترويج لأفكارهم أو دعمهم مالياً أو لوجستياً أو غير ذلك يزداد باستمرار، مع أنّ المشهد الخادع قد يوحي بانحسار هذا التعاطف.

إن بغداد في مخيال الشطر الأغلب من المسلمين المبهورين بعصور الخلافات الإمبراطورية، تحمل شحنة رمزية باعتبارها عاصمة الخلافة التي طالما تغنت بها الأدبيات الإسلامية المنتمية للخط التأريخي الرسمي، وباعتبارها القوة التي أخضعت العالم لسطوتها والتي يمكن أنْ تعيد نفس الدور إذا ما تهيأت لها القيادة المؤهّلة.

لم ينس زعماء القاعدة والمنظمات الإسلامية الجهادية أن يعرضوا قيادة بديلة للقيادات الإسلامية الغابرة متمثلة ببعض الوجوه الجديدة مثل (بن لادن)أو (ملا عمر) تحقق كل الاحلام التي زرعتها وروجت لها بعيداً عن الظروف الموضوعية المناسبة.

○ ○ ○

الدولة (الإسلامية الوهّابية): بديل عن الخلافة التأريخية

أعطى الإنتحاريون لأنفسهم حق وراثة خط الخلافة التأريخي باعتبار أنّهم أبدوا استعدادهم للتضحية و(الجهاد) لتحقيق الأحلام المندثرة. ورسخوا

عداوتهم لمن اعتبروا في نظرهم (كافرين)، من أبناء الديانات الأخرى أو (مشركين) ممّن هم من المسلمين الذين لا يشاركونهم الإعتقاد أو الرأي.

ومن هنا أوجدوا نظرياتهم الخاصة بتكفيرهم وإباحة دمائهم وأموالهم ونسائهم.

إنهم اقتنعوا أنّ الدولة التي أقامها الشريكان (محمد بن عبد الوهّاب) و(محمد بن سعود) في أواسط القرن الثامن عشر في **(هضبة نجد)** وامتدّت إلى أغلب أجزاء الجزيرة العربية فيما بعد هي دولة **(شرعية)** نموذجية لها كل مقومات دول الخلافة التأريخية، وأنها لاتزال قائمة وتمتلك القدرة على قيادة المسلمين، رغم سقوطها مرتين وإنحراف قادتها الحاليين بنظرهم.

إنّ هذا يمنحهم شعوراً بإمكانية القيام بالأدوار الأولى واستنقاذ (الأمة الإسلامية) من مخالب قادتها المنحرفين وإرجاع هيبة (الخلافة) ثانية.

وإذا ما (نجحت) تجارب متأخرة بإقامة (دولة إسلامية)، كما هو حال تجربة (طالبان) في (أفغانستان) التي اعتبروها مثالية وفريدة، فلماذا لا تنجح التجارب المماثلة في أماكن أخرى من العالم الإسلامي، ولديهم الحماس الكافي للقيام بمثلها، ولديهم بزعمهم الأرضية الفكرية التي تُشَرْعِن لهم ذلك وتتيح لهم الوقوف بثبات.

لقد عرضوا (محمد بن عبد الوهّاب)، كصاحب أنجح تجربة بإقامة أول دولة إسلامية منافسة للدولة العثمانية التي بدأ الضعف والإنهيار يدب في أوصالها. ورأوا في حركته نهضة إصلاحية تنويرية، وبدت (إمارة الدّرْعِيَّة) - بنظرهم - الصورة الجميلة (للمدينة المنورة) كما بدت في عهد الرسول ﷺ، ورأوا في آليات الحياة البدائية فيها عند إقامة الإمارة صوراً ساحرة وحلماً جميلاً سعوا إلى تكراره في **(تورا بورا)** ورمال غرب العراق، باعتبار أنه يعيد الناس من دنس الحياة المعقدة إلى البساطة الأولى التي عاشها

المسلمون قبل خمسة عشر قرناً متناسين برزخ هذه القرون الطويلة وطبيعة تعقيدات الحياة المعاصرة.

وبدا لهم الفكر الوهّابي بسطحيته وجموده وقراءته المحدودة للإسلام فكراً مثالياً يمكن أن يستوعب الحياة ويحلّ تناقضاتها ويديرها إدارة نموذجية.

وهكذا جعلوه مرجعية عليا وخلفية استندوا إليها واعتنقوها بقناعة تامة ورضا كبير. وقد ساعد على ذلك انتماؤهم للجغرافية المذهبية التي انتشرت فيها أفكار الشيخ المتطرف.

○ ○ ○

الوهّابية أولاً وأخيراً

إنّ من الثابت أنّ الفكر (الجهادي القاعدي) يرتكز على الوهّابية كما حملها المؤسّس (الشيخ محمد بن عبد الوهّاب) بكل آلياتها وتفاصيلها دون تعديل أو تغيير.

ورغم وضوح ذلك للمسلمين من الذين يحملون هذا الفكر والذين يخالفونه، فإن هناك التباساً في أذهان الآخرين من غير المسلمين. حيث نجد أنّ هناك نظرات غربية خاطئة لحقيقته وكونه يمثل القراءة الصحيحة للإسلام ثم مرجعيته للحركات الجهادية المعاصرة.

قد تكون هناك تصورات يراد تسويقها وهي: أنّ فكر القاعدة مستحدث، نشأ بعد تداعيات الحرب في أفغانستان، وأنّ علاقته بالوهّابية لا أساس لها.

إنّ الذي يحاول تسويق هذه التصورات هو (الحليف السعودي) للغرب الذي يلعب على كل الأوتار. فهو من جهة يقيم شرعية وجوده وسلطته على تبنّي النهج والثوابت الوهّابية لاسترضاء الأغلبية من الشعب التي ورثت هذه العقيدة عن عدّة آباء حتى أصبحت راسخة لديهم. وهو من جهة يريد تبرءتها أمام حلفائه حتى لا تُستَهدَف ويُستهدَف عرشه.

لذلك فهو يؤكد للغربيين (الحلفاء الأعداء) فكرة أنّ الوهّابية ومناهجها ومدرستها المتزمتة الإقصائية التي لا تدعو للحوار والإستماع للآخر، لا علاقة لها بما يجري من أحداث وعنف تقلق راحة العالم وأمنه. إنه يحاول أن يدلل على أنّ (بن لادن) وقادة القاعدة الآخرين قد أعلنوا أن القادة السعوديين الوهّابيين منحرفين وأنهم من (فسطاط الكفر) ويجب إسقاطهم. وذلك يعني - وفق هذه المعادلة البسيطة - أن المتطرفين من القاعدة لا يتبنّون الفكر الوهّابي ويحاول تبرئتهم منه.

وهذا تضليل مقصود أريد به لفت الأنظار عن خطورة هذا الفكر الاستدمائي المتقاطع وتجنيب المؤسسة الحاكمة السعودية بشقّيها المدني والديني مواجهة التداعيات التي أنتجها طيلة أكثر من قرنين ومواجهة الذين يحملونه، والذين توسّعت أعدادهم في كل القارات بفعل مساعي المؤسسات الثقافية والدينية السعودية الرسمية وغير الرسمية، وكذلك تجنّب المواجهة مع الحليف الغربي القوي الذي ربما ينقلب إلى خصم إذا ما تأكد من حقيقة اللعبة وحقيقة دور المؤسسة الحاكمة السعودية في الإستمرار بضخّه وترويجه رغم علمها بخطورته وعدم صلاحيته إلّا في إثارة الأزمات والمشاكل. (القاعدة) ورديفاتها من الحركات (الجهادية) رأوا ان الحكام السعوديين قد انحرفوا عن المباديء الوهّابية رغم كل ما لها من سطوة في هذه المملكة، فهم يريدون تطبيقها بكل أساليب العنف والبشاعة التي شهدتها مرحلة التأسيس على يد شيخهم (محمد بن عبد الوهّاب).

إنّ الحليف الغربي، الذي لا تزال تنقصه القدرة على تشخيص مخاطر الوهّابية، إذا ما التفت إلى حقيقتها ومرجعيتها للفكر المتطرف للقاعدة وغيرها، فإنه سيواجه حليفه السعودي بقوة وسيطلب منه - على الأقل - ان يتخلى عنها ويشارك في مكافحتها والقضاء عليها أو التخفيف من غلوائها وعدم دسّ أفكارها في المناهج الدراسية للأطفال.

خطوط حمراء دون مناقشة أفكار الشيخ محمد بن عبد الوهّاب

إنّ المؤسستين السعودية الحاكمة، وقرينتها المؤسسة الدينية الوهّابية ذات النفوذ الكبير الذي يمتد من أبسط وحدة تعليمية ومدرسة إبتدائية إلى التعليم الجامعي العالي مروراً بالمساجد والمؤسسات الخيرية والثقافية ولجان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تنظران بتبجيل وتقدير خاص يبلغ حد التقديس إلى كلّ أفكار وأطروحات (الشيخ محمد بن عبد الوهّاب).

لقد اعتبرت هذه الأفكار في كل المرافق التي تشرف عليها هاتان المؤسستان في المملكة وغيرها خارجة عن النقد والتعديل، بل ومعصومة غير قابلة للنقد لكي ينظر إليها كنتاج بشري مألوف. ولم يتقدم أحد من داخل المؤسستين لمناقشة أية مفردة منها، واعتبر ذلك من المحظورات الكبرى.

وعلى النقيض من ذلك نجد أنّ مؤتمرات سنوية لا تزال تعقد لشرح كتيّبات الشيخ وأطروحاته حول الإيمان والشرك وغيرها، ولتعزيز وجهات نظره وعرضها على أنها الوحيدة التي تمثل حقيقة الدين الإسلامي. مع انها بعيدة عن روحه التسامحية ودعوته الدائمة للتعايش والحوار مع الآخرين[(١)].

وقد بدأنا نشهد محاولات متواضعة خجولة وغير مباشرة تعمد إلى نقد

(١) ولو أخذنا على سبيل المثال مؤسسة تعليمية واحدة من المؤسسات الثقافية المنتشرة في المملكة العربية السعودية وغيرها، وهي (جامعة الإمام محمد بن سعود) بالرياض، لوجدنا أن هذه الجامعة يتبعها ٦١ معهداً علمياً داخل المملكة إضافة إلى معاهد تابعة لها في الولايات المتحدة واليابان وباكستان واندونيسيا وجيبوتي وغيرها. ويفتخر السعوديون بها على أنها صرح ثقافي كبير. وعندما أعلنت السلطات السعودية عن ثاني قائمة بالمطلوبين الأمنيين عام ٢٠٠٣ كان ٩ من أصل ٢٦ مطلوباً من المرتبطين بالجامعة علمياً. كما كان ٣ من إنتحاريي الحادي عشر من سبتمبر من خرّيجيها. ولنا أن نتصور قوة الشحن الفكري الذي تسببه هذه المؤسسات والمفاصل الثقافية والدينية في المملكة.

بعضها وكذلك نقد الممارسات الناشئة عنها. وهو أمر ناتج عن إحساس القائمين بالنقد بخطر هذه الأفكار وضرورة قيامهم بذلك.

لابد من الإشارة هنا إلى أنّ (القاعدة) و(أسامة بن لادن) والجماعات المقربة والمتعاونة معه، والأحزاب (الجهادية التكفرية) و(خلايا الموت النائمة) والعديد من المدارس المؤسسات الدينية، والجماعات الإسلامية وخطباء المنابر، وقطاعات واسعة من المجتمعات الإسلامية تتبنى أفكاراً تنتمي في أساسها إلى المدرسة الوهّابية التي تعتمد قراءة (الشيخ محمد بن عبد الوهّاب) للإسلام.

ويؤكد محمد إبراهيم مبروك، وهو كاتب إسلامي يدعو لعودة الخلافة، أنّ مرجعية الحركات الدينية الإسلامية تقتضي (الأخذ عن كبار الأئمة في التأريخ الإسلامي وخصوصاً الأئمة اللصيقين بمنابع الدين الأساسية مثل ابن حزم وابن تيميّة وابن القيّم والشاطبي والإمام محمد بن عبد الوهّاب والإمام المودودي والإمام البنا)[١].

والخمسة الأوائل يمثلون إحدى المدارس الإسلامية وهم من المتقدمين تأريخياً، وقد عرفوا بسجالاتهم ومعاركهم وتحيّزهم لأنظمة الحكم القمعية الإسلامية القديمة.

أما محمد بن عبد الوهّاب فهو تلميذ متأخر عنهم. وعنه يقول محمد ابراهيم مبروك ان ظهوره كان (بمثابة صدمة للعالم الإسلامي، أدت إلى ارتجاج ما كان سائداً فيه من عقائد ومفاهيم وبدع وخرافات واقتلاع الكثير منها من العقول والقلوب.. وقد تأثرت الحركة الإسلامية بالدعوة الوهّابية كثيراً)[٢].

---

(١) إبراهيم، محمد إبراهيم: «مواجهة المواجهة». ص ١٧. (ط دار ثابت، ١٩٩٤م).
(٢) م. ن. ص ١٨ و١٩.

إنّ حياته ومعاركه ووصوله للسلطة مع شريكه محمد بن سعود بذريعة إقامة دولة إسلامية تطابق تلك التي أقيمت في المدينة في مطلع الإسلام، شكلت حافزاً لدى الإسلاميين الحركيين لإعادة تجربته التي انتهت بالفشل الذريع على أيدي شركائه الذين استأثروا بالحكم وجعلوه وراثياً استبدادياً.

إنّ قراءة واعية لأدبيات الفكر الوهّابي يمكن ان تجعلنا ندرك طبيعته التصادمية مع اتباع المذاهب والأديان الأخرى.

○ ○ ○

أية قراءة موضوعية في المنشور الوهّابي الذي سطره الشيخ المؤسس في كراساته، ستجعلنا ندرك أنّه قد أرسى وتائر العداوة والقطيعة مع (الآخر) المسلم وغير المسلم. وقد ظلت أدبيات هذا المنشور والتعاليم والفتاوى والأحكام القاطعة التي أوردها الشيخ من الثوابت التي لا يحيد عنها مناصروه وأتباع خطّه.

لقد مرّ أكثر من قرنين ونصف على أطروحاته، ومع ذلك فلم يفكر أحد منهم بنقدها أو مناقشتها إلا على أساس أنها من المسلّمات أو الحقائق التي تعبّر عن حقيقة الإسلام.

○ ○ ○

لماذا السكوت عن أفكار الشيخ الوهّابي

ورغم كون الادبيات الوهّابية تشكل الحاضنة الرئيسية للتطرف، إلا أن أحداً لم يأخذ ذلك على محمل الجد. وربما كان السبب أيضاً محاولات التمويه والتضليل التي يلجأ إليها الوهّابيّون عندما يضيّق عليهم الخناق، حيث يتظاهرون بالتسامح وادّعاء الوسطية وشجب العنف دون أن يتعدوا ذلك إلى خطوات عملية تثبت صحة دعاواهم.

إنّ محاولاتهم المضللة لا تقتصر على الإدّعاءات بنبذ العنف والتطرف ونفي ذلك عن أنفسهم بالأساليب الإعلامية العادية المتعارف عليها. غير أنّ هذه لن تصمد طويلاً أمام واقعهم وحقيقة ثقافتهم.

لقد أتاحت لهم إمكاناتهم المادية الهائلة تصدير هذه الثقافة إلى كل أنحاء العالم الإسلامي وحتى بعض البؤر الصغيرة من المسلمين في كل منطقة من العالم. كما أتاحت لهم التغلغل في مفاصل وقيادات الحركات والمؤسسات الدينية والإعلامية وشراء هذه القيادات ودعمها لتوجيهها بعد ذلك لتنفيذ مخططاتهم التي تهدف إلى منع أيّ تقارب بين المسلمين أو بينهم وبين الآخرين من أبناء الديانات الأخرى.

ooo

التمويل السعودي ورآء أفكار التطرّف الوهّابية

وقد التفتت مؤسسة متخصصة بشؤون العالم الإسلامي هي مؤسسة راند الأمريكية إلى حقيقة هيمنة الفكر الوهّابي المتطرف على ساحة العمل الإسلامي. وبيَّن تقرير صادر عن مركز دراسات الشرق الاوسط للسياسات العامة التابعة لها ان «للتمويل السعودي الهادف إلى تصدير نسخة وهابية من الإسلام خلال العقود الثلاثة الأخيرة، كبير الاثر في نشر التطرف الديني على امتداد العالم الإسلامي، سواء كان ذلك بوعي أم من دون وعي».

وبيّنت الدراسة التي نشرت ملخصاً عنها قناة الجزيرة الفضائية مؤخراً[1] (أن المسلمين المتشددين (الوهّابيين) قد نجحوا في بناء شبكة واسعة من المؤسسات على امتداد سنين متتالية، وهي مؤسسات مندرجة بدورها ضمن شبكة دولية واسعة النطاق).

---

(١) متوفرة على محرك البحث في موقع القناة http://www.aljazeera.net

وإذا ما علمنا أنّ الصراع الدائر في العالم الإسلامي هو صراع فكري، وأنّ أحد طرفيه الرئيسيين المؤثرين هو الجناح الوهّابي ذو النفوذ القويّ، فإن مدخل هذا الطرف للتأثير والتغيير سيكون عن طريق بسط أفكاره وقناعاته ونشرها بكافة السبل المتاحة. وهو ما فعله بحماس واستمرار ونجح فيه إلى حد بعيد حتى بين الأقليات المسلمة في الغرب.

○ ○ ○

صراع الأفكار: لماذا الغلبة للمتشدّدين الآن

وإذا ما توصلنا إلى حقيقة أنّ الصراع الدائر هو صراع أفكار، وأن نتيجته ستحدد مسار الأحداث وإتجاهاتها في الساحة الإسلامية (وبعد ذلك في الساحة العالمية)، وإذا ما استمرت وتيرة المواجهة بهذا الشكل الذي يحقق فيه الإرهابيون تفوقاً على خصومهم المعتدلين والليبراليين، فيمكننا توقع مستقبل أكثر تجهماً واستجابة للعنف والقطيعة.

إنّ كل ما يحدث أمامنا يؤكد لنا أنّ الوهّابية ستكون في الصدارة وستجد لها مكاناً ريادياً لعدة عقود أخرى في ظل الدعم الذي تلقاه والإمكانات الكبيرة التي تكرس لترويج أفكارها ومناهجها ومؤسساتها.

كما أنّ إقامة شبكات تنظيمية معقدة ومموّهة ومؤسسات وتنظيمات وجمعيات ستؤدي إلى تصعيد معدلات المواجهة والتهديد والعمليات القتالية والعنف. وحماس المتشددين لم يخف لان لهم أجندات سياسية وخطط للمستقبل يرون إمكانية تحقيقها بحصيلتهم الثقافية الفقيرة التي لاتلامس حقيقة الإسلام.

ويبدو أنهم لن يتخلوا عنها ببساطة وبمجرد حوارات عادية معهم. فهم قد انغلقوا عليها ولن تستطيع الإصوات الهادئة أن تخرجهم عن مألوفهم وثوابتهم.

إنّ المسلمين الآخرين، سواء الأغلبية التي تخلت عن اهتماماتها السياسية أو الإجتماعية بفعل القهر أو اليأس، أو المنتظمين في حركات معتدلة أو ليبرالية، أو مَن لهم هذا التوجه دون أن ينتظموا في حركة ما، فإن برامجهم تبدو كبرامج شخصية خاصة، وتبدو اهتماماتهم مجرد اهتمامات ثقافية مجردة تزاول على سبيل الهواية. وقد يتراجعون لقلة من يستمع إليهم أو تشتت القوى الداعمة أو المؤيدة لهم أو تحت وطأة تأثير خصومهم المتشدّدين.

ورغم أن بعض الأصوات الشاجبة للعنف حقيقية وقد توصلت إلى إدراك مخاطر التشدد على مستقبل المسلمين والعالم، إلّا أنها خافتة ومحدودة ولا تخاطب الّا صفوة من المثقفين والمفكرين. كما انها لا تجد الدعم الكافي من الحكومات أو المؤسسات لتنفيذ برامجها ونشرها بين الأغلبية الواسعة من المسلمين أو لاقتحام معاقل المتشددين بالأساليب والوسائل المناسبة.

إنّ جزءاً كبيراً من حل مشكلة التطرف يكمن في تظافر جهود قوى الإعتدال وتعاونها وتقوية شبكاتها ومراكزها ومؤسساتها الثقافية والإعلامية. ويكون هذا بتخصيص ميزانيات ضخمة تتناسب والمهمة الكبيرة التي يراد لها ان تقوم بها. مع أنّ هذه الميزانيات قد لا تبلغ حتى واحد من الألف من الميزانيات التي ترصد للفعاليات العسكرية القتالية.

وبدون ذلك فإن الدين الإسلامي بمحتواه الجامع الذي يمثل خط الإعتدال، وأغلبية المسلمين سيظلون خاضعين لإرادة المتشددين وخططهم، وسيستحوذ هؤلاء على الساحة بالدعم الذي يقدم لهم والذي يصعّد ضجيجهم وحماسهم وسعيهم المتواصل لإنجاز مشاريع وأحلام السيطرة والنفوذ في الساحة الإسلامية وغيرها. وسيزداد نفوذهم بين الشباب وخصوصاً في المناطق الأم التي أنتجت الفكر الوهّابي والتي يجد فيها رواجاً وتقبلاً بين مختلف الأوساط العمرية والإجتماعية.

إنّ الأسس البنيوية في هذه المناطق قائمة على تسخير المؤسسات الدينية وفي مقدمتها المسجد لمصلحة المؤسسات الحاكمة التي تعرض نفسها راعية أمينة للإسلام وقائدة شرعية للمسلمين.

لقد اصطف المتشددون الإسلاميون في جانب حكوماتهم لتهميش وإضعاف أصوات المعتدلين وإبعادهم عن مواقع التأثير.

وتبدو مهمة المواجهة مع هؤلاء صعبة في ظل الدعم الخفي الذي يحصلون عليه من حكوماتهم وكذلك من المؤسسات الدينية والثقافية التي تعمل وفق آليات العمل في تلك الحكومات وتحت إشرافها.

ان الردع العسكري وحده، دون اعتماد ستراتيجية فكرية للمواجهة، سيظل ناقصاً وربما يؤجج صراعات جديدة في مناطق أخرى عدا المناطق الساخنة الحالية.

وما لم تحّول الجهود الفردية إلى تيارات عامة منظمة وذات هيكلية وبرامج واسعة فإن العالم سيظل يدور في حلقة مفرغة، لأنّ الجهود الفردية دون دعم كبير من الحكومات لن تستطيع أنْ تجعل الأيديولوجيا المتطرفة تفقد تأثيرها وفعاليتها.

○ ○ ○

العرب لايقرأون، وكذلك الآخرون!

وإذا ما اتهم العرب بأنهم لا يقرأون، فلا شكّ انهم يشتركون في هذه الناحية، مع صنّاع القرار الغربيين الذين يبدو أنهم لا يقرأون كذلك، وخصوصاً في مسألة الإرهاب الشائكة هذه. فرغم أنّ بعض المؤسسات البحثية أدركت ضرورة دعم أصوات الإعتدال في العالم الإسلامي، إلّا أنّ الحكومات الغربية لم تأخذ الأمر على محمل الجد وتنهاون في تقديم هذا

الدعم. رغم انها ترصد عشرات المليارات من الدولارات ومخزوناً كبيراً من الترسانة العسكرية في مواجهات لم تسفر إلّا عن تأجيج متزايد للصراع.

○ ○ ○

جزء من الحل.. ثقافة التعدد والتسامح

إن الدراسة التي قدمتها مؤسسة راند تطرح حلولاً مناسبة للتواصل مع العالم الإسلامي لدعم مؤسسات وشبكات الإعتدال في هذا العالم والتي هي موجودة فعلاً و(**ضبط شبكات معينة ذات أولوية والعمل على بعثها ورعايتها والمشاركة في إشاعة ثقافة التعدد والتسامح تعد شرطاً لازماً لتطور مثل هذه المؤسسات**).

ان هذه الشبكات ينبغي ان تكون من القوة والتماسك والتأثير بحيث يمكنها أن تواجه بجدارة المؤسسات الداعمة للعنف والتي تصادر الدين لصالحهاوتنجح في استقطاب وتنظيم جماهير واسعة في صفوفها.

كما ينبغي ان تمتلك برامج وخططاً وتوجهات واضحة ومقبولة وتقدم حلولاً معقولة بإتجاه تحقيق مصالح وأمن المسلمين وغيرهم وتنتهج نهجاً حوارياً مقنعاً. وهكذا يمكن ان تكون شريكاً حقيقياً يطمَئَنّ إليه وإلى قدرته على النجاح في المواجهة الإيديولوجية الدائرة حالياً.

إننا نكاد نجزم الآن أنّ عجلة هذه المواجهة الجادة هي في بداية دورانها ولم تأخذ بعد السرعة المقررة لها. وإذا ما أريد لها ان تخوض السباق مع الإرهابيين الذين يعملون بحماس محموم مستخدمين كل ما لديهم من أدوات للفوز بأمتياز، وينجحون إلى حد هذه اللحظات. فعليها أن تدور بسرعة أكبر وإلّا فإن الهزيمة ستكون محققة.

○ ○ ○

إنّ هناك مقولة نعتقد أنّ فيها الكثير من الصحة مفادها أنّ المعركة الأيديولوجية الثقافية، عكس المعركة العسكرية، يجب التركيز فيها على أهم نقاط القوة لدى العدو، وبالتالي يجب ان نجند لها أهم ما نمتلك من أدوات.

○ ○ ○

إبحث عن السعودية: الحليف المنافق

وحيث أن كافة الاراء تكاد تتفق على أنّ قلعة التشدد الأولى وحصنها الحصين هو المملكة العربية السعودية وأخواتها في الخليج، فإن الجهود ينبغي ان تنصب على رصد حركة التشدد ومساراته وأليات عمله هناك أولاً، للتمكن من مواجهته بقوة تتناسب والقوة التي يعمل بها وأن تواجه المؤسسات الحاكمة هناك بحقيقة سلوكها المنافق والمناقض لدعاواها في الشراكة مع الغرب والولايات المتحدة للقضاء على الإرهاب.

وقبل ذلك ينبغي للغرب والولايات المتحدة أخذ ذلك السلوك المتناقض على محمل الجد وعدم تضييع الوقت بمطالبات عامة غامضة لإصلاح المناهج والمساواة بين الجنسين والتثقيف الديمقراطي دون الدخول بالتفاصيل الدقيقة، وعدم ترك الأمر للإدارة السعودية الحاكمة وغيرها لتسوية المسألة وفق رؤيتها وإعطائها وقتاً للتسويف والمماطلة وإضاعة الوقت لحين إيجاد آليات جديدة لتمرير مخططاتها ومشاريعها.

○ ○ ○

الزمن الوهّابي: الهيمنة على العالم

إنّ الوهّابية تعيش الآن أكثر أيامها ازدهاراً من حيث الرواج وعدد الأتباع. فهؤلاء ينمون بشكل مدهش في أغلب مناطق العالم وأشدّها فقراً

وربما تخلفاً، لكن الأغزر في الكثافة السكانية مثل باكستان ومصر. كما سبق أن انتشروا في مناطق أخرى مثل أفغانستان والسعودية (الحاضنة الأم) وإمارات الخليج ودول المغرب العربي وسوريا والأردن وفلسطين والصومال وفي بؤر غير ملحوظة في أوربا والولايات المتحدة. وقد تكون في طريقها للإنتشار السريع في إندونيسيا وربما الهند لاحقاً وفي أماكن متفرقة أخرى.

لا يمكن التكهن بطبيعة المخاطر التي ستواجهها البشرية في العهود اللّاحقة، إذا ما استمر تعاطي وتدريس أفكار الشيخ محمد بن عبد الوهّاب والتعاطف معها. انها تداعب أفكار ومشاعر أكثر الناس جهلاً وسذاجة وطفولية. وسطحيتها تلامس العقليات المتخلفة التي وضعت الإسلام في الإطار الذي رسمته هي لا في الإطار المرسوم له فعلاً كدين واقعي يدعو للتعامل الإيجابي بين الناس وحل مشاكلهم والنهوض بقدراتهم العقلية والحياتية العامة.

وتتمثل المسألة الأخطر في السعي الدؤوب لأتباع الخط الوهّابي لترويج أفكار شيخهم في كل بقعة من الأرض واستثمار مناسبات الحج والعمرة ومن خلال آلاف الأطنان من المطبوعات والنشرات التي توزع مرفقة بوجبات غذائية بسيطة، وكذلك من خلال الآلة الإعلامية الضخمة كالإذاعات والفضائيات ومواقع الإنترنت والأشرطة الصوتية والمساجد والمدارس والمعسكرات الثقافية (الترفيهية) والجمعيات الدينية (الخيرية) وغيرها.

ويبدو أن مساعيهم لنشر الوهّابية ووتائر حماسهم المتصاعدة دائماً، ستتيح لهم النجاح في كسب المزيد من الأنصار والمؤيدين في صفوف طلبة المدارس والجامعات وغيرهم.

○ ○ ○

لا أمل يلوح في الأفق عن إمكانية التخفيف من سعي الوهّابيين ومناصريهم لنشر مذهبهم وتعميمه في كل أنحاء العالم. وتبدو لديهم فكرة التخلي عن تدريسه كما لو أنها تعني التخلي عن تدريس القرآن أو مباديء الإسلام الأساسية.

إنهم يقدمون قراءة خاطئة عن الإسلام ويحشّون خطابهم بكمّ كبير من آيات قرآنية يفسرونها بعيداً عن دواعي تنزيلها وظروفها. مدَّعين أنّ قراءتهم تشكل انفتاحاً على الإجتهاد، الذي هو في حقيقته إجتهاد غير قائم على أيّ اساس أو منهج أو مدرسة من المدارس الإسلامية المعروفة.

لقد دعوا أتباعهم إلى العمل بالقرآن وفق فهمهم الخاص لمعانيه الظاهرية ومنعوا التبحّر والسؤال عن المعاني المقصودة والحقيقية. وبذلك شجعوهم - ومنهم من ليس له أقل إلمام بأبسط مبادىء اللغة العربية وبيانها وآدابها ومن لم يسبق له أنْ درسها إطلاقاً - على التصرف وفق ذلك الفهم المحدود للقرآن.

وقد شحنوا أتباعهم من خلال قراءة إنتقائية كيفيّة للقرآن بثقافة الكراهية والتطرف. وغذّوا هؤلاء الأتباع - ومنهم مَن أصبح مشاريع جاهزة لخلايا إرهابية نائمة - بأفكار العداوة وأحلام السيطرة وإعادة الإمبراطوريات (الخلافات الإسلامية) الغابرة التي اندثرت عندما دبّ الفساد في صفوف قادتها.

○ ○ ○

بعض الحكومات: تشدّد في العلن مع الإرهابيين، وغَزَلٌ في السرّ

ويحاول الحكام الوهّابيون في الحاضنة الأم ومن يتماهون معهم، أن يوهموا الآخرين بأنّ ما تقوم به، المؤسسات التابعة لها إنما هو لغرض نشر الدعوة الإسلامية الصافية في العالم، ولا علاقة له بأعمال الإرهاب، بل ويدّعون أنّهم شركاء مخلصون في حملات مكافحة الإرهاب.

فهم يقومون بقتل وسجن بعض الناس في بلادهم بدعوى أنهم إرهابيون (وقد يكون بينهم فعلاً بعض الإرهابيين) وبذلك يضربون عصفورين بحجر واحد. فهناك من سيصدق فعلاً انهم مساهمون حقيقيون بحملة مكافحة الإرهاب وسيقومون إستناداً لنفس الدعوى بضرب خصومهم ومعارضيهم ومنتقديهم من الذين لا علاقة لهم بالإرهاب ويتخلصون منهم بسهولة وبأعذار مقبولة.

إنّ الحكومات الحاضنة للفكر الوهّابي أو المتساهلة معه، كما في أغلب إمارات الخليج العربي، تهادن في السر وتغازل الجماعات المتطرفة طالما أنها لا تتعرض لأمنها ولا تقوم بعملياتها في الداخل. أما إذا ما تعلق الأمر بخارج بلدانها فإنها تتيح الفرصة لمؤسساتها الدينية وجمعياتها لمساندة المنظمات الإرهابية وتمويلها وتشجيعها وغض النظر عن النشاطات المعادية التي تقوم بها. فكأنّ الأمر عملية مقايضة مدروسة بدقة.

○ ○ ○

الشيخ محمد بن عبد الوهّاب: قدوة الجميع، المتطرفين وغير المتطرفين من أعضاء الخط السلفي

ويشترك المتشدّدون من أتباع الخط الوهّابي واولئك الذين يدّعون التسامح والوسطية وأعضاء الجمعيات والمنظمات الجهادية الإنتحارية والأقل في الإلتزام الديني بولعهم وإعجابهم المفرط بأفكار شيخهم، لا فرق في ذلك بينهم جميعاً.

ومن هنا فإن المسؤولين في بلد المنشأ والحاضنة الوهّابية لا يرون أيّ معنى للتخفيف من تعاليم وثوابت هذا المذهب بأعتبار أنّها مقبولة من الجميع وبأعتبار أنّ الملاحظة الظاهرية توحي بان فئات كبيرة من اتباعه تتسم بالتسامح

أو اللامبالاة بشأن عقائد الآخرين، وأنّ هذا نابع عن عقيدتهم الوهّابية التي لا ترى فرض كل شيء بالاكراه.

وبذلك يوحون للآخرين - وخصوصاً لغير المسلمين - أنّ العقيدة الوهّابية لا علاقة لها بالتطرف وأنها لا تكفّر الآخرين، وهي ليست سوى مدرسة من المدارس الإسلامية العديدة لها قراءاتها وإجتهاداتها الخاصة بأمور الدين الإسلامي. وبذلك تنطلي الحيلة عليهم ويخدعون بها لجهلهم بحقيقتها وقوة نفوذها بين التيارات والأحزاب والحركات الإسلامية، فلا ينظرون إليها بجد، ولا يجعلون مكافحتها أو التخفيف من غلوائها من أولوياتهم.

❍ ❍ ❍

التصدي لفكر الإرهاب أولاً حتى تنجح الحرب

إنّ جهل المتصدين للإرهاب، من غير المسلمين، وعدم معرفتهم طبيعة الحرب التي يخوضونها، لا تتيح لهم كسب المعركة الدائرة إلا بصعوبة وبعد خسائر فادحة. فهم لم يتعرفوا على طبيعة العقلية الملتوية التي يحملها أعداؤهم أو على أساليبهم الماكرة المستندة إلى تجربة طويلة في التضليل للتسلل إلى عقول وعواطف أكثر الناس بساطة وجهلاً. لذلك فإن الحرب تبدو وكأنها تدور بين دول متكافئة الإمكانات والقوة، وكأنها حرب لا نهاية لها. لأنها في حقيقتها حرب دائرة بين قوى مكشوفة الأدوات والأساليب والأهداف وقوى غير منظورة (هي قوى الإرهابيين المنتمين للمؤسسة الوهّابية) والتي لا يعرف أحد مصدرها وكيفية تحركها وتغلغلها وتمويلها إلا المسلمون أنفسهم (لا سيما من اكتوى بنار الوهابية).

الملاحظ أنّ القوى الكبرى تركّز هجماتها على مسبّبي الأضرار المادية المحسوسة دون القيام بعمليات حاسمة لمعرفة سبب ذلك وأستئصال جذوره.

وبذلك تبدو شبه مهزومة أمام الملايين من أبناء العالم. وتعطي بذلك دعماً معنوياً لملايين آخرين من أتباع الخط الوهّابي ومؤيديهم، رغم ضرباتها العسكرية الماحقة وأنتصاراتها الظاهرية التي لا تحقق إنتصاراً حقيقياً في واقع الأمر.

أما معركتها مع خلايا الإرهاب النائمة فأنّها تبدو فيها متخبطة وشبه مهزومة، إذ أنّها تضع في دائرة الرصد والمراقبة عشرات الآلاف من الناس ثم لا تخرج بنتيجة حقيقية حينما تفاجأ بضربة هنا أو هناك أو نشاط غير متوقع. فهي إذا ما رصدت أو استأصلت خلية إرهابية، أو ضربت حاضنة من حواضن التطرف، تشكلت عشرات الخلايا والبؤر والحاضنات.

وبذلك سيبدو الأمر أشبه بعمليات كر وفّر ومراوغة، وربما سيستمر إلى أمد غير محدود. وربما يفقد أحد الأطراف ممّن يمتلك أسلحة دمار متطورة صبره ليفاجىء العالم بضربة مأساوية غير متوقعة.

إنّ عملية مكافحة الإرهاب بأدائها الحالي، سوف تستنزف أموال ومقدّرات العالم وخصوصاً القوى العظمى التي تتخبط وتلحق الأذى بنفسها وهي تحارب عدواً على هذا القدر الكبير في التخفّي والمناورة والذي يستطيع إلحاق أكبر الأذى بعدوه المكشوف.

❍ ❍ ❍

(الإجتهاد) المنفلت حتى للذين لا يجيدون قراءة القرآن

المنظّرون والفقهاء (الكبار) من القاعدة الذين اختاروا اعتناق الأفكارالوهّابية أباحوا لأعضاء الخطوط الموالية لهم ولأفراد خلاياهم النائمة إتخاذ قرارات ممارسة فعالياتهم الهجومية في أيّ بلد دون الرجوع المباشر إليهم لإستحصال الفتاوى اللازمة لذلك. وتركوا باب (الإجتهاد) مفتوحاً أمام أقلهم وعياً ومعرفة بأمور الدين لتقرير ذلك.

وهذه حالة منفلتة تتيح لأشخاص لا يتمتعون بأية كفاءة دينية أو فقهية، وليس لهم أيّ سند شرعي إيذاء الناس ووضعهم في حالة إنذار دائمية وتصعيد الخوف والشعور بغياب الأمن وشلهم عن ممارسة حياتهم الطبيعية.

إنّ بؤر تدريب وتمويل وتجنيد هؤلاء الإرهابيين لم تعد مقتصرة على الحاضنة الأم في السعودية أو الحاضنات الأولى في أفغانستان وباكستان أو بعض الأماكن في مصر وشمال أفريقيا وغيرها، وإنما امتدت إلى أوربا والولايات المتحدة.

فبعض من تربوا وعاشوا في الغرب (وبعضهم ليست له سجلات سابقة في التدين أو الإلتزام الديني)، اعتنقوا أفكار التطرف في غمرة إعجاب مفاجئة بالأعمال (الجهادية) التي يقوم بها المتطرفون. وقد اعتقدوا لنقص الخبرة والمعلومات والخلفية الدينية أنهم قد أكتشفوا المسار الصحيح الذي ينبغي عليهم انتهاجه **(لنصرة الدين ودفع الأعداء عنه)**.

وتمدّ الأفكارالوهّابية التي تعتنقها القاعدة أعضاءها بزخم هائل من ثقافة العداوة نحو الآخرين وتضخ في أدمغتهم حقداً (مقدساً) عليهم. ويجدون لذلك مبررات (دينية) وفق قراءتهم لأدبيات الشيخ وكراساته المشحونة بتلك العداوة، حتى كأنّ الإسلام - بنظرهم - بني على ذلك. وهذا ما يدفعهم لابتكار أساليب وممارسات جديدة للتنفيس عن غضبهم المكبوت على كل العالم، وذلك بالقيام بالمزيد من العمليات الإرهابية بأساليب قصدوا منها أن تكون بشعة لإخافة الناس. ومما يزيدها بشاعة قيام بعض منفذيها بقتل أنفسهم والإنتحار خلال تنفيذها. إنّ سبل التفاهم عديدة مع من يريد الحياة وربما السعادة له وللآخرين، أما من يختار الموت بديلاً عن كل تفاهم، فهو قنبلة موقوته، علينا توقّع أنفجارها كل لحظة.

إنّ أعضاء الخلايا النائمة من الإنتحاريين وغيرهم يجدون في البيئات التي

يعيشون فيها دعماً مادياً ونفسياً وتأييداً مباشراً وغير مباشر من أشخاص ورعاة ومرشدين دينيين ومتدينين في بعض المراكز الدينية وغيرها. كما أن أقل ما يقدم لهم من دعم هو التستر عليهم لتغطية نشاطاتهم ونواياهم الحقيقية.

○ ○ ○

أجواء التوتر، لنشر التطرف

ما يلاحظ دائماً أن الأفكار المشحونة بالعداوة والغضب - مثل فكر القاعدة - لا يمكن أن تنمو وتتسع في ظل أجواء طبيعية، وإنما في أجواء التوتر السياسي والأمني. ويبدو أنّ خلق مثل تلك الأجواء هو ضالة زعمائها. فهم يعملون على تصدير مثل هذا التوتر إلى مناطق العالم وحتى إلى الولايات المتحدة وأوربا كجبهات متقدمة يتاح لهم فيها نقل المعارك إلى (أرض العدو) وتحشيد أعوان غير منظورين يمكن أن يقوموا بأشد الأعمال فتكاً.

إنهم يحاولون إقناع المسلمين عبر وسائلهم الإعلامية ومنابرهم ومفتييهم وجمعياتهم بأنّ المعركة التي يتزعمها الغرب لمكافحة الإرهاب هي حرب صليبية جديدة موجهة ضد الإسلام. وبذلك يعملون على عولمة أفكارهم المتطرفة على الصعيد الإسلامي بكسب المزيد من الدعم والأعوان إلى صفوفهم عن طريق الترديد النسقي المتواصل لشعاراتهم واطروحاتهم التي لا تزال تخلب ألباب العديدين.

○ ○ ○

إنّ أقطاب تنظيم القاعدة أستطاعوا بمهارة جر الغرب والولايات المتحدة إلى حرب غير واضحة المعالم والنتائج، أهدرت فيها أموال وأرواح وإمكانات هائلة. فقد طالتهم هذه الحرب بشكل محدود لم تتحقق فيها أية نتائج للقضاء عليهم نهائياً. ولا يبدو أنها ستتحقق على المدى المنظور. بينما تأثرت كافة شعوب العالم بما أفرزته من تداعيات ثقيلة.

ولو أنّنا تعاملنا مع النوايا، وسلّمنا أنّ هؤلاء كانوا مخلصين في ما عملوه، لدلتنا نتائج أعمالهم ومواجهاتهم العنيفة مع العالم، رغم كل ما قدم لهم من نصائح، على أنهم قد ألحقوا أشد الأضرار بمصالح الشعوب الإسلامية قبل غيرها، وانهم سيكونون - إذا ما استمروا على هذا النهج - سبباً في تأخير مسيرتها التنموية والإنسانية وبالنهاية تدميرها.

وإذا ما شئنا تصنيف أعداء هذه الشعوب، لأمكننا القول أن (القاعدة) ومثيلاتها من المنظمات الإرهابية تتصدر قائمة هؤلاء الأعداء. وقد باتت الآن رهينة التصرفات الحمقاء لأناس مهووسين، أو غير مؤهلين على أقل تقدير، لقيادة جزء ولو صغير من العالم الإسلامي.

إن (بن لادن) أو (الظواهري) أو (الملا عمر) أو غيرهم من الذين أفرزتهم الظروف غير الطبيعية ووضعتهم في موقع النجومية، مثل مفتيي الفضائيات يحاولون القيام بدور المرجعيات الدينية البديلة للمسلمين من خلال التشكيك بالمرجعيات التقليدية وإضعاف دورها.

○ ○ ○

تخبط العالم: إلى متى؟

إن تخبط الدول المشاركة في الحرب العالمية على الإرهاب يبدو واضحاً، رغم أنها نزلت بثقل كبير وإمكانات هائلة لمنازلة عدو غير منظور يجيد الإختباء والتخفي ويجعل جميع البشر درعاً له.

فهو يندس في أماكن وتجمعات غير واضحة المعالم والإتجاهات. وتبدو عملية البحث عنه لايقافه أو ضربه أو تحييده كعملية بحث عن رأس دبوس صغير في تل من القش.

ولا يبدو ان عمليات المراوغة ستنتهي في الأمد المنظور، وستزيد

التنظيمات الإرهابية صلابة وتجعلها تكسب المزيد من الأعوان والمؤيدين والممولين واكتساب المزيد من الفرص. وسيجعلها ذلك قادرة على تطوير إمكاناتها القتالية وخبراتها في التنظيم والعمل. بينما سيشعر المشاركون في الحرب بالملل والإحباط، وستكون نتائج مساعيهم مخيبة للآمال.

○ ○ ○

نقطة البداية: المواجهة الايديولوجية، مهمة المسلمين أولاً

لابد أن نؤكد ان نقطة البداية في هذه الحرب ينبغي أن تكون من خلال المواجهة الفكرية لأدبيات القاعدة والمنظمات المتطرفة التي تقيم مرجعيتها على أطروحات الشيخ محمد بن عبد الوهّاب. لإن زعماءها يحاولون دائماً تقمص شخصيته ولعب أدوار مماثلة لما قام به في شبه الجزيرة العربية لبناء إمارته انطلاقاًمن الدّرْعِيَّة وما حولها.

وإذ أن المسلمين هم الذين أدركوا - قبل غيرهم - مخاطر الحركة الوهّابية التي أنتجت الفكر المتطرف، وهم الذين تصدوا لها في مراحل مبكرة من وجودها واستطاعوا تحجيمها وضربها، فإن الفرصة لا بد أن تتاح لهم للمشاركة بمواجهتها مجدداً بعد أن نمت وقويت واستطاعت كسب المزيد من الأنصار والداعمين.

إن المواجهة الايديولوجية مع الفكر القاعدي الوهّابي وفكر المنظمات المشابهة له، لن يمكن إنجاحها إلا إذا قام بها المسلمون أنفسهم أولاً وكانوا شركاء فاعلين وذلك لعدة أسباب منطقية منها:

أولاً: أنهم على دراية تامة بموروثهم الإسلامي وثقافتهم، وهم قادرون أكثر من غيرهم على اكتشاف أيّ إنحراف عن المبادىء الأساسية للإسلام ويمتلكون الأدوات والوسائل الكافية لتشخيصه وفضحه وتوعية الجماهير بمخاطره.

ثانياً: ستعرض المواجهة الفكرية إذا ما قام بها غير المسلمين على انها قضية صراع بين الأديان أو الحضارات. وسيحرص المتطرفون على تأكيد هذا الجانب لكسب المزيد من الأعوان إلى جانبهم.

وسيكون التخبط الذي سيقع فيه القائمون بمثل هذه المواجهة من الغربيين وغيرهم، لجهلهم بالكثير من حقائق الإسلام وابتعادهم عن المفردات والمفاهيم الأساسية التي ينبغي اللجوء إليها في عملية المواجهة، عاملاً يزيد من تفاقم الأزمات والوقوع في مطبات فكرية وعقائدية ومماحكات لفظية وكلامية ربما تنتج معارك جانبية أخرى.

إنّ مهمة المواجهة تقع أولاً على عاتق العلماء والمتخصصين في العلوم الإسلامية والمثقفين من المسلمين. وينبغي أن تقدم لهم كل وسائل الدعم المادي والمعنوي لبناء منظومة مواجهة قوية ضد أفكار التطرف والعمل بنجاح - لاختصار الجهود والزمن. وبذلك يتم توفير الجهود والأرواح والأموال الاسطورية الهائلة التي تبذل في هذا المجال دون جدوى حقيقية، وتتاح الفرص لتحصين المجتمعات الإسلامية ضد منظمات التطرف التي صادرت الإسلام والمسلمين.

○ ○ ○

المواجهة الايديولوجية الحالية، ليست بمستوى المسؤولية

إن ضعف وغياب دور المرجعيات والمؤسسات الدينية والثقافية، وعدم وجود برامج حقيقية للتوعية والتعامل مع الجماهير الإسلامية، يجعل الشباب واليافعين، أكثر من غيرهم، عرضة للوقوع بأيدي شبكات التطرف، ويجعل من اليسير عليها غسل أدمغتهم وزجّهم في عمليات حربية أو في تنظيمات خلاياها النائمة.

ومما يساعد على ذلك عدم وجود مواقف واضحة للأجهزة الحكومية العربية والمؤسسات الدينية شبه الرسمية التابعة لها حتى في الدول المحسوبة على انها ضمن التحالف القائم ضد الإرهاب. فلم يشهد العالم فتاوى صريحة تفصيلية من كبار علماء الدين المرموقين في هذه الدول، تحذر من الوقوع في مستنقعات الحركات الإرهابية وفي مقدمتها القاعدة. . ولم تذكر هذه المنظمة بالإسم على الإطلاق.

وبالمقابل فإننا نجد تعاطفاً واضحاً من قبل أعضاء هذه المؤسسات وأعضاء الحركات الدينية الأخرى التي لا تتقاطع فكرياً مع الأطروحات القاعدية الوهّابية، ومن الجماهير ذات الإنتماء المذهبي القريب للقاعدة (وهو الإنتماءالوهّابي غير المعلن أحياناً)، مع من يقومون بأشد الاعمال بشاعة ووحشية[١].

لقد شكل العراق أكبر محرقة للخلايا الإرهابية خلال حوالي نصف عقد من الزمن، إذ استدرج إليه عدة آلاف من المتطوعين المتحمسين الذين كان بإمكانهم الإنتشار في أغلب مناطق العالم والتسبب بمشاكل وأزمات لا حصر لها[٢].

---

(١) كما هو الأمر مع حالة الشاب الأردني (رائد) الذي قام بعملية إنتحارية وسط مدينة الحلة في العراق وقتل ١١٨ من الشيعة وجرح أضعافهم عام ٢٠٠٥. وقد كبّل يديه بمقود السيارة بالسلاسل حتى لايتخاذل في آخر لحظة عن تفجير نفسه والناس الأبرياء الآخرين. وفي مجلس الفاتحة (العرس) الذي أقامه الأهل بمناسبة (استشهاده) وذهابه للجنة! تواجدت أعداد كبيرة من المعزّين الأردنيين ذوي التوجه الإسلامي القريب للوهابية ومنهم أعضاء في مجلس الأمة للإحتفال بالمناسبة وتقديم التهاني لعائلة (الشهيد). وكان مجلس الفاتحة مهرجاناً مبهجاً أقيم مقابل عشرات مجالس العزاء التي أقيمت في العراق للمغدورين الذي قتلهم المحتفى به.

(٢) الملاحظ أن نصفهم تقريباً قدموا من الحاضنة الأم والداعم الرئيسي لأفكار التطرف ومنطقة التأسيس للفكر الوهّابي، المملكة العربية السعودية، الجار الجنوبي للعراق.

وربما رأت الولايات المتحدة ان تستوعب فعاليات هؤلاء الشباب في العراق، بالتغاضي عن دخولهم، ثم القيام بحملات عسكرية ضدهم. وقد تبدو - من وجهة نظرها - معذورة في ذلك. إذ كيف يمكن رصد ومواجهة كل هذه الأعداد من الإنتحاريين إذا ما انتشروا في مناطق واسعة من العالم!

ورغم ان خسائر العراقيين كانت فادحة بسبب ذلك عندما أصبح وطنهم جبهة لمواجهة الإنتحاريين المتشددين، وكانوا جميعاً سنة وشيعة ضحايا لأشد العمليات الإرهابية فتكاً، فإن الولايات المتحدة (التي أُلحقت بقواتها خسائر فادحة أيضاً) ربما وجدت أن موقفها كان صائباً، اذ استطاعت تحقيق هدفها بضرب أكبر عدد من الإنتحاريين في مناطق صغيرة نسبياً ربما استدرجتهم هي إليها.

وربما أعادت التجربة في مناطق أخرى من العالم لاقتناص وقتل أكبر عدد من الإنتحاريين.

○ ○ ○

العراق و(القاعدة): مصيدة الإرهابيين

بعد حوالي ست سنوات من الأعمال الإرهابية العنيفة في العراق، أخذت فلول القاعدة وخلاياها تشعر بالإحباط نتيجة العمليات الأخيرة ضدها، والتي بدأت بشكل جدي عام ٢٠٠٨. فهي لم تحقق مشروعها باقامة إمارة إسلامية، رغم كل الدعم الذي حصلت عليه من أغلب دول الجوار وبعض الدول الأخرى. وربما أدركت أنها وقعت في مصيدة حينما دفعت أعضاءها للقدوم إلى العراق.

لقد شكل ذلك أيضاً احباطاً للمعجبين بأفكار التطرّف عموماً، الذين ظنوا إستحالة هزيمة القاعدة في العراق والتي أصبحت مصدراً للإلهام وتصدير

مشاعر الغضب ضد الولايات المتحدة والغرب وحلفائهم. خصوصاً وان جهات عديدة مشهود لها بالخبرة في التآمر والمراوغة مثل البعثيين قد وضعت يدها بيد أعضاء القاعدة وقدمت لهم كل دعم ممكن، اضافة لما قدمته جهات أخرى ادعت تمثيل المسلمين في العراق مثل (هيئة علماء المسلمين) التي يرأسها (الشيخ حارث الضاري) الذي يتمتع بحرية واسعة للتحرك في (الأردن) وغيرها.

فشل القاعدة في إقامة مشروعها وإثارة الحرب الطائفية في العراق، ربما جعل أتباعها يغيّرون بعض خططهم بعد أن أدركوا حجمهم الحقيقي وأنهم جسم غريب غير متقبَّل هناك، ويتساءلون عن جدوى الحروب والمعارك التي يخوضونها دون دراسة حقيقية لسوح المعركة.

وربما يدفع ذلك مؤيديهم لمراجعة مواقفهم وتوجهاتهم في المستقبل، ويجعلهم يشعرون بالتوجس والخوف إذا ما عاد الإنتحاريون الذين جندوا بمساعدتهم إلى بلدانهم دون أن يتخلوا عن فكرة الجهاد، ليصبحوا حينئذٍ مشروع تفريخ خلايا نائمة هناك قد تعود إلى الحياة والعمل على المدى غير المنظور. وحينئذٍ سترتد حرابهم إلى صدورهم، وتكون الضحايا المقبلة من بينهم.

وكما رسمت صور جميلة للعائدين من (أفغانستان) بعد طرد (الإتحاد السوفياتي)، فإنه أريد رسم صور أجمل للعائدين من العراق بعد أن يطردوا (الولايات المتحدة) ويحققوا نجاحات باهرة هناك.

وإذ أن هذا لم يحدث، وأن تطورات أخرى معاكسة للريح القاعدية قد استجدت في العراق، وأصبحوا هم المطرودين وغير المرغوب فيهم بعد أن قدموا أنفسهم لقمة سائغة، فإنه لم يبق لمن صفق لهم ودعمهم في الماضي، إلا التغني بامجاد كاذبة وأمنيات لم تتحقق، ولن تظل سوى تبعات عودتهم

الثقيلة إلى بلدانهم أو بلدان العالم الأخرى بعد ان أصبحوا محاربين محترفين واكتسبوا خبرة في الأعمال اللوجستية وأعمال العنف وتصنيع المتفجرات.

○ ○ ○

حواضن التطرف من رياض الأطفال إلى الجامعات (مصانع لإنتاج المتطرفين)

لقد أصبحت الجامعات والكليات في بعض البلدان العربية والإسلامية مصانع للتطرف. وقد وردت معلومات تشير إلى تورط العديد من طلبة (جامعة الإمام محمد بن سعود) في العمليات الإرهابية في نيويورك والسعودية و. . .، وهذا أمر متوقع لأن التوجه العام والفلسفة التربوية لأمثال هذه الجامعة قائمتان في الأساس على أفكار التطرف الموروثة عن (الشيخ محمد بن عبد الوهّاب).

والواقع إن الجامعات في هذه البلدان، مع أنها مصانع رئيسية لإنتاج التطرف، إلا أنها ليست المصانع الوحيدة. إذ تشاركها المدارس والجمعيات والمؤسسات الدينية والإجتماعية في ذلك. إن المراحل العمرية الصغيرة من سن ١٥-٢٥ قد تكون هي الأعوام المناسبة التي تتيح كسب الشباب إلى جانب المتطرفين. وإذا ما علمنا طبيعة التوجهات الفكرية القائمة على التعاليم الوهّابية المتشددة في السعودية والخليج والمدارس الدينية في باكستان وأفغانستان وغيرها واطلعنا على مناهج تلك المدارس التي يشكل روادها فئات الأطفال والشباب ذوي الفئات العمرية الصغيرة، أدركنا أنّ أغلبهم يدورون في فلك الأفكار المتشددة وأنهم أصبحوا مشروعاً لمتطرّفين في المستقبل.

من الطبيعي أن يكون الأكثر تعليماً وحفظاً للتعليمات الوهّابية التي تلقنها منذ الطفولة، وخصوصاً من خريجي الجامعات، في صفوف القيادات ولا بد أن يكون تأثيرهم أكبر كلما تعمقت قناعاتهم بالفكر المتطرف الذي يحملونه.

إن البؤر المنتجة لأفكار التطرف لا يمكن حصرها في مكان أو مجال خاص أو محدّد. فالمدرسة والجامعة والمسجد والبيت والشارع يمكن أن تنتج المتطرفين، طالما أن التوجه العام في هذه المؤسسات والبيئات يستجيب للمؤثر العام السائد، وهو الفكر السلفي الوهّابي.

فما كانت (جامعة الإمام محمد بن سعود) لتنتج كل ذلك العدد من الإنتحاريين الذين شاركوا في هجمات سبتمبر أو غيرها، وأضعافهم ممن أصبح لديهم الإستعداد للقيام بمثل تلك الهجمات، لو لم تكن حاضنتهم الرئيسية تتبنى التوجه السلفي الوهّابي، فالجامعة ليست وحدها المسؤولة عن ذلك، وطالما أنّ الدولة تتبنّى وتدعم هذا التوجه، فإنه سينمو في ظل الرعاية والدعم اللّامحدودين من قبلها.

إن أجيالاً عديدة ولدت وترعرعت في السعودية، ورثت عن أسلاف جعلتهم بمنزلة الآباء الصالحين المعصومين، فكراً تقاطعياً يحاول فرض نفسه بالقسر بعيداً عن آليات الحوار والإقناع التي هي المرتكزات الأساسية في الدعوة الإسلامية وفي كل دعوة أخرى.

ولا يمكن الشطب على مثل هذه الأفكار المتجذرة خلال أجيال عديدة وأساليب تسويقها بجرة قلم أو بمجرد تمني ذلك. فالأمر يستدعي جهوداً غير عادية من قبل مؤسسات وخبراء في أمور العقائد والتشريعات الإسلامية لفرز الأفكار التخاصمية الطارئة التي حملتها الوهّابية عن مجمل الأفكار العامة المتسمة بالتسامح التي جاء بها الإسلام.

إنه يستدعي أيضاً حل التشابك الذي أوجده الوهّابيون للتمويه وجعل أفكارهم مقبولة في صفوف جماعات واسعة من المسلمين.

هذه المهمة لن تكون باليسيرة على أية حال، ما لم تستند إلى دعم وتمويل كبيرين من قبل دول ومؤسسات عالمية.

إن المؤسسة السعودية الحاكمة ونظيرتها الدينية تصّران على أن النهج الوهّابي الذي تتبنّيانه هو النهج الإسلامي الصحيح والنقي، وانه نهج تصالحي حواري لا يكفر الآخر المخالف في المذهب أو الدين وإنه لا يدعو إلى أيّ نوع من أنواع العنف.

لقد صرفت مليارات الدولارات لتعزيز هذا النهج ونشره في كل أنحاء العالم بمختلف الأساليب، ومنها المدارس الدينية والجامعات والمكتبات والجمعيات الدينية الخيرية التي تمولها مؤسساتهم ذات الثراء الاسطوري الفاحش.

إن مهمة التخفيف من غلواء الأفكار السلفية الوهّابية ستواجه بحملة مناهضة من قبل كل تلك الجهات التي توارثت تلك الأفكار وأصبحت قناعاتها بها في مستوى الإيمان بالمقدس الذي لا يمكن نقضه أو النقاش بشأنه.

الفصل الثالث

السوابق التاريخيّة
الخوارج: أسلاف الوهّابيّين
النموذج الأول للتطرف

ألخوارج في القاموس الوهّابي

يصف أتباع الخط السلفي الوهّابي، ومنهم أعضاء تنظيمات القاعدة، خصومهم ومخالفيهم من المسلمين، بأنّهم مشركون أو كفّار أو (خوارج). ويقصدون بذلك كل الذين لا يعترفون بمدرستهم التي أنتجت أفكار التطرف والقطيعة في عصرنا المتأخر. إنّهم بذلك يحاولون التستّر على هويتهم الحقيقية كخوارج فعليّين عن كلّ المذاهب الإسلامية المعروفة.

إنّ لفظة (الخوراج) قد ظهرت في قاموس المصطلحات الإسلامية، لتدل على المتشدّدين الأوائل الذين ظهر أوّلهم في الساحة الإسلامية منذ عهد الرسول ﷺ، وكان لهم دور بارز في التأثير على مجريات الأحداث المأساوية في النصف الثاني من عهد الخلافة التأريخي الأول (أي في أواخر خلافة عثمان حيث شاركوا بقتله)، وخلال حقبة الحكم الأموي، وشطر من العهد العباسي.

لقد أراد هؤلاء من عموم المسلمين - بما فيهم صحابة الرسول وأَجيال التابعين - أن يتبنّوا آراءهم وأطروحاتهم. وحاولوا فرضها بحدّ السيف مع أنها لم تكن مقنعة أو مقبولة. كما أن أساليبهم وحججهم وحواراتهم لم تكن كذلك.

ولو أن دراسات مقارنة أفردت لهؤلاء ولقرنائهم من الأجيال الوهّابية اللاحقة[١]، لوجدنا أنّ هذه الأجيال ومنها الأجيال المنخرطة في تنظيمات

---

(١) ولعل من أسباب عدم اهتمام الدراسين بالخوارج، اعتقادهم أنها ظاهرة منتهية أو مقطوعة زمانياً وتأريخياً، وأنها لن تتكرر ثانية. وربما غاب عنهم أَن عواملها ومسبّباتها =

(القاعدة) و(طالبان) وغيرها، هي نسخة مكررة لصورة الخوارج الأول، تحاول إعادة تجربتها الفاشلة - والدمويّة بنفس الوقت - لإقامة نظام إسلامي وفق تصوراتهم ومعاييرهم وقراءتهم السطحية للإسلام.

ولعل الوهّابيين أكثر إدراكاً من غيرهم، منذ عهد شيخهم ومؤسس دعوتهم (محمد بن عبد الوهّاب) لشدّة الشبه بين حركتهم وحركات الخوارج. وقد علموا أنّ أعترافهم بذلك وإعلانهم التشبّه بهم صراحة أو الإشارة بهم، سيجعل معاركهم مع المسلمين خاسرة منذ البداية، بعد أن حسمت مسألة الخوارج منذ عهد بعيد وتبيّن للجميع انهم فرقة (مارقة) فعلاً وأنها مرفوضة ومعادية لكل طوائف المسلمين وفرقهم ومذاهبهم.

وقد أعلن الوهّابيون في تصريحات إستباقية، كي يدفعوا عن أنفسهم تهمة الإنتماء للخوارج سيئي الصيت والمكروهين من قبل جميع المسلمين، أنهم من المعادين أيضاً لهم، وأنهم لا ينتمون إليهم، وأنّ جوهر حركتهم الوهّابية إصلاحي يهدف إلى تنقية الدين مما لحق به من شوائب الشرك. ورفعوا شعارات برّاقة مشابهة لتلك التي رفعها أسلافهم لتمرير مخططاتهم وبرامجهم.

○ ○ ○

بداية ظهور الخوارج

لقد أشارت الوثائق الإسلامية المتمثلة بكتب السيرة والحديث والتأريخ الإسلامي إلى واقعة مهمة أفادت أنّ النبي ﷺ، كان يوزع بعض الأموال بين

= الإجتماعية والنفسية والثقافية، قد تكون موجودة في كل عصر، وأنها قد تظهر بمسمّيات وأشكال جديدة وبمختلف الذرائع والأسباب. وهو ماحدث فعلاً في العصور المتأخرة، إذ تقمصت الوهّابية منذ أكثر من قرنين ونصف المنهج الخوارجي العام مع أنها تذرعت بغطاء إصلاحي براق وجد تقبلاً في بيئة (نجد) في البداية وفي أماكن أخرى من العالم الإسلامي فيما بعد وحتى وقتنا الراهن.

المسلمين. وقد اعترض على قسمته رجل من (تميم) يقال له (ذو الخويصرة) قائلاً: لم أَرَكَ عدلت! فغضب النبي وقال له: ويحك، إذا لم يكن العدل عندي، فعند مَن يكون؟

وقد حاول أحد اصحاب النبي قتل هذا الرجل لاعتراضه عليه وأسلوبه الفج معه، إلا أنه ﷺ منعه من ذلك قائلاً: **دعه، فإنه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين (يتبّعون أقصاه)، حتى يخرجوا منه، كما يخرج السهم من الرَميّة)**[1].

---

(١) ابن هشام، «السيرة النبوية». ج ٢، ص ٤٩٦. (ط مصر، ١٩٥٥م).
وورد في «صحيح البخاري» أن الذي اعترض هو رجل من أصحاب النبي، وقد قال: «كنا نحن أحق بهذا». فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: ألا تأمنوني، وأنا أمين مَن في السماء، يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً؟ فقام رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناشز الجبهة، كث اللحية، محلوق الرأس، مشمّر الإزار، فقال: يا رسول الله اتّقِ الله! قال: ويلك، أو لست أحقّ أهل الأرض أن يتّقي الله؟ ثم ولى الرجل. فقال خالد بن الوليد: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه؟ فقال: لا. لعله يصلي. فقال خالد: وكم من مُصلّ يقول بلسانه ما ليس في قلبه. قال رسول الله ﷺ: إني لم أؤمر أن أنقّب قلوب الناس ولا أشق بطونهم. ثم نظر إليه وهو مقف وقال: إنه يخرج من ضئضيء هذا قوم يتلون كتاب الله رطباً لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية. وأظنه قال: لئن أدركتهم لأقتلنّهم قتل ثمود. المصدر: العسقلاني، ابن حجر: «فتح الباري بشرح صحيح البخاري». ج ٩، ص ١٢٩. (ط البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٩م).
وورد في «صحيح مسلم» قول النبي ﷺ: «أنه سيكون من جنس هذا الرجل قوم يمرقون من الدين، آيتهم رجل أسود مخدّج اليد». وروى رواية أخرى جاء فيها: «يخرجون في فرقة من الناس سيماهم التحالق». المصدر: النووي، محي الدين أبو زكريا: «شرح صحيح مسلم». ج ٧، ص ١٦٥ - ١٦٧. (ط القاهرة، ١٩٣٠م).
وقد ورد أن اسم هذا الرجل: ذو الخويصرة، حرقوص بن زهير السعدي التميمي.
والضئضيء الأصل والمعدن والعشيرة هو من لا نسل له ولا عقب.
فالرسول يؤكد هنا أن ظاهرة هذا الخارجي سوف تتكرر في عشيرته وقومه وأشباهه، وأنها لن تُستأصل حتى وإنْ قُتل وصفّي جسدياً. وسينصب حديثنا على تكرار الظاهرة الخوارجية التي تميل للنقد المتشدد وفق رؤيتها هي بدعوى الإصلاح والأمر بالمعروف =

إنّ العديد من المؤرخين والباحثين أشاروا إلى أنّ الخوارج قد ظهروا كقوة منظّمة في (صفّين)، بعد رفع المصاحف من قبل معاوية الذي أوشك على الهزيمة وطلبه التحكيم. إلّا أنّ فكرة هذا الظهور الفجائي لا يمكن أنْ تكون مقبولة. ولا بد أن تكون لهؤلاء أرضية وخلفيات أتاحت لهم أنْ يؤثروا على مجرى معارك صفّين التي كادت أن تحسم لصالح الإمام علي عليه السلام.

وهنا نشير إلى ظهور التيارات والأحزاب بعد ملامح الإنحراف التي بدأت تلوح في آفاق الدولة الإسلامية بوضوح في عهد عثمان. لقد أتاح اندساس الدخلاء وذوي الأجندات المعادية للإسلام وذوي المطامح الخاصة، لجهات وأشخاص عديدين تمرير مخططاتهم بدعوى الإصلاح وتقويم الإنحراف.

إن ظاهرة (حرقوص) إن لم تعالج جذرياً وفكرياً فلا يمكن معالجتها بالقهر والسلاح والدماء على الإطلاق. ولذا كانت تختبئ وتتوارى وقتياً ثم تبرز ما أن تجد أرضية الجهل والسذاجة مهيئة أمامها.

وربما اعتقد الدائرون في فلكه أو الذين يحملون تصوراته، أنهم وحدهم فهموا حقيقة الدين، وأنّ من واجبهم أن يفرضوا فهمهم على بقية المسلمين وإجبارهم على تبنّيه...

وإذا ما كانت الأغلبية من هؤلاء الخوارج مضّللين مخدوعين بالأفكار والشعارات البراقة التي رفعها قادتهم، فاننا لا يمكن أن نبريء هؤلاء القادة من النوايا والخطط الخبيثة التي قصدوا بها إلحاق أكبر قدر من الأذى بالمسيرة الإسلامية في ظل ظروف طبيعية، بعد أن كادت تخطو خطوات جدّية للتخلص من الإنحراف في عهد الإمام علي عليه السلام.

○ ○ ○

= والنهي عن المنكر، وبروزها في الحركة الوهّابية المتشددة حاضنة الفكر (القاعدي) الأكثر تشدّداً.

دائرة النقد غير المنضبط شملت حتى الرسول

في (صفين)، وفي أحرج الظروف التي كانت تمر بها المعارك، انشق على الإمام علي عليه السلام شريحة ممّن حُسبوا من جنده وأعضاء معسكره. فقد جاءته مجموعة من قادة الخوارج المهمّين الذين ألزموه بقبول التحكيم، وفي مقدمتهم (حرقوص = ذوالخويصرة)، وطلبوا منه أنْ يتراجع عن قبول التحكيم، باعتباره خطيئة تنبغي التوبة منها. وقد خاطب الإمام بقوله: «تُب من خطيئتك. . . وذلك ذنب ينبغي أن تتوب منه»[١].

لقد كانت جرأته على الإمام علي مبررة بنظره ونظر أتباعه، بعد جرأته السابقة على النبي صلى الله عليه وآله ومرور ذلك دون أن يحاسب، بل إنه بدلاً من ذلك كوفيء مكافأة مجزية، إذ استُعمل من قبل الخليفة عمر بن الخطاب أميراً عند فتح الأهواز وبقي فيها إلى يوم (صفّين). . . ثم شهد (النهروان) مع الخوارج، حيث قتل هناك[٢].

ولا نعلم الدوافع التي جعلت الخليفة الثاني يستعمل هذا الرجل المتشدّد الذي أساء الأدب مع النبي صلى الله عليه وآله ودلّ موقفه على النفاق، والذي نزلت فيه آية صريحة تدل على نفاقه وخروجه عن الإسلام، مع أن هناك رواية تذكر أن عمر ابن الخطاب هو الذي عرض على رسول الله أنْ يضرب عنقه! فمنعه الرسول من ذلك. ومع أنه صلى الله عليه وآله أخبره أنه وأصحابه سيمرقون من الدين. . . وأنهم يخرجون على حين فرقة من الناس. فنزلت فيهم الآية[٣].

---

(١) الطبري، ابن جرير: «تأريخ الأمم والملوك». ج ٦، ص ٣٣٦١ و٣٣٦٢. (ط القاهرة، ١٩٣٩م).

(٢) الدينوري، أبو حنيفة: «الأخبار الطوال». ص ٢٠٤. (ط القاهرة، ١٩٦٠م).

(٣) وهـي: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن =

كما روي ذلك عن أبي سعيد الخدري(١).

لم تعد هناك أية موانع أو خطوط حمراء تمنع أمثال هذا الخارجي من توجيه النقد واللوم، بل وتكفير أيّ شخصية إسلامية، بعد أن أدخلوا النبي نفسه في دائرة الخطأ والنقد.

وهكذا فتحوا الباب على مصراعيه أمام موجات متتالية من النقد الذي يصل حد التكفير بناء على إجتهاد منفلت وقراءة سطحية للقرآن، وأصبحت ظاهرة الخوارج مقلقة لمسلمي صدر الإسلام قرابة مائة وخمسين عاماً كما أصبحت كذلك للأجيال المتأخرة من المسلمين.

○ ○ ○

التصفية الجسدية لا تكفي لمنع الإنحراف

هنا لا بد أن نؤكد أن خطأ منهج هؤلاء الخوارج لا يدل على صواب مناهج كل خصومهم. غير أنّ هؤلاء الخصوم ومنهم أقطاب الدولة الأموية، استغلوا حماقاتهم واندفاعهم المتهور وجعلوا منها رصيداً لهم، ووظفوها للتقرب من الجماهير الإسلامية، وعرضوا معاركهم معهم على أنّها لنصرة الدين.

وقد علم الرسول منذ البداية أنّ القضاء الجسدي على أمثال هؤلاء لمجرد احتجاجاتهم أو إبداء آرائهم، حتى ولو لم تكن صائبة، لن يستأصل ظاهرتهم،

= فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ [التوبة: ٥٨-٥٩]. وقد ورد في مصادر عديدة أنها نزلت في هذا الخارجي، كما جاء في (الدر المنثور) عن (البخاري) و(النسائي) و(ابن جرير) و(ابن المنذر) و(ابن أبي حاتم) وغيرهم عن (أبي سعيد الخدري).

(١) الطباطبائي، محمد حسين: «الميزان في تفسير القرآن». ج ١٠، ص ٣٣٠. (ط بيروت، ١٩٩٧م).

ولن يمنع خروجهم في أوقات أخرى. والمواجهة معهم ينبغي أن تكون مواجهة فكرية وعن طريق حوار مقنع. . . وهكذا منع من أراد قتل (حرقوص)، الخارجي الأول عندما احتج على توزيع الصدقات، غير أنه تمنى، عندما تتطور ظاهرة (حرقوص) إلى حركة مسلحة أن يكون في مقدمة المبادرين لقتالهم. كما تمنى أن يقتل أشباههم من المتشدّدين فيما بعد لو أدركهم لتخليص المجتمعات من شرّهم.

وقد أعاد الإمام علي عليه السلام موقف الرسول عندما دعا إلى عدم مقاتلة الخوارج بعده: «**لا تقاتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه**»(١)، وفي هذا إشارة واضحة إلى أن هؤلاء قد يكونون مضللين مع أن دوافعهم قد تكون تحّري الحق. كما أنهم في بحثهم عن الحق قد يضيعون في متاهات الباطل والإنحراف والنظرات السطحية المحدودة.

وهكذا كان الأمر بعد وفاة الإمام علي عليه السلام. فإن خصوم الخوارج من الأمويين وغيرهم، لم يكونوا أقل منهم إنحرافاً وحتى دموية، غير أنهم تستروا

---

(١) الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «نهج البلاغة» جمع الشريف الرضي، بشرح ابن أبي الحديد المعتزلي، وتحقيق عز الدين عبدالحميد المدائني ومحمد أبو الفضل ابراهيم. ج ٥، ص ٧٨. (ط البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٥م).

وقد قال في مناسبة أخرى عن جماعتهم بأنها «ضُللت فظلت سبيل الحق، يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً وهم الأخسرون أعمالاً». وقد ورد رأي للخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز مشابه لرأي الإمام علي عليه السلام. فقد حسب عمر أنه بإحسانه إليهم والعفو عنهم قد يستميلهم ويجعلهم يدركون خطأ توجهاتهم المتشنجة الرافضة للحوار والسلم، غير أنه لم يفلح في تهدئتهم وكسب ودهم، فاضطر إلى تهديدهم وتذكيرهم بآيات الله التي تحرم سفك الدماء وانتهاك الحرمات، وكتب يتوعدهم قائلاً: «**وإنني أُقسم لكم بالله لو كنتم أبكاري من ولدي، فوليتم عما أدعوكم إليه من الحق، لدفقت دماءكم ألتمس بذلك وجه الله والدار الآخرة**». غير أنهم أعرضوا عن تهديداته ووعوده، وحلّقوا رؤوسهم واختاروا قتاله. راجع: ابن الجوزي، الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن. «سيرة عمر بن عبدالعزيز». ص ٧٨. (ط مصر، ١٣٣١هـ).

على إنحرافاتهم، وكانوا بسعيهم لتوطيد سلطتهم، يتصرفون بوعي وحذق ويعرفون ماذا يريدون. وقد حققوا أهدافهم المرحلية واستطاعوا بمختلف الوسائل، استمالة شرائح كبيرة من الناس إلى جانبهم وإخضاع الباقين. مع أنّ خصومهم الخوراج بأساليبهم العنيفة المباشرة لم يكتسبوا إلّا عداوة الناس وكراهيتهم.

○ ○ ○

لكل مقام مقال

لا بد لنا في هذا المقام أن نشير إلى موقف صاحب الرسالة، عندما تعرض للنقد الحاد من قبل هذا الخارجي وعدم موافقته على قتله، مع إنه كان يتمنى لو فعل ذلك في الوقت المناسب، أيّ عندما يلجأ هذا الخارجي مع أمثاله لرفع السلاح لفرض رأيه بالقوة والمواجهة العسكرية.

فطالما أنه اكتفى بالنقد - مع أن نقده كان شديداً وجارحاً وغير واقعي - فقد اكتفى الرسول - مقابل ذلك بالرد الرادع الذي يناسبه، مدركاً أن دوافعه غير نظيفة ولا نزيهة.

أما مع غيره، من الأنصار الذين قاموا بنقد مماثل ولكن أقل حدة، ولم يكن ينطوي على خبث أو دوافع خاصة، فإنه رد رداً مناسباً، وأفهمهم بأسلوب جميل الأسباب التي دعته لإعطاء بعض الاموال لمن لا يستحقونها بنظرهم... وقد تفهموا موقفه ولم يعودوا لمثلها بعد ذلك.(١).

○ ○ ○

(١) فعندما اعترض بعض الأنصار على النبي بعد توزيع غنائم (حنين)، وقالوا على مسمع منه: «يعطي صناديد أهل نجد ويدعنا»، لم يغضب ﷺ لاعتراضهم، وقال لهم كلاماً جميلاً: «إنما فعلت ذلك لأتألّفهم، تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى ما قسم الله =

ثنائية (الخوارج) و(الوهّابيّين)

ثنائية (الخوارج) و(الوهّابيين) حقيقة تأريخية تعزّزها وحدة الإنتماء القبلي والجغرافي وما يستتبعها من توجه إجتماعي متماثل يؤصل لعصبية قبلية متوارثة ترفض الإنصياع للآخر أو التعامل معه حتى ولو كان نبياً مرسلاً، وتأبى إلّا أن تضع لمساتها الرافضة لكل تغيير.

ومثلما أنجبت (نجد) (ذو الخويصرة) و(مسيلمة الكذاب) في الصدر الأول، فإنّها أنجبت (محمد بن عبد الوهّاب) في عهدها الأخير. فهل كان ذلك محض مصادفة؟.

ولماذا بدت نجد قادرة على إنتاج الخطوط المنحرفة والمتشنجة والمشحونة بالكراهية وحب النقد والتجريح في كل وقت؟

لقد افتخر النجديون دائماً وحتى عهد قريب باستقلاليتهم وتفرّدهم وعدم خضوعهم للآخرين، حتى ولو كان هؤلاء من أبناء أقرب القبائل إليهم. فقد رأوا أنّ ذلك كان أحد الأسباب التي حفظت لهم وجودهم وكيانهم عرباً أحراراً في ديارهم، مهابين لدى جيرانهم!

○ ○ ○

= لكم من الإسلام. أفلا ترضون يا معاشر الأنصار أن تذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعير، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم؟ فو الذي نفسي بيده، لو أنّ الناس سلكوا شِعباً، وسلكت الأنصار شِعباً لسلكت شِعب الأنصار. ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء أبناء الأنصار. فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم، وقالوا: رضينا بالله ورسوله قسماً. ثم تفرقوا. راجع: الطباطبائي، محمد حسين: «الميزان في تفسير القرآن». ج ١٠، ص ٢٤٠. (ط بيروت، ١٩٩٧م).

فقد عرف النبي أنّ دوافع الأنصار كانت متوقعة بعدما قاتلوا معه قتالاً شديداً. وأنهم لم يضمروا شراً أو خبثاً وأنهم سيتفهمون الأسباب التي دعته لتألّف بعض أهل نجد الذين تختلف دوافعهم في القتال معه.

نتاج العصبيّة القبليّة

والواقع أنّ أثر العصبية السائدة قبل الإسلام، قد خفّ في معظم أنحاء الجزيرة بحكم تأثير القيم الإسلامية الجديدة والواقع المعاش والانفتاح على الشعوب والحضارات. إلّا أن أجزاء منها - وفي مقدمتها نجد - ظلت مصرّة على نهجها القبلي الذي كان سائداً منذ الجاهلية وظلت منغلقة على مفاهيمها وقيمها البدوية القديمة.

لقد فرضت العصبية القبلية نفسها على براري الرمل الموحشة وضنك العيش واضطرار القبائل إلى القتال حتى الموت للبقاء على قيد الحياة. وكان لا بد من إطار ثقافي يؤصّل لتلك العصبية ويجعل القبيلة المحور الذي يدور عليه ولاء كل فرد فيها. فكل أحد سيضيع إنْ لم ينصهر في المجموع، وقسوة الطبيعة لا بد أن تقابل بقسوة القبيلة لتمنع قبيلة أخرى عن ماء أو مرعى لا يكفي الجميع.

وربما يمكن اعتبار العصبية القبليّة ديناً قائماً بذاته له طقوسه ومواضعاته وقوانينه.. حتى وإن كان الناس يدينون بدين سماوي قد تختلف طقوسه وقوانينه.. وإذ أنه لا بد من دين واحد، فليكن الدين الذي ألفوه واعتقدوا أنّه سيحفظ لهم حياتهم ووجودهم وهو: عصبيتهم القبلية.. أما الدين السماوي، فلا بد من إخضاعه أو تطويعه ليتلاءم مع دينهم الواقعي القائم على الغزو والثأر ونصرة أخ العشيرة ظالماً أو مظلوماً..

لقد أرسيت أدبيات وقوانين للعصبية القبلية التي اعتُبرت عنواناً للتماسك والصمود والقدرة على البقاء ودلالة على نقاء الأصل. ولم يجرأ أحد على التخلي عنها تحت أيّ عنوان أو ذريعة. ولم يكن الإسلام إلا طارفاً ينبغي أن يخضع للتليد ويعزّزه. وهكذا فإنه - بنظرهم - لم يكن ديناً إلّا في مظهره

الطقوسي، يستجيبون له طالما أنّه يظل بمنأى عن الثوابت المتعارفة. وإذا ما تعرّض لها أو تقاطع معها، فما أيسر أن تزاح تعاليمه أو تفسر بما يلائم عقلية ابن القبيلة الذي يريد العيش والبقاء في الدائرة التي اعتاد العيش فيها.

لا بد من التكافل بين أبناء القبيلة، فالأخ مأكول إِنْ أُكل أخوه. . ومعركة البقاء لا بد لها من أسنان ومخالب حادة، فالطبيعة لا ترحم. . والقبيلة الجارة تريد أن تظل على قيد الحياة. . والحياة لا تتسع للجميع. .

○ ○ ○

إبحث عن (الأعراب): (العنف) أولاً وأخيراً

هذه ظروف براري الرمل الجامدة القاسية، ومنها يستمد البدوي قسوته التي يعذر نفسه عليها دائماً وإنْ كانت مجحفة بنظر البعض.

ولا نستطيع في هذه الدراسة المختصرة التطرّق إلى كل أدبيّات البداوة، تلك الأدبيات التي أنتجت بعض مظاهرها العنف والتطرّف في كل مراحل التأريخ العربي والإسلامي. رغم أنها انتجت بعض القيم الايجابية الأخرى.(١). إلا أننا يمكن أن نشير إلى تداعياتها المؤسفة التي ندد بها القرآن والرسول ﷺ وحاول إقتلاعها أو التخفيف منها. والواقع أنّ ذلك تم بشكل محدود بين أوساط البدو.

لقد نزل القرآن بلغة واحدة مفهومة للجميع، وجاء بميزان جديد للمفاضلة بين الناس، لا على أساس عرق أو إنتماء أو لون. ودعا الرسول الناس إلى التخلي عن العصبيّة، وهي أن يعين المرء قومه على الظلم والإعتداء على

---

(١) للتفصيل والوقوف على ذلك، يراجع كتاب «محمد بن عبد الوهاب، نموذج في التطرف وصناعة الإرهاب» للمؤلف. فقد عقد في ذلك فصلاً رسم فيه تصويراً وتحليلاً كاملين عن طبيعة القبائل والحياة الصحراوية بنجد. [الناشر].

الآخرين، في محاولة لصهر الجميع في بوتقة أمة واحدة تدين بالإسلام، لا بالقيم التي تعارفوا عليها وتوارثوها عن الآباء، كما دعا إلى التخلي عن التفاخر بالأنساب(١).

والواقع أنّ حالة الأعراب الغارقين في أجواء وقيم البداوة بدت مستعصية غير قابلة للإصلاح. فهم لم يدينوا بالإسلام إلا بشكل ظاهري فقط، وأن الايمان لم يدخل قلوبهم لأنهم لا يعرفون إلا حاجاتهم الآنية المحدودة، وأجدر أن لا يعلموا حدود الله وأحكامه وتشريعاته ومُثُلَه التي تحقق لهم ولأبنائهم من بعدهم السعادة والإزدهار، رغم ادّعائهم بأنهم آمنوا كغيرهم من الناس(٢).

وهذه شهادة كبيرة من القرآن الكريم ينبغي الإلتفات إليها عند دراسة أحوالهم. لأنّ **(الإنسان ابن عوائده ومألوفه. . فالذي ألفه من الأحوال صار خُلقاً ومَلَكة وعادة تنزل منزل الطبيعة)**(٣).

ولهذا نجد أنّ عملية التغيير في صفوف البدو الذين ألفوا العيش غزاة محاربين معادين لأي حضارة أو دين أو تطور تبدو صعبة حتى وإنْ ادّعوا أنهم قد تغيروا نحو الحضارة أو الإيمان وأمتلكوا بعض المستلزمات المتطورة. فلا

---

(١) كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]. والعديد من الأحاديث النبوية المتواترة المروية عن النبي الأكرم ﷺ، كقوله: «الناس سواسية كأسنان المشط، وكلكم من آدم وآدم من تراب».

(٢) كقوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٧]. و﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤].

(٣) عناني، محمد. وسرحان، سمير: «المختار من مقدمة ابن خلدون». ص ٦٩ و٧٠. (ط ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م).

فرق بين من يحمل سيفاً يقطع به رقاب الناس أو من يحمل بندقية كلاشنكوف أوتوماتيكية يقتلهم بها. فالفرق هو في الأداء فقط.

○ ○ ○

(أعراب) و(مسلمون)

ورغم ان الإسلام أراد نقل ولاء أعضاء القبيلة إلى منظومته الأوسع التي تضمن العدالة والأمن والازدهار، ورغم نجاح محاولات الرسول بجمع القبائل تحت راية الدين الجديد، يدافعون عنه وينتصرون له ويتركون خصوماتهم في سبيله، إلّا أنّ هؤلاء قد خُلقوا في أزمان سابقة تربوا على قيمها ومفاهيمها، ولم يكن تغييرهم ليتمّ بشكل جذري بقدرة قادر، لكي يتخلوا بسرعة عن مألوفهم المتوارث عن عشرات الأجداد.

وقد جاءت شهادات القرآن الكريم في وصف حالة الأعراب الذين لم يستطيعوا التفاعل مع الدين الجديد والإنسجام مع معطياته ومبادئه، لتدلل على صعوبة تحقيق ذلك.

إنّ السنوات القليلة التي عاشها الرسول في المدينة بعد هجرته اليها، لم تتح له الإختلاط إلّا بجماعات محدودة من الناس لكي يربيّهم على مفاهيم وآداب الإسلام. وكان أغلب هؤلاء من أهل المدينة أو الذين هاجروا إليها قبله وبعده. أما أغلبية سكان الجزيرة العربية فلم تتح لهم مشاهدته أو مجالسته، والذين شاهدوه أو جالسوه لم يُتح ذلك لهم إلا لفترة محدودة قد لا تتجاوز ساعات أو أياماً.

إنّ لقاءً عابراً أو بضع لقاءات معه أو مجرد مشاهدته أو الإستماع إلى بضع كلمات منه، لا يمكن أن تجعل هؤلاء جديرين أن يوصفوا بـ (الصحابة). ولم يكن بالإمكان تخليصهم من منظومة القيم الأخلاقية والإجتماعية التي

نشأوا عليها وتوارثوها كمقدسات بمجرد إشارة أو ملاحظة عابرة أو لقاء قصير. . ولا بد أن يتبقى من الخزين الجاهلي الموروث ما لا يمكن أن يتلاءم مع القيم الجديدة للإسلام. وعن ذلك يقول ابن خلدون: «وأما سائر العرب من بني بكر بن وائل، وعبد قيس وسائر ربيعة، والازد وكندة وتميم وقضاعة، فلم يكونوا من تلك الصحبة إلا قليلاً منهم»[١].

وقد وجد، عند ظهور التيارات والأحزاب بعد وفاة الرسول، من استطاع بسهولة تغذية العصبيّات القبليه كأحدى الوسائل الفعالة لتفريق المسلمين وتمرير المصالح الخاصة. وقد لمسنا ذلك بوضوح من أقطاب العائلة الأموية أيام مؤسس دولتها الأول معاوية بن ابي سفيان.

لا بد أن نشير هنا إلى ان القبيلة الواحدة ربما كانت تتجاذبها قوتان رئيسيتان تميل أولاهما لقيمها الجاهلية الأولى، وتميل الثانية لقيم الإسلام الجديدة. . مع أن كلتا القوتين ترفعان الشعارات الإسلامية وتشتركان بأداء الطقوس الظاهرية. . ولا بد أن تصرفات كل فريق كانت تنطلق من طبيعة فهمه للإسلام واستيعابه له وكذلك من طبيعة المصالح التي يتوخاها الفريق الباحث عن المنافع والإمتيازات بعد الفوضى التي رافقت النهاية المأساوية لعثمان.

○ ○ ○

شاهد على التعصّب القبلي: موقف الأشعث بن قيس

لا يمكن هنا نسيان الأدوار التي لعبتها شخصيات فاعلة ساعدت على بلورة موقف موحّد للخوراج في معركة صفين.

ولعّل في مقدمة هذه الشخصيات (الأشعث بن قيس). . فقد كان هذا في

---

(١) عناني، محمد. وسرحان، سمير: «المختار من مقدمة ابن خلدون». ص ٦٩ و٧٨. (ط ١، الهيأة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م).

الظاهر من أصحاب الإمام علي عليه السلام وأحد قادة جيشه. . غير أنه كان يتآمر عليه في السر. . وكان أبرز موقف تآمري له بعد رغبة الإمام اختيار (ابن عبّاس) ليمثله في لجنة التحكيم. ومعروف عن ابن عباس علمه وحنكته وقدرته على الحوار والإقناع. .

فقد رفض الأشعث ذلك بشدة (حتى لا يحكم فيها مضريّان)[(١)]، باعتبار ان أصل (أبي موسى الأشعري) و(عبد الله بن عباس) يعود إلى قبيلة مضر. .

وإذا لم يكن (الأشعث) هنا منجرفاً وراء عصبيّة ضّيقة الأفق، فلا بد أنّ هناك نوايا خاصة تسيِّره. . . فليس من المعقول أن يفكر أحد بعد أكثر من نصف قرن من الهجرة بهذه الطريقة التي تحمل كل ثقافة الجاهلية وتوجهها المتخلف: (. . . لأن يحكما ببعض ما نكره، وأحدهما من أهل اليمن، أحبّ الينا من أن يكون بعض ما نحب في حكمهما وهما مضريّان. . .)![(٢)]. فكأنّ المسألة مسألة صراع محدود بين قيس ومضر، وليس صراعاً يهمُّ جميع المسلمين وكلّ أجيالهم اللّاحقة.

---

(١) اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب: «تأريخ اليعقوبي». ج ٢، ص ١٨٩. (ط بيروت، ١٩٦٠م).

(٢) الطبري، ابن جرير. «تأريخ الطبري». ج ٦، ص ٣٣٣.

وقد ذكر (ابن سعد) في (الطبقات) أن الأشعث أسلم في عهد الرسول ثم ارتد مع بعض كندة، واستسلم بعد ذلك وأُسر. وقد عفا عنه الخليفة أبو بكر وزوّجه أخته أم فروة. وقد روى (البلاذري) و(المسعودي) أن أبا بكر ندم على ذلك، وقال فيه: (إنّه لا يرى شرّاً إلا سعى إليه وأعان عليه). وقيل أن عثمان ولّاه آذربايجان حتى عزله الإمام علي عنها فغضب لذلك وعزم على اللحاق بمعاوية فرده أصحابه عن ذلك.

ولمكانته في قومه ولّاه الإمام أحد أجنحة الجيش في صفين. وكانت مواقفه مع الإمام مريبة وقد زجره عدة مرات. ويبدو أنه كان يعمل لصالح معاوية، وقد أراد الذهاب إليه بعد رفع المصاحف من قبل جيش الشام لتزيين وقف القتال. وعاد بعد لقائه مع معاوية (الذي استماله كما ذكرت بعض الروايات) وهو من أشد الدعاة لوقف الحرب، وعاد بخبر التحكيم. وكان يخذّل الناسَ عن الإستمرار في القتال.

إنّ مبالغة الأشعث في التعصب لقومه لامست مشاعر الخوارج فجعلهم يتحيزون لإصولهم وعصبياتهم بدل الإنصياع لأصول وتشريعات دينهم. . . وهذا ما أوجد شرخاً قوياً في صفوف جيش الإمام، خصوصاً أن الإمام كان من عادته مشاورة قادته ولا يلجأ إلى الأساليب القسرية معهم، بل ويحاول دائماً توعية جيشه بطبيعة المهمة التي يقومون بها في سبيل الإسلام وليس في سبيل الدفاع عن عصبية أو مصالح خاصة أو الدفاع عنه شخصياً.

○ ○ ○

نجد: حاضنة الخوارج والوهّابيين

لسنا في هذه الدراسة نؤرخ للخوارج إلا بالقدر الذي يتيح لنا تبيان العلاقة وأوجه الشبه بينهم وبين الوهّابيين.

وفي هذا المجال سنتحدث عن بيئة الخوارج الأولى وانتمائهم الجغرافي وكذلك عن البيئة والإنتماء الجغرافي للوهابيين. وسنلاحظ هنا أن (نجد) كانت الحاضنة الأولى و(تميم) هي الأصل الأول. . !

فهل كانت الصدفة وحدها هي التي جعلت أوّل خارجي وأغلب الخوارج من (تميم) ثم يكون مؤسس الوهّابية وأغلب أتباعه الأوائل منها أيضاً؟

لابد للدارس ان يبحث عن دوافع (حرقوص التميمي) وهو يعترض على الرسول الأكرم ﷺ، ثم وهو يتزعم حركة المعترضين على عثمان، ثم حركة مناوئة أخرى للإمام علي عليه السلام في صفين. .

ولا بد أيضاً من فهم العقلية التي كانت تتحكم بجماعة البدو من تميم الذين وفدوا إلى المدينة وأحاطوا ببيت النبي، ونادوه من المسجد من خارج بيته:

«أخرج يا محمد جئناك لنفاخرك»(١). . إنهم لم يراعوا مقتضيات اللياقة والأدب وواجبات التوقير والتعظيم للنبي (فذّمهم الله سبحانه حيث وصف أكثرهم بأنّهم لا يعقلون كالبهائم من الحيوان)(٢) (ولعل قبائل تميم المضرية أمدت الخوارج بأكبر رصيد من العساكر والقادة، حتى ليمكن القول انّ هذه الحركة ولدت في أكناف تميم وتحت رايتها. وكان ذلك حين مر بهم الأشعث ليقرأ عليهم كتاب التحكيم. . ثم كان أمير القتال فيهم شبث بن ربعي التميمي حين نزلوا حروراء، كما كان من زعمائهم الأوائل حرقوص بن زهير السعدي التميمي، ومسعر بن فَدكي التميمي وعروة بن أدّية التميمي وأخوه مرداس الذي سيمثل السلف الصالح عندهم. وسنجد قبائل تميم ترفد الخوارج بأبرز رؤسائهم وأصلب قادتهم)(٣).

○ ○ ○

شعار (لا حكم الاّ لله): كلمة حق أريد بها باطل

على أنه لا يمكن لأحد أن يزعم أنّ تميم بأجمعها كانت خارجية. بل وجد منها من تصدّى لدعوة مسيلمة الكذاب والخوارج على السواء. وقد دافعوا عن الإسلام وكان بعض من تميم شيعة للإمام علي عليه السلام.

---

(١) الطبري، ابن جرير: «تأريخ الطبري». ج ٢، ص ٣٧٨. وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤].

(٢) الطباطبائي، محمد حسين: «الميزان في تفسير القرآن». ج ٨، ص ٣١٥. (ط بيروت، ١٩٩٧م).

(٣) معروف، نايف: «الخوارج». ص ٢٧. (ط ٣، بيروت). يروي عن الطبري واليعقوبي وابن الاثير. ومن المعلوم أن بعض هؤلاء انشقوا عن جماعتهم والتحقوا بالسلطة الأموية بعد انبساط سلطاتها وشارك بعضهم مثل (شبث بن ربعي) في ظل يزيد بن معاوية بواقعة الطف التي قتل فيها الحسين بن علي عليهما السلام. وكان أحد القادة العاملين تحت إمرة عبيدالله بن زياد.

إنّ انتماء عناصر كثيرة منهم للخوارج ونصرتهم لمسيلمة وانتماء الكثيرين للوهابية فيما بعد سببه أن أغلبيتهم الذين كانوا من سكان نجد المنغلقة المعزولة بالذات كانوا أكثر استعداداً لتشكيل حاضنة مناسبة لنمو الحركات المنحرفة ذات الإتجاه العنفي الواضح. وقد كانت نوازع العصبية وعدم فهم الإسلام جيداً من العوامل التي منعتهم من الإستجابة التامة للرسول الذي ينتمي لقريش وعدم التفاعل مع دعوته القائمة على التوحيد أساساً.

وكانت شعارات الخوارج (لا حكم إلّا لله) كمن يسوّق بضاعة إلى بائعيها الأصليين. وكان أجدر بصحابة الرسول أن يعلّموا الناس محتوى هذا الشعار، وليس أولئك الذين لم يكونوا من صحابته ولم تتح لهم حتى فرصة رؤيته أو الجلوس معه..

لقد فهموا الإسلام من خلال رؤيتهم القاصرة، وتجرأوا على الإمام علي عليه السلام حين اضطر إلى قبول التحكيم بضغوط منهم، وقالوا له: (لا حكم إلا لله. الحكم لله لا لك يا علي. لا نرضى أن تحكّم الرجال في دين الله).. وقد اعترفوا بخطأهم بعد ذلك حين أجبروه على التحكيم وأعلنوا توبتهم عن ذلك، وطلبوا منه أن (يتوب) أيضاً كما تابوا وإلا برئوا منه وحاربوه مع أنهم كانوا يعلمون أنهم هم الذين أجبروه على قبول ذلك التحكيم.

إلّا أنّ الأمر لم يكن لعبة، ولم يكن بإمكانه التراجع عن وعوده بقبول التحكيم والإخلال بعهده وميثاقه، وذكّرهم بقوله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾[2].. فقد كان ينظر للأمور بعين رسول الله وبمنظار الإسلام..

---

(١) القرآن الكريم: المائدة ٥: آية ١.

(٢) القرآن الكريم: النحل ١٦: آية ٩١.

وهكذا وقعت القطيعة التامة بينه وبينهم. فقد كان الذي جعله يقبل التحكيم هو خشيته من وقوع الفتنة في معسكره الذي يضم فئات مختلفة الإتجاهات والأمزجة وفي مقدمتهم الخوارج المتشدّدون.

○ ○ ○

حماس أجوف وتأثّر بالشعارات البراقة

لقد اتسمت تصرفات الخوارج على الدوام بالطيش والتسرع في غمرة حماس أغلبيتهم وتأثرهم بالشعارت البراقة التي رفعها بعض من أرادوا الفتن والخلاف. فكانوا وقوداً لحروب ومعارك ضارية أنتهت بخسارتهم في نهاية المطاف.

وفي جميع المراحل كانوا أقلّية، ولم يكن لهم رصيد شعبي كبير ولم ينالوا تعاطفاً من قبل أغلبية المسلمين بمختلف إتجاهاتهم.

ونلاحظ أنهم كانوا يعملون في أجواء تنظيمات خفية تشدهم إلى بعضهم حتى قبل التحكيم وخصوصاً في مسألة الفتنة التي أدت إلى مقتل عثمان. وتشير بعض الوثائق إلى أنّ هناك أصابع خفية من خلف الستار كانت تدير وتنظم فعالّياتهم.

لقد برزوا ككتلة متشوقة (للجهاد) والحرب وإفشال أيّ مخطط للتسالم. ففي ظل مثل تلك الأجواء المشحونة بالقطيعة والدم يمكن تمرير الخطط المعادية وتنفيذ الأجندات الخفية لمن يقفون في الظل.

ففي أجواء السلام والحوار والتصالح لن يكون لهم أيّ دور. ولذلك كانوا حريصين في كل مراحل وجودهم على تبني ثقافة الصراع والقتال مع من اعتبروهم أعداء لهم، وهم جميع المسلمين الذين لا يتبنّون رؤيتهم وتوجّهاتهم.

○ ○ ○

لعبة التحكيم مؤامرة على الإسلام

عمرو بن العاص وأبو موسى الاشعري: ألخب والمغفّل!

إنّ لعبة (**التحكيم**) ونتائجها، والتواطيء الخفي بين عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري (**الذي فرض على الإمام ليكون ممثلاً له في التحكيم**) وموقفه المتميّع الأقرب للخيانة المكشوفة، وعدم ميله للإمام علي منذ الأساس وطموحه بجعل مسألة الخلافة شورى أو تولية عبد الله بن عمر، سبّبت إنقسامات كبيرة في صفوف جيش الإمام، وأعطت زخماً لمعاوية ليمضي في مشروعه الإنفصالي.

إنّ ملابسات التحكيم ووقوع الفتن في جيش الإمام (**وهو الخليفة الشرعي**) والذي عومل كندّ لمعاوية (**الوالي المتمرد**) جعل الحكمين يتجرّءان على خلع الإمام والإبقاء على معاوية، مع ادّعاء متهافت من قبل أبي موسى الأشعري بأنهما قد اتفقا على خلعهما معاً وإنكار عمرو بن العاص ذلك.

إنّ الرواية الشائعة عن قيام ابن العاص بخديعة الأشعري تبدو واهية غير مقبولة، بل بدت كعرض مسرحي مكشوف أريد به خديعة الأغلبية الساذجة من جماهير المسلمين. فقد عرض أبو موسى كإنسان مغفل ضعيف الرأي تنطلي عليه أبسط الخدع والألاعيب.. مع أنه لم يكن كذلك، والثابت المؤكد عنه أنه لم يكن يميل للإمام علي عليه السلام **إنما يحس بالضغينة عليه.**

ولم يكن في التحكيم موكولاً إلى ضعف رأيه وقلة خبرته - هذا إذا صح أنه كان كذلك - وإنما كان يترأس مجموعة من الخبراء العارفين بالأوضاع، وأغلبهم من أصحاب الإمام، فليس من المعقول أن ينفرد برأيه في التحكيم، أو يعرض سيناريو اخراج تلك الملهاة بالشكل الذي يقول: انّ الأشعري وابن العاص اتفقا على خلع صاحبيهما، فصعد الأشعري أولاً عندما قدمه عمرو بن

العاص وخلع الإمام بأعتبار أنّه مخول بتمثيله والحكم بما يراه مناسباً، ثم تلاه ابن العاص وثبّت معاوية.

ومن المعلوم أن عبد الله بن عباس انتبه مسبقاً لمثل هذا السيناريو المحتمل وحذّر الأشعري منه.

ولم يكن الأمر ليجري بذلك الشكل الذي تم فيه، لولا تواطيء غير معلن إتفق فيه الرجلان على خلع الإمام وتمرير واحدة من أكبر المؤامرات في تأريخ المسلمين التي لايزالون يعانون من نتائجها وتداعياتها عبر كل تأريخهم الطويل.

إن إتفاقاً بمثل هذه الأهمية كانت ستُعد له وثيقة أو محضر مكتوب يضم بنوداً واضحة يوقع عليها أعضاء فريقي التحكيم مع شهود موثوق بنزاهتهم. وقد تم الإتفاق على ذلك في بداية الإجتماعات. فلماذا تخلى عنه الأشعري لو لا أنه أراد تمرير مخططه مع ابن العاص، ثم ليحتّج بعد ذلك - متظلّماً - بأنّه قد خُدع من قبل هذا الأخير، وأنهما اتفقا على خلع علي ومعاوية بنفس الوقت، لا علياً وحده، بقصد جعلها (شورى) بين المسلمين؟ وهكذا جعل محصلة ذلك لصالح معاوية.

إن معادلة بسيطة أريد وضعها في أذهان المسلمين:

طرفها الأول: أبو موسى الأشعري، إدعى أنهما اتّفقا على خلع علي ومعاوية.

الطرف الثاني: عمرو بن العاص، ادعى انهما اتّفقا على خلع علي وحده.

المتفق عليه المؤكد بينهما: أنهما خلعا علياً.

المختلف عليه: أن أحدهما لم يخلع معاوية.

وبذلك رجّحا كفة معاوية بنظر أعداء علي ومناصري معاوية من أهل الشام وغيرهم من المتذمرين من الحرب والذين آثروا السلامة والحياد واللامبالاة. وليست أعداد هؤلاء بالتي يمكن أن يستهان بها. وقد أعطيا دعما معنوياً كبيراً لمعاوية إذ ساوياه بعلي (الخليفة الشرعي) أولاً، ثم رجّحا كفته عليه عندما لم يتفقا على إزاحته بينما إتفقا على إزاحة الإمام. وهو ما أثبت صواب نظرته حول التحكيم منذ بداية الأمر عندما رفضه ثم عندما أُجبر على قبوله، وعندما بيّن عدم إطمئنانه إلى أبي موسى، ثم عندما أُجبر على قبوله حَكَماً بفعل ضغوط الأشعث وغيره من الخوارج.

○ ○ ○

الحوار أبلغ من القتال

إنّ السذاجة والسطحية اللتين كان يتعامل بهما الخوارج، جعلتاهم يطلبون التحكيم أولاً ويصرون عليه إلى حد التمرد ورفع السيف بوجه الإمام علي عليه السلام. ثم رفض التحكيم الذي أرادوه مرتين، قبل وبعد ظهور نتائجه المشينة بزعم أنهم قد ندموا عليه، وأعلنوا توبتهم منه، وقد طلبوا من الإمام توبة مماثلة، وظلوا متمسكين بشعارهم: (لا حكم إلّا لله)، الذي بدا وكأنه قد اكتشف من قبلهم هم وحدهم ووجدوا فيه المفتاح السحري لفعّالياتهم الدموية فيما بعد، وكأن الله أنزل عليهم وحياً خاصاً، جعلهم يتوصلون إلى حكم الله الحقيقي في كل شيء.

وعندما رفض الإمام طلباتهم المجحفة وغير الواقعية، ذهبوا في عداوتهم له إلى حد اتهامه بالكفر. وقد ولّوا أحدهم أمور الخلافة بدلاً عنه، وهوعبد الله بن وهب الراسبي قبل أن يتجمّعوا في النهروان لشن حربهم على الإمام علي عليه السلام.

لقد فضح الإمام الحَكَمَين (حيث لم يعملا بالسنّة ولم يحكّما القرآن)، وتبرأ من حكمهما بعد أن انكشفا أمام الناس وبعد أن انكشفت دوافع لعبة التحكيم التي كان قد حذّر منها منذ البداية، وعزم على مواصلة الحرب ضد معاوية. غير أنّ الخوارج لم يستجيبوا له ورفضوا الإنضمام إلى جيشه ثانية إلا بعد (أن يتوب من الكفر والضلال اللذين وقع فيهما) بزعمهم. وكان ذلك شرطاً أساسياً اشترطوه عليه لكي يعودوا لمناصرته.

وهكذا عزم على مواجهة أهل الشام بدونهم. وفي أيام استعداد جيشه للمعركة المقبلة، قاموا بأسر أحد مناصريه من الصحابة المعروفين وهو عبد الله ابن خباب وزوجته. وعندما أعلمهم برأيه في الإمام علي عليه السلام: «**أنه أعلم بالله منكم، وأشد توقّياً على دينه وأنفذ بصيرة. .**» ذبحوه وبقروا بطن امرأته بجنينها، وقتلوا بعض النسوة، وفيهن إحدى الصحابيات. وأخذوا يعترضون الناس، ويقتلون الأطفال(١). .

كما قتلوا أيضاً رسول الإمام إليهم، فلم يعد أمامه إلّا التوجه إلى حيث تجمّعوا، قبل أن يعود إلى صفين ثانية، وحاول مناظرتهم والإحتجاج عليهم بأقوالهم وشعاراتهم.

وقد أبلغهم أنّ سبب قبوله التحكيم لم يكن نتيجة شكّ في موقف أو دين، وإنما (ليعلم الجاهل ويتثبّت العالم، ولعل الله عز وجل يصلح في الهدنة هذه

---

(١) الدينوري، ابن قتيبة أبو محمد عبدالله بن مسلم: «الإمامة والسياسة أو تأريخ الخلفاء». ج ١، ص ١٢١. (ط مصر، ١٩٦٧م). وكذلك: الدينوري، أبو حنيفة: «الأخبار الطوال» ص ٢٠٢. (ط القاهرة، ١٩٦٠م). وكذلك راجع: ابن جرير، الطبري: «تأريخ الأمم والملوك». ج ٦، ص ٣٣٦٥.

الأمة)[١] وأن الغرض منه كان لفضح تواطيء الحكمين اللذين خالفا السنّة ولم يحكما بالقرآن فوجب على الجميع نبذ أحكامهما[٢].

كما حذّرهم من التمادي في قطيعتهم وعداوتهم، فأقروا أنه صادق في جميع ما قال، غير أنهم زعموا أنّه كفرحين حكّم الحكمين.. ويبدو أنهم كانوا مقتنعين بحجتّهم. وعندما طلب منهم تسليم قتلة ابن الخباب، أبوا ذلك وقالوا: كلنا قَتَله وشرك في دمه، وكلنا مستحلّ لدمائكم ودمائهم.

غير أن قسماً كبيراً منهم قد انسحب من صفوف الخوارج إثرَ محاورة الإمام لهم مقتنعين بحججه وإيراداته، وتجمع الباقون في النهروان وخاضوا معركة عنيفة ضده، فقتل أغلبهم في المعركة إلّا قليلاً منهم فرّوا[٣] فكانوا نواة لموجات جديدة من الخوارج ظهرت في أماكن أخرى وبمسمّيات عدة، وكانت خلاياهم النائمة تجمع حولها أعداداً متفاوتة لخوض معارك ضارية طوال العهد الأموي والصدر الأول من العهد العباسي.

لقد ظل جمر الخوارج تحت رماد من قتل منهم، ولم تنته ظاهرتهم التي اتسمت بالتطرف والعنف في كل أطوارها، حتى بعد اغتيال الإمام علي على يد أحد متشدديهم في حركة مدبّرة. وقد ذُكر أَن ابن مُلجم (منفذ الجريمة) أعلن قبل الإغتيال عن نواياه، وأُخذ للإمام للإقتصاص منه، إلا أنه لم يؤاخذه باعتباره لم ينفذ جريمته بعد، وقال: ما قتلني بعد، فخلّوا عنه.

---

(١) الطبري، ابن جرير: «تأريخ الأمم والملوك». ج ٦، ص ٣٣٧٣. وأيضاً راجع: المقدسي، مطهر بن طاهر: «البدء والتأريخ». ج ٥، ص ١٣٦. (ط باريس، ١٩١٦م). نقلاً عن: معروف، نايف: «الخوارج». ص ٢٧ (ط ٣، بيروت).

(٢) الطبري، ابن جرير: «تأريخ الطبري». ج ٦، ص ٣٣٥٣. وأيضاً ابن الأثير الشيباني، أبو الحسن علي بن محمد: «الكامل في التأريخ». ج ٣، ح ٣٢٨. (ط بيروت، ١٩٦٥م).

(٣) الدينوري، ابن قتيبة أبو محمد عبدالله بن مسلم: «الإمامة والسياسة أو تأريخ الخلفاء». ص ٢١٠. (ط مصر، ١٩٦٧م). والطبري م. ن. ج ٦، ص ٣٣٨٢.

وكان إذا رآه يتمثل ببيت من الشعر:

أُريد حباءه ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد

فيقال له: كأنك عرفته ما يريد، أفلا تقتله؟

فيقول: وكيف أقتل قاتلي؟!

والواقع أنّ جريمة الإغتيال كانت نتيجة عمل مدّبراشتركت فيه أطراف من الخوارج وغيرهم من أعداء الإمام وخصومه وفي مقدمتهم معاوية والأشعث. وقد دلت على سعة طموحات الذين دبروا الجريمة، فقد كان هو العقبة الكبرى أمام تلك الطموحات غير المشروعة. كما دلت على طول باعهم في المؤامرات والتدليس وعدم تحرّجهم من القتل والجريمة.

○ ○ ○

خوارج، بمسمّيات أخرى

وطوال عهودهم اعتقد الخوارج انّهم الفرقة الناجية المنصورة الوحيدة من بين جميع المسلمين واعتقدوا أهليّتهم لقيادتهم وفق رؤيتهم المحدودة، وظلوا طوال عقود يحاربون بعزم واستماتة كل الخطوط الأخرى.

وقد عُرفت أغلبيتهم المضلَّلة لكن المقتنعة بشعاراتها وتوجّهاتها، بالإستماتة والشجاعة التي بلغت حد التهور في مواجهة خصومهم من المسلمين، وهو ما اتّسمت به معاركهم ومواجهاتهم رغم علمهم بأنهم سيقتلون في أغلبها.

وإذ أن فئات عديدة من المسلمين حملت بعد ذلك نفس هذه الرؤية المحدودة، فإن التوجه الخوارجي ظهر في سلوكهم وأفعالهم وإن لم يتَسَمَّوا بإسمهم.

وقد ظهرت على امتداد التأريخ الإسلامي حركات تقمصت أفعال وتصرفات الخوارج مثل القرامطة وغيرهم.

ولعل الحركة الوهّابية المتأخرة تأريخياً عن حركة الخوارج، والتي عرف قادتها بطموحاتهم للملك والتوسع وقيادة العالم الإسلامي، هي الوريث المناسب لأولئك المتشددين الأوائل. ولا زالوا في ظل أجواء التوتر والأزمات التي يثيرونها يحيلون حياة المسلمين، وربما العالم، إلى جحيم وسعير محموم ربما يكونون هم من وقوده في نهاية هذه الحرب العالمية القائمة على الإرهاب.

○ ○ ○

إن قراءة شاملة في تأريخ الخوارج تدلل على أن مسألة تكفير من لا يدينون بعقائدهم المبنية على فهم خاطيء للإسلام وخوض الحروب معهم، أيسر على غالبيتهم الجاهلة والمضللة من الخوض في دراسات جديّة لأحكام وشرائع الإسلام. وأن الحوار والتفاهم والدعوة بالتي هي أحسن، كما دعا إلى ذلك القرآن الكريم هي أخر ما كانوا يفكرون به(١).

كما تدلل على أن مسألة قتل الآخرين واستباحة عوائلهم وأموالهم أصبحت من مفردات ثقافتهم العامة المبينة على القطيعة واللاتسامح، وأصبحت لفظة (خارجي) تعني: الرجل العنيف الذي لا يقبل التفاهم، وهو يعدل صاعقة السماء النازلة بالبلاء والتي تحرق كل من ضربته.

لقد صنفوا الناس إلى فسطاطين، وحاولوا أن يأتوا بجهنّم للأرض لكي يحرقوا فيها أعداءهم وهم الأغلبية الساحقة من الناس. وأصبح إندفاعهم

---

(١) قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وتهورهم الأسطوري مبعث رعب لكل من تعرض لعملياتهم (الجهادية) الإنتحارية غير المبررة.

إن قراءة مماثلة في تأريخ الوهّابيين ستدلل على أن لهم نفس التوجه الخوارجي الأول العنيف المحارب المنغلق والرافض للحوار. فتشددهم لا يمكن أن يتجاهله أحد الآن في ظل حركة الرصد والمراقبة العالمية لفعاليات الحركات والأحزاب والمنظمات التي جعلت الوهّابية مرجعية لها والتي تريد تدمير العالم أو إخضاعه لها.

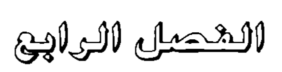
○ ○ ○

المتشدّدون مطايا للطامعين وأصحاب الأجندات الخفيَّة

إنّ قراءة دقيقة في تأريخ الوهّابيين أيضاً، تثبت أنّ الطموحين وأصحاب الأجندات السرّية، يجدون فيهم مادة دسمة لتحقيق طموحاتهم، لسهولة إختراقهم بمجرد رفع شعاراتهم ثم توجيههم للهدف الذي يريدون. فتوظيف حماس هؤلاء المتشددين يتيح لهم إنزال ضربات قوية بخصومهم ويجنّبهم (الطموحين) أن يكونوا وقوداً للحرب التي تشن نيابة عنهم من قبل هؤلاء المتشددين الذين رسخوا في أدبياتهم ثقافة رفض الحوار مع خصومهم لأنهم تيقّنوا أن حججهم وذرائعهم ستتهافت عندما يتحاورون (**كما حدث عندما تحاوروا مع الإمام علي وابن عباس**). إن مساع كبيرة من قبل أقطاب المدرسة الوهّابية الآن - كما في السابق أيضاً - تدعو الوهّابيين جميعاً إلى التمسك بثوابتهم وعدم الانجرار إلى النقاش والحوار مع أبناء المذاهب الإسلامية الأخرى، وخصوصاً (**الرافضة**) - ويقصدون بهم أتباع وشيعة أهل البيت، بدعوى أنّ لهؤلاء أساليب خاصة ستؤثر فيهم حتماً وأنّ من الأفضل اجتنابهم. وبذلك يؤكدون عدم قدرتهم على المواجهة الفكرية فيمارسون ضدهم إرهاباً فكرياً ليحصنوا أتباعهم من هؤلاء الخصوم المفترضين.

وإذ أنّ هذا يدل على الخلل الواضح في منهجهم ويدل على ضعف هذا المنهج، فإن ما ينبغي القيام به هو النفاذ من هذه الثغرة لتوعية وتبصير جماهيرهم المضلّلة، وهذا هو الحلّ الوحيد لمنع تماديهم في التطرف والعنف.





قراءة في تأريخ
وأدبيات الوهّابيين ورثة التطرف

إمبراطورية جديدة.. وشعارات قديمة

لعل الولادة العسيرة والتي بدت شبه مستحيلة للدين الوهّابي منذ حوالي قرنين ونصف، والمواجهات العنيفة التي خاضها أقطاب وزعماء هذا الدين مع المحيط والجوار، والتي كادت أن تؤدي إلى القضاء عليه عدة مرات، جعلت الوهّابيين أقوياء وحاذقين بما فيه الكفاية، وجعلتهم يتقنون فنون الكرّ والفرّ والمراوغة والتخفي مع خصومهم ومناوئيهم مهما بلغت قوة وإمكانات أولئك الخصوم.

لقد أصبح بإمكانهم تقديم مفردات معروضهم المذهبي على أنها توجهات تقدمية إصلاحية لا تستهدف نسف الموروث الديني السائد للمذاهب الإسلامية بقدر ما تهدف إلى تنقيته من الشوائب و(البدع). وقدموا أنفسهم مصلحين ورعاة ومدافعين عن أهل السنّة، وذلك لاحتوائهم وقيادتهم. وهو الأمر الذي كادوا أن ينجحوا فيه إلى حد بعيد في أغلب المناطق الإسلامية.

لقد أصبح بإمكانهم استغلال أوضاع المسلمين السيئة في عصر الإنحطاط المتأخر للعالم الإسلامي الذي امتد عدة قرون ومنذ سقوط الدولة العباسية، لرسم صورة خاصة لهم تزعم أنها تطابق رؤية صدر الإسلام والقرون الثلاثة اللاحقة باعتبارها خير القرون(١).

---

(١) مستندين في ذلك إلى حديث مشهور ومتداول في أغلب الصحاح الإسلامية منسوب للنبي ﷺ زعموا أنه قال فيه: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم». وهو أمر لا يمكن تأكيد صحته من الناحية الروائية الحديثية وكذلك من الناحية الواقعية. إذ كيف يمكن لأجيال على مدى ثلاثة قرون أن تستأثر بالخيرية دون غيرها؟ لقد أريد بهذا =

وإذا ما كانت تلك الأوضاع تستدعي حقاً ظهور حركة إصلاحية، فلا يمكن الادِّعاء، على ضوء ما أفرزته الحركة الوهّابية من تداعيات، أنها هي تلك الحركة المطلوبة، بل يمكن أن يقال أنها الحركة التي زادت أوضاع المسلمين سوءاً وفاقمت من مشاكلهم ومهدت لعصر أكثر ظلاماً وتخلفاً.

لقد ساعدت تحالفات الوهّابيين في عهد دولتهم الثالثة، أيّ منذ بداية عصر عبد العزيز آل سعود الذي حكم نجد والحجاز خلال النصف الأول من القرن العشرين (١٩٢٦ - ١٩٥٣م) مع بعض الدول الغربية على تصنيفهم من قبل الغربيين أنفسهم على أنهم مطية مناسبة لتمرير مشاريعهم التوسعية وغيرها. وساعد وجود البترول في أراضيهم، والذي استغلوه بطريقة كيفية تعسفية على تمرير أطروحاتهم ونشر أكبر كذبة في تأريخ المسلمين حول حقيقة هويتهم وإيقاعهم في أكبر مأزق عرفوه وذلك بوضعهم على أعتاب قرن إحترابي مسعور وأوضاع متشنجة وزرع بذور التكفير والفرقة وجعلهم يخوضون معارك غير مبررة ليست ذات هدف واضح.

لقد استغلت أجزاء كبيرة من أموال البترول لإقامة كيان دولة كهنوتية دينية على غرار النظم الإمبراطورية الإسلامية الوراثية، التي تبدو ظاهرياً مروجة للإسلام ومدافعة عنه بينما هي في الواقع سوسة كبيرة تنخر كيانه.

وقد نجحت مساعيهم في تضليل أعداد كبيرة من المسلمين وغيرهم بحقيقة نواياهم وأفعالهم، وعرض دينهم بشكل جاذب لانظار وقلوب الطبقات الشعبية الأقل علماً وثقافة، بعد أن وظّفوا جهات متمرسة في مؤسساتهم الدينية ذات الإنتشار الواسع في جميع أنحاء العالم الإسلامي. وأصبح لهم (**علماء**) ذوي

= الحديث المزيف تلميع صور شخصيات لها مواقف مناوئة للإسلام منذ ظهوره وعرضهم على أنهم نماذج معصومة أو خيّرة في أقل الإحتمالات.

حصيلة معرفية كبيرة في فنون التضليل وإخفاء الحقائق وَلَيّ زمام ورقاب النصوص القرآنية، واستخدام نصوص مزورة منسوبة للرسول الأكرم ﷺ وبعض الصحابة لجعل إطروحاتهم مقبولة بعد أن كانت مثار جدل وخلاف..

○ ○ ○

خطاب منغلق في عصر منفتح

ويحاول الوهّابيون - بشكل لافت - الآن عرض أنفسهم طليعة حركية متقدمة ذات طابع إصلاحي تنويري، تقوم على منهج إيديولوجي وفلسفي متكامل، لا مجرد إتباع أحد المذاهب التقليدية الذي عرف بإيقاعه المتشنج الصارم وثوابته وقناعاته الرافضة لإتجاهات بقية المذاهب، ناهيك عن الأديان الأخرى.

لقد اشتهر المذهب الحنبلي على امتداد تأريخه، والذي أفرز الوهّابية، بدعاة عرفوا بخطابهم التحريضي ومعاركهم وسجالاتهم الدائمية لتصعيد وتائر القطيعة والخلاف، رغم اعتدال مؤسس المذهب (**أحمد بن حنبل**).

ويستحضر الوهّابيون الجدد - بفخر - الصورة الأولى التي فرضوا أنفسهم فيها حكاماً - بقوة السيف - وأقاموا دولة ذات نَفَس إمبراطوري مستبد في (**نجد**)، ادّعوا أنها كانت مثالاً للمدينة الفاضلة، وأنها حققت ما دعا إليه الإسلام من عدالة وأمن ورفاه.

إنهم يحاولون إبراز كل عناصر هذا الخطاب وآلياته التحريضية التلقينية غالباً، والتي يرون أنها قوية ومؤثرة، طالما إنهم يتكئون على مكانة بعض الرموز والشخصيات اللامعة عندهم لإحداث آليات الإتصال والتأثير الفاعلة تجاه التغيير الذي يرونه مناسباً للأجيال المسلمة، وإيجاد آليات لتدمير المجتمعات القائمة التي يرون أنها جاهلية. كل ذلك بأنماط نسقية تدّعي

احتقار الدنيا بشكل مبالغ فيه، وتخل بكل التوازنات التي دعا إليها الإسلام. وقد اتسعت قائمة محرماتهم لتشمل جميع المنجزات الحضارية والثقافية الحديثة، ودعوا للعودة إلى أنماط ووسائل الحياة البدائية التي كانت سائدة قبل أكثر من ألف عام.

وبذلك فإن العالم لم يعد يجد لديهم أية مساحة للحوار أو التعارف أو التواصل ناهيك عن التصالح أو التفاعل البنّاء مع الآخرين.

لقد ظلوا ضمن دائرة خطابهم المغلقة بمنأى عن الجميع، كأنّ الآخرين لم يوجدوا أصلاً أو أنهم مشروع لاستئصال أو إبادة جماعية في المستقبل!

ولا بد أن العديد من الباحثين يدركون الآن أن النسخة الأخيرة من خطاب المشروع السلفي قد تقمصها المشروع الوهّابي، الأحدث في تحقيق حلم (**الخلافة الإسلامية**)، والذي حمل شعارات الإصلاح المزيف ذات البريق الكاذب والرنين المضلِّل، والتي استهوت أولاً الشباب من بدو نجد ذوي الثقافة المحدودة قبل حوالي قرنين ونصف.

وقد أريد للشباب المعاصر استنساخ التجربة الوهّابية وتقليدها حتى في دمويتها وأساليبها العنيفة عندما بدأت كذلك في ذهن مؤسسها محمد بن عبد الوهّاب، ثم وضعها على الأرض (دولة إسلامية)، سميت من قبل بـ(الدولة السعودية)، وفي مراحل متأخرة (المملكة العربية السعودية)، وفق منظومة الضوابط والتعليمات التي وضعها لشريكه الأول (**محمد بن سعود**) ولأبنائه من بعده.

وقد بدأ هذا الخطاب السلفي الوهّابي يخسر الكثير مما حققه في الحرب العالمية الراهنة على الإرهاب، عندما بقي متمسكاً بآلياته ومفرداته ومنهجه التقليدي المسطح والمتشنّج الذي تشم منه رائحة العداوة، لا لغير المسلمين وحسب، باعتبارهم (**كفاراً**) وإنما لأتباع الطوائف والتيارات الإسلامية

الأخرى التي ليست لها رؤيته ومواقفه. خصوصاً وأنه بدأ يتسرب من بين أيدي حملته التقليدين التابعين للدولة أو الحرس القديم، إلى فصائل إرهابية كبرى مثل (**القاعدة**) و(**طالبان**) و(**التوحيد والجهاد**) وغيرها والتي نزلت به من ظلامه النسبي إلى ظلام مطلق، وكشف حقيقة شعاراته المضللة، وقدمته خطاباً متخصصاً بالقتل والذبح والتكفير والإقصاء.

○ ○ ○

مرجعّية فقيه متطرفة (مرجعية طازجة)

ومع أنهم حاولوا عرض ثوابتهم وقناعاتهم، على أنها ثوابت ومسلّمات الدين الإسلامي نفسه، إلّا أنهم أباحوا لأنفسهم حراكاً غير منضبط لا يقرّه الإسلام، عندما اعتبروا أنفسهم جماعة حركية سياسية لها أهدافها وأجندتها الخاصة (**مع أنهم لم يعترفوا بذلك صراحة**)، مدّعين أنها أجندة إسلامية خالصة، فقد أدرك أقطاب مؤسستهم الرسمية القائمة على رعاية هذا الخط، أنّ خطابهم الذي تمتع بوهج طاغ خلال العقود الثلاثة الأخيرة والذي اعتبروه بعثاً لمشروع (**محمد بن عبد الوهّاب**)، قد بدأ ينحسر في بعض المواقع ويفقد قدراته الإقناعية وسلطانه القوي على الشباب المبهورين برموزه وشخصياته، بعد أن ازداد لديهم الوعي بعواقبه المدمرة إذا ما استمر على هذا النسق التحريضي العدائي المتقاطع مع جميع التوجهات الأخرى، وأن نتيجة الانجراف ورآءه ستكون غير محمودة، وأنهم سيكتوون - قبل غيرهم - بالنار التي يؤججّونها لخصومهم.

غير أن هذا التيار الذي يبدو أكثر عقلانية، لن ينجح بالتأكيد في كبح جماح الحلقات المنفلتة والتيارات المحاربة التي ولدت في رحم الحراك غير المنضبط للخطاب السلفي عبر تأريخه البعيد، وعلى يد شيوخ متعصبين وفي

مقدمتهم: (أحمد بن عبد الحليم بن تيمّية)[1] الفقيه الحنبلي المتطرف الذي

---

(١) هو أحمد بن عبد الحليم بن تيمّية (١٢٦٢-١٣٢٨م) فقيه حنبلي مثير للجدل، مؤسّس ما يسمى بالتيار الأصولي السلفي. امتاز بذاكرة قوية وذكاء ملحوظ غير أنه اشتهر بحدة الطبع والتحامل على مخالفيه. وظّف طاقاته الكلامية في معارك سجالية حادة، أجّجت نيران الخلافات والفتنة بين أبناء المذاهب الإسلامية المتعددة. عاش أغلب حياته في دمشق على خلفية تأريخية وإجتماعية متحيزة لرموز العائلة الإمبراطورية الأموية المعروفة بسجلها المنحرف ونزعتها للتوسع والإستبداد، والتي استلمت الحكم (الخلافة) في ظروف دراماتيكية خاصة. بعد أن كانت من أشد معارضي الإسلام. وقد لجأت إلى وضع كم هائل من الأحاديث المزوّرة على لسان النبي محمد ﷺ لترسيخ سلطتها المافياوية ورؤيتها البعيدة عن كل تطلع ديني أو إنساني ليصبح فيما بعد موروثاً دينياً مقدساً! استند إليه فقهاء السلطة التأريخية لتمرير أعمالها وشرعنتها.

ويعدّ (ابن تيمّية) ممثلاً لفقهاء التكفير والعنف الذين ضمتهم دمشق حاضنة التطرف في ذلك الوقت وبؤرته المعادية للإسلام المتسامح. وقد اعتمد إيحاءات غامضة مضللة للبرهنة على صحة الآراء التي تبناها وروج لها مثل ترديد عبارات: (إتفاق أهل العلم، إجماع السلف، قول السلف، عقيدة السلف... إلخ). وترديد عبارات مماثلة للتدليل على بطلان آراء مخالفيه مثل: (هذا الحديث لم يرد في شيء من كتب أهل السنن، ما عمل بها أحد من أهل السلف، أو من أهل العلم، أو الجمهور أو أصحابنا... إلخ)، في محاولة للبرهنة على أنه يستند إلى قاعدة عريضة من العلماء (الثقاة) الذين يتعمد إغفال ذكر أسمائهم التي قد لا تكون موجودة أصلاً، للتأثير وكسب المعجبين. ولم يكن يهمه عدم توخي الدقة والمصداقية، أو الوقوع في أخطاء النقل والرواية ما دام يرّوج لرأيه ومذهبه.

وقد استمال بذلك تياراً شعبياً من الجهلة وأنصاف المتعلمين، أعجبوا بطريقته في الكلام والإستدلال ودعوته إلى معاداة الفلسفة والمنطق والتوجهات العقلية الحوارية القائمة على الإقناع، لا التلقين القسري وفرض الرؤية الواحدة. وتحاول مجموعات كبيرة منهم مجاراته في استدلالاته التي لا صحة لها ونصب أنفسهم مفتين وعلماء.

أجّجت مقالاته وكتبه وفتاواه القائمة على فهم خاص للإسلام وأسلوبه التحريضي القاطع معارك كلامية، تحول بعضها إلى نمط استدمائي استنفر الغضب والحقد لدى معجبيه وأنصاره ضد الاخرين ودفعهم للإنسياق والتحيز إلى رؤيته الخاصة إلى حد اعتباره أهم شخصية إسلامية، مما جعله أحد أبرز أقطاب الفتن والإنقسامات والمعارك الطائفية التي =

يعتبر في مقدمة الرموز المؤثرة في صياغة الذهنية السلفية التقليدية. وقد أصبح تدريس فكره وفقهه وفتاواه في المدارس والمساجد والمعاهد السعودية تقليداً قائماً منذ أيام خليفته ووريثه (**محمد بن عبد الوهّاب النجدي**) منذ إقامة الدولة السعودية وإلى الآن، وامتد نطاق تدريس مؤلفاته في الوقت الراهن إلى أقطار عديدة (**حتى في أمريكا وأوربا**) بفعل أموال الدولة البترولية الغنية.

لقد إتكأ على أطروحات (**ابن تيمية**) وآرائه الفقهية والدينية، جميع حاملي الخطاب السلفي من المنتمين للخط الرسمي المهادن والمتلوّن أو الخط القتالي المكفّر، وادّعوا (**شرف الإنتساب**) لفكره ومدرسته. إذ أصبحت له سلطة كبيرة عليهم، أصّلها ورسّخها تلميذه (**محمد بن عبد الوهّاب**) ومدرسته الوهّابية. فله حضور كبير في ضمائرهم وعقولهم، وخصوصاً أعضاء الخط المتشدد الذين وجدوا في بعض آرائه مايبيح لهم التمادي في الغلو والتطرف.

= لا يزال العالم الإسلامي (**والعالم كله الآن**) يعيش تداعياتها وتداعيات النظرة الضيقة التي حملها الفقيه الحنبلي المتشدد الذي أجج بؤر التطرف المذهبي الخلافي ناشراً ألغام الغلو والمبالغة في خطابه، حتى ليمكن اعتباره المؤسس الحقيقي للوهابية وخطابها السطحي الذي تموضع في تلال نجد في بداياته الأولى.

لقد كادت آراؤه وأفكاره تندرس حتى بين أتباع المذهب الحنبلي في حدود جغرافيته المذهبية في نجد، لو لم يتبنّها (**محمد بن عبد الوهّاب**) دون مناقشة أو تمحيص، وينشرها ويرسخها في الإمارة السعودية القائمة بالقوة والغزو.

ولا يزال أتباع الخط السلفي الوهّابي بالذات، ينظرون اليه كعبقري مجدد، وأطلقوا عليه لقب (**شيخ الإسلام**). وتسعى المؤسسة السعودية الحاكمة بكل مفاصلها ومؤسساتها وتياراتها الثقافية والحكومية لنشر طبعات فاخرة من كتبه وتدريسها في مدارسها وجامعاتها ومساجدها ومراكزها الثقافية في المملكة وفي كل أنحاء العالم امتداداً إلى أوربا وأمريكا. وأصبح طلابه والمعجبون به ينتشرون خارج حدود الجغرافيا المذهبية التقليدية للمذهب الوهّابي.

للمزيد عنه وعن مدرسته وأفكاره راجع كتاب «**ابن تيمية، في صورته الحقيقية**» تأليف صائب عبد الحميد [الناشر].

تصعيد وتائر العنف: وسيلة لتبرير المعتَقَد

لقد تمثل رد فعل أغلب منتسبي هذا الخط على انحسار نفوذهم وخطابهم في بعض الأماكن والأوساط الإجتماعية، بقيامهم بتصعيد وتائره المتشنجة لتضم المزيد من الناس إلى (**دائرة الكفر**) التي يعملون على توسيعها باستمرار لتبرير فعالياتهم ونشاطاتهم القتالية. كما لجأ (**العقلاء**) منهم إلى إحناء رؤوسهم مؤقتاً أمام عواصف الشجب والنقد التي بدأت توجه إليهم، وادعاء تبنّي ثقافة التسامح والوسطية وتقبّل الحوار والرأي الآخر، ريثما تتاح لهم فرصة التقاط أنفاسهم في السجال المحموم الذي صعّدوا فيه المواجهة إلى دموية مسلحة.

لابد أن نشير إلى طرف ثالث من هؤلاء، بدأ يعيد النظر حقاً بمواقفه السابقة، ويعمل على صياغة موقف جديد، بعد أن أدرك أن الخطاب السلفي المتفجر لم يعد يلامس وجدان وعقول بعض من يخاطبونهم من الناس، وبعد أن سئمت جماهيره التقليدية نفسها تقريريته وأسلوبه التلقيني النسقي الرتيب والمكرر على لسان دعاته ومنظّريه. وبدا واضحاً لهم البون الشاسع بينه وبين معطيات الحياة الواقعية، وأدركوا أنهم لا بد أن يتخطوه إن ارادوا أن يعيشوا حياتهم كما ينبغي، لا كما يذهب الكثير من أتباع الدعوة السلفية من المتشددين إلى الدعوة للتمسك بأنماط وشكليات الحياة القديمة التي أصبحت فولكلوراً، رسموها في مخيلاتهم على أنها أفضل البيئات النموذجية وأكثرها صلاحية لاحتضان الإسلام ونموّه ونشره من جديد، طالما أنها قد شكلت في السابق البيئة الأولى لمسلمي التأسيس.

ولعلهم يحلمون بمناطق مشابهة في (**نجد**) أو (**تورا بورا**) أو صحراء غرب العراق لإقامة دولة إسلامية مماثلة، محاولين تناسي فاصلة الاربعة عشر قرناً التي تغيرت فيها الأنماط الحضارية والعمرانية ووسائل الإنتاج والمواصلات بشكل هائل.

إن هؤلاء الآخرين يقفون ضد كل توجه متسامح يعطي مساحة معقولة للإجتهاد والنظر المنضبط القائم على آليات الدراسة الجادة في اللغة والمنطق والتأريخ والفلسفة والفقه للتفاعل مع مستجدات الحياة وضمان التعايش مع الآخرين دون ضغائن أو مشكلات.

وقد حشروا أنفسهم في عجلات التغيير والإصلاح بقصد إيقافها وإرجاعها للوراء، مستعينين بكم هائل من أحاديث وروايات أغلبها موضوع أو مزور، متناثر في بطون مئات الكتب والموسوعات التي جُعل بعضها موازياً في أهميته للقرآن مثل (صحيح البخاري) وغيره!

لقد أريد لهذه الأحاديث الملفقة التي زيفت من قبل أعوان السلطات التأريخية الحاكمة أن تمنح هؤلاء شرعية الوجود والحكم والنفوذ، ليظلوا على قمة مجتمعاتهم قادة وموجهين وكهنة يباح لهم ما لا يباح لغيرهم.

إن أتباع هذه المدرسة اقتصروا على قراءة واحدة للإسلام، عازمين على تصدير فهمهم للآخرين وفرضه بالقوة، كما دأب الوهّابيون على ذلك منذ نشأتهم المبكرة على يد المؤسس الأول.

○ ○ ○

(محمد بن عبد الوهّاب) و(الوهّابية):

- قراءة في مرحلة التأسيس: تأصيل العنف والعداوة

ثمة سجالات ساخنة لا تزال تدور في الأوساط الإسلامية (غير الوهّابية) حول مسيرة المؤسس: (**محمد بن عبد الوهّاب ١٧٠٢-١٧٩٢م**). فهو أكثر شخصيات ما سمي (**بعصر الإنحطاط**) إثارة للجدل، لما تركه من بصمات واضحة على مجرى الأحداث في تلك الفترة وما بعدها، أيّ طوال قرنين ونصف.

محطات حياته العاصفة في أبعد الأماكن عن مراكز الحياة والحراك في العالم، تثير أكثر من علامة استفهام. فهو نتاج بيئة متحجرة، بعيدة عن تخوم الحضارة والتطور. وقد وجد فيها أتباعاً ومريدين ينتمون إلى عصور متخلفة قديمة. وكانوا بدورهم نتاج التخلف والإنغلاق الذي أفرزته تلك البيئة.

وقد أصبحوا فيما بعد - وخصوصاً في عصرنا الراهن - لوجود جماعات بشرية أخرى، تنتمي لنفس عالمهم، وتعيش أوضاعاً مشابهة لأوضاعهم في باكستان وأفغانستان وغيرها، آلافاً، بل ملايين يتوزعون في شتى بقاع الأرض.

الإنجازات الحضارية والمظاهر العمرانية المتطورة لا تهم هؤلاء ولم تغيرهم، وأصبحت بنظرهم دلالة على الإبتذال والترف الذي لا موجب له والذي ينبغي إيقافه حالاً، ولو اقتضى الأمر إيقاف الحياة بأجمعها.

لم تنطفيء أضواء نجومية (**الشيخ**) بعد موته، وظل مثلاً لجماهير واسعة، وخصوصاً لتلك المنتمية لِخطه، وأغلبيتهم الساحقة من المضللين ذوي المستوى الثقافي والمعرفي المتدني، لا يزالون يعيشون عصره المنكفيء، مع أنهم يعيشون في عصر حديث.

فهؤلاء، على اختلاف مستوياتهم وأمزجتهم، يرون فيه منقذاً جباراً، ومصلحاً أوحداً يرتقي إلى درجة الأنبياء المسددين بعناية إلهية خاصة، ويرون تعاليمه ومنشوراته خلاصة الأفكار الإسلامية المتطورة.

○ ○ ○

الولادة والنشأة

ولد (الشيخ محمد بن عبد الوهّاب التميمي النجدي) عام ١١١١هـ (١٦٩٨م)[١] في بلدة (العُيَيْنَة) في أعالي (نَجْدْ) في (وادي حُنَيْفَة) وهو المكان الذي نشأ فيه (مُسَيْلَمَةُ الكَذّاب) وأعلن فيه نبّوته الكاذبة أواخر عهد الرسول ﷺ، والذي ظهر فيه أول خارجي - كما بينّا في الفصل السابق - وكان حاضنة لحركة الخوارج المتشددة.

وقد وردت روايات متناقضة عن نشأة الشيخ قد لا يخلو أغلبها من مبالغة وابتعاد عن الحقيقة بسبب اختلاف المواقف والأسباب.

وقد جعل منه المتحيزون إليه إنساناً خارقاً ذا قدرات ومواهب إستثنائية لا تتاح إلا للأنبياء أو المصلحين الكبار.

كان والده قاضياً للبلدة ومدرساً للتفسير والحديث والفقه على مذهب (الإمام أحمد بن حنبل)[٢]. وقد ذكر مؤرخوه أنه استفاد من حلقات والده

---

(١) هناك اختلاف طفيف في التواريخ، فقد ورد في بعض المصادر أنه ولد عام ١٧٠٢م أو ١٧٠٤م.

(٢) وهو الذي ينسب إليه المذهب الحنبلي، أحد المذاهب السنيَّة الأربعة التي نشأت في العصر العباسي. وهي:

- **المذهب الحنفي**: ينسب الى أبي حنيفة النعمان بن ثابت. أفغاني الأصل، قضى شطراً كبيراً من حياته في بغداد وتوفي ودفن فيها سنة ١٥٠ هجرية - ٧٦٧ ميلادية. من آثاره الفقه الأكبر والفقه الأصغر وقد كتبا بأقلام بعض تلامذته.
- **المذهب المالكي**: ينسب الى مالك بن أنس. نشأ وترعرع وبرز فقيهاً محدثاً في المدينة المنورة، وتوفي ودفن فيها سنة ١٧٩ هجرية - ٧٩٦ ميلادية. من آثاره كتاب الموطّأ في الحديث، ومجموعة رسائل فقهية سميت بالمدونة الكبرى.
- **المذهب الشافعي**: ينسب الى محمد بن إدريس الشافعي. ولد في فلسطين وترعرع في مكة وتنقل بين اليمن وبغداد ومصر ثم مات ودفن فيها سنة ٢٠٤ هجرية - ٨٢٠ ميلادية.

الدراسية وأنه حفظ القرآن في العاشرة من العمر، وأنه كان سريع الكتابة (ربما كتب الكراسة في المجلس)[١].

وقد طلب العلم في المدينة بعد بلوغه الحلم لمدة شهرين كما حج مكة في ذلك السن المبكر (وذاق حلاوة التحصيل والفهم وزاحم كبار العلماء)[٢]، حتى أن والده القاضي استفاد منه، وكان يتعجب من فهمه مع صغر سنه حتى أنه قدّمه في الصلاة ورأه أهلاً للإمامة وهو يافع[٣].

على أن مؤرخين آخرين يناقضون المؤرخين الرسميين للدولة السعودية، يقولون أن أساتذة الشيخ كانوا يتفرسون فيه الغواية والإلحاد وأنه سيُظِلّ كثيراً من الناس. وقد شاركهم اعتقادهم هذا أبوه الشيخ عبد الوهّاب، وهو من العلماء الصالحين، وكان يحذر الناس منه وكذلك أخوه الشيخ سليمان[٤]

من آثاره **المسند في الحديث** وقد سمي باسمه. ورسالة في **أصول الفقه**، وتعد من أوائل ما كتب في علم الأصول.

- **المذهب الحنبلي**: ينسب الى أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني. ولد في بغداد وتنقل بين الحجاز ودمشق واليمن. وكان شديد التمسك بالسلف وبالنصوص ويبتعد عن الرأي والقياس. توفي في بغداد ودفن فيها سنة ٢٤١ هجرية - ٨٥٥ ميلادية. من آثاره **المسند في الحديث**، وقد سمي باسمه.

(١) مع أننا لا نجد مصداقاً واقعياً لذلك إذ أن ما وصلنا من كتاباته محدود جداً من حيث الكمية كما إنها لا تتعدى الفهم الأولي للإسلام والذي يستند إلى فهمه الخاص وانطباعاته الشخصية عنه.

(٢) النجدي، سليمان بن سَحمان: «تنبيه ذوي الألباب السليمة وتبرئة الشيخين الإمامين». ص ٩٠. (ط ٢، الرياض، ١٤١٠هـ).

(٣) ابن غنّام، حسين: «تأريخ نجد أو روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام»، تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد. ص ٣٦. (ط ٤، دار الشروق، بيروت/ القاهرة، ١٩٩٤م).

(٤) الأمين العاملي، السيد محسن: «**كشف الإرتياب في أتباع محمد بن عبد الوهّاب**». ص ٩. (ط بيروت، ١٩٩١م). نقلاً عن الآلوسي، محمود شكري: «تأريخ نجد». ص ١١١ - ١١٣.

الذي ألف كتاباً يرد فيه على أخيه الشيخ محمد(١). وأنه كان في أول أمره مولعاً بمطالعة أخبار مدّعي النبوة كمُسَيْلَمَة وسُجاح والأسود العَنْسي وطُلَيْحَة الأسدي وأمثالهم. وكان من صغره يتكلم بكلمات لا يعرفها المسلمون وينكر عليهم أكثر الذي اتفقوا على فعله(٢).

○ ○ ○

قيم البداوة: حاضنة التطرف

على أنّ هناك بعض القصص والحكايات انتشرت حول أصل الشيخ ونشأته تحتاج إلى تحقيق دقيق ووثائق وبيانات.

غير أن هناك ملاحظات يجدر بالباحثين استحضارها عند دراسة نشأة الحركة الوهّابية على يد (**الشيخ محمد بن عبد الوهّاب**) وهي تتعلق بالبيئة أو الحاضنة الجغرافية التي نمت فيها الحركة وترعرعت بتلك السرعة الملفتة للنظر وقد اكتسحت مناطق نجد وما حولها.

لقد كانت الصحراء على الدوام حاجزاً أمام أيّ تقدم حضاري حقيقي. ولم تستطع استيعاب القيم الإنسانية للدين. وظلت مسكونة بتصورات طفولية لأشخاص متخلفين فهموا الدين وفق رؤيتهم المحدودة.

امتدت صحراء الجزيرة العربية من فلسطين وبادية الشام حتى المحيط الهندي. مئات الأميال من الرمال والبوادي والبحار الشاسعة التي شكلت حدوداً أخرى، عصمتها من الغزو ومن أن تكون محط أنظار أيّ طامع، لا

---

(١) النجدي، سليمان بن عبد الوهاب: «**الصواعق الإلهية في الرد على الوهّابية**». (ط ١، بيروت، ١٩٩٨م).

(٢) للمزيد راجع كتاب «**محمد بن عبد الوهاب، نموذج في التطرف وصناعة الإرهاب**» للمؤلف. فقد عقد فصلاً كاملاً عن حياته ونشأته. [الناشر].

يجد فيها نهاية المطاف - إذا ما توغل فيها - إلا بؤساً وفقراً وخشونة، ولن يجد إلا بدواً رحّلاً ليسوا أحسن حالاً من حيواناتهم التي يتنقّلون معها من مكان إلى آخر لكي يتجنبوا الموت جوعاً أو عطشاً . .

حياة البدوي خارجة عن المألوف وعن قوانين المدنيّة وأعرافها . وهاجسه الوحيد البقاء على قيد الحياة ولو على حساب حياة الآخرين. وحتى أولئك الذين يوصفون بالحَضَر، من سكان المدن الصغيرة والبلدات والقرى والواحات تحمّلُهم روح الصحراء وأجواؤها قيماً ومفاهيم وممارسات لا تختلف عن تلك التي يحملها زملاؤهم البدو المتوزعين على أطراف الواحات أو مجاهيل الصحراء.

القبيلة مصدر القوة والنفوذ. والإنتماء لقانونها وأعرافها قد تكون هي الطريقة المعقولة الوحيدة بنظر أيّ فرد منها لحماية نفسه والبقاء حياً. حدود المعقول هي ما استقرت عليه مباديء تلك الأعراف والتقاليد الموروثة.

في الظروف الطبيعية، ما من قانون يستطيع التغلب على قانون الصحراء، ذي السطوة، إلا قانون ذو سطوة أعظم منه، قانون عدالة إلهية مطلقة لا شكّ فيها تنفّذه أيد مقتدرة قوية. . .

أمّا في ظروف منفلتة، وإذا ما ترك الأمر لأهل الصحراء، فإنّهم سيتلاعبون بالقانون الإلهي وسيشكّلونه وفق ما تقتضي أجواء الصراع والتنافس المحموم للبقاء على قيد الحياة. ولن تكون حضارة أو قيم أيّ دين، حتى ولو كان هو الدين الإسلامي الذي يدينون به، إذا ما فهمت وفسرت خطأ، إلا ستاراً لإخفاء القيم المتخلفة، وسيحاولون عرض أنفسهم على أنّهم الممثل الحقيقي له، بعد أن (يشذّبوه) و(يطوّعوه) لمصالحهم وأغراضهم وقيمهم. . .

الصحراء القاسية المتجهمة تحكّم قانون القوة والغلبة والسيف. الضعيف

فيها مهدور دمه وماله وعرضه. والفائز في معارك قطع الرؤوس والأوصال هو الفائز بكل شيء، وهو صاحب الحق الذي تشدو بمدحه الركبان.

ثقافة الغزو هي ثقافة الصحراء، وعلى الذي يريد أن يعيش هناك أن يكون قوياً، فلا مجال للضعفاء والمترددين.

ليس من حق جارك أن يكون أكثر ثراء منك، وإلا فهو عدو - حتى وإن كان ابن عمك - من حقك أن تغير عليه وتنهبه. وهكذا فإن النهب عادة متأصلة توارثتها عشرات الأجيال.

المجتمع البدوي في صحراء نجد عاد أكثر تخلفاً وقسوة من ذلك الذي كان قبل الإسلام إذ أتيحت له أدوات جديدة للتدمير والخراب.

❍ ❍ ❍

إقليم نجد

لم يخضع إقليم نجد للدولة العثمانية التي لم يكن يعنيها أن تسيطر عليه لأنها لا تجد في ذلك فائدة كبيرة، إذ لا موارد ولا أموال تجبى من سكانه الفقراء الحفاة.

وكانت هناك إمارات صغيرة تحكمها عوائل متحاربة فيما بينها على الدوام. الفوضى كانت سيدة تلك الحياة المتوحشة التي تنتمي إلى القرون البدائية الأولى التي لم تشهد محطات إستقرار نسبي إلا في بعض البلدات والقرى التي يمارس أهلها الزراعة والتجارة وبعض الصناعات اليدوية البسيطة. وهؤلاء أيضاً لم يسلموا من غزوات جيرانهم الجياع.

❍ ❍ ❍

في غمار تلك الحياة الفوضوية المتوحشة، ولد (محمد بن عبد الوهّاب). وقد حمل منذ نشأته خليطاً مشوشاً متناقضاً من مفاهيم وقيم وأعراف

وممارسات دينية وإجتماعية متنوعة ليخرج بعد ذلك بفهم خاص للتوحيد دعا إليه بحد السيف حالما اتيحت له الفرصة. ولم يكن يهمه إن كان فهمه وأطروحاته تنسجم مع أطروحات المدارس والحوزات والمجاميع العلمية المنتشرة في أنحاء العالم الإسلامي المتحضر نسبياً، وذات التأريخ العريق، كجامعة الأزهر والنجف وكربلاء والحلة والزيتونة وغيرها.

إبن الصحراء جاء ليصلح الصحراء والعالم على حد زعمه، حسب فهمه وعلى أساس الموروث المتراكم والعُقَد المتأصلة. وقد استثمر قانون الصحراء لينطلق في غزواته، وتنطلق في أعقابه على امتداد قرنين من الزمن أجيال معجبة بأسلوبه وتفكيره.

وقد أصبح نتاجه (**العلمي والثقافي**) يُدرّس على نطاق واسع في شبه الجزيرة العربية ومناطق عديدة من العالم، بعد ان أعدّت الدولة السعودية التي أُسّست وفق مبادىء نظرته الدينية الخاصة إمكانات هائلة لذلك ومهّدت لتخرّج عشرات الآلاف من الطلبة والمبلّغين يدرّسون تعاليمه وكتبه الداعية للعنف والقطيعة في كل أقطار العالم[1].

---

(١) وقد عقدت جامعة (الإمام محمد بن سعود) الإسلامية مؤتمراً باسم الشيخ محمد بن عبد الوهّاب عام ١٩٧٦م. وشكلت أمانة عامة للإعداد لهذا المؤتمر وتقديم (تصور مفصل) عن الشيخ.
وبدأت الأمانة عملها بتحديد الهدف العام للمؤتمر، وهو: (**التعريف بالشيخ وتجلية حقيقة دعوته على مستوى العالم الإسلامي وكشف الشبهات التي أثيرت حولها في بعض البلدان الإسلامية، وفي ظلّ ظروف تأريخية معينة**).
وقد عملت الأمانة على جمع كافة ما كتبه الشيخ من (مؤلفات) وتحقيق نسبتها إليه وتوثيقها ونشرها في طبعة خاصة باسم الجامعة، لترسل نسخ منها إلى الهيئات والباحثين الذين ستوجه إليهم الدعوة للإسهام في المؤتمر.
وانطلقت الأمانة تجمع كل ما تيسر لها من مؤلفات الشيخ المطبوعة والمخطوطة، وتجمعت لديها نسخ كثيرة من مؤلفات الشيخ مطبوعة ومخطوطة (وهي الكتب أو =

....

= الكتيبات التي تيقنت اللجنة المشكّلة عن الأمانة بأنها هي كتب الشيخ فعلاً، ولاتتجاوز بمجموعها مجلداً واحداً ضخماً) وقد قامت اللجنة بفحصها.

(وقد حرصت أمانة المؤتمر على أن تؤلف كلّ لجنة من لجان التصحيح من العلماء المختصين ذوي الصلة الوثيقة بنوع وطبيعة المؤلَّف الذي يراجعونه. كما حرصت على أن تجمع كل لجنة عدداً من العلماء ذوي الخبرات المتكاملة في مجموعها من حيث صلتها بمهمة التصحيح وإتقانها قدر الإستطاعة، واستعانت ببعض العلماء ذوي الخبرة من غير أعضائها. وقد قصدت بجهودها تجلية حقيقة دعوة الشيخ وتيسير الإطلاع عليها ومراجعتها من مجموع ما كتبه، لتتيح للدارسين المنصفين الباحثين عن الحقيقة في ذاتها أن يصلوا إليها..). راجع: عبد الوهّاب، محمد: «مختصر سيرة الرسول». (ط١، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض). وهو مختصر لكتاب «السيرة النبوية» لإبن هشام.

وقد جمعت كتيباته السبعة التي تضمها حوالي مائتي صفحة (وهي مجموع مؤلفاته) ذات المضمون العام المستند إلى قراءة أولية ساذجة للقرآن والحديث النبوي. وهي: (كتاب التوحيد)، (ثلاثة الأصول)، (كشف الشبهات)، (مسائل الجاهلية)، (مختصر الانصاف والشرح)، (مختصر زاد المعاد) و(الكبائر) إضافة للفتاوى والرسائل. وتكفلت جامعات ومؤسسات دينية ووزارات مثل الثقافة والتربية والشؤون الدينية بتوثيقها ونشرها وشرحها وتوزيعها في مختلف قارات العالم.

ولقد أخذنا -على سبيل المثال- كتيّبه الصغير (ثلاثة الأصول) الذي لايتجاوز عشر صفحات، لرأينا أن عشرة من كبار علماء الوهّابية قد تصدّوا لشرحه شرحاً وافياً استوعب مجلداً ضخماً قاربت صفحاته ألف صفحة!.

وقد صدر المجلد الضخم بعنوان (جامع شروح الأصول الثلاثة) لأصحاب الفضيلة: عبد الرحمن بن قاسم النجدي، عبد العزيز بن عبدالله بن باز، محمد أمان علي الجامي، محمد بن صالح العثيمين، صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، عبدالله بن صالح الفوزان، صالح بن سعد السحيمي، علي بن خضير الخضير، نعمان بن عبد الكريم الوتر، وأبو عبيدة المصراتي. وقد طبع وصدر عن دار القمة ودار الإيمان في الإسكندرية بمصر سنة ٢٠٠٤ في طبعة فاخرة ملوّنة.

والواقع أن هؤلاء (الشرّاح) يبدون كمن ألّف مجدداً لينفخ في هذا الكتيب الضئيل. وإذا ما علمنا أنه محشو بالآيات القرآنية، فإن شرح هؤلاء انصبّ على شرح هذه الآيات، كما هو حال مئات الشرّاح والمفسرين الذين يجدون في القرآن شيئاً جديداً دائماً يتحدثون =

خلط الأوراق لتبرير الذرائع

تحدث بعض المؤرخين عن ظهور (**البدع والخزعبلات**) والإهتمام بالأضرحة والقبور وبعض الأماكن والآثار والجن والشياطين، والإنحراف عن بعض أساسيات الدين الإسلامي، وهي أمور تحدث على هامش الكيانات المتخلفة والبعيدة عن مراكز الثقافة والتنوير. ولن تكون مبررة بنظر العارفين بمبادىء الدين العامة. إلا أن تقويمها وإصلاحها يمكن أن يكون عن طريق نشر الوعي وفتح المدارس والمراكز العلمية وغيرها.

لن يناقش أحد الإنحراف الواضح في اللجوء إلى القبور كنُصُب أو أحجار مجرّدة أو قبلة يُتوجه إليها بالعبادة، وكذلك الاعتقاد في الأشجار والجن في الفلوات والمغارات. فهذه أمور لا تمت للإسلام بصلة، وعلى الجميع التبصير بعدم جدواها وفائدتها وعدم وجود أية جذور لها في العقائد الإسلامية. ولعل مبعثها الخيال الشعبي المكبوت الذي يبحث في ظروف القهر والتخلف والأزمات عن منافذ للخلاص من واقع قاهر كما كان يفعل البدائيون قبل مرحلة الأديان.

لقد جعل الشيخ محمد بن عبد الوهّاب وجود مثل هذه الممارسات ذريعة لاعتماد العنف والغزو والحروب كقوة رادعة (**من الشرك، ولادخال المشركين**

= عنه. وبدت شروحاتهم لكتيب الشيخ شرحاً للآيات القرآنيةوحسب وعن هذه الآيات يمكن كتابة المئات من الصفحات.

وإذا ما تحرينا الدقة والإنصاف فإن هؤلاء يبدون أكثر علماً من الشيخ نفسه. فقراءته الفقيرة المحدودة للقرآن التي لاتتجاوز الفهم الإبتدائي الساذج قد لاتصل إلى إمكانات هؤلاء، غير أن ضربة حظ موفقة جعلته على الدوام النجم المتألق في سماء السلفية، وما على الذين ينشدون التألق والشهرة إلا أن يدرجوا أسماءهم إلى جنب اسمه في كتاب أو مقالة تمجّده أو تشرح آثاره وكتيّباته والتظاهر بموالاته والسير على نهجه التكفيري المتعصب.

والكفار الذين كانوا مسلمين وانحرفوا برأيه وإعادتهم إلى الإسلام) عنوة من جديد.

كما جعل قراءة القرآن والدعاء عند قبر الرسول ﷺ أو في مسجده أو في أيّ مسجد آخر والتوسل به إلى الله والإستشفاع به أو التبرك بآثاره أو تكريمه أو الصلاة عليه كما أمر بذلك القرآن الكريم مساوياً للتبرك أو التمسح بالنُصُب والأحجار والأشجار واللجوء إلى الجن والمغارات وما أشبه. وعدّ كل ذلك شركاً وكفراً وبنى عليه إشكالية الوهّابية الكبرى.

ولا يزال مبدأ العنف يعتمد من قبل أجيال جديدة من السلفيين الوهّابيين كخطوات **(فاعلة)** لتبصير **(المرتدّين)** وهدايتهم! ما داموا لا يريدون ذلك بإرادتهم. وقد اختلفت الأدوات والأساليب والذرائع.

(الجغرافية المذهبية) قبل **(الشيخ محمد بن عبد الوهّاب)**، أفرزت **(نجد)** إقليماً تابعاً للمذهب الحنبلي، الحاضنة الكبرى للوهابية وأفكار **(الشيخ ابن تيمية)** التي اتكأ عليها الشيخ ابن عبد الوهّاب وجعلها متراساً لدعوته، ثم **أفرزتها بعد ذلك إقليماً وهابياً خالصاً له ثقافته وأدبياته الخاصة والتي تختلف** عن ثقافة وأدبيات عموم المسلمين.

○ ○ ○

مؤرخون رسمّيون

ثلاث مسيرات كبرى ملحميّة، استغرقت حياة الشيخ الطويلة الحافلة، أولها: مسيرته الأولى التي استغرقت شبابه (لطلب العلم) والتعرف على أوضاع المجتمع الإسلامي. وهي مسيرة غامضة اختلف المؤرخون في طولها، وتحدث بعضهم عن (ثلاثين سنة) قضاها بالتجوال في العراق وإيران وتركيا وغيرها، بينما تحدث البعض عن سنوات محدودة لم تتعد حدود (البصرة)، وكان ذلك قبل **(إعلان الدعوة)**.

ثم مسيرته الثانية (**بعد إعلان الدعوة**) وتحالفه القصير مع (**عثمان بن مُعَمِّر أمير العُيَيْنَة**)، والثالثة بعد هروبه إلى (**الدّرْعِيَّة**) وتحالفه مع (**الشيخ محمد بن سعود**) و(**إعلان الإمارة السعودية**) والتي استمرت إلى نهاية حياته عام ١٢٠٧هـ (١٧٩١م).

وهي مسيرات بلورت المناهج والأفكار والرؤى والتوجهات النهائية للحركة الوهّابية، وظلت تؤصل لمنهج صارم وآليات حادة متوترة في التعاطي والتعامل مع أفكار المذاهب الإسلامية الأخرى التي تسود الساحة الإسلامية.

ولا بد لكل من يكتب عن سيرة الشيخ ومسيراته الملحمية الكبرى ان يعترف أنّ تأريخه لم يكتب من قبل مؤرخين معاصرين له، سجّلوا حياته أولاً بأوّل، وإنما كتب على يد أناس عاشوا بعده بمدة طويلة واستندوا إلى أقوال رواة مجهولين. وهو أمر متوقع في مثل تلك الظروف التي عاشها الشيخ. فمن كان يعلم انه سيشغل الناس ويكون ملء الأسماع والأفواه، وإن أفكاره ستؤسس لدولة تصبح فيما بعد من أغنى دول المنطقة، وأنه سيصبح بطلاً منقذاً بنظر الملايين من أتباعه.

إنّ ما يتعلق بسيرته وخصوصاً في مراحلها الأولى وقبل تحالفه مع (**الشيخ ابن سعود**) وأسفاره واتصالاته يظل غامضاً وموضع شكّ لا يمكن أن يقبل على علّاته.

إننا نلاحظ أنّ أغلب هؤلاء (المؤرخين) ينطلقون من مواقف متحيزة للشيخ لانّهم من مدرسته ومن الفريق المناصر له والمحسوب على منهجه الفكري والدولة الراعية له. ومن أبرز هؤلاء:

١ - حسين بن غنّام المتوفى عام ١٢٢٥هـ (١٨١٠م) مؤلف (روضة الأفكار والأفهام لمرتاد الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام) أو ما يعرف بـ (تأريخ نجد) وهو أقرب المؤرخين لعهد الشيخ توفي بعده بعشرين

عاماً. ولا شكّ أنه لم يعش أو يعاصر النصف الأول من حياة الشيخ أو أغلب حياته، واعتمد على المروّيات والمسموعات(١).

٢ - عثمان بن بشر النجدي المتوفى عام ١٢٨٨هـ (١٨٧١م) أيّ بعد حوالي (٨٠ سنة) من وفاة الشيخ. وقد كتب (عنوان المجد في تأريخ نجد)، وبدأ كتابه من العام ١١٥٨هـ (١٧٤٥م) أيّ العام الذي تم فيه تحالف الشيخ مع محمد بن سعود(٢).

٣ - مؤلف مجهول (لم تذكر سنة وفاته)، كتب (لَمْعُ الشّهاب في سيرة محمد ابن عبد الوهّاب) في مرحلة متأخرة وهو غير معاصر له. يروي عن (من يوثق به، حكى لنا رجل.. سمعت بعضاً من أهل البصرة... إلخ) وهي مصادر غامضة. وقد طبع فيما بعد على نفقة الدولة السعودية(٣).

٤ - الشيخ سليمان بن سحمان النجدي الحنبلي المتوفى عام ١٣٤٩هـ (بعد مرور ١٤٠ سنة من وفاة الشيخ). كتب (تنبيه ذوي الألباب السليمة) و(تبرئة الشيخين الإمامين) طبع مصر ١٣٤٣هـ والرياض ١٤١٠هـ(٤).

لقد استند أغلب المؤرخين المتأخرين على كتابات هؤلاء. ومنهم أمين الريحاني مؤلف كتاب «**تأريخ نجد الحديث**»(٥).

---

(١) ابن غنّام، حسين: «تأريخ نجد أو روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام»، تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد. (ط ٤، دار الشروق، بيروت / القاهرة، ١٩٩٤م).

(٢) النجدي، عثمان بن بُشر: «عنوان المجد في تأريخ نجد». (ط ١، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، طبع في مجلدين بدون تأريخ).

(٣) مجهول، المؤلف: «لَمْعُ الشّهاب في سيرة محمد بن عبدالوهّاب»، تحقيق د. محمد مصطفى أبو حاكمة. (ط دار الثقافة، بيروت).

(٤) النجدي، سليمان بن سَحمان: «تنبيه ذوي الألباب السليمة وتبرئة الشيخين الإمامين». ص ٩٠. (ط ٢، الرياض، ١٤١٠هـ).

(٥) الطبعة السادسة، بيروت ١٩٨٨م.

وعلى العموم، فلم نجد كتاباً معاصراً للشيخ أرّخ لحياته الأولى ومسيرته قبل إعلان الدعوة أو بعد إعلانها. وهو ما ينبغي أن يجعلنا على حذر في التعامل مع المعلومات الواردة عن هؤلاء الكتّاب وعن الذين استنسخوا مقولاتهم وأخبارهم كحقائق مؤكدة. ولا بد أن نستنتج من مجمل سيرته وتداعياتها وإسقاطاتها، وكذلك من كتبه وكراساته، طبيعة العمل الذي نهض به والعوامل الإجتماعية والنفسية والثقافية والبيئية ورآء دعوته، فذلك جدير أن يجعلنا أقرب إلى ملامسة حقيقة تلك السيرة، وحقيقة الرجل الذي احتل مساحة واسعة في أذهان الناس، وكان له دور مؤثرة في مسيرة العالم الإسلامي والعالم كله.

○ ○ ○

أساطير أشبه بالكرامات: توظيف مخيّلات المؤرخين

ذكر (عثمان بن بشر النجدي) المؤرخ الرسمي للدولة السعودية و(حسين ابن غنّام) أقدم مؤرخ للشيخ أنه حجّ في الثالثة عشر من العمر. كما زار المدينة المنورة ومكث هناك شهرين واجتمع ببعض العلماء. وبعد رجوعه إلى (نجد) رحل إلى (بغداد) و(البصرة) التي مكث فيها أربع سنوات حيث درس اللغة والحديث. وقد هاله ما رأى وسمع من البدع والخرافات التي أُلصقت بالدين. وشرع يبشّر بما تجلّى له من حقائق التوحيد في مجالسه. وبعد طرده من البصرة قصد الأحساء ومكث فيها فترة قليلة عاد بعدها إلى (حُرَيْمَلة) حيث كان أبوه. وكان آنذاك في نحو الخامسة أو السادسة والثلاثين من عمره... إلخ.

وهذه الرواية هي الأكثر شيوعاً عن حياة الشيخ رغم ما فيها من ثغرات. لان الفترة القصيرة التي أمضاها في المدينة والتي لا تتجاوز الشهرين إذا ما أُضيفت إلى سن الثالثة عشر والأربع سنين التي قضاها في البصرة تقتضي أن

يكون عمره في حدود السابعة عشر أو الثامنة عشر. فكيف تضاعف عمره ورجع في سن الخامسة أو السادسة والثلاثين؟

ولا يجد مؤرخو الشيخ حرجاً بالإعتماد على هذه الرواية التي أصبحت لديهم من الحقائق(١) وأخذوا يرددونها وتتناقلها عنهم أجيال لاحقة من (المؤرخين).

على أن هناك اختلافات حول مدة سفرات الشيخ وعددها، إذ يذكر أحدهم أنه رحل إلى البصرة والحجاز مراراً!

أما أغرب الروايات عن سفرات الشيخ فقد أوردها مؤلف (لَمْعُ الشّهاب في سيرة محمد بن عبد الوهّاب)، الكتاب الذي اعتُمد في المملكة السعودية كأحد المصادر الموثوقة. إذ تجمع روايته بين الواقع الممكن والأسطورة المتخيلة. ويبدو أنها موضوعة من قبله، حيث تتسم بالخيال المفرط. كما أنها لا تستند إلى رواة يذكر اسماءهم وإنما يوردهم بطريقة غامضة مثل: أنبأنا من يوثق به...، حكى لنا رجل بغدادي...، سمعت بعضاً من أهل البصرة...، حدثنا رجل عجمي...، قيل...، قال الراوي...، قال المخبرون...، حكي...، روينا عن بعض أهل نجد...، إلخ.

لقد ذكر هذا المؤرخ أن الشيخ قرأ على أحد أهل بُرَيْدة لمدة ست عشرة سنة، ثم درس في القَصيْم لمدة سبع سنين، وأنه ذهب للبصرة وهو في السابعة والثلاثين، وأنه أقام هناك أربع سنين يحدّث ويفسر، وأنه أصبح مقرباً من الحكّام ومدرّساً للغة العربية وغيرها، ودرس علم الهيأة والهندسة، وقرأ (تحرير إقليدس) شرح المأمون العباسي وكتاب المجسطي والجقميني في الهيأة.

(١) ومنهم: الحيدري البغدادي، إبراهيم فصيح بن السيد صبغة الله: «عنوان المجد في أحوال بغداد والبصرة ونجد». (ط ١، دار الحكمة، لندن، ١٩٩٨م).

وقد غادر بعدها إلى بغداد واشتغل بدرس علم الكلام، ومكث في إحدى مدارسها لمدة سنتين لم يخرج إلى الشارع أبداً. . . ، ثم أُتيحت له فرصة حل نزاع معقد بين بعض الناس زوجّوه إثرها من إحدى بناتهم الجميلات ومكث لديهم ثلاث سنين. وبعد أن مكث في بغداد ست سنين ذهب إلى (**كردستان**) فاستقرى! ديار الأكراد بلداً بلداً وقرية قرية سنة بتمامها. ثم ذهب إلى همذان فأقام بها سنتين يدّرس ويدرس. وذهب بعد ذلك إلى (**إصفهان**) وسكن المدرسة العباسية التي بناها (شاه عباس الصفوي) وطلب هناك علم الحكمة المشّائية على يد أكابر الفلاسفة وبعد أربع سنين أكمل علم الحكمة وشرع يدرّس فيها. وبقي بعد ذلك ثلاث سنين يطلب فيها علم حكمة الإشراقية ومسالك التصوف ثم اعتزل الناس ستة أشهر ثم أظهر نفسه وكأنه قد جنّ وأصبح له مريدون وأتباع خلال سنة كاملة. . . وذهب بعد ذلك قاصداً مدينة (**الري**) حيث سلبت أمواله ودراهمه. . . ومن (**قم**) التي أقام فيها شهراً كاملاً ذهب منها إلى الروم (**تركيا**) واستطاع في الطريق اجتذابهم عندما فسّر لهم الأحاديث العربية باللغة التركية. . . وهناك جمع مالاً طائلاً. . . وذهب إلى حلب فأقام فيها ستة أشهر يدرّس بالعربية وأنكر معرفته بعلم الحكمة. . . وفي (**الشام**) مكث سنة كاملة، ذهب بعدها إلى (**القدس**) فبقي هناك شهرين وبعدها ذهب إلى مصر فأقام فيها سنتين وأياماً. . . وكان مسكنه الجامع الأزهر، وتعلم هناك علم الأسطرلاب وعلم الأعداد. ثم انحدر إلى (**السويس**) وانحدر منها إلى (**ينبع**) ثم (**المدينة**) و(**مكة**) وحج البيت الحرام واجتمع بمفتي مكة الذي اعترف بفضله وكماله. وعرض عليه شريف مكة وأعيانها البقاء هناك فأبى وعاد إلى (**العُيَيْنَة**). . . إلخ.

لقد ذكر هذا المؤلف أن الشيخ كان متزوجاً بثلاث نسوة قبل سياحته الماراثونية الطويلة في خمسة أقطار إسلامية أصبح خلالها محط أنظار الجميع

ومبعث إعجابهم. . إذ كان يتقن تدريس كافة العلوم باللغة العربية والفارسية والكردية والتركية وغيرها.

ما نقله الذين أرّخوا للشيخ أو سياحته قبل وبعد إعلان دعوته المثيرة للجدل لا يتعدى ما قاله مؤرخوه الأوائل الذين نلمس تحيزهم الواضح له ومحاولتهم إظهاره كإنسان غير عادي، بل ومتفوق في كل شيء، وكأنه مُعَدّ - لحكمة إلهية خاصة - للعب دور إستثنائي في حياة المسلمين والبشر عموماً، شأنه في ذلك شأن العباقرة أو الأنبياء أو المصلحين الكبار.

وقد بالغ المتأخرون - وعددهم بالعشرات - في إبراز وتضخيم ما ذكره المؤرخون الأوائل، الذين لم يكونوا معاصرين للشيخ وإنما نقلوا ما استحسنوه عن رواة مجهولين. وقد جرت حملة ضخ الكم الهائل من الفضائل والمزايا الإستثنائية المنسوبة له وزرعها في عقول أجيال متعاقبة، حتى أصبحت بنظرهم حقائق لا مجال فيها للشك أو المناقشة.

○ ○ ○

لماذا التهويل والمبالغة

إنّ هؤلاء المؤرخين لم ينقلوا ما نقله زملاؤهم حول تخوّفات أب الشيخ منه وتحفّظ العديد من العلماء على توجهاته الغريبة ومنهم أخوه الشيخ سليمان ابن عبد الوهّاب النجدي الحنبلي المتوفى سنة ١٢١٠هـ وردّه عليه في كتابه الشهير (**الصواعق الإلهية في الرد على الوهّابية**)[1]، وردود عشرات العلماء الآخرين من المعاصرين للشيخ وغيرهم.

ولا ندري كيف يمكن تمرير عشرات الخوارق المنسوبة للشيخ في (لَمْعُ

---

(١) طبع في لبنان سنة ١٩٩٨م.

الشّهاب) وكيف استطاع أن يقوم بالتدريس ويكون له أتباع ومريدون في أجواء ومدن لم يعرفها من قبل ولم يتعرف عليه أحد منها من قبل ولا يعرف لغة أبنائها أو يعرفون لغته فيكون محط اهتمامهم وعنايتهم. وكيف استطاع دراسة أدق العلوم وأغربها مثل الحكمة المشّائية والإشراقية والتصوف والحكمة والأسطرلاب والأعداد والهيئة والهندسة وكتب اللغة التخصّصية واللغات الكردية والفارسية والتركية وغيرها في فترات قياسية وفي ظروف غير مستقرة.

إنّ رواية مؤلف (لَمْعُ الشّهاب) تشير إلى أنه بدأ سفراته وهو في السابعة والثلاثين واستغرقت حوالي ثماني وعشرين عاماً. أيّ إنه عاد إلى بلده في الخامسة والستين وهو ما تنفيه المصادر الأخرى.

ولا بد أن إشادة (**المؤرخ المجهول**) في (لَمْعُ الشّهاب) بأقطاب العائلة السعودية الأولى وتناوله مناقب بعض قادتها كان سبباً في اعتماد كتابه (**مصدراً تأريخياً موثوقاً**) رغم التلفيق والتكلف الواضحين في فصوله.

❍ ❍ ❍

لابد من إعادة كتابة تأريخالوهّابيين

بالتزامن مع (**لَمْعُ الشّهاب**) الذي يبدو أنه وضع لصالح (**الشيخ**) وحليفه (**محمد بن سعود**) هناك كتاب آخر صدر لأحد ضباط المخابرات البريطانية (المسترهمفر) تحدث فيه عن الطريقة التي استطاع بها تجنيد الشاب (**محمد بن عبد الوهّاب**) للعمل معه بعد جهود حثيثة لإخضاعه وتطويعه عن طريق النساء والخمر وما أشبه(١).

ولعله في بعض جوانبه يحمل لغز اختفاء الشيخ هذه المدة طويلة (حوالي

---

(١) المستر همفر: «المذكرات». ترجمة الدكتور ج. خ. (مجهول الناشر ومكان وزمان الطبع).

ثلاثين سنة)، التي تحدث عنها مؤلف (لَمْعُ الشّهاب)، وهي فترة غامضة لم يتحدث عنها مؤرخو الشيخ، خصوصاً وأن تواريخ الكتابين تبدو متقاربة في بعض أحداثها ووقائعها.

لقد ذكر هذا الضابط البريطاني أنه كان على علاقة مباشرة به منذ أنْ تعرّف عليه في البصرة. كما ذكر أنه ومجموعة من زملائه تنكروا بزي عبيد اشتراهم ابن عبد الوهّاب من هناك. وقد رافقوه إلى (العُيَيْنَة) أولاً لعقد معاهدة مع (ابن معمّر) ثم إلى نجد بعد طرده من العُيَيْنَة. وأن هؤلاء كانوا من خيرة الضباط الذين دُرّبوا على اللغة العربية والحرب الصحراوية، أرسلتهم وزارة المستعمرات إلى هناك.

وقد أكد العديد من المؤرخين أنّ اللقاء بين (الشيخ محمد بن عبد الوهّاب) و(الشيخ محمد بن سعود) كان بتمهيد من المخابرات البريطانية التي سعت لعقد تحالف بين الشيخين (شيخ الدين وشيخ القبيلة)، ينطلق من منطلق ديني لإقامة دولة بقيادتهما من شأنها أن تكون أساساً لتقويض الخلافة العثمانية الموشكة على الإنهيار، وإقامة كيانات هزيلة على أنقاضها تكون طعمة للدول الكبرى.

وهناك مؤشرات على سعي بريطاني قديم لدفع الشيخ بهذا الإتجاه، كما يقول أحد المؤرخين(١).

لابد أنّ أسباباً قاهرة دفعت الشاب محمد بن عبد الوهّاب للهرب من (العُيَيْنَة) إلى مكان بعيد نسبياً وهو (البصرة)، المدينة العراقية المفتوحة على العالم. فهناك يمكن أن يختفي عن عيون طالبيه، كما يمكن أن يضيع في غمرة زحام المدينة الكبيرة إن أراد الإختفاء أو التصرف على هواه.

(١) اليماني، الهيثم: مقال «آل سعود». (مجلة الوحدة الإسلامية، العدد ٦٠، آب ١٩٨٧م).

إنّ طبيعة الأفكار التي كان يحملها جعلته أداة مهمة يستفيد منها رجال المخابرات البريطانية المحنكون. وهي على أية حال قد آتت أُكُلها ولو بعد مدة طويلة. فمذهبه الجديد، المستنسخ - إلى حد بعيد - عن (الخوارج) الذين ظهروا في القرن الهجري الأول وخاضوا صراعات دامية ضد جميع المسلمين الذين اعتبروهم خصومهم دون استثناء، قام أيضاً على أساس تكفير المسلمين المعاصرين له بدعوى اهتمامهم بالأضرحة والمزارات والدعاء أو الصلاة عندها. وقد اعتبر أتباعه - ولا يزالون - هذه القضية مهمتهم الكبرى، إذ ينبغي إزالة هذه الأضرحة حتى تستقيم أمور الدين، لأنها بمثابة الأصنام التي كانت تعبد أيام الجاهلية الأولى، وكأنّ هذه هي القضية الأولى التي تقف أمام تقدم المسلمين وتسبب إنحرافهم عن الدين...

○ ○ ○

ظل الوهّابيون على الدوام مصدر قلق وإزعاج لكّل جيرانهم في الجزيرة العربية وغيرها. وقد تسببت تصرفاتهم غير المسؤولة وغير المنضبطة في نزاعات وحروب وصراعات عديدة، وأنتجت أفكاراً شاذة حتى وقتنا الحاضر. ولعل فكر (القاعدة) والتنظيمات الجهادية الإرهابية وأعمالها تعتبر مثالاً صارخاً لذلك.

كان عمل (همفر) يقوم على محورين:

١ - تهديم ونسف ما بقي من قيم بنّاءة أساسية لدى (محمد بن عبد الوهّاب).

٢ - توجيهه لبناء وتكوين منظومة قيم وأفكار ومفاهيم جديدة لا تنتمي للإسلام وخطه العقائدي أو التربوي، وجعله أداة لبث مشروعه التشكيكي الهدّام، وهو الأمر الذي كان محمد على استعداد لتقبله وليكون هو الأداة المطلوبة.

وقد كانت الخطة موفقة وناجحة، إذ كانت بذرة لعدم الإستقرار والتخلف

في المنطقة طيلة قرنين من الزمن، تكوّن خلالهما التيار الوهّابي المحارب ذي الأغلبية البدوية الجاهلية، الذي نما وتضخم بفعل منهوبات الغزو المتزايدة والتي كانت أكبر حافز لسد احتياجات البدو المادية والنفسية، فقد شكّل الغزو المقوّم الأول لثقافتهم رغم اعتناقهم المشوّه للإسلام.

○ ○ ○

لابد أن نشير هنا إلى أن مؤلف (لَمْعُ الشّهاب) ذكر أنه كان للشيخ عند ذهابه لليمامة من البصرة بعض العبيد يتراوح عددهم ما بين سبعة أو ثمانية. وقال إن كلّ واحد منهم كان (محارباً مسلحاً) وأنه كانت لديه أموال. فكيف تنسجم هذه الرواية مع ما ذكره (ابن غنّام) بأنه كان وحيداً وكاد أن يهلك من العطش؟ على أنها تنسجم بالتأكيد مع ما ذكره مستر همفر الذي ذكر أنه ألتحق به في نجد واتفق معه على أن يعلن نفسه عبداً له اشتراه من البصرة[١]. وبعد ذلك أرسلت له الوزارة أحد عشر ضابطاً من الذين دُرّبوا على اللغة العربية والحروب الصحراوية وأعلنوا عن أنفسهم كعبيد لابن عبد الوهّاب[٢].

○ ○ ○

مشروع ملفّق

ومهما يكتب المؤرخون على سفرات الشيخ أو اختفائه والفترات التي استغرقتها، فإن ما يجمعون عليه هو أنه عاد إلى (حريملة) مقر والده وهو يحمل مشروعاً مدروساً متبلوراً يستهدف نسف التراث الديني القائم، بحجة محاربة (الخرافات والبدع والأضاليل). وقد شمّر عن ساعده - على حد تعبير

---

(١) المستر همفر: «المذكرات». ترجمة الدكتور ج. خ. ص ٨٢. (مجهول الناشر ومكان وزمان الطبع).

(٢) م. ن. ص٨٤.

حسين بن غنام[1] - (و أخذ ينكر ما يقومون به من الأمور الشركيّة. واشتد إنكاره لأفعالهم، حتى حدث بينه وبين أبيه كلام وجدال، ثم بينه وبين أهل حريملة. ولكن الشيخ دارى والده حتى توفي الوالد. . . إلخ).

وليس من المعقول أن يقوم الوالد بالدفاع عن الخرافات والبدع وهو العالم والقاضي، ولا بد أنه وجد لدى ولده توجهاً أبعد لمحاربة الممارسات والأعمال البنّاءة، وقد مزج بينهما وبين الخرافات والأعمال غير المقبولة واتخذها ذريعة لشن حرب شاملة فيما بعد و(إقناع) الناس بالقوة للدخول في دعوته الجديدة.

وقد ألف منشوره السري الأول وأسماه (التوحيد الذي هو حق الله على العبيد) (واشتهر حاله في جميع بلدان العارض. . . وكان الناس عند ذلك حزبين، وانقسموا فيه فريقين، فريق أحبه وما دعا إليه فعاهده على ذلك وبايعه وحذا حذوه وتابعه، وفريق أنكر عليه. . .)[2].

والواقع: إن الأفكار التي جاء بها ظلت مثيرة للجدل بين أوساط المسلمين إلى يومنا هذا، وأن معارك وخلافات عديدة قد نشبت بينهم بسببها.

○ ○ ○

(١) ابن غنّام، حسين: «تأريخ نجد أو روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام»، تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد. ج ١، ص ٢٠ - ٢٩. (ط ٤، دار الشروق، بيروت / القاهرة، ١٩٩٤م). وأيضاً: النجدي، سليمان بن سَحمان: «تنبيه ذوي الألباب السليمة وتبرئة الشيخين الإمامين». ص ١٦٢. (ط ٢، الرياض، ١٤١٠هـ).

(٢) ابن غنّام، حسين: «تأريخ نجد أو روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام»، تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد. ج ١، ص ٢٠ - ٢٩. (ط ٤، دار الشروق، بيروت / القاهرة، ١٩٩٤م).

صفقة فاشلة

لم تتقبل (حريملة) الشيخ محمد بن عبد الوهّاب يوماً واحداً بعد وفاة والده. لقد فر منها إلى (العُيَيْنَة)، أشهر بلدان المنطقة وأغناها وأكثرها آباراً وعيوناً وبساتين. وهناك عقد صفقة مع أميرها عثمان بن مُعَمِّر الذي تعهد بحفظ حياته ونصره على أعدائه[1].

وقد انطلقت دعوته التي ألبسها رداء السلفية باعتبارها - على حد زعمه - الممثلة الشرعية للخط الإسلامي الأول بمساعدة الأمير عثمان الذي وجد أنها قد تحقق طموحاته في التوسع والسيطرة.

إن نزعة التمرد والتفرد والإستقلال البدوي كانت تتجلى في أهل (نجد) أكثر من غيرهم وفي أهل (العارض) التي كانت المسرح الأول لنشاط الشيخ. وطالما تفاخروا بشجاعتهم وبأسهم. لذلك فهي بيئة مناسبة لظهور الفتن والزلازل كما أخبر بذلك الرسول ﷺ. وهذه ظاهرة تستحق النظر والدراسة. فنزعة الغزو والغلبة لم تخفّ خلال القرون المتطاولة وظل الناس يعيشون حالة طواريء مستمرة.

وإذا ما ظهرت حركة تلبّست بلباس ديني، ووظفت نزعة الغزو المتوارثة وجعلتها (**جهاداً في سبيل الله**) كحلٍّ أكيد لنيل احدى الحُسْنَيَيْن: النصر والغنائم في الدنيا أو الشهادة والحور العين في الجنة، فإن أغلب من يتوقع أن يستجيب لها ويتلقاها بالقبول فئات واسعة من أفراد المجتمع (**النجدي**) ذات الفهم المحدود للإسلام ورسالته. وقد قدمت لهم أطروحات الشيخ كخلاصة حقيقية للإسلام لم يتوصل أحد سواه إلى اكتشافها أو معرفتها!

---

(١) النجدي، سليمان بن سَحمان: «تنبيه ذوي الألباب السليمة وتبرئة الشيخين الإمامين». ص ١٦٢ - ٢٩٠. (ط ٢، الرياض، ١٤١٠هـ).

وقد حاول الشيخ ابن عبد الوهّاب أن يعقد صفقة مع الأمير عثمان بن مُعَمِّر يضمن له فيها أن يملك كل منطقة نجد إذا ما سار معه إلى نهاية الشوط، فساعده عثمان، فأعلن دعوته وبدأ بتنفيذ مشروعه، وشدّد في النكير على الناس، حتى تخاذل عثمان عن نصرته لورود تهديدات شديدة إليه من قبل أمير الأحساء والقطيف وطلب إليه الكف عن مشروعه بهدم أضرحة بعض الرموز الدينية والمساجد وإقامة الحدود الشرعية. فقال له الشيخ محمد: إنك إن نصرتني ملكت نجداً. فأعرَضَ عنه عثمان وطلب منه مغادرة مدينته[1] رغم محاولة الشيخ إقناعه باستمرار نصرته والسير معه إلى نهاية الشوط.

وكان الشيخ ابن عبد الوهّاب واثقاً من قدرته على تعويض خسائر الأمير مهما بلغت، وهو ما يثير الإستغراب، والتساؤل حول وجود قوى دافعة خفية تقف خلف الشيخ وتمتلك إمكانات فائقة[2]. وهذا ما يجعلنا نتأمل جيداً مذكرات مستر همفر ودعواه بوقوفه خلفه، إذ من أين يستطيع رجل له إمكانات مالية محدودة أن يعوض خسائر الأمير الفادحة، وكيف يستطيع أن يضمن له ملك نجد؟

○ ○ ○

---

(١) الحيدري البغدادي، إبراهيم فصيح بن السيد صبغة الله: «عنوان المجد في أحوال بغداد والبصرة ونجد». (ط ١، دار الحكمة، لندن، ١٩٩٨م).

(٢) فقد ذكر مؤلف «لَمْعُ الشّهاب» في صفحة ١٢٤أنّ الشيخ قال للأمير ابن مُعَمّر (... إنّ الله ناصرك، وإنّ جميع المحاصيل التي انحبست عنك أنا أسلّمها لك كل عام، وأدع أن يجري هذا الأمر رغماً على أنف المكره له. ولكن بعدما بذل محمد بن عبد الوهّاب النصائح لعثمان بن مُعَمّر بأن يواظب على هذا الدين وترويجه، عرف أن (عثمان) لايمكن الآن الإستقامة عليه ظاهراً، انتقل (محمد بن عبد الوهّاب) من (العُيَيْنَة) إلى بلدة (الدرعّية) وكان فيها إذاً (محمد بن سعود).

السر في إعدام ابن مُعَمِّر - الحليف الأول للشيخ

ويبدو أن الشيخ لم يغفر لعثمان ابن مُعَمِّر قيامه بطرده، رغم أن هذا الأخير حاول بعد صعود نجم الشيخ ومحمد بن سعود، شيخ الدّرْعِيَّة بعد تحالفهما وانضمام أعداد كبيرة من البدو المسلحين إليهما ونجاحهما في بعض المعارك، الإلتحاق بهما والحرب معهما. فقد دبرت خطة لقتله بعد خروجه من المسجد في أحد أيام الجمعة بحجة نقض العهد وموالاة الأعداء والتحريض على معاداة المسلمين **(أي أتباع الدعوة الوهّابية)** و**(الردّة)** و**(الشرك)** و**(النفاق)**. ولا ندري كيف يكون مشركاً وهو يؤدي صلاة الجمعة مع جماعة المسلمين في المسجد ومنهم الجماعة الذين قتلوه؟

والظاهر أن حليف الشيخ الطموح محمد بن سعود وجد أن لا مجال لسلطانين في منطقة واحدة ولا بد أن يزول أحدهما. وطبيعي أن يكون المنافس هو الزائل في قانون الصحراء. وقد حاول الشيخ ابن عبد الوهّاب التنصل من جريمة قتل ابن مُعَمِّر والتي كانت فضيحة مدوّية وحاول إلقاء وزرها على غيره، رغم أنّ المجموعة التي قتلته كانت من أنصاره وشيعته وكان هو قد صرّح بوضوح **(أنّ ابن مُعَمِّر مشرك كافر... فلما تحقق أهل الإسلام من ذلك تعاهدوا على قتله بعد انتهائه من صلاة الجمعة وقتلوه...)**[1].

○ ○ ○

إنّ هناك إشارات لبعض المؤرخين ذكروا فيها أن شخصاً أبيض البشرة ادعى إنه من موالي أو عبيد الشيخ ابن عبد الوهّاب كان هو واسطة الإتصال بينه وبين ابن معمر، وأنه قد مهّد للقائهما... ثم مهّد بعد ذلك للقاء الشيخ مع محمد بن سعود بعد فشل تحالفه الأول مع ابن معمر. وربما كان هذا العبد هو

(١) الآلوسي، محمود شكري: «تأريخ نجد». ص ٩٧.

مستر همفر. يؤيد ذلك، التأريخ الذي ذكره مستر همفر والذي يتزامن مع بداية وصول الشيخ إلى العُيَيْنَة وتحالفه مع ابن مُعَمِّر الذي احتفى به وزوجه من اخته.

قد يعود سبب قتل ابن مُعَمِّر إلى إطلاعه على أسرار الشيخ ونواياه خلال فترة تحالفهما. وقد يقوم بكشف هذه الأسرار والنوايا لبقية القبائل - ومنها سر الوسيط المتنكر بزي أحد العبيد - وبذلك يقضي على دعوته وهي في مراحلها الأولى.

○ ○ ○

آل سعود وأساطير عن الحسب والنسب(١)

ربما ليس بوسع أحد أن يجد اليوم اسم (**الدّرْعِيَّة**) على الخارطة لو لم يلجأ إليها الشيخ هارباً من مناوئيه، ولو لم يقم أطول و(**أنجح**) تحالف بينه وبين شيخ قرية الدّرْعِيَّة (**محمد بن سعود**) الذي ابتسم له الحظ بشيخ الإسلام وأتباعه ومريديه المتحمسين الجاهزين للقتال لنصرة دعوته الجديدة. وقد تحولت في طرفة عين إلى أكبر سوق لعرض منهوبات الغزو، وعاصمة لملكٍ لا يزال قائماً حتى اليوم.

وقد سكنها (**سعود بن مَكرن بن مرخان بن إبراهيم بن موسى**) الجد الأعلى لآل سعود. وقد ذكرت الروايات الحكومية والموالية أنها قد أقطعت له من قبل (**علي بن درع**) وقيل أن اسمها مشتق من اسمه(٢).

وقد أجمع المؤرخون على أنها كانت قرية فقيرة وكان أهلها في غاية

(١) الحسب: الأعمال والمآثر الشخصية. والنسب: الأصل وتسلسل الآباء والأجداد.
(٢) مجهول، المؤلف: «لَمْعُ الشّهاب في سيرة محمد بن عبدالوهّاب»، تحقيق د. محمد مصطفى أبو حاكمة. ص ١٢١. (ط دار الثقافة، بيروت).

الضيق والحاجة، وكانوا يحترفون لأجل معاشهم... وكانوا في غاية الجهالة والتهاون في الفروض الدينية، وكان جملة سكانها سبعين بيتاً(١). فهؤلاء لم يكونوا وعاء مناسباً لاحتضان دعوة إصلاحية مهما كان نوعها وإن حملت شعارات براقة. فالفقر لا يحمل معه إلا تخلفاً وضغينة وحسداً. ولعلهم أداة مناسبة لدعوة حقودة تكفّر جميع الناس وتستهدف استئصالهم كتلك الدعوة التحريضية التي حملها الشيخ لدوافع عديدة مكشوفة أو غير مكشوفة. وربما استهوتهم أموال الاخرين التي وُعدوا بها مع شيخهم للخلاص من حالهم البائس. وهناك شهادات لمؤرخين وكتاب حكوميين منحازين للحكومة السعودية تؤكد غلظتهم وميلهم للفتن والخديعة والحقد(٢).

إن العائلة السعودية التي تعادل وحدها اليوم قبيلة كبيرة أو سكان مدينة كاملة، كانت عائلة فقيرة مغمورة قليلة العدد قبيل بدء الدعوة الوهّابية وقدوم الشيخ إليها. وهناك أقاويل مختلفة بشأن أصل هذه العائلة حاول السعوديون إسكاتها بوضع شجرة نسب تربطها بالنبي محمد ﷺ! وربما أثارت هذه الشجرة الموضوعة الأقاويل أكثر من ذي قبل، إذ من يستطيع التدقيق في حقب وأزمنة تمتد إلى أكثر من خمسة عشر قرناً؟

ومن الطبيعي أن يكون شيخ القرية الفقيرة التي تمتهن الحرف لسد الرمق فقيراً هو أيضاً. وقد ذكر لنا المؤرخون فعلاً أن مصدر معيشته لا يعدو أن

(١) الحيدري البغدادي، إبراهيم فصيح بن السيد صبغة الله: «عنوان المجد في أحوال بغداد والبصرة ونجد». ص ٢٣٦. (ط ١، دار الحكمة، لندن، ١٩٩٨م). وذكره أيضاً: عثمان بن بُشر، ولَمْعُ الشّهاب، وعلماء نجد.

(٢) سيد الأهل، عبد العزيز: «داعية التوحيد». ص ٩٠. (ط ٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٤م). وراجع: مجهول، المؤلف: «لَمْعُ الشّهاب في سيرة محمد بن عبدالوهّاب»، تحقيق د. محمد مصطفى أبو حاكمة. ص ٣٠. (ط دار الثقافة، بيروت).

يكون مما يستحصله من السكان الفقراء عند حصاد الزرع وقطع الثمر. كما أنه (لم يكن لآل سعود شأن يذكر قبل أن يتبنّوا الدعوة الوهّابية)[١].

○ ○ ○

تلفيقات وادّعاءات

وكما لفق صاحب كتاب (لَمْعُ الشّهاب) وزملاؤه مناقب عديدة نسبوها للشيخ محمد بن عبد الوهّاب فإنهم لفّقوا مناقب أخرى لحليفه (محمد بن سعود). فقد ذكر هذا المؤلف المجهول عن (**الثقاة من المخبرين**) أن ابن سعود هذا كان رجلاً كثير الخيرات والعبادة وأنه كان مُيَسَّر الرزق له أملاك كثيرة من زروع ومواشي وأنه كان يمنح الآف الدنانير الذهبية حتى لأناس لا يعرفهم، وأنه كان يساعد الفقراء على الزواج ويجهزهم من أمواله... وكان يحب الخلوة، ولا يرضى بالحرب مع أحد، ودائماً يأمر جماعته بإطفاء الفتن مع أنّ قومه أهل حقد وخدع... لم تصف قلوبهم على من جاورهم... لانّ نفوسهم غليظة.

إن هذا يناقض ما ذكره بعض المؤرخين الموالين الذين أوردوا أدلة لا تقبل الشك على فقره وأنه كان يعتمد على ما يجبيه من أهل قريته الفقراء. وقد أصر عند إبرام بنود تحالفه مع الشيخ على استحصال سهمه من الفلاحين قائلا له:

«(إنّ لي على الدّرْعِيَّة قانوناً آخذه منهم في وقت الثمار، وأخاف أن تقول لا تأخذ منهم شيئاً). ولم يستجب له حتى وعده بأنه سيعوضه عن خسائره»[٢].

---

(١) المسلّم، محمد سعيد: «ساحل الذهب الأسود». ط٢، ص١٧٦. وأيضاً: كشك، محمد جلال: «السعوديون والحل الإسلامي». ص١١٤.

(٢) النجدي، عثمان بن بُشْر: «عنوان المجد في تأريخ نجد». ص ١١ و١٢. (ط ١، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، طبع في مجلدين بدون تأريخ).

ونجد في كتاب (ابن بشر) ما يشير إلى أنه اقتنع أخيراً بأنّ محمد بن عبد الوهّاب كان غنيمة ساقها الله إليه وأنه كان يستطيع معه خوض مغامرات للخروج من دائرة الفقر الضيقة في قريته. كما أنه لم يكن ذلك الملاك الوديع الذي يميل للهدوء ولا يرى اللجوء إلى البطش، فقد كان يمارس الإرهاب على جماعته القليلة ولم يكن أقل منهم حقداً وغلظة.

○ ○ ○

دافع الإتحاد: وحدة المصالح

إنّ شعور الحليفين بوحدة المصالح والمصير أدى إلى تمسكهما بتحالفهما الذي شعرا أنه سيجلب لهما المزيد من المنافع والامتيازات. وقد جعلا من الدّرْعِيَّة مركزاً لتجميع الأنصار وشن الحروب الدينية بدعوى الإصلاح والقضاء على البدع والخرافات.

فالتكتل الذي أقاماه في (الدّرْعِيَّة) والذي جمع خليطاً من شتات بدو نجد أصبح شبيهاً بأخويّة دينية أو رابطة بديلة عن الرابطة القبلية التقليدية. وأصبحت أفكار الشيخ محمد بن عبد الوهّاب تمهد لأحلام إنشاء دولة دينية شبيهة بالإمبراطوريات الغنية التي عرفتها العصور الإسلامية المختلفة.

وقد داعبت أحلام إنشاء مثل هذه الدولة أفكار الشيخ الفقير (محمد بن سعود) وعلم أن فتاوى زميله ستكون غطاء شرعياً لغزواته وحروبه في المستقبل وسيستفيد من المتطوعين البدو المتحمسين الذين سينضمون إليه بدوافع الجهاد الديني والحصول على الغنائم.

فهذه إمارة قبائلية مقامة على أساس ديني. وقد جعل كل المنضمين إليها - رغم إنهم من قبائل متنوعة - أنفسهم رعايا مخلصين لأمير القبيلة (محمد بن سعود)، طالما ظل مخلصاً ومتمسكاً بأفكار وتوجيهات رئيسهم الديني (محمد ابن عبد الوهّاب) الذي كان يمسك كل الخيوط بيده ويدير كل شيء.

ولو حصل أن الغطاء الديني (الوهّابي) رفع واستبدل بشعارات ترفعها الإمارة الناشئة لا تمتّ للدين بصلة لانهارت، بل، ولما قامت أصلاً، لانّ شرعيتها الوحيدة للبقاء والإستمرار، هي ادعاء مؤسسيها بنصرة الدين وتنقيته من شوائب الشرك والكفر وغيرها. وقد أريد للأب الروحي ومؤسس هذه الدولة (محمد بن عبد الوهّاب)، ثم لأبنائه وأحفاده من بعده، أن يظلوا على الواجهة دائماً مباركين ومؤيدين وداعمين قيامها كدولة شرعية تحظى ببركة وتأييد الله ورسوله والسلف الصالح أيضاً.

وقد ظل أولئك الأبناء والأحفاد مخلصين لتحالفهم وشعاراتهم المرفوعة، واعتبروه ستراتيجياً لأن حياة أيّ منهم مرهونة بحياة شركائه. وهم كالتوائم السياميّة التي تموت سوية ولا يكتب لأحدها البقاء إن مات الآخر إلا سويعات معدودة.

والواقع إن الشعارات الدينية ذات الطابع الإنفعالي والشكل المظهري لبعض طقوس الدين والتي تبدو في ظاهرها تحيزاً للإسلام وما يريده، قصد منها إظهارهم متدينين ورعين وذلك بقصد استمالة البسطاء الذين لا يحملون تصوراً واضحاً أو فهماً حقيقياً للدين. وبذلك جعلوا الدين وسيلة لتنويمهم وكسبهم.

○ ○ ○

أحلام الزعامة اليوم: هي نفسها أحلام الأمس

وفي محيط إسلامي متغير ومتنوع تسعى الدولة السعودية الوراثية الآن للحصول على موطىء قدم في كل بقعة فيه وتصدير الوهّابية على أنها أحدث نسخة صحيحة للإسلام النقي. وأرادت لنفسها الدوام والثبات، بل والزعامة أيضاً ولو على حساب زعزعة أمن جيرانهم أو البلدان الإسلامية الأخرى.

وعملت على كسب أطراف مؤثرة ومتنفذه وفاعلة: (**حكاماً ووزراء وموظفين كباراً وكتّاباً ومبلّغين وعلماء دين وسياسين وشعراء وغيرهم..**) ببذل الأموال الطائلة التي أتاحها لهم وجود كميات هائلة من البترول في أراضيهم.

وقد نجحت بكسب أفواج من الحاذقين بفنهم واختصاصاتهم (**السياسية والإعلامية والدينية والأدبية واللغوية وغيرها...**) لعرض صور براقة وجميلة عن إدارتها في الحكم والمجتمع وعن رؤيتها الوهّابية. وبذلك انتشرت طوابير مؤيدة وداعمة لها في كل بلد إسلامي، بل وامتد نفوذها إلى بلدان العالم الأخرى. فاستطاعت تجنيب نفسها تيارات النقد والمسائلة بعد أن فاحت روائح انتهاكاتها لحقوق الإنسان في البلد الذي حكمته بالحديد والنار، وأقامت نوعاً من ستار حديدي بينها وبين مواطنيها من جهة وبينها وبين العالم من جهة أخرى لإخفاء ما يجري داخل حدودها من ممارسات غير مشروعة لم يعد يقرّها العالم الآن.

○○○

الورقة الأخيرة: إقامة الدولة بذريعة الدين

لقد ساعدت عوامل عديدة على ترسيخ التحالف والشراكة بين الشيخين اللذين تطلعا منذ اللحظات الأولى من لقائهما، بعد الخمول والفشل والإحباطات السابقة التي مرّا بها، لإقامة كيان خاص قائم على دعم شعبي شبه عسكري قوامه مليشيات من أفراد ينتمون إلى مختلف القبائل والبلدات والقرى المتناثرة في منطقة الرياض والعارض عموماً.

وقد أصبح هؤلاء فيما بعد بتشجيع من الشريكين وتحت قيادتهما تكتّلاً قائماً على تصورات دينية بعيداً عن تكتل القبيلة، يكون أساساً لدولة دينية أراد الشيخ محمد بن عبد الوهّاب أن يكون هو عرّابها ومنظّرها ومرشدها الروحي

وأرادها شيخ القرية محمد بن سعود أن تكون بدايةً لملك وراثي محصور في أبنائه وأحفاده.

وكان واضحاً - فيما بعد - أن انهيار أيّ طرف أو تراجعه أو إخلاله بإلتزاماته وبالصيغة التوفيقية التي انتهجت منذ البداية، سيؤدي إلى إنهيار المشروع المشترك بأكمله. فلا بد من العمل بروح الفريق الواحد الذي إذا ما حقق أيّ فرد منه ربحاً كان في مصلحة الجميع، وإذا ما ألحق به خسارة نالت من الجميع.

إنّ تداعيات كثيرة جعلت مشروع التحالف ناجحاً، بل نموذجياً بنظر المتحالفين والأتباع. فقد حقق على الصعيد الميداني (انتصارات ومكاسب) على الخصوم والمنافسين الذين اعتبروا أعداء للدين، وحقق بحد السيف بعض ما دعا إليه بعد أن انحسرت أو تلاشت قوى الكثير من هؤلاء الخصوم والمتنافسين.

وبدت غنائم الغزو ومساحات المناطق (المفتوحة) وما وصل إليه حال الدّرْعِيَّة بعد ذلك دليلاً بنظرهم على مصداقية الدعوة الوهّابية والتحالف الذي ضم أعداداً كبيرة من المبهورين والمعجبين بها. كما بدت نبوءة الشيخ بغنائم وفيرة سيحصل عليها شيخ القرية الفقيرة كإحدى نبوءات بعض الأنبياء. وقد أضيفت لمجموعة القصص الأسطورية التي نسجت حول الشيخ والتي عرضته كحالة فريدة تسمو فوق الحالة البشرية الإعتيادية. وأنه لا يمكن إلّا أن يكون مدعماً ومؤيداً بعناية إلهية خارقة. ووصلوا بذلك إلى إثبات (عظمته) وشرعية الكيان الذي أقامه في الدّرْعِيَّة وضرورة ديمومتة واستمراره.

لقد داعب الشيخ ابن عبد الوهّاب أمنيات وطموحات الشيخ محمد بن سعود في التوسع، عندما بشّره بالغلبة والسيطرة على جميع بلاد نجد إذا ما رفع شعاراته الدينية لنصرته:

(كلمة لا اله إلا الله، من تمسك بها وعمل لها ونصرها ملك البلاد والعباد وهي كلمة التوحيد وأول ما دعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم. . .)[١]

وقد عزف له على وتر هذه الأمنيات، وكأنّ الانبياء من قبل أرادوا أن يملكوا **(البلاد والعباد)**، وأخذ يشرح له **(جهاد الصحابة)** وكيف أعزّهم الله وأغناهم، ولفت نظره إلى حال أهل نجد **(من مخالفتهم بالشرك بالله تعالى والإختلاف والجور والظلم. . .)**.

فهو يجد له المبررات **(الشرعية)** للغزو والتوسع ومهاجمة جيرانه الآمنين بحجة تغيير واقع حالهم، ويعطيه الضوء الأخضر لاستعمال أشد الأساليب قسوة وعنفاً، ويشرح له مذهبه وأفكاره التي تمنحه غطاء شرعياً لما قد يقوم به من فعاليات حربية في المستقبل.

وقد **(تحقق)** محمد بن سعود معرفة التوحيد - كما يقول ابن بشر - **(وعلم ما فيه من المصالح الدينية والدنيوية)**[٢]. . . أيّ إنه اقتنع بالمشروع الذي عرضه الشيخ وأنه يحقق له كل طموحاته في التوسع وجني المكاسب. وعلم أنّ الغطاء الشرعي لغزواته وتوسعه سيكون على أساس الفتاوى والتعليمات التي سيصدرها الشيخ ابن عبد الوهّاب، وسيستفيد من المتطوعين الذين ينضمون إليه بدوافع الجهاد الديني.

○ ○ ○

---

(١) النجدي، عثمان بن بُشر: «عنوان المجد في تأريخ نجد». ج ١، ص ١٢. (ط ١، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، طبع في مجلدين بدون تأريخ).

(٢) م. ن. ص١٢.

الوهّابية: مشروع ثابت في عالم متغير

ويمكن القول إن الإتفاق الذي جرى بن الشيخين قد أحكمت بنوده العامة، وأخذت عليه العهود والمواثيق والأيمان المغلّظة. كما يمكن اعتباره ناجحاً بمقاييس السياسة البراغماتية، خصوصاً وأن الصفقة المعقودة قد آتت أكلها ونتائجها المرجوة في فترة قياسية، وأن كياناً وليداً قد قام في نجد مستنداً إلى (**شرعية دينية**) وظفّها الشيخ محمد بن عبد الوهّاب بمهارة فائقة لمصلحته ومصلحة شريكه.

لقد أصبحت الدّرْعِيَّة بعد حوالي سنة واحدة ورشة نجد كبرى، يقام فيها نمطان من النشاط بحماس منقطع النظير:

الأول: ما أخذ الشيخ على عاتقه القيام به من تدريس منهجه **(التكفيري)** الصارم، ونشر خطابه وفهمه الخاص للتوحيد وإلزام الناس باتباعه واعتناقه واعتناق المفاهيم المتبناة من قبله وبسطها على أرض الواقع. وقد أصبح أغلب أهل القرية تلاميذاً للشيخ، ابتداء من رئيسها وأولاده وإخوته وانتهاء بالوافدين إليها (**الذين أسموا بالمهاجرين**) من البلدات والمناطق والقرى المجاورة الذين شدّهم إليها إعجابهم بالشيخ وانبهارهم بأفكاره الجديدة.

والثاني: ما قام من ممارسة حرف ومهن عديدة من قبل السكان والوافدين - نتيجة التوسع السكاني - ليسدوا رمقهم، لأن موارد القرية وشيخها غير كافية لاستضافتهم. ثم بعد فترة وجيزة قيام سوق وتجارة مزدهرة بعد الغزوات والحروب والغنائم الوفيرة.

والواقع أنّ الشيخ كان محور الحركة الحماسية القائمة في القرية. وكان يبدو وكأنّه في سباق محموم مع الزمن ليحقق ما وعد به شيخ القرية وما تنبأ له به، ولينفّذ مشروعه الإستئصالي المحارب لكل من يخالفه الرأي في نجد

وغيرها، والذي حمله ودافع عنه طيلة حياته، رافضاً الاستماع إلى أصوات علماء المذاهب الإسلامية، ومنها المذهب الحنبلي الذي ينتمي إليه ظاهرياً والذي حاول تطويعه لكي يتماهى مع توجهاته وفهمه الخاص المتعارض مع فهم الجميع.

إنّه - استناداً إلى شهادات مؤرخيه - أصبح القوة الأولى في الدّرْعِيَّة، قوامها أتباعه من أهلها والوافدون إليها، حيث شكلوا مليشيات أو كتائب عسكرية تخضع عقائدياً له باعتباره صاحب المشروع ومبتدعه. وما إلتفافهم حول الشيخ محمد بن سعود إلا لأنه أصبح جزءاً من هذا المشروع، وأحد المنفذين للقرارات والفتاوى التي تصدر عن الشيخ.

إنّ تفاصيل منهجه اليومي تدل على أنه كان يتصرف بفعالية وحماس. وكان يتدخل تدخلاً مباشراً لإدارة الأمور حتى البسيطة منها. ويمكن ملاحظة لمساته الشخصية المتسمة بالحدة والغضب في سلوك أتباعه إلى يومنا هذا، والذين ظلّوا ينتهجون منهج العداء المعلن والعنف ضد كل من يخالفهم الرأي والموقف.

❍ ❍ ❍

الثمار الأولى للتحالف: قيام الدولة السعودية الأولى

مهما يقال عن دوافع التحالف بين الشيخين (محمد بن عبد الوهّاب) و(محمد بن سعود) الذي قام سنة ١١٥٨هـ الموافق سنة ١٧٤٥م فلا يمكن أنْ يقال أنّها دوافع دينية بحتة، مع أنّ الذرائع التي أقيمت عليها ورفعت أمام الناس هي ذرائع وشعارات دينيَّة.

فمبدأ الوراثة في الملك، مع أنه ساد خلال الإمبراطوريات والممالك المعروفة في تأريخ الإسلام، لم يكن مبدءًا إسلامياً. وقد وردت تحذيرات

مبكرة منه على لسان النبي ﷺ . وكان الشيخ (محمد بن عبد الوهّاب) يرفضه في البداية باعتبار أنه خروج عن النص القرآني الذي يدعو (للشورى) التي فهمها بصورة خاطئة أيضاً إستناداً إلى تفسيرات مفبركة، أريد منها تضليل الناس عن معناها الحقيقي.

أما مبدأ الوراثة في المشيخة والخلافة في الدين فهو أمر غريب غير مألوف حتى في ظل الأنظمة الوراثية التعسفية الأولى وقد ابتدعه الشيخ لأول مرة طوال عهود التأريخ الإسلامي. فكيف يضمن أهلية أولاده لهذا المنصب وحصولهم على درجات علمية تؤهلهم له؟ لكننا متى ما علمنا أنه هو قبل غيره يدرك حجم مؤهلاته الفقيرة، ومع ذلك فقد احتجز هذا المنصب لنفسه دون علماء نجد أو علماء المسلمين جميعاً، فسندرك انه يعتبر صاحب هذا المنصب من بعده لن يكون بحاجة لعلم غزير، وما عليه إلا أن يقلب كراسات والده التي لا يتجاوز عدد صفحاتها المائة إلا بقليل ليكون شيخ الإسلام المرتقب مستنداً إلى الشرعية التي منحها (الشيخ المؤسس).

وقد توارث الأولاد والأحفاد هذا المنصب طيلة ٢٥٠ عاماً تخللتها فترات انقطاع وسقوط بسبب الظروف السياسية التي عصفت بالإمارة وأنهت ما سمي بالدولة السعودية الأولى والثانية. وقد حاولوا تطوير الإرث الفقير الذي خلّفه لهم وأصبحت لهم فيما بعد مؤسسة دينية محنكة قامت بشروح واسعة لكراساته واتبعت وسائل إقناع كثيرة لضم المزيد من الأتباع إليها والى المؤسسة القتالية والحاكمة الرديفة.

○ ○ ○

مشروع توسعي

بدا المشروع الوهّابي في نظر مؤيديه في البداية مشروعاً دينياً بحتاً يستهدف القضاء على (**البدع**). وكانت النشاطات الحربية المتمثلة في الغزو والنهب تتيح مكاسب غير مألوفة للمقاتلين من أهل البادية. فكان ذلك مصدر جذب قوي للقادة الذين تزعموا هذا المشروع (**الناجح**) الذي يدر عليهم أرباحاً وغنائم غير متوقعة. وربما كان ذلك بمثابة الطعم الذي ألقوه لكسب المزيد من المقاتلين المغامرين إلى جانبهم. وكان بالفعل طعماً مغرياً إذ ازداد عدد هؤلاء وتصاعدت وتائر حماستهم كلما حققوا (**نصراً**) (**وعادوا ظافرين بغنائم وفيرة**) كما يشير إلى ذلك مؤرخو الدولة السعودية الذين تحدثنا عنهم.

وإذا ما أضيف للجهد البشري للغزاة البدو إمكانات عسكرية متطورة مثل البنادق الحديثة والمدافع فيما بعد والتي لم تعرف من قبل والمدربين من (**خدم محمد بن عبد الوهّاب**) الذين تثار عنهم أكثر من علامة إستفهام، إذ كيف يتسنى لفقيه مطرود ومنبوذ **أن يمتلك مثل هذه الأسلحة وهؤلاء الخبراء**. فإننا نجد أن عمليات الغزو قد أعطيت دعماً أساسياً ومساعدة جادت بها قوة خارقة عليا أكبر من القدرة المحدودة لشيخي الدين والقرية وأن المقاتلين كانوا يعيشون أعراس انتصارات متلاحقة حققها لهم الشيخ بتعاليمه ومنشوراته الحماسية بفضل أسلحته المتطورة وخبرائه من (**العبيد**) الذين كانوا في معيته أو غيرهم[١].

○ ○ ○

(١) راجع هذا الموضوع بالتفصيل (**محمد بن عبد الوهّاب والوهّابية، منهج في صناعة التطرف والإرهاب**) للمؤلف وقد تحدث فيه عن القوى التي كانت تتعاون معه وكيف أنها زودته بالأموال والأسلحة والخبراء لتنفيذ مشروعه التوسعي الذي يتيح تمزيق مجتمع الجزيرة وشعوب المنطقة لإمكانية السيطرة عليها وإخضاعها من خلال نشر الفكر =

إخضاع المناطق والقوى المنافسة:

يمكن حصر المناطق والقوى المنافسة التي أثارت قلق ومخاوف الشيخين ومن يقف ورآءهما كما يلي:

١ - عثمان بن مُعَمِّر في العُيَيْنَة.

٢ - دهام بن دوّاس في الرياض.

٣ - بلدات وادي حُنَيْفَة والوَشْم والسَّدير.

٤ الأئمة الزيديون حكام اليمن.

٥ - السلاطين الأباضيون حكام عُمان.

٦ - أشراف مكة حكام الحجاز.

٧ - بنو خالد حكام الأحساء.

ومن الطبيعي أن لا يتمكن الوهّابيون من التصدي لكل هذه القوى مرة واحدة، وإلا لانتهى مشروعهم منذ البداية خصوصاً وأن واحدة من هذه القوى بمفردها قادرة على سحقهم، لذلك لجأوا إلى غزو الجار القريب والهرب بالغنائم وقد بدوا بنظر هذه القوى كمشاغبين لايؤبه لهم. كما إنهم حاولوا التحالف مع بعضها كما فعلوا مع ابن مُعَمِّر الذي رفض المشروع الوهّابي وطرد الشيخ ابن عبد الوهّاب في البداية. وعندما تمكنوا منه بعد أن اتسعت أعداد قواهم الغازية اغتالوه في المسجد. وقد تحدثنا عن أسباب ذلك.

إن تحالفهم مع ابن مُعَمِّر المتذبذب من جهة والمتخوف من نمو قوتهم

= المتطرف الذي لا تقبله إلّا العقليات المحدودة للبدو الذين يعيشون على حافة المجتمعات المتمدنة وفي أعماق الصحراء. وليس من الغريب أن نلاحظ استجابة القبائل البدوية والمنقطعة في جبال افغانستان وباكستان للفكر الوهّابي فالظروف الجغرافية والبيئية لهؤلاء تشابه إلى حد كبير ظروف بدو شبه الجزيرة الذين شكلوا دعامة الحركة الوهّابية.

والطامع في أسلاب الغزو ضمن لهم سكوته عدة سنوات، ومشاركته بالعديد من غزواتهم الرئيسية على بلدات نجد الجنوبية وفي مقدمتها (الرياض) التي كان يحكمها خصمهم العنيد (دهّام بن دوّاس) الذي تصدى لهم وحاربهم قرابة ثلاثة عقود ووقف حجر عثرة في طريق أطماعهم التوسعية.

وقد انتهت معركتهم معه نهاية دراماتيكية، إذ أنه فجأة ودون سابق إنذار ترك المدينة التي دافع عنها طويلاً ومعه أهله وأمواله وبعض أنصاره وقدمها على طبق من ذهب للغزاة الذين أباحوها وقتلوا كل من وقع في أيديهم من أهلها[١].

ويثير هرب ابن دوّاس تساؤلات عديدة. ولم يسهب المؤرخون السعوديون في الحديث عن أسبابها. فربما تلقى رشوة كبيرة منهم دفعته لذلك. وهذا الأمر من الممنوعات التي لا يجوز التحدث عنها. فوقائع الحال دلت على أنّ هناك وفداً مفاوضاً كان في الرياض توصل لمثل هذا الإتفاق مع ابن دوّاس وأبلغ عبد العزيز بنتائجه التي أسفرت عن خروج هذا الخصم العنيد من مدينته المحاصرة دون أن يمنعه المحاصرون من ذلك.

فقد ذكر صلاح الدين المختار أن عبد العزيز كان على بُعد من الرياض ودخل إليها «بعد العصر فإذا هي خالية من أهلها إلا القليل»[٢].

ومهما يكن فإن أهم قلعتين معاديتين للوهابيين قد سقطتا بأيديهم، وأصبح بإمكانهم أن يتجهوا إلى الخصوم الباقين لإسقاطهم واحداً بعد الآخر.

---

(١) راجع: سعيد، أمين: «تأريخ الدولة السعودية». ج ١، ص ٥١. (ط الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٤م). وأيضاً: المختار، صلاح الدين: «تأريخ المملكة السعودية في ماضيها وحاضرها». ص ٤٢. (ط مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٥٧م). وقد ذكر أن ابن دوّاس هرب إثر معركة له مع ابن سعود مع أن الأمر لم يكن كذلك.

(٢) م. ن. ص ٤٢.

أما بالنسبة لليمن وعمان فقد دخلت بريطانيا على الخط مباشرة، وهو الأمر الذي ساعد على تحييد هاتين القوتين لصالح الوهّابيين في نهاية المطاف. فقد تمكنت الدولة العظمى من عزلهما وتخفيف قوتهما عندما عمدت إلى تصعيد وتائر الخلافات المذهبية والقطيعة بين عموم سكان نجد الأحناف والحنابلة وبين هذين البلدين اللذين يحكم أولهما الائمة الزيديون وثانيهما السلاطين الأباضيون.

وقد سربت إشاعات في نجد حول الأصل غير العربي لحاكم نجران، قائد قبائل يام في عسير الذي أوشك أن يبيد القوات الوهّابية في (حائر سبَيْع). يقول مؤلف لَمْعُ الشّهاب عن هذا الأمير: «**وأمير هذا الجيش حسن بن هبة الله المكرّمي، قيل إنه شريف من السادة زيديّ المذهب، وقيل ليس بعربي وإنما هو هندي، تولد بأرض نجران من أربعة أو خمسة أصلاب، وصار شهرتهم بالمكارمة، وأنه رجل ساحر يتعاطى علوم السيميا والحروف، وهو بحسب الظاهر رافضي، وبالباطن عند من كشف عن حاله طبيعي منكر الصانع**»(١).

ومتى ما علمنا أن تهمة (الرفض) التي تعني في القاموس الوهّابي هو (التشيع)، وهي أخطر تهمة تدين صاحبها وتجعله مباح الدم والعرض والمال، أدركنا أن بث مثل تلك الإشاعة كان يهدف إلى زرع الكراهية في نفوس الناس لهذا الرجل وجيشه ومن ثم حشدهم لمحاربته.

وقد فعلوا الأمر نفسه بالنسبة لحكام عُمان واتهموهم بأنهم من بقايا الخوارج في محاولة مماثلة لعزلهم والإنقضاض على دولتهم. إلا أنهم لم ينجحوا في محاولاتهم.

○ ○ ○

(١) مجهول، المؤلف: «لَمْعُ الشّهاب في سيرة محمد بن عبدالوهّاب»، تحقيق د. محمد مصطفى أبو حاكمة. ص ٤٠. (ط دار الثقافة، بيروت).

لقد أعدت خطط محكمة للتمهيد للوهابيين لكي يسيطروا على الحجاز كانت بريطانيا طرفاً أولاً في وضعها وتنفيذها. فلم تكن تلك الخطط نتاج تجارب فقيرة في مضمار السياسة وإدارة الدول وانما كانت نتاج تجربة غنية لا تتاح إلا لدول عظمى أمثال بريطانيا. فقد ارسلت قوة بحرية إلى ميناء جدة وحرضت ابن عم شريف الحجاز المتوفى للمطالبة بالإمارة لنفسه وساعدته على التمرد على اخوة ذلك الشريف وابنائه. وبذلك أدخلت الحجاز في حروب ونزاعات داخلية استمرت فترة طويلة.

وقد امتدت تلك النزاعات إلى الأخوة والأبناء فكانت سجالاً مما أضعفهم جميعاً في نهاية المطاف، وأصبح الجو مهيئاً لاستيلاء الجيش الوهّابي على مكة وعموم منطقة الحجاز[1] بعد ذلك وتنفيذ مخطّطه لمحو الآثار والشواهد التأريخية الإسلامية المقدسة ونهب مقتنياتها الثمينة وفي مقدمتها الحضرة النبوية المشرّفة.

○ ○ ○

أما مع بني خالد في الأحساء فقد أتاحت الخبرة البريطانية وتجربتها في التفريق بين (الأشراف) في الحجاز للوهابيين تكرار التجربة لتفريق بني خالد الأقوياء وزرع الخلافات بينهم.

وفي الواقع فإن سياسة (فرّق تَسُد) التي اشتهر بها ساسة الإمبراطورية العتيقة أثبتت فعاليتها على الدوام. وقد استفاد منها الحلفاء السعوديون الذين وظفوا التجربة الوهّابية لصالحهم في نهاية المطاف بعد تقاعد الشيخ محمد بن عبد الوهّاب وتفرغه لشؤون (التدريس والعبادة). فقد استنسخوا التجربة

(١) الجبرتي، عبد الرحمن: «تأريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار». ج ١، ص ٣٩٧ و٣٩٨. (ط القاهرة). وأيضاً: المختار، صلاح الدين: «تأريخ المملكة العربية السعودية». ص٤٢.

البريطانية الغنية بالدسائس والوقيعة بين الأهل والأقارب لتكرارها مع بني خالد وغيرهم فيما بعد.

وقد كانت النزعة للإستئثار بالحكم والمشيخة طاغية ويكفي تغذيتها وإثارتها لإشعال الأجواء وإثارة الخلافات.

لقد عمد (**دجين وسعدون**) إلى قتل أخيهما (**بطين**) الذي أصبح حاكماً على الأحساء بعد وفاة أبيه، خنقاً، وانفرد سعدون بالحكم بعدما نجح بدس السم لأخيه وشريكه دجين. وهذا شرخ كبير في العائلة الحاكمة أتاح لعبد العزيز بن سعود أن يكاتب بعض مشايخ بني خالد لتحريضهم على الخروج على حكامهم ويعدهم بأموال وأراضٍ ورشاوى. كما حاول تحريض أخوة سعدون الآخرين (**محمد وداحس**) اللذين خرجا عليه فعلاً وطالبا بالحكم لنفسيهما ونجحا في هزيمته عام ١٧٨٦، مما دفع سعدون للإلتجاء إلى عبد العزيز في الدّرْعِيَّة وشن غارات على بلاده. وبعد وفاته شجع عبد العزيز خال حاكمي الأحساء للمطالبة بالحكم وساعده لتحقيق ذلك مما ألجأ الأخيرين للهرب واللجوء إلى عبد العزيز لمقاتلة خالهم وقومهم.. وبذلك أصبح الجميع لعبة في يديه واستطاع في نهاية المطاف ان يقضي عليهم جميعاً وينهي حكمهم عام ١٧٩٣[(١)].

وإذا ما علمنا أن منطقة الأحساء التي يسيطر عليها بنو خالد هي أغنى مناطق الجزيرة العربية، فإن التساؤل هنا: كيف أتيح لشيخ نجد الفقير أن يقدم رشاوى مغرية وكثيرة لزعماء وشيوخ هذه المنطقة لدفعهم للتقاتل والخصومة والخيانة...؟

---

(١) مجهول، المؤلف: «لَمْعُ الشّهاب في سيرة محمد بن عبدالوهّاب»، تحقيق د. محمد مصطفى أبو حاكمة. ص ٦٦ - ٦٩. (ط دار الثقافة، بيروت).

ولا بد أن يد الإمبراطورية البريطانية كانت تعمل من خلف الستار لتقوية نفوذ رجلها المرتقب في المنطقة: عبد العزيز بن محمد آل سعود الذي لم يستطع تحقيق نصر حاسم في معاركه مع الرياض أو الحجاز أو غيرها إلا بأسلوب الرشوة والوقيعة وإثارة الخلاف بين الأخوة والعوائل، بل كاد أن يسحق من قبل قوات بني يام كما ذكرنا.

لقد اتبعت نفس الأساليب للإيقاع بـ(علي بن أحمد) المتنفذ في المنطقة الشرقية من الأحساء والقطيف التي تضم قرابة أربعين قرية، والذي واجه القوات السعودية في حرب استمرت ستة أشهر دون أن تستطيع تحقيق نصر عليه، إلى أن قاموا بمراسلته وإعطائه أماناً نكثوا به فيما بعد وتم قطع رأسه بيد سعود بن عبد العزيز(١).

وكذلك فعلوا مع بني عتيبة الذين كانوا يحاربون القوات البريطانية. فقد وقعوا معاهدة معهم ثم حاولوا زرع الفتن فيما بينهم إلى أن تمكنوا منهم وأخذوا زعماءهم رهائن إلى الدّرْعِيَّة ولم يطلق سراحهم إلا بعد سقوطهم على يد قوات محمد علي باشا(٢).

○ ○ ○

(١) م. ن. ص ٧١ و٧٢.

(٢) م. ن. ص ٨٤. ومن الطريف أن هذا المؤلف المجهول يعترف بذلك ويفتخر به كأنه هو الأمر الطبيعي لإمارة تدعي أنها تحكم وفق الشريعة الإسلامية، حيث يقول في ص٨٤: **«فأخذ أمر آل سعود يجري فيهم - أي بني عتيبة - شيئاً فشيئاً، حتى توفي عبد العزيز وولي الأمر بعده ولده سعود بن عبد العزيز، فسعى في النفاق بين بني عتبة فأفتنهم...»**.
راجع أيضاً: الريحاني، أمين: «ملوك العرب»، المجموعة الكاملة. م ١، ج ٢، ص٢٥٩. (ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠م).

براغماتيون وإن رفعوا الشعارات المبدئية

لم نكن لنعمد - ولو بشكل عابر - إلى استعراض الأساليب التي لا يلجأ إليها من يريد إقامة دولة دينية خالصة نقية على غرار دولة النبي محمد ﷺ، إلا لنبرهن على حقيقة الكيان الذي حاول الوهّابيون إقامته. لقد لجأوا إلى أكثر الحيل براعة للإيقاع بخصومهم بزرع الفتن والذين لم يكونوا خصوماً إلا لأنهم كانوايسيطرون على مناطق أراد الوهّابيون أن يكونوا هم أسياداً عليها.

وقد عمدوا إلى زرع الفتن بين رؤساء العوائل الحاكمة لإضعافها ثم السيطرة عليها. وطالما تفاخر الأبناء فيما بعد بدهاء آبائهم الذين أسسوا لهم هذا الملك الكبير، واعتبروا أن هذا الدهاء من دواعي التوفيق الإلهي وإنه لا يتنافى مع قيم الدين طالما أن الغاية هي أقامة **(دولة الإسلام)** بمنظورهم ورؤيتهم التي أسسها باني دولتهم الشيخ محمد بن عبد الوهّاب. كما عمدوا إلى اتباع أشد الأساليب بشاعة مع خصومهم بقصد إرهابهم ومنعهم من التصدي لهم إذا ما قاموا بشن غاراتهم عليهم. وهي أساليب اثبتت فعاليتها وجعلت الناس يحسبون ألف حساب قبل مقاومتهم. فسمعتهم الأسطورية في القتل والذبح روعت أهالي نجد والحجاز وأهالي القرى والبلدات والتجمعات البدوية المتناثرة[1].

(١) ويبدو أن استراتيجية بث الخوف والرعب الذي أسماه الشيخ **(القتل الشنيع)** قد اعتمدت منذ وقت مبكر لضمان سيطرة الوهّابيين على المناطق التي يقومون بغزوها أو الإغارة عليها. فقد كانت وصاياه لعبد العزيز بن محمد بن سعود واضحة بهذا الشأن: «لا تبق أحداً تظفر به إلا قطعت رأسه، لانّ القتل الشنيع هو الذي ذلّل لنا رقاب قبائل نجد». راجع كتاب «لَمْعُ الشّهاب» ص٦٥. كما نجد في أدبيات ويوميات التأريخ الوهّابي التي سطرها (ابن بُشْر) و(ابن غنّام) وغيرهما نبرة اعتزاز وفخر بهذا الأسلوب الذي أرساه مؤسس الوهّابية وجعله منهجاً لهم إلى يومنا هذا، تعتمده الحركات المتطرفة التي تتخذ الوهّابية مرجعية لها.

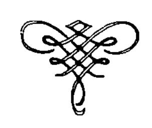
وقد برزوا كقوة منظمة متحمسة لا تهاب الموت على استعداد لمواجهة أيّ عدوّ مهما كانت النتيجة، مع أنهم كانوا يتراجعون وينهزمون أمام أيّ جيش منظم أو قوة عسكرية مسلحة. كما حدث مع بني يام الذين كانوا يبلغون ثلث عددهم ومع ذلك أوشكوا على القضاء عليهم لو لم يستعطفوهم ويعدوهم بدفع جزية سنوية.

تأريخ حروبهم كان يدل على **(كرمهم)** بأرواح المقاتلين المتهورين البدو الذين يزجونهم في الحروب ولا مبالاتهم بالأرواح التي تزهق فيها. وطوال عشرين عاماً لم يستطيعوا تحقيق نصر حاسم على ابن مُعَمِّر في العُيَيْنَة إلا باغتياله وعلى ابن دوّاس في الرياض إلا برشوته وخروجه طواعية بعد ذلك..

ولم يستطيعوا دحر بني خالد أو أشراف الحجاز إلا بعد زرع الفتنة بينهم وهو الأمر الذي استغرق سنوات طويلة، والذي جعلوه من تقاليدهم وموروثهم في الحكم والإدارة بعد ذلك.

تأريخ الوهّابيين يدل على أن أيديهم لم تكن نظيفة من الدماء أو الأموال التي اغتصبوها بالقوة أو تخريب البلدات أو الزروع أو التعدي على الأماكن التأريخية المقدسة لدى المسلمين.

وبدا من الواضح أنهم لم يكونوا لينجحوا في إقامة إمارتهم دون عون خارجي ومشورة حاذقة من قبل قوة عظمى كان لها باع طويل في كل فنون الحرب والسياسة.



الفصل الخامس

الوهّابيون والخوارج

(المطابقات)

التناقضات القبليَّة

أسهمت التناقضات القبلية (قريش - ربيعة - مضر) التي اشتركت في حرب (صفّين) في بلورة وتحديد ملامح الخطّ الخوارجي الذي بدأ يتضح خلال تفجّر الصراع بين الإمام علي عليه السلام، الخليفة الذي حظي بأكبر إجماع شعبي من جميع فئات المسلمين في المدينة وغيرها، وبين والي الشام المخضرم معاوية بن أبي سفيان الذي كان شبه حاكم مطلق طيلة عهدي عمر وعثمان أيّ لما يقارب من عشرين عاماً، وكلاهما ينتسب لقريش التي ادّعت أن الزعامة الكبرى أو الخلافة، ينبغي أن تكون فيها). فقد قاوم معاوية أوامر الإمام بالتخلّي عن ولاية الشام بحجة الثأر لعثمان وذهب إلى حد اتهامه بالتشجيع على ذلك وطالبه بمعاقبة قَتَلَتِه.

إن وجود مقاتلين من قبيلة واحدة في جيشين متصارعين يخوضان حرباً شرسة جعل إشكالية الفوز لصالح الإمام قائمة، إذ كان جيشه أشبه بجيش متطوعين قد يقررّون الإنسحاب في ظل انعدام الإكراه أو القسر عليهم من جانبه، ولوجود جيش مقابل شبه محترف آثر الإنضمام لمعاوية بفعل الإغراءات العديدة التي كان يقدمها لقادته ومقاتليه.

لقد كان الإمام يزمع إرسال عبد الله بن عباس ممثلاً له في لجنة التحكيم غير أنه أجبر على استبداله بأبي موسى الأشعري (من ربيعة) بضغط من الأشعث بن قيس وبعض قادة جيشه الآخرين (من ربيعة) بحجّة أنّ ابن عباس

من مضر وكذلك عمرو بن العاص. و(**حتى لا يحكم فيها مضريّان**)[١] فقد أختير الأشعري (من ربيعة) ليكون حكماً رغم مواقفه المتحيزة المعروفة ضد الإمام. وقد أشرنا إلى ذلك في القسم الأول من هذا الفصل.

وعندما نجح الأشعث في مهمته باستبدال ابن عباس وأخذ يطوف على معسكر الإمام بكتاب التحكيم وفيه اسم أبي موسى، فإن ذلك أثار حفيظة خصومه من (**تميم**) وهي من (**مضر**)، بل وحتى قبائل (**بكر**) وهي من (**ربيعة**).. فاعترضوا عليه وحاولوا إيذاءه.

ومن الطبيعي أن لا تكون صيغة الإعتراض مبنيَّة على الرفض القبلي البحت (باعتبار أن الجميع يرفعون شعارات الإنتماء للإسلام)، بل تكون مغلفة بالشعارات الإسلامية.

وربما قدحت فكرة برأس أحد بني تميم ليجيبه جواباً حاول أن يكون مسكتاً: «تحكّمون في أمر الله عز وجل، الرجال؟ لا حكم إلا لله». ثم شدّ بسيفه فضرب به الأشعث فأصاب دابته، فاندفعت تجري وهو عليها. ولمّا رأى قوم الأشعث ذلك هبّوا لنجدته. وكادت الحرب تشتعل في صفوف الإمام علي بين بني تميم وأهل اليمن لولا أن تدخّل كبراء بني تميم فاعتذروا للاشعث وقومه[٢].

وقد نشر (**التحكيم**) تداعياته التي مزّقت جيش الإمام وكما توقّعها هو. فالنتائج تفصح عنها المقدمات. ولم يكن الإمام علي عليه السلام وهو أسير

(١) اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب: «تأريخ اليعقوبي». ج ٢، ص ١٨٩. (ط بيروت، ١٩٦٠م).

(٢) الطبري، ابن جرير: «تأريخ الأمم والملوك». ج ٣، ص ١٤٠. (ط ٢، الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م).

المبادىء التي أنشأه وربّاه عليها رسول الله ﷺ منذ الصغر، والتي أصبحت مثالية غير ممكنة التطبيق ولا يطيقها أحد بنظر غيره، قليل المعرفة أو الخبرة حتى لا يستطيع مواجهة مكر معاوية وغدره ولجوئه إلى كل وسيلة للفوز بتلك الحرب والبقاء على كرسي الحكم[١].

○ ○ ○

الخوارج.. خطّ حركي منظم تبلور بعد التحكيم

لم ينحصر الصراع بين أفراد جيش الإمام علي عليه السلام (**الذين قبلوا بالتحكيم والرافضين له**) على النقاش والكلام الخشن والشتائم وضرب السياط، وإنما انتقل إلى صراع مسلح لم يستطع الإمام أن يتفاداه بعد أن أعلن الخوراج (**توبتهم**) من إجبار الإمام على القبول بالتحكيم ثم رفضهم له بشكل قاطع ونهائي حينما رفض أن يجاريهم حتى أنهم عيّنوا أميراً للقتال وآخر للصلاة وأعلنوا الأمر شورى بعد الفتح (**أي بعد أن ينتصروا**)، وجعلوا البيعة لله. أما هدف حركتهم فقد أعلنوا أنّها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٢].

وقد خرجوا بذلك عن الحدود القبلية الضيقة إلى حدود أوسع أتاحتها لهم الشعارات التي رفعوها واستمالوا بها الكثير من الأتباع. ولم يكن بوسع أحد

---

(١) وقد عبّر الإمام علي عليه السلام عن ذلك بقوله: «... **والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر. ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس. ولكن لكّل غدرة فجرة، ولكل فجرة كفرة، ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة. والله ما أُستغفل بالمكيدة ولا أُستغمز بالشديدة...**». راجع: «نهج البلاغة» مجموعة خطب جمع الشريف الرضي، شرح الشيخ محمد عبده. ص ٤٥٩. (ط ٢، دار البلاغة، بيروت، ١٩٨٥م).

(٢) الطبري، ابن جرير: «تأريخ الأمم والملوك». ج ٣، ص ١٠٨. (ط ٢، الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م).

التنكر لتلك الشعارات في الظاهر والداعية إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتولية من يرونه مؤهلاً للحكم حتى وإن كان من خارج الدائرة القرشية أو من دائرة العرب ويكفيه تقواه وحسن إسلامه، كما تحدثت بذلك أدبيّاتهم.

وبذلك أرسوا مبدءاً جديداً استهوى الكثير من الناس إلى يومنا هذا، لأنّ حصر (**الخلافة**) أو (**الملك**) أو (**الأمر**) بفئة معينة من العرب، حتى ولو كانت مرموقة كقريش، لم يكن محل ترحيب جميع الناس الذين ينتمون إلى قبائل شتى ويرون أن قريش لا تختلف عن غيرها ويستندون إلى بعض النصوص القرآنية والأحاديث النبوية. . وإذا ما كان هذا النمط من التفكير مسكوتاً عنه طوال حكم الخلفاء الأربعة بعد الرسول ﷺ، فإن تداعيات الصراع بين الإمام علي عليه السلام وخصومه وآخرهم معاوية واعتبارهم جميعاً - بنظر الخوارج - كافرين، أتاح انتشار هذا التفكير بين أعداد كبيرة من أبناء ذلك المجتمع القبلي الذين لايزالون ينظرون إلى قبائلهم بأعتزاز. لقد حاولوا ان يخرجوا بتفكيرهم إلى آفاق أخرى وفتح المجال لطامحين من خارج نطاق قريش لتولّي (**إمرة المؤمنين**)، خلفاء وحكاماً وأسال لعاب هؤلاء الطامحين إلى المناصب التي اعتقدوا أنّ من هم أقل منهم كفاءة وتديّناً قد احتلها مثل معاوية.

○ ○ ○

السابقة الخوارجية في الحكم مهّدت لظهور حركات مشابهة

لقد فتحت السابقة (الخوارجية) الأبواب على مصاريعها فيما بعد أمام طامعين في الحكم وانكسر حاجز (القرشيَّة) أمام من يريد أن يخطو إلى عرش الخلافة أو الملك المتستّر ورآء هذه التسمية، وسنجد أن عشرات المغامرين مدّوا أعناقهم إلى هذا المنصب ونجح كثيرون منهم في الوصول إليه. وقد استمدوا شرعيتهم من السابقة الخوارجية رغم أنهم ادعوا أنهم يناوئون أفكارها.

إن ذرائعهم نفسها هي التي توسل بها شيوخ الدّرْعِيَّة فيما بعد، بإيحاء من الشيخ محمد بن عبد الوهّاب وجميعهم ينتمون إلى قبيلة عربية ليست من قريش، لتكرار النموذج الأول لحكومة الخوراج حيث عينوا أميراً للقتال ثم فيما بعد أميراً عاماً له كل سلطات الخليفة المطلقة، (**محمد بن سعود أولاً وابنه عبدالعزيز وبعده محمد بن سعود... وهكذا**) وأميراً للصلاة (**محمد بن عبد الوهّاب ثم أولاده فيما بعد...**)، وبدا حكمهم مبنيّاً في الظاهر على الشورى، إذ كانوا يجتمعون ويخرجون بقرارات مقبولة ومقرّة منهم، ولم يعرف أنّ خلافاً حصل بينهم. كما أنهم جعلوا البيعة لله وحاولوا تثقيف الناس على آلية جامدة في التوحيد وفق القراءة المتشددة للشيخ ابن عبد الوهّاب. أما شعار حركتهم فقد استعاروا له نفس شعار الخوارج: (**الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**) وهو شعار فضفاض حاولوا استمالة الناس به فالمعروف هو ما أقرّوه وألفوه ودعوا إليه والمنكر هو ما أنكروه هم دون بقية المسلمين. وسنجد فيما بعد أنّ قائمة المنكر الوهّابي ستطول بشكل لافت وأنّ محرّماتهم ستتجاوز حتى محرّمات الخوارج المتشددين.

شكّل تحالف الخوارج نمطاً جديداً لتجمّع غير قائم على أساس قبلي وأتاحوا الفرصة لظهور نمط من التفكير الجديد في الأمور العقيدية وفق فهمهم وقراءاتهم لنصوص القرآن الكريم الذي أغرموا بتلاوته غير انّهم فسّروه على هواهم ووفق (**إجتهاداتهم**) وهو ما فسح المجال لظهور مدرسة تدعو الجميع للإجتهاد وفق فهمهم.. فكأنما أصبحت معاني القرآن مرهونة بفهم كل شخص...

إن المدرسة الوهّابية حذت حذو الخوراج في هذا المجال وفتحت باب الإجتهاد دون التثبُّت من الضوابط أو المؤهلات التي تتيح القيام به. وقد

أصبح عدد (المفتين) في المملكة السعودية اليوم الذين يصدرون الفتوى وفق (**إجتهاداتهم**) مساوياً لعدد من يستطيعون فك رموز الخط العربي وقراءته[١].

وقد ولّد ذلك إرباكاً في الساحة العامة، إذ أن قوة تأثير كل فتوى لا يقاس بمستوى صاحبها العلمي وإنما بمستوى تأثيره وحضوره ومكانته الإجتماعية كخطيب أو حافظ للقرآن أو فاعل في بعض الحركات (**الجهاديّة**).

إننا نرى الآن أن ظاهرة (**الفتوى**) المنفلتة، والمفتين ذوي الحصيلة المعرفية المحدودة تستشري بشكل مرعب لا لكونها تتدخل في الأمور الحياتية ذات الأثر المحدود، وانما لإصدارها أحكاماً بالموت ودعوتها لتطبيق تلك الاحكام بكل وسائل القسوة المتاحة. إنّ هؤلاء المفتين نصبوا أنفسهم قضاة معيّنين من قبل الله مباشرة وأدخلوا أحكامهم في دائرة المقدس الذي لا ينبغي تجاوزه أو رفضه.

○ ○ ○

المطابقات الوهّابية والخوراج

لقد استنسخ الوهّابيون تجربة الخوارج ولم يهملوا حتى بعض الشكليّات والمظاهر والأداء. فهم أبناء نفس البيئة (**نجد**) ومنها انطلقوا إلى نشر مبادىء حركتهم التي يمكن اعتبارها حركة واحدة. والمطابقة بين المذهبين لا يمكن

---

(١) وقد أصدر الملك السعودي عبدالله عام ٢٠١٠ مرسوماً يمنع فيه الجميع من إصدار الفتوى بعد استفحال هذه الظاهرة وأوكل الأمر إلى اللجنة العليا للإفتاء والبحوث (العلمية) التي يرأسها أحد أبناء الشيخ محمد بن عبد الوهّاب. وهي مؤسسة رديفة للحكم السعودي تدعمه وتثبّت مواقعه وتمنحه شرعية الوجود والبقاء. إن سلاح (**الفتوى**) بدأ يستعمل بشكل فعال ضد مؤسسة الحكم السعودية وحتى المؤسسة الدينية الوهّابية الداعمة. فالوهّابيون الجدد يرون أن هذه المؤسسة نفسها قد انحرفت ويجب تقويمها أو القضاء عليها.

اعتبارها عفوية، أو أنها حصلت في بعض الجوانب دون الأخرى، بل إنّها كانت تامة بشكل واضح.

وإذ أن هذا الكتاب لا يؤرخ للخوارج إلّا بالقدر الذي يريد أن يبيّن فيه الأوجه العامة لهذا التطابق مع الوهّابيين وليس كل التفصيلات - التي تحتاج إلى كتاب مستقل - فإننا سنكتفي بهذا القدر الذي يقنع القاريء بارتكاز حركة الوهّابيين على حركات الخوارج.

ولعلهم وجدوا في منطق هؤلاء وشعاراتهم وسيلة الإقناع المناسبة وربما الوحيدة لاستقطاب بدو نجد والجماعات المتماهية معهم أو التي على شاكلتهم من الذين أثّرت في أجيال عديدة منهم البداوة والعزلة والتوحش الناجم عنهما وغلبة أسلوب القوة والغزو لكي يقتنعوا في النهاية بصواب المنهج المحارب والمعادي للآخرين عن طريق التلاعب بألفاظ ومعاني ودلالات القرآن والسنة النبوية. فهم من جهة يحاولون إقناعهم أنهم على حق ويمثلون الفرقة المنصورة الناجية ومن جهة أخرى يحاولون تلبية حاجاتهم عن طريق الغزو المسلح والسطو والسلب.. وهو الأمر الذي لايتعارض مع قيم البداوة السائدة والذي ينجح في المجتمعات المستقرة من حيث الجغرافية المذهبية أو التطور العمراني...

❍ ❍ ❍

وقد استطاع باحث قدير، وأحد العلماء المسلمين قبل أكثر من ستين عاماً تقصّي حوالي عشرة أوجه للشبه بين الوهّابيين والخوارج[1]، كما تطرق آخرون إلى ذلك ومنهم شقيق محمد بن عبد الوهّاب وهو الشيخ سليمان بن عبد

(١) وهو الفقيه السيد محسن الأمين العاملي في كتابه: «كشف الإرتياب في أتباع محمد بن عبد الوهّاب». (ط بيروت ١٩٩١م). ص ٩٦-١٠٥.

الوهّاب[١]. بينما يتجلى أمامنا اليوم أكثر من ثلاثين وجه للشبه عندما أتيح له الوقت الكافي لدراسة التجربتين[٢].

إنّ سمعة الخوارج لدى جميع المسلمين متدنّية إلى الحد الذي لا يشعر فيه أحد بأي تعاطف أو محبّة لأولئك الذين صاغوا خطاباً دينّياً سياسياً متوتراً يدعو للقطيعة مع الجميع الذين لا يتبنّون رؤيتهم ولا يمكن القول أنّ أحداً من المسلمين المعتدلين يريد اليوم إعادة تلك التجربة المشحونة بالعداوة وروح الحرب.

وإذا ما اكتشفوا أنّ هذه التجربة قد بعثت بمسمّى جديد ووفق منهج ماكر يستعير الأدوات والشعارات الإسلامية المقبولة ويعيد تصديرها بعد زرع ألغام التطرف والغلو المستحدثة والمغلّفة بشعارات الإصلاح أو تنقية الدين مما علق فيه من شوائب أو بلورة مفهوم التوحيد وفق الرؤية الصحيحة التي يدّعي امتلاكها دون غيره من المسلمين على امتداد عصور التأريخ الإسلامي، فإن خوفاً حقيقياً لا بد أن يتصاعد ويجد المسلمون حاجة حقيقية لحماية أنفسهم أمام موجة متطرفة جديدة ليسوا بحاجة إلى مواجهتها وتحمل نتائجها.

غير أن الجو العام الإسلامي الذي لا يعيش عصر نهوض حقيقي - إلا في الشعارات والأقوال - قد يتاثر بالأطروحة الخوارجية الجديدة التي تتقمصها الوهّابية التي انتشرت وتنتشر بفعل أموال البترو-دولار والمؤسسات الخليجية المتنفذة... ولا بد أن يكون أغلب المتأثرين بها من الفئات الشعبية ذات الرصيد المعرفي المحدود.

---

(١) النجدي، سليمان بن عبد الوهاب: «الصواعق الإلهية في الرد على الوهّابية». ص ٥٧ - ٦٠. (ط ١، بيروت، ١٩٩٨م).

(٢) ربما سنعد مؤلفاً مستقلاً عن هذا الموضوع مستقبلاً.

وندرج في الحدود المتاحة لنا في هذا الفصل بعض أوجه الشبه التي لاحظناها خلال دراستنا لظاهرتي التطرف القديمة والمعاصرة، وهي أوجه شبه حقيقية تتماهى مع بعضها حتى في المظاهر الخارجية والشعارات العامة. .

○ ○ ○

الشعارات المضَلِّلة

رفع الخوارج بمواجهة المسلمين الآخرين شعار (لا حكم إلّا لله) مستعيرين قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾(1). وهذا أمر يعتقده جميع المسلمين ولا خلاف عليه. فالله هو المالك والمتصرف والمدبّر لأمور العالم. فلا حكم إلّا له وقد ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾(2).

ولا يعني أن من يرفع هذا الشعار، (لا حكم إلّا لله) أنه يطبقّ هذا الشعار فعلاً ويجعل الحكم لله وأن الآخرين لا يحكمون إلّا وفق هواهم. فهل أنزل الله ملكاً خاصاً على الخوارج أو الوهّابيين فيما بعد بيّن لهم أحكامه وحجبها عن بقية المسلمين؟ أم أن أحكام الله مبيّنة واضحة في كتابه وفي سنة نبيّه يعرفها المسلمون جميعاً وفي مقدّمتهم المختصون بالفقه والشريعة؟ وهل اكتشف حقيقة التوحيد من لم ير النبي في حياته أو من لم يعش معه لحظة واحدة أمْ من تربّى في أحضانه وفهم الإسلام كما فهمه ﷺ وطبّق أحكامه؟

والواقع إن لهذا الشعار وقعه الرّنان على أولئك الذين لم ينظروا إلى الإسلام نظرة تفقه وتدبر ودراية، وإلا فمن الذي أعطي وكالة خاصة لتطبيق مضمون هذا الشعار وفق فهمه الخاص لا من خلال الفهم الصحيح لمفهوم

---

(١) القرآن الكريم: سورة الأنعام ٦، آية ٥٦. وسورة يوسف ١٢، آية ٤٠ وآية ٦٧.

(٢) القرآن الكريم: سورة البينة ٩٨، آية ٥.

(**الحكم الإلهي**) بمعناه العام الذي يعرفه جميع المسلمين؟ وكيف أصبح حكراً على هذه الفئات ذات النظرة الضيقة؟

وقد فرّع الوهابيون من هذا الشعار شعاراتهم الأخرى التي لم يملّوا من تكرارها مثل (**لا دعاء، لا شفاعة، لا توسل، لا استغاثة، لا استعانة إلا بالله**) وحسبوا أنهم قد حسموا بها حقيقة التوحيد وأنهم أدركوا من بديهيّاته ما لم تملكه مليارات من المسلمين على امتداد العصور الإسلامية منذ عهد الرسول إلى اليوم.

والواقع إن جميع المسلمين يعتقدون أن (**لا حكم إلا لله**). وحكم الله موجود في كتابه وفي سنّة نبيّه. غير ان الغرض من رفعه من قبل الخوارج كان سياسياً. فكان هذا الشعار كلمة حق، فالله هو المجيب والمغيث والغفار والمعبود والمستعان، غير أنّ له عباداً مقربين قد عظمهم وجعل لهم الوسيلة والفضيلة والشفاعة.. ومن يحمل العقلية الإسلامية التي تؤمن بعالم الغيب كما تؤمن بعالم الشهادة، يجد أن ذلك مستساغ ومقبول كما أكدته أدبيات وثقافة الإسلام الذي يؤكد دائماً على مفاهيم المودة والمحبة والرحمة التي تسود بين الله ومخوقاته. وهناك آيات قرآنية وأحاديث نبوية تؤكد هذا المعنى وتدعو لعلاقة المودة والمحبة بين المؤمنين ورسولهم وإلههم وبين الناس جميعاً لوجود الرابطة الإنسانية الأهم والأعظم.

ولطالما لجأ الوهابيون إلى بعض التمويهات لمنع الناس من التوجه للنبي لطلب الشفاعة أو التوسل به.. وقد يدور حوار على الشكل التالي:

- أنت تدعو محمداً، فهل أنّ القوة والشفاعة بيد محمد أم بيد الله؟

ولا بد أن يكون الجواب:

- بيد الله؟

- فلماذا لا تدعوه إذا مباشرة وتترك دعاء محمد؟

وهو كلام قد يكون مسكتاً لبعض الناس. فلا أحد يعتقد أن مخلوقاً مهما بلغ شأنه بيده أمور الخلق أصالة.

غير أنه متى ما أدرك ان الله قد منح الشفاعة والوسيلة لنبيّه تكريماً له كما هو ثابت لدى المسلمين جميعاً والذين بنوا على ذلك بعض نظراتهم الإعتقادية أصبح الإعتراض على ذلك اعتراضاً على الله.

وإلا لو سأل أحد الناس مؤمناً أن يدعو له وقيل له:

- من يجيب الدعاء، الله أم أخوك المؤمن؟

ولا بد أنه سيقول:

- الله.. وعندها ربما يقال له:

- اذن، فادع الله مباشرة ولا تطلب ذلك من إخوانك المؤمنين.

إنّ مسألة الشعارات أصبحت ظاهرة لفظية ذات رنين خاص لدى السذَّج والبسطاء ومحدودي الثقافة.

○ ○ ○

الإهتمام المظهري بالعبادات

اشتهر الجميع (**الخوارج والوهّابيون**) باهتمامهم المظهري الجاد بالطقوس والعبادة وأداء الصلاة جماعة في أوقاتها والتورع الظاهري عن المحارم وقد عينوا بعض المطّوعين والشرطة الدينية لمحاسبة وإجبار من لا يلتحق بصلاة الجماعة.

إن التشدد المظهري جعلهم يوقنون أنهم قد أدوا واجبهم بشكل كامل وأعطوا لأنفسهم حقاً لمحاسبة الآخرين على ما يرونه هم إهمالاً أو تقصيراً. وأولعوا بالإقتصاص منهم ومعاقبتهم، إستناداً لما رتّبوه لأنفسهم من حقوق.

وقد روي أن محمد بن عبد الوهّاب أمر بمعاقبة رجل لا يحضر الجماعة والدرس إما بحلق لحيته أو بتغريمة مائة دينار ذهباً، فرضي الرجل بأداء المال(١).

وهناك أحاديث كثيرة عن تشدد الخوارج والوهّابيّين بأمثال هذه الأمور.

لقد اعتبر الخوارج ومن بعدهم الوهّابيون أن التعمق في الدين أي أداء ما لم يطلب منهم أداؤه والتمسك الصارم ببعض الطقوس والعبادات بالشكل الذي تصوروه هو وحده المقياس على إيمان المرء، وألزموا أنفسهم بشعائر إضافية اعتبروها من الواجبات مع أنها من المستحدثات بعد عهد النبي ﷺ.

فقد حسبوا أن كثرة قراءة القرآن مقصودة لنفسها ولم يعنوا بتدَبرُّ آياته ومعانيه وتفسيرها الصحيح الذي يتطابق مع سنّة النبي **(أفعاله وأقواله وتقريراته)** ولذلك وجد الباحثون أن قراءاتهم كانت سطحية مبنيّة على تصورات حسية طفولية ساذجة(٢) وهذا يمهد لخروجهم عن الدين أو مروقهم منه فالدين منظومة متكاملة مبنيّة على نظرة إلهية شمولية تعتمد المحبة بين الخالق ومخلوقاته وتقوم على الحوار والاقناع واستيعاب الآخر وعدم مقاطعته أو رفضه، كما إنه لم يقم على أساس تكليف الناس ما لا طاقة لهم به أو إلزامهم بأمور لا يستطيعون القيام بها.

ولا بد أنّ أغلبهم مضلَّلون وأن كانت نواياهم صادقة وقد تصرفوا وفق فهمهم ورؤيتهم المحدودة وربما كانوا قد طلبوا الحق فأخطأوه(٣).

---

(١) مجهول، المؤلف: «لَمْعُ الشّهاب في سيرة محمد بن عبدالوهّاب»، تحقيق د. محمد مصطفى أبو حاكمة. ص ١٢٢. (ط دار الثقافة، بيروت).

(٢) أو على حد تعبير النبي محمد ﷺ: «يتلون كتاب الله رطباً، لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين..». راجع: العسقلاني، ابن حجر: «فتح الباري بشرح صحيح البخاري». ج ٩، ص ١٢٩. (ط البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٩م).

(٣) كما ورد عن الإمام علي قوله: «**لا تقاتلوا الخوارج من بعدي، فليس من طلب الحق** =

وقد رُويت قصص تحكي عن تحرّجهم حتى في أبسط الأمور التي قد يكون بعضها مباحاً. فقد ذكر أن بعضهم مرّ تحت نخل، فسقطت منه رطبة، فأخذها أحدهم ليأكلها، فقال رفيق: بغير حِلِّها وبغير ثمن؟فلفظها ذلك الرجل من فمه!. ومرّوا بخنزير... فضربه أحدهم بسيفه فقتله، فقال له أصحابه: هذا فساد في الأرض!. وحين جاءهم صاحب الخنزير استرضوه(١).

إنّ هذا التحرج الذي أبدوه من أكل ثمرة بسيطة ربما كان يحل لهم أكلها، أحرى بهم أن يبدوه في القضايا الكبيرة التي تتعلق بإباحة دماء المسلمين وحتى الأطفال منهم. وربما يمكن رصد العشرات من الحوادث التي تتعلق بسلوكهم المتناقض هذا الذي اعتبروه صحيحاً.

○ ○ ○

التكفير والإتهام بالشرك: ذريعة للقتل وإباحة الدماء والأموال

على أن الظاهرة التي تلفت النظر في سلوك فريقي **(الخوارج والوهّابية)** هي تكفير المسلمين الآخرين أو اتهامهم بالشرك وقد رتّبوا على ذلك استحلال دمائهم وأموالهم وسبي ذراريهم أو قتلهم.

وذهبوا إلى حد قتل أحد أصحاب الرسول، وهو عبد الله بن خباب الذي

= **فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه»**. راجع: الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: **«نهج البلاغة»** جمع الشريف الرضي، بشرح ابن أبي الحديد المعتزلي، وتحقيق عز الدين عبدالحميد المدائني ومحمد أبو الفضل ابراهيم. ج ٥، ص ٧٨. (ط البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٥م). وربما كان الإمام لا يريد إعطاء شرعية قتالهم بعد ذلك للأمويين الذين كانوا يعرفون ما يريدون، وقد طلبوا الباطل فأدركوه.

(١) الطبري، ابن جرير: **«تأريخ الأمم والملوك»**. ج ٦، ص ٣٣٧٢. (ط القاهرة، ١٨٨٥ - ١٨٨٩م).

أسروه مع زوجته الحامل. وقد قالوا له عندما وجدوا في عنقه مصحفاً: «إن هذا الذي في عنقك ليأمرنا أن نقتلك». فكان ردّه عليهم أن يحيوا ما أحيا القرآن وأن يميتوا ما أمات[1]. وقد جاؤوا به إلى حافة النهر وذبحوه، وبقروا بطن امرأته بجنينها. ثم قتلوا بعض النسوة... وأخذوا يعترضون الناس ويقتلون الأطفال[2].

تأريخ غارات الخوارج والغزوات الوهّابية يدل على أن هؤلاء قد أوغلوا في العنف ورأوا قتل الآخرين حتى الأطفال والنساء أمراً مباحاً طالما أنّ الغرض منه إبادة خصومهم والقضاء عليهم ولعلهم حسبوا أن قيامهم بذلك يشبه قيامهم بنزهة صيد يقتلون فيها بعض الحيوانات البرية. مع أن قتل الحيوانات غير جائز في الإسلام إلا إذا كان المقصود منه الإفادة من لحومها وأكلها..

لقد عمد هؤلاء إلى تكفير المسلمين مستندين إلى آرائهم وإلى **(إجتهادات)** ناقصة خالية من الحجج المقنعة للجميع. ولأنهم لم يريدوا التخلي عن إجتهاداتهم الناقصة، وقد لا يصمدون لحجج خصومهم فانهم عمدوا إلى تكفير أولئك الخصوم واعتبروا العيش بين أظهرهم ومساكنتهم كالعيش في مجتمعات جاهلية قد تؤثر على أفكار المؤمنين وقناعاتهم وقد تغيّرها. وقد وجدوا في مرحلة ما أن العيش مع هذه المجتمعات هو كالعيش في الظلمة وحثوا أصحابهم على الخروج من بين هؤلاء **(الكفار)** والهجرة إليهم في أماكنهم

---

(١) المبرّد، أبو العباس محمد بن يزيد: «الكامل في اللغة والأدب». ج ٣، ص ٩٤٦. (ط مصر، ١٩٣٧م).

(٢) الطبري، ابن جرير: «تأريخ الأمم والملوك». ج ٦، ص ٣٣٧٣. (ط القاهرة، ١٨٨٥ - ١٨٨٩م). وأيضاً: المقدسي، مطهر بن طاهر: «البدء والتأريخ». ج ٥، ص ١٣٦. (ط باريس، ١٩١٦م).

المعزولة التي تحصنوا فيها، وبذلك فإنهم ينتقلون من الظلمات إلى النور[1].

(١) البغدادي، عبدالقادر بن طاهر: «مختصر كتاب الفَرق بين الفِرَق». ص ٧٢. (ط القاهرة، ١٩٢٤). وقد اتضح ذلك من دعوات نافع بن الأزرق، وهو خارجي مُتشدد، إلى من تخلف عنه من أصحابه في البصرة للإلتحاق به واعتبر التخلف عنه تخلفاً عن الجهاد. وعمد إلى استخدام مقطع من الآية ٣٦ من سورة التوبة ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ خارج نطاقها الصحيح عندما اسمى مخالفيه المسلمين مشركين. ومن قبل كان أسلافه يدعون المسلمين كفاراً وليسوا بمشركين (نفس المصدر ص ٧٢). والملاحظ ان رأس فرقة الأزارقة هذا كان يكثر من الإستشهاد بآيات القرآن للتدليل على صحة دعواه، فقد احتج لتفضيل الخروج على القعود بقوله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]، وبأنّ الله فضل المجاهدين على القاعدين من الضعفاء والمرضى والذين عذروا لِعِلّة فيهم بقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٩٥].
«وهكذا فقد كفّر نافع مخالفيه ولم يقبل منهم إلا الهجرة إليه، ليهجروا بذلك ديار الكفر ويدخلوا ديار الإسلام وإلا فالسيف لأعناقهم لأنهم ككفار العرب، ومن لم يهاجر إليه من الخوارج فهو بمنزلة الكفار» راجع: المبرّد،أبو العباس محمد بن يزيد: «الكامل في اللغة والأدب». ج ٢، ص ١٠٣٢. (ط مصر، ١٩٣٧م).
«واستحّل قتلهم بذلك». نقلاً عن: مصنف مجهول. ط بولس آبل - غريفز ولد، سنة ١٨٨٣. عن: معروف، نايف: «الخوارج».ص ٢٢٣. (ط ٣، بيروت). متأولاً قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٠]. وكان نافع يقول: «من لم يخرج يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فهو كافر ضال حلال الدم». راجع: الناشيء الأكبر، عبدالله بن محمد: «مسائل الإمامة». ص ٦٩. (ط المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت، ١٩٧١م).
وقد عمد نافع إلى أسلوب مبتكر يختبر به (المهاجرين) القادمين إليه. وذلك بأن يقدم لكل (مهاجر) أسيراً من مخالفيه، فإن قتله هذا (المهاجر) صدّقه وأصبح من أعوانه وإن لم يفعل أصبح موضعاً للشك واعتبره منافقاً مشركاً، فيأمر بقتله. راجع: البغدادي، عبدالقادر بن طاهر: «مختصر كتاب الفَرق بين الفِرَق». ص ٧٣. (ط القاهرة، ١٩٢٤).
(وترسيخاً لمبادئه الجديدة في نفوس أتباعه، فقد كان على نافع أن يقنعهم بصحة رأيه واستقامة دعوته وعظيم أجر تابعيه، فبشرهم بأنّ الله قد أكرمهم بخروجهم وأنار =

وتكررت هذه الدعوات من قبل الوهّابيين لاجتناب المسلمين (الكفرة) وطلبوا منهم الحضور إلى (الدّرْعِيَّة) أيام التأسيس الأولى. ثم انتشرت ظاهرة إقامة (الهُجَر) أو المستوطنات الوهّابية التي انشئت أيام عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن سعود في مطلع القرن الماضي لتضم الوهّابيين المتشددين (الإخوان) بغية عزلهم وإفساح المجال أمامهم لنشر ثقافتهم وأدبياتهم التي أريد لها في نهاية المطاف أن تخدم الدولة السعودية دون أن يكون لهم شأن في المجالات

= بصائرهم ونزع عن قلوبهم الضلالة والكفر، ويكفيهم فخراً واعتزازاً أنهم إنما خرجوا طلباً لرضوان الله والعمل بشريعته، فهو قائدهم وقرآنه إمامهم! وبعد أن يدغدغ آمالهم بأنهم منائر الحق وقادة الأمة، يقول لهم: «أليس حكمكم في وليكم حكم النبي ﷺ في وليّه، وحكمكم في عدوكم حكم النبي ﷺ في عدوه، وعدوكم اليوم عدو الله وعدو النبي ﷺ ؟» فكانوا يردّون عليه بالإيجاب. وتعزيزاً لرأيه بالقرآن فقد تأوّل عليهم قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١]. وهكذا فقد أوصلهم إلى التبرؤ من مخالفيهم بحجج قرآنية. وبالتالي فقد حرّم قبول شهادتهم وأكل ذبائحهم، كما حرّم مناكحتهم وموارثتهم وأخذ الدين عنهم... ومادام هو وأصحابه الذين يعرفون الحق ويعملون به من دون الناس فقد أصبح عليهم أن لا يكتموا ما أنزل الله، وتأول لهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩] وهكذا استطاع أن يقنع أصحابه بصحة نهجه، فاستجابوا له وأطاعوه). راجع كل من:

معروف، نايف: «الخوارج». ص ٢٢٤. (ط ٣، بيروت).

الطبري، ابن جرير: «تأريخ الأمم والملوك» ج ٧، ص ٥١٨. (ط القاهرة، ١٩٣٩م).

ابن الأثير الشيباني، أبو الحسن علي بن محمد: «الكامل في التأريخ». ج ٤، ص ١٦٧. (ط بيروت، ١٩٦٥م).

وقد شهّر نافع بقوله في البراءة من (المسلمين = الكفار) أي من غير الخوارج، واستحلال الأمانة، وقتل الأطفال. راجع المبرّد، أبو العباس محمد بن يزيد: «الكامل في اللغة والأدب». ج ٣، ص ١٠٤٠. (ط مصر، ١٩٣٧م). حيث زعم أن أطفال المشركين في النار كآبائهم بينما أطفال المؤمنين في الجنة شأنهم شأن آبائهم. راجع: الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل: «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين». ج ١، ص ١٦٩. (ط القاهرة، ١٩٦٩م).

السياسية أو الادراية كما هو حال **(العلماء)** من آل الشيخ بن عبد الوهّاب وغيرهم الذين لم يكن لهم أيّ دور في سياسة الدولة من الذين أُشعِروا أنهم مدينون لعبد العزيز شخصياً في كونهم شخصيات مرموقة تحظى برعاية واهتمام منه ولوجود قرابة مصاهرة معه ومع أفراد من عائلتة منذ أيام الشيخ المؤسس.

إنّ انتماء (الإخوان) قبلي، وهم في الأصل من البدو الرحّل الذين عرفوا بالتعصب. ولأنهم لم يعتادوا التقيد بقوانين أو ضوابط فإنهم أرادوا شن غارات لا نهاية لها مستهدفين كل من لا ينتمي للحركة الوهّابية التي تبنّوها وآمنوا بها ودافعوا عنها.

والواقع ان ظاهرة (الإخوان) تستدعي التأمل والدراسة. فهي جماعات متشددة تبنّت العقيدة الوهّابية في نسختها الأولى. وقد استخدمت لتعزيز السلطة السعودية وفرض هيمنتها على شبه الجزيرة العربية.

○ ○ ○

اعتزال المجتمع والتمهيد لإعادة (فتحهِ) من جديد

تقترن كلمة **(الفتح)** في المخيال البدوي بعملية الغزو الناجحة للكفار أو المسلمين، بأعتبار أن كل موقع على هذه الأرض هدف مباح يتصرفون به بالطريقة التي تروق لهم. وتمثل لهم على الدوام المشاهد الجميلة للأراضي المفتوحة أيام الإمبراطوريات الإسلامية القديمة.

وإذ أنّ لهذه الإمبراطوريات شرعيتها بنظرهم، فلم يحسب أحد أن الهدف منها كان لتوسيع حديقة الإمبراطور الخليفة ورغبته في توسيع مملكته وزيادة أمواله وعدد حريمه وجواريه.

لقد اعتقدوا أن ذلك **(السلف الصالح)** من الملوك والحكام ومحترفي الدين والقادة العسكريين وزعماء القبائل كانوا على حق دائماً. وقد توارثوا

منظومة كاملة من حكايات وقصص وأساطير ومقطوعان شعرية وشهادات لفقهاء و(علماء) معروفين تشيد بذلك السلف (الفلتة) الذي لا يمكن أن يتكرر أبداً.

ولم يكن بوسع تلك المخيلة إدراك الأطماع الحقيقية وراء التنافس المحموم لأولئك (الآباء) الذين شخصوا مثلاً أعلى ونمطاً لا يمكن أن يتكرر.

وإذا ما كان بوسع عقلية متمدنة تمتلك رصيداً من المعرفة والثقافة قراءة تأريخنا قراءة واعية والحكم على شخوصه وصانعيه حكماً صحيحاً أو هو أقرب إلى الصحة، فلسنا نعتقد أن بوسع عقلية مفرغة من أيّ نتاج معرفي لا تزال تعيش بدائيتها الأولى، تجاوز إطارها التقليدي الذي وضعت فيه. فلم تشهد الإنسانية نهضة حضارية انطلقت من تخوم المجتمعات ومن حافاتها. وكان أعضاء المجتمعات البدوية التي لم تألف الإستقرار والقانون آخر من يستجيب لأية نقلة حضارية أو تغيير..

وإذ أن قانونها الأساسي هو قانون الغلبة الأول الذي يأكل فيه القوي الضعيف والذي يضمن لها - بنظرها - البقاء على قيد الحياة. فلا أحد يختار أن يكون ضعيفاً لأنه سيؤكل أو يموت.

قانون الصحراء هو قانون الغابة ذاتها وقد اقتنع به سكانها وحسبوا أنّه القانون الأمثل.

○ ○ ○

(الهُجَرْ): مستوطنات (الإخوان) الأولى،... الدين والقبيلة

لقد شكّل (الإخوان)، وهم المقاتلون البدو، من أبناء مختلف القبائل المتنقلة في شبه الجزيرة العربية القوة الضاربة لجيش عبدالعزيز آل سعود في مطلع القرن الماضي بعد اقتحامه مدينة الرياض عام (١٩٠٢م) بسنوات قليلة.

وقد تنامت قوتهم بعد أقل من ربع قرن حينما انتظموا في مستعمرات صغيرة أسميت بـ (**الهُجَر**)[١].

ربما يتساءل القاريء وهو يجد أن أشد المتحمسين للدفاع عن العقيدة الوهّابية هم من البدو الرحّل، هل أن هؤلاء أكثر وعياً واستيعاباً لأمور العقيدة الإسلامية من كل الأجيال التي سبقتهم وعاصرتهم وجاءت بعدهم، وهل أنهم توصلوا إلى ما لم يتوصل إليه كل علماء المسلمين ومفكريهم ومثقفيهم..؟ أم أن هناك توجهاً منحرفاً في الدعوة الوهّابية نفسها - رغم ادعائها الإصلاح - جعل من هؤلاء وسطاً مناسباً لرواج أفكارها، ثم انتشارها فيما بعد في أوساط مشابهة في العوالم التي لم تتعرف على الإسلام أو الحضارة الإ من خلال المنظار البدوي نفسه؟

لا بد أن السؤال الثاني سيكون هو الجواب الصحيح. وقد أثبتت تفاصيل حراكهم اليومي ذلك، كما اثبتته مفردات دعوة ابن عبد الوهّاب ومذهبه

---

(١) وقد أحصاها أمين الريحاني عام ١٩٢٦ وذكر أن عددها بلغ ٨٤ ضمت ٧٦٥٠٠ مقاتل ومحترف وراع للمواشي من قبائل (**مِطْيَر وقحطان والدّواسر وعتَيْبَة والعجمان وحرب نجد والعوازم وبني مُرّة وشَمَّر والخُرْج**) ويقوم ثلث هؤلاء بالقتال والثلث الثاني برعي المواشي والثلث الأخير بأمور التجارة والزراعة والحرف اليدوية.
أما ما يمكن أن يشكل الجيش النظامي لابن سعود فهم من (نجد)، المنطقة التي ينتمي إليها وعددهم في ذلك الوقت (٤٠٠٠) مقاتل مسلح متأهبون دائماً ولهم رواتب مجزية اضافة لبعض (مهاجري هُجَر حرب وهي من نجد أيضاً. راجع: الريحاني، أمين: «تأريخ نجد الحديث». ص ٤٠٤ وما بعدها. (ط ٦، دار الجيل، بيروت ١٩٨٨م).
ومع أن عبدالعزيز قد استمال هؤلاء البدو بنفس الشعارات الدينية الوهّابية التي رفعها أسلافه، ومع أن هؤلاء كانوا متحمسين للقتال تحت لوائه وهو يحقق (**الغنائم والفتوحات**) المتتالية ويدعو للعقيدة الوهّابية التي اعجبوا بها واعتنقوها إلا انه لم يأمنهم وكان يخشى انقلابهم عليه إذا ما اعتقدوا انه خرج عن نهجهم المتشدد. وقد حصل ما كان يخشاه حقاً فعمد إلى احتوائهم وقتل المتمردين منهم.

المخالف لجميع المذاهب الإسلامية المعروفة والذي يبدو نشازاً بشكل واضح.

ولا بد ملاحظة المفارقة الواضحة في تصرفات ابن سعود الذي بدأ يعمل بإيعاز من الإنجليز وبإشراف مستشاريهم ومبعوثيهم منذ العقد الأول من القرن الماضي رافعاً شعارات **(التوحيد)** التي مكنت أجداده من السيطرة على شبه الجزيرة قرابة قرن ونصف قبل ذلك. وقد بدت براغماتيته مبررة بنظر بعض السائرين بركاب الدولة السعودية والمستفيدين من كرمها باعتبار أنه يقوم بتأسيس دولة ويقتضي الأمر منه أن يخفي نواياه الحقيقية عن أتباعه الذين أعجبهم إخلاصه الظاهري لمباديء التوحيد الوهّابية ورفعه شعاراتها.

❍ ❍ ❍

«البداوة» حاضنة للأفكار السطحية والتطرف

لم يكن من قبيل الصدفة اختيار مؤسس الوهّابية أنصاره من أبناء البادية الذين حملوا تصوراتها وخصائصها. فقد استطاع بواسطتهم تنفيذ مشروعه في إقامة كيان يمهد لنشوء دولة وراثية ذات سلطات مطلقة.

وقد تحدثنا عن بعض الخصائص التي تتسم بها شخصية البدوي غير المستقر والتائه ورآء جماله التي تشكل مورد رزقه الأول. إن عدم وجود وطن ثابت له يجعله ينظر بحقد إلى أولئك الذين استقر بهم الحال في بلدات أو مدن أو واحات منطلقاً من شعور بالدونية عنهم وآخر مزعوم بالتفوق عليهم. وذلك ما يدعوه إلى التمسك بمنطق البادية الصارم لكن البسيط في نمط العيش والتفكير. فهو لا ينشدُّ إلى المعرفة والعلوم الدينية إلا بالقدر الذي يلبي متطلبات حياته البسيطة ويعلم ان هناك جهات متخصصة في هذه المجالات تحتضنها المدن والمجتمعات المستقرة. وحتى هذه لايوليها أيّ اهتمام لأنه

يشعر أنها غريبة عن حياته وربما عدّها من الترف الفكري. ففقه الحياة لديه محصور بحركته وحاجياته المحدودة إذ لم تتح له فرصة الإستقرار للتعلم ومعرفة ما ورآء الحياة البدائية من متع فكرية ومعرفية. وقد يعتبر من ينشغلون بالدراسات الدينية أو الفقهية من العابثين الذين يضيعون أوقاتهم وأوقات غيرهم بأمور لا تمت للحياة بصلة.. لأنه لم ينشغل بها أو يعرفها أصلاً.. والمرء عدو ما يجهل.

لذلك فإن محاولة محمد بن عبد الوهّاب تقديم مذهب (**بسيط صاف**) على حد زعمه يتنكر للإجتهادات والمذاهب الفقهية ويحارب النزعات العقلية والكلامية ويرمي العلماء بالتحريف والكفر والشرك، وجدت صدى مقبولاً لدى البدو المحرومين من أيّ رصيد أو إرث ثقافي أو معرفي أو فكري وكانت غالبية أتباعه منهم. وقد استفاد من نزوعهم للغزو والغنائم لتجنيدهم في معاركه المارثونية المتوالية والمستمرة. وقد وجد ورثته من أقطاب الدولة السعودية مِنهم «مادة» لحروبهم وسجالات معاركهم التي استهدفت ابتلاع كل أجزاء الجزيرة العربية وما حولها. خصوصاً وأنّ هذه الدولة حققت إنجازات كبيرة على صعيد الحصول على غنائم الغزو التي لم يحلم أحد بمثلها من قبل..

لقد تصاعدت في معارك (**الإخوان**) الوهّابيين، سواء بعد إطلاق هذه التسمية على تشكيل تنظيمهم في عهد عبد العزيز أو قبل ذلك، روح جديدة قبليّة متحمسة مزجت بروح دينية متوترة. فكأنما أدركوا أنهم يقاتلون عن قضايا مقدسة حقيقية ويبذلون أرواحهم، لا للحصول على المغانم وحسب، وإنما لأن هذا من حقوقهم وقد حجب عنهم من قبلُ بإرادة شريرة، ويجب أن يعوضوا ما فاتهم. والتضحية بالنفس الآن لن تكون بلا سبب أو لسبب غير مهم.

ولم يكن عبد العزيز، ومن قبله أجداده، يجهلون مع من يتعاملون عندما

جعلوا من هؤلاء البدو يدهم الضاربة. وكان انطباعه عنهم - كما أورد الريحاني - أنهم غزاة عصاة عتاة لهم غرائز دينية أغلبها خرافي وتنحصر مطامعهم في أمور محدودة ويجعلون القتال وسيلة للتخلص من ضيق حالتهم المعاشية.. وتكاد الأعذار الدينية التي قدمت لهم تجعلهم مطمئنين تماماً إلى ما يقومون به من فظائع وانتهاكات. فكانت الوسيلة الأصوب لاستمالتهم ودفعهم للقتال بشكل أهوج هو رفع شعار الدين مع شعار نصرة القبيلة مهما تكن صحة الشعار الديني المرفوع.

السوابق التأريخية أنبأتنا عن تخلّي البدو السريع عن الإسلام وارتدادهم عنه وٱلتفافهم حول مُسَيْلَمَة وغيره من المتنبئين الكذابيين وكذلك الخوارج فيما بعد والقرامطة، فلا عجب إذا ما وجدت فيهم الوهّابية ضالتها المنشودة عندما دغدغت مشاعرهم وألهبت حماسهم بتوجهها المنحرف البعيد عن المدارس الإسلامية المعروفة. فكأنهم اكتشفوا في ابن عبد الوهّاب نبياً جديداً من أنبياء الله الغابرين ومخلّصاً حقيقياً استهواهم بتفسيره الناقص للتوحيد. وعندما أمرهم بنبذ عقائدهم الفاسدة وخرافاتهم مقابل نعيم في الدنيا **(من غنائم الغزو)** والآخرة **(في جنات الخلد)** وجدوا أنّ تجارتهم معه رابحة على طول الخط.

ومع كل ما أظهروه من ضروب الحماس والإستبسال في معاركهم تحت لواء الوهّابية، فإن قادة هذه الحركة كانوا من الحذق والفطنة بحيث انهم لم يخدعوا بهذا الحماس الظاهري ويظنوا أنّ أتباعهم قد أغرموا بدعوتهم حقاً. لقد أدركوا أن هذا الهوى ظاهري حتى وإن ادّعوه، ولولا الوعود بالغنائم و(**الحُسْنَيَيْن**)، المكاسب المادية في الدنيا والجنّة في الآخرة، لما انصاعوا للتعاليم التي يدّعون الدفاع عنها. الدين لعِقٌ على ألسنتهم، يحوطونه ما درّت معائشهم، فإن مُحصوا بالبلاء قل الدّيانون. فهم رفاق اليوم أعداء الغد ولا يمكن الإطمئنان إليهم والوثوق بنواياهم.

على إننا لا نستبعد أن تؤمن ثلة منهم إيماناً حقيقياً بمرتكزات الدين الوهّابي وأن تناضل عنها بتجرد وإخلاص. مع أن الأغلبية منهم يستوي الولاء عندهم لهذا الشيخ أو لذلك الأمير، فالجميع عرب لا يختلفون عن بعضهم، يغزون ويمنحون.. يَغلبون ويُغلبون... إنهم لم يتغيروا، ارتدّوا من قبل وخانوا وغدروا ثم تابوا. فموالاتهم غير مضمونة وعداوتهم غير ثابتة، ولا قدرة لهم على السكون أو الإستقامة. وربما يكونون سيفاً بيد أحد القادة اليوم وخنجراً في ظهره غداً.

وقد تأكد عبد العزيز، خلال حروبه الأولى وغزواته «**إنهم يحاربون ما زالوا آمنين على أموالهم وأنفسهم ويفرون شاردين عند أول خطر يلوح، لذلك كان يقدّمهم في القتال ويدعمهم بالحضر، يحمي ظهرهم ليأمن انقلابهم وتقهقرهم، فهم إذ ذاك أشداء ثابتون في النضال.. البدوي في الجيش كان مشكل ابن سعود الأكبر**»[1]. فلم يكن بالإمكان ضبطهم وهم يجدون في الصحراء منجى لهم يذهبون إليها بجمالهم إذا ما داهمهم عدو أشد منهم قوة وشوكة. فليس لهم مقر من الأرض ولا بيوت ثابتة يلجأون إليها ويدافعون عنها.

○ ○ ○

(الهُجَر): خلايا لتفريخ المتشددين

كان هاجس عبد العزيز ضمان ولاء البدو واستمرار حماسهم في كل المعارك اللّاحقة التي سيخوضها. وإذ أن العقبة الأساسية أمام ذلك هو عدم وجود سكن دائم أو أرض محدّدة يدافعون عنها، فإن تذليل هذه العقبة لا بد

---

(١) الريحاني، أمين: «تأريخ نجد الحديث». ص ٢٦٠. (ط ٦، دار الجيل، بيروت ١٩٨٨م).

أن يكون بإيجاد هذا السكن الدائم في مدن أو معسكرات دائمية بدلاً من البادية المفتوحة. وربما أوحى له مستشاروه الإنجليز أو غيرهم بهذه الفكرة التي أنضجها خلق الدافع الديني.

فمن المعلوم أنّ مفهوم الهجرة يعني الانتقال من أرض الكفر أو الشرك إلى أرض الإسلام. وإذ أنّ البادية كانت مهد المشركين الأوائل وقد هاجر منها العديد إلى مدن الإسلام وفي مقدمتها المدينة المنورة، باعتبار أنهم قد هاجروا إلى الله (والتوحيد)، وعاشوا حياة مدنية في بيوت من اللبن أو الحجر ومارسوا مختلف الأعمال، فلتكن هجرة البدو إلى (مدن) مماثلة يعملون فيها ويتعلمون أمور دينهم على أيدي (**المطاوعة الوهّابيين**) الذين يصعّدون وتائر حماسهم للغزو والحروب.

ولم يكن من سبيل أمامه لتجميع البدو إلا التسلح بالذرائع الدينية المقبولة عند هؤلاء. وقد رافق المطاوعة الذين أرسلهم إلى البادية لهذا الغرض **(ليعلّموا أهلها دين التوحيد والفرائض ويزيّنوا لهم هجر ما هم فيه)**(١) قوات عسكرية لإجبار من لا يستجيب للسكن في (**الهُجر**) أيّ أماكن (**الهجرة**) الجديدة.

وقد عين لكل قبيلة أو فخذ قطعة من الأرض فيها ماء لتبنى البيوت عليها. ولما كانت الجمال هي مصدر رزق البدوي وهو ما يشدّه إلى باديته الواسعة وفضائها غير المحدودة، فقد أجبروا على بيعها. (وصدرت الأوامر بحماس بالغ لإرغام رجال القبائل على الإستقرار في «الهجر»، فكان الأمر العام للبدو الرحَّل هو: «عليكم ببيع جمالكم ونبذ حياة البدو الرحّل والإشتغال بالزراعة».

في آب - أغسطس من عام ١٩١٩ قدَّم قادة الإخوان مطالبهم لابن سعود

(١) المصدر السابق ص٢٦١

التي تقضي بالتعجيل بتوطين البدو وتحسين أحوالهم، فطالبوا بأن يستقر البدو في بيوت من الحجر، وأن تبنى لهم مدارس جديدة يحدد الإخوان مناهجها)[(١)].

لقد ساعدهم مالياً في بناء البيوت الجديدة. غير أن هؤلاء الذين صاروا إخواناً يتعصبون بالعصبة البيضاء لتمييزهم عن الآخرين أصبحوا عاطلين عن العمل مكتفين بالصلاة. وهذا ما سيرهق خزينته المحدودة التي تعتمد على ما ينهبه في الغزوات وما يمنحه إياه الإنجليز، واستعان (بالعلماء) الذين درسوا في المدن لإقناع المهاجرين الجدد بالعمل وممارسة الزراعة والتجارة. وقد نجح هؤلاء في مهمتهم ودفعوا رواد المستوطنات الجديدة للعمل وتحسين أمورهم المعيشية. لقد أصبح لديهم الآن ما يدافعون عنه. ودفعهم كرم الدولة الجديدة وحياة الإستقرار والرفاه النسبية إلى إبداء ضروب البسالة والإندفاع في الحروب التي خاضوها في ظلها.

وقد أصبح لديهم الآن دافعان: الدافع الديني الوليد الذي يدخل صاحبه الجنة، ودافع المحافظة على الجنة الأرضية الجديدة. وقد شحذت غريزة الغزو وتوقع الحصول على المزيد من الغنائم حماسهم ودفعتهم لخوض معارك جديدة.

○ ○ ○

الإخوان: سيادة ثقافة العنف

في أجواء التعاليم الوهّابية الصارمة والقاطعة في أحكامها واستدلالاتها، وفي محيط يتبنّى تلك التعاليم بقناعة وثقة، يسود شعور بأن كل أحد يعيش حالة استنفار وترقب. فالمؤمنون بالوهّابية يعتقدون أنهم قد أكتشفوا الإسلام

---

(١) كوستز، جوزيف: «العربية السعودية من القبلية إلى الملكية». ص ١٢٠. (ط مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩٦م).

الحقيقي كما رأوه هم وأن عليهم أن يجبروا الناس على تبنّي هذه الرؤية. ولعلهم يعجبون كيف أن الآخرين لا يفعلون ذلك ولا يكونون مثلهم.

وإذ أنهم كانوا متفانين في الدفاع عن أفكار شيخهم وتعاليمه، وخاضوا صراعات عنيفة ضد خصومهم (خصوم الدولة السعودية الناشئة) وقدموا تضحيات عديدة واستبسلوا في معاركهم، فإنهم أعطوا لأنفسهم ميزات خاصة وحقوق إضافية واعتقدوا أنهم البوصلة الصحيحة القادرة على رصد وتوجيه المسيرة العامة للدولة والمجتمع في نفس الوقت.

لقد توسعت ظاهرتهم وتنامت قوتهم مقابل قوة عبد العزيز فقد كان دائماً بحاجة إليهم لتحقيق (فتوحاته) وغزواته في مدن الحجاز وغيرها. وكانوا يعلمون أنهم القوة الضاربة التي استطاع بها تنفيذ مشروعه التوسعي وإخافة كل أعدائه ومنافسيه. فقد أصبح **(أهل البادية المتحضرون أهل الهجر في القتال اثبت من الحاضرة وأسبق إلى الاستشهاد)**[(1)].

أصبح **(الإخوان)** عقبة أمام طموحات عبد العزيز غير المحدودة، وكانوا يشلّون إرادته المرهونه بأوامر الإنجليز الصارمة والذين أرادوا ان يقف عند حدود الدولة التي أسسوها له والتي تعدل مساحتها مساحة أوربا..

فقد أخذوا عليه استعمال التلغراف باعتباره رجس من عمل الشيطان أو استخدامه السيارة أو التمادي في الرفاهية والترف وكذلك الإنغماس في علاقته الوثيقة مع الإنجليز وأخذ المساعدات منهم. ومن الطريف أنه كان يقنعهم بقوله إن الإنجليز يدفعون له الجزية باعتبارهم من الكفار وأنه ولي الأمر الشرعي للمسلمين وغير المسلمين أيضاً.

---

(١) من شهادة لعبدالعزيز بن سعود قالها في معرض وصفه الإخوان. راجع: الريحاني، أمين: «تأريخ نجد الحديث». ص ٢٦٤. (ط ٦، دار الجيل، بيروت ١٩٨٨م).

لقد طغى الإخوان وتجبّروا، فضج الناس. راح الإخوان يحاربون من لم يتحضر من البدو، فيكفّرون، وينهبون، ويقتلون. **«أنت يا بدوي مشرك، والمشرك حلال الدم والمال. أنت يا أبا العقال من الكفار. أنا أخو من طاع (أطاع) الله، وأنت أخو من طاع (أطاع) الشيطان»**.

كذلك كان يسطو كل متعصب بالعصابة البيضاء على سواء من العرب، فيعيّر، ويشتم، ويسفك الدماء. وقد انتشرت من جراء ذلك الفوضى في البلاد، وكاد يقطع حبل الأمن والسلام[١].

لقد كان ينتظر من الإخوان أن يكونوا محاربين ومزارعين ودارسين للعقيدة دون أن يكون لهم دور في السياسة وفي صنع القرار. لكنهم تمكنوا من تعزيز أسباب التوسع والقيام بأدوار قيادية غير رسمية. وكانوا يوجهون الحركة الوهّابية من خلال تحديد أساليب الإستيطان والتوسع والدعوة. وذكر فيلبي في عام ١٩١٩ أنهم كانوا يقررون الحروب والغارات في إجتماعات خاصة مع ابن سعود.

إن دافع الإخوان إلى أن يكون لهم مركز مؤثر في السلطة السعودية لم يجعلهم مجرد صفوة موالية غير متميزة، فقد تصرفوا كجماعة ضغط موالية تسعى إلى تدعيم الدولة وفقاً لمفاهيمهم الخاصة بعد أن رفعت من شأنهم ضروب نجاحاتهم... وقد فشل الكثيرون منهم في التخلي عن النزعة القبلية. والواقع أن تربيتهم في جماعات منغلقة في «الهُجَر» في الرياض أو في قبائل رحّل عززت من هويتهم القبلية. وهكذا أدّى مزيج العصبية القبلية الصارمة والحماس الديني إلى أن يلعب الإخوان دوراً فريداً ومعقداً في شؤون الدولة.. وبحكم انهم جزء من حركة غير منضبطة بدأوا بحملة لنشر الدعوة بالقوة.

(١) ن. م. ص٢٦٥.

وأشارت تقارير عديدة وردت في أواخر عام ١٩١٩ إلى أن ابن سعود كان على حافة أن يفقد السيطرة على الإخوان حين دفعهم سلوكه إلى مواجهة مع النظام السعودي[١].

○ ○ ○

«الإخوان» سابقة تأريخية لـِ «القاعدة» و«طالبان»

كان وجود «الإخوان» في جماعات منغلقة داخل «الهُجَر» عاملاً على تقوية وتعزيز النزعة القبلية بدعوى الإفادة منها لتعزيز الحماس الديني الذي كان مطلوباً من قبل الدولة لكي تستفيد من هذا المزيج التعصبي الجديد الكفيل بشحن وإثارة أكبر عدد من المقاتلين لزجهم في معاركها الكثيرة.

وقد اعتبر هؤلاء أنفسهم الحماة الحقيقيين للدعوة الوهّابية والمسؤولين عن إيصالها والتبشير بها في كل أرجاء العالم الإسلامي. وتوصلوا إلى أن خير وسيلة لذلك هو اللجوء إلى الأساليب القتالية القسرية بعد أن وجدوا أنّ استجابة الآخرين لهذه الدعوة ضعيفة ومحدودة. لقد انغلقوا على عالمهم الخاص واعتقدوا أنهم القوة العظمى فيه بعد أن جعلهم ابن سعود القوة الضاربة في جيشه. ولم يتيحوا لأنفسهم فرصة النظر في المتغيرات العالمية والقوى الجديدة وإمكاناتها الهائلة وسيطرتها حتى على ابن سعود نفسه الذي لم يقم له وجود لولا دعمها ولولا مواقف منافسه في شبه الجزيرة العربية الشريف حسين غير الحصيفة وغير الواقعية.

إن إنغلاقهم وعزلتهم وشحنهم بمفاهيم الدعوة الجديدة بأسلوب نسقي تلقيني متكرر ومستمر عزّز قناعاتهم بصواب منهجهم ومسيرتهم. وقد كان ينظر

---

(١) كوستز، جوزيف: «العربية السعودية من القبلية إلى الملكية». ص ١٢١ - ١١٨. (ط مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩٦م).

لهم كأبطال، وعرضوا على أنهم الصفوة المجاهدة التي ينبغي أن يقتدي بها الجميع. فقد أعطاهم ذلك شعوراً بالزهو وجعلهم يندفعون أكثر للتباهي ببطولتهم على طريقة فرسان القرون الغابرة الذين تثيرهم زغاريد النساء وتشجيعهن وهن يرافقن بعض الغزوات التي يقومون بها. فالتباهي بـ(**النخوة**) أو النجدة تصعّده دائماً وسائل التشجيع البدائية وقد تكون العامل الأول للقيام بضروب الشجاعة والفروسية[1].

لابد أن يعلم القاريء أن الرجل البدوي على الخصوص لا يزال ينظر إلى نفسه على أنه حامي حمى الحريم وأن في مقدمة مسؤولياته الدفاع عنهن أمام أيّ غازي آخر، وفي غياب القانون عليه أن يطبق قانونه هو، ومن العيب أن يتكاسل أو يهرب من أيّ عدو يستهدف عياله أو أيّ إمرأة أخرى من قومه. ولا

(١) من شعارات (الإخوان) في المعارك:

أهل التوحيد أهل التوحيد   أهل العوجا أهل العوجا

(**العوجا**) اسم من أسماء منطقة عارض النجدية. والإعتزاز يكون بترديد أسماء الآباء والأجداد أو إسم القبيلة أو البلد أو ما يرمز إلى مفخرة. فهم بقولهم (**أهل التوحيد**) يحتكرون هذه التسمية لأنفسهم بعد أن وصموا الآخرين بالشرك والكفر.

وقد كان من عادات البدو عموماً أن كل قبيلة تنتخب في الحرب بنتاً من بناتها الأبكار وتسمى العمّاريّة فتركب في الهودج أو تقف فيه سافرة مسدولة الشعر وتحث قومها على القتال وتشجعهم للدفاع عن أعراضهم فيندفعون ببسالة غير آبهين بالموت وسلاح العدو.

وربما تناخوا بقولهم: سناعيس، سناعيس (جمع سنعوس) وربما يعني الحسَن الجميل أو الطويل وهي نخوة عمومية للبدو والحضر.. غير أنهم اعتادوا أن يرددوا شعار أسلافهم في عهد التأسيس الوهّابي:

هبّت هبوب الجنّة وين أنت يا باغيها

أي أن رياح الجنّة قد هبّت، فأين مَن يريد دخول هذه الجنة؟ ليجاهد ويدخلها حالاً بعد أن هبَّ نسيمها. كما إنهم كانوا يردّدون:

خيّال التوحيد أخو من طاع الله

أي أن (الفارس الموّحد) أي الوهّابي هو أخ الذي يطيع الله. فالشعارات الدينية لدى هؤلاء أخذت تطغى بدلاً من الشعارات التقليدية السابقة.

تزال نزعة (**الرجولة والنخوة**) البدويّة تجمع بين بعض الأصحاب وتشكل أحد الدوافع لقيامهم بأعمال إنتحارية أو الإنتظام في خلية نائمة أو متخفية.

○ ○ ○

لم يكن الأمر يقتضي تبّحر هؤلاء في علوم الدين حتى يكون لهم كل ذلك الحماس الذي عرفوا به. فكان (**كتيّب**) التوحيد لشيخ الوهّابية كافياً لجعلهم يتصورون أنهم قد توصلوا إلى حقيقة الدين الإسلامي.

وإذ أنّ كياناً في طور النشوء لا يتحمل وجود قيادتين متصارعتين، فلا بد أن تعمد إحداهما (**الأقوى**) لإزاحة الأخرى.

وهذا ما حققه عبد العزيز عندما وجد في (**الإخوان**) خطراً حقيقياً عليه وأنّ زمامهم أوشك أن يفلت من يديه ولم يعد بإمكانه السيطرة على كل تصرفاتهم. وكان هو الأقوى بمساعدة الإنجليز.

○ ○ ○

التأريخ يعيد نفسه لمن لا يقرأ التأريخ

الخوارج تكررّوا في الوهّابيين الأوائل، وتكررت ظاهرة هؤلاء في الإخوان (**الجيل الثالث أو الرابع من الوهّابيين**) وعادت لتتكرر الآن في (**القاعدة**) و(**طالبان**) عندما أقامت لها تجمعات في أفغانستان بدعم من الدولة السعودية وحلفائها لاستخدامها في طرد (**السوفييت**).. وبانتهاء المهمة وعودة هؤلاء أو بقاء بعضهم هناك نشأ وترعرع جيل آخر، ثم جيل جديد يحسب أنه يتمتع بوعي حركي متطوّر ومعرفة أوسع. وقد استخدموا في أعمال إرهابية لم يكن ضرب مركز التجارة العالمي آخرها.. إنهم سيتكررون في باكستان والجزائر ومصر والمغرب والصومال واليمن وغيرها. فللتطرف سلطان على محدودي الذكاء والمعرفة.

إن هناك أيديولوجية من نوع ما تستخدم الدين في خدمة التطرف وتجد لدى هؤلاء قبولاً واضحاً. . . ولا شكّ أن للتوجّه المذهبي والمحيط الإجتماعي وطبيعة التعليم الذي يتلقاه هؤلاء أثره في قبول المفاهيم التي تدعو للعنف والقطيعة وتكفير الآخر ومحاولة اعتزاله في المراحل الأولى والإنقضاض عليه في المراحل اللّاحقة.

ومن الغريب أن يدعوا أناس يصنّفون على أنهم من المتنورين في بعض الحركات الإسلامية لمقاطعة مجتمعاتهم باعتبار أنّها جاهلية بدلاً من التفكير بحلول سليمة لإصلاح تلك المجتمعات بعيداً عن الشعارات والمتبنيات القديمة المتوارثة ووفق مشاريع وبرامج إصلاحية كامله.

❍ ❍ ❍

ويهمنا أن نشير هنا إلى أنّ العنف لم يكن أبداً وسيلة فعالة للإصلاح أو التطور. وأن الحركات التي تدعو له لا بد أن تزول. فلا يمكن للبشرية أن تظل رهن الأفكار البدائية الساذجة وهي تعيش مراحل ازدهار ثقافي ومعرفي كبير.

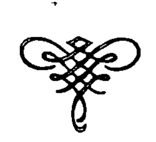
إننا لا نؤرخ هنا للخوارج إلا بالقدر الذي يتيح لنا الإطلاع على فعالياتهم وأوجه الشبه بينهم وبين الوهّابيين. ومع إننا لا نذكر كل هذه الأوجه في هذا المجال المحدود الّا أن القارئ يستطيع ملاحظة العديد منها.

ونشير هنا أن الوهّابيين أولعوا حتى بالمظهر العام للخوارج مثل طول اللحية وحلق الرأس وتشمير الإزار أو تقصير الثوب وما إلى ذلك.

يقول السيد أحمد بن زيني دحلان: (كان السيد عبد الرحمن الأهدل مفتي زبيد يقول: لاحاجة إلى التأليف في الرد على الوهّابية بل يكفي في الرد عليهم قوله ﷺ: «سيماهم التحليق»، فإنّه لم يفعله أحد من المبتدعة غيرهم. واتفق مرة أن إمرأة أقامت الحجة على ابن عبد الوهّاب لما أكرهوها على إتباعهم

ففعلت، أمرها ابن عبد الوهّاب أن تحلق رأسها. فقالت له: إنك تأمر المرأة بحلق رأسها، ينبغي لك أن تأمر الرجل بحلق لحيته، لأن شعر رأس المرأة زينتها وشعر لحية الرجل زينته. فلم يجد لها جواباً)[1].

لقد اعتبروا تمسكهم بهذا المظهر دلالة على الزهد والتقوى والتواضع.. ولا يمانعون الآن في سكنى الفيلات الفاخرة والطعام الجيد وصعود السيارات الفارهة ماداموا قد تمسكوا بلبس دشداشة قصيرة. ولعل تشبّههم بحرقوص، أول خارجي في الإسلام له ما يبرره بنظرهم.



(١) دحلان، السيد أحمد بن زيني: «فتنة الوهابية». ص ١٩. (ط استنابول، ١٩٧٨م).

الفصل السادس

المنظومة التربوية لإنتاج التطرف

المناهج * المدرسون *

المؤسسة الدينية

حول الفلسفة التربوية

لابد من التمهيد لهذا الفصل بهذا العنوان الذي لا بد أن يبدأ أيضاً بتساؤل عن وجود فلسفة تربوية من نوع ما ورآء أيّ نظام تعليمي في دول ما يسمى بالعالم الإسلامي الذي تنازعت دول الغرب للهيمنة عليه وعلى سيادته بعيد الحرب العالمية الثانية.

إن الجواب لا يؤيد وجود مثل تلك الفلسفة النابعة من المصلحة الحقيقية لشعوب هذا العالم، بل يدل على وجود نزعة لدى الدول المستعمرة على إرساء نوع من التعليم لا يلبي الطموحات أو الحاجات الحقيقية للشعوب التي لم تتحكم بمصيرها وحياتها والتي أريد تجهيل أبنائها لكي لاتتفتح عيونهم على أجواء الإبداع في المجال التربوي والدراسي والعلمي الذي تعيشه المدارس والمعاهد في الغرب والقائم على التنوع والحوار وتشجيع روح البحث العلمي لا في الدراسات التطبيقية والاقتصادية وحسب وإنما في المجالات الإنسانية والإجتماعية والنفسية المتنوعة.

إنّ أجواء الهيمنة والتخلف السابقة على مرحلة الاستعمار المباشر وغير المباشر لم تتح ظهور توجهات واضحة للإصلاح وتبلور فلسفات متكاملة في الحكم والمناهج الحياتية المتعددة ومنها المناهج التربوية. فقد كان الأمر أشبه ما يكون متروكاً للطبيعة وكانت هواجس السلطة الحاكمة تتمثل في الحفاظ على كيانها ومصالحها أولاً بالشكل الذي يضمن لها ذلك دون أن تتطلع إلى تجارب أخرى متطورة في العالم الآخر للإفادة منها.

وإذ أننا لا نريد الدخول في مخاطر التعميم الذي قد لا يؤشر لبعض

الـومـضـات الـتـي أنـتـجـهـا بـعـض مـن أرادوا الإصـلاح قـبـل هـيـمـنـة مـا سـمـي بالإستعمار، فإننا لا نتجاهل بعض المحاولات التي أرادت النهوض النسبي في مجال التعليم كما حدث في مصر مثلاً أيام محمد علي باشا[1]. . . غير أننا لا يمكنناالقول أنها انطلقت من فلسفة تؤسس لتعليم متميز بل إن دوافعها ربما كانت محاولة تقليد الغرب في بعض مظاهر حياته والتشبه به والجري في أعقابه أو اللحاق به بشكل ما. أو لعرض صور برّاقة تتيح له أن يدّعي التقدم والتحضّر.

ورغم وجود كم كبير من مؤلفات مترجمة أو موضوعة - خصوصاً في مصر - خلال منتصف القرن الماضي تحدثت عن مناهج التربية في العالم وفلسفاتها والكثير منها دراسات جادة ومفيدة، إلّا أن القائمين على السياسات التعليمية والسياسات العامة لبلدانهم وحتى في أعقاب ما سمي بالحكومات الوطنية أو الثورية إثر الإنقلابات التي حصلت في ذلك العهد ظلوا أسارى السياسات السابقة ولم يفكروا بآليات فعالية للنهوض بالواقع التعليمي أوالتربوي ربما لأنهم لاينتمون للصفوف الأمامية من صنّاع القرار ومهندسي السياسات العامة، وليست لهم ثقافة العمل المؤسساتي.

ولو أخذنا الحال في العراق مثلاً لوجدنا ان الجهات التربوية حتى الآن

(١) اهتم محمد علي باشا حاكم مصر (١٧٦٩-١٨٤٩) بالتعليم وقد أسس خمسين مدرسة (إبتدائية وتجهيزية وخاصة) عدد طلبتها حوالي ١١٠٠٠ طالباً ومدرسة خاصة لتعليم أبناء النخبة من الأمراء وغيرهم أسماها كلية الأمراء عدد طلبتها ٥٠٠. كما أنشأ مدارس للطب والطب البيطري والهندسة والفنون واللغات والزراعة وأرسل أربعين طالباً إلى باريس فتحت لهم مدرسة خاصة باشراف أستاذ فرنسي ثم أرسل عشرات الطلبة الآخرين إلى مختلف أقطار أوربا ليدرسوا مختلف الاختصاصات. وقد أنشأ (ديوان المعارف) وحاول نشر العلوم في مصر. وكانت مساعي نشر التعليم من أنجح أعماله في مصر إضافة لإدخاله الكثير من العلوم الحديثة.

تتحرك ضمن المجال الذي رسمه ساطع حصري **(التربوي)** العتيد الذي جاء مع الحملة البريطانية ودخل العراق مع مجموعة انقلبت على الحاكم العثماني وأصبحت في خدمة السيد الجديد.

وإذ أن دعوة هذا **(الحاكم)** لتعليم متطور تهدف إلى تخريج مجموعات أو نخب تساعده على إدارة شؤون البلد بالطريقة التي يراها هو، لا التي تتيح له التطور والإستقلال واللحاق به وبغيره من الدول المتقدّمة. . . ، فإننا بقينا واقفين على نفس الحال السابقة ولم تفرز حصيلة ما يقارب من قرن من التعليم الحكومي واقعاً جديداً في هذا المجال حتى بعد التغيير الذي بدأ يتطلع إليه العراقيون بعد سقوط الحكم البعثي الذي يمكن اعتباره الموجة **(القومية)** الثانية المكملة لمرحلة الإستعمار الأولى. فساطع الحصري يشار إليه على إنه صاحب فلسفة قومية حداثوية متطورة وقد أعجب به كثيرون كما أعجبوا (بفلسفة) ميشيل عفلق الضبابية المشوشة التي لم يكن ليتاح لها الظهور وتلقن لطلاب المدارس وأعضاء الحلقات التنظيمية الحزبية لولا انقلابات حزب البعث الدموية.

❍ ❍ ❍

إنّ الواقع الذي تعيشه مدارس الشرق المغلوب وانتشار الأمية الساحق الذي يفوق انتشارها حتى قبل ثلاثين عاماً يؤشر لغياب التخطيط ناهيك عن عدم وجود ستراتيجيات لتطوير التعليم أو فلسفات تربوية قائمة على حاجات واقعية ومستفيدة من تجارب العالم فهي في متناول الأيدي لو وجدت إرادة حرة واعية تريد الإستفادة منها حقاً، ولو لم تكن أجندات القائمين على السياسات العامة أو التعليمية تتجه إتجاهاً خاصاً يريد توظيف كل شيء لضمان وجودهم وبقائهم ومصالحهم أو مصالح أحزابهم وعوائلهم.

❍ ❍ ❍

إن فشل أو تراجع الحركات والأنظمة الشمولية وانحسار بعضها في العالم مثل الحركة الشيوعية إثر تفكك الإتحاد السوفيتي وظهور حركات إنقلابية رديفة قومية أو غيرها والتي لم تنتج إلّا مزيداً من الفساد وغياب الديمقراطية في ظل الأوضاع الإستثنائية والدساتير الموقتة (أو غيابها أصلاً) وادّعاء وجود قضية كبرى ينبغي التوجه لها دون غيرها وحسمها (وهي هنا قضية فلسطين) ومن ثم التوجه إلى القضايا (الثانوية) الأخرى. . . وفي هذه الحالة لن يكون (التعليم) أهم من إعداد المجاميع الأمنية التي تحفظ النظام أو شراء الأسلحة التي تتيح له الهيمنة والتسلط.

القضية الأولى قد تتغير في بعض البلدان. فقد تكون حماية **(البوابة الشرقية)** هي الأولى في العراق بعد إعلان إيران عدواً أولاً. . . ، وقد تكون الدفاع عن **(اليمن)** أو **(الصحراء الغربية)** أو **(لبنان)** أو لمواجهة متآمر في الداخل أو طامع أو منافس في الحكم. . . ، وما إلى ذلك من أمثلة هي ذرائع الإستنفار للبقاء في ظل الأوضاع الطارئة رغم الإستقرار الذي ينعم به العالم ويتيح له استثمار ثرواته لتعزيز سعادة شعوبه ورفاهها وأمنها، لاتزال الهاجس الأول للإدارات الحاكمة وكأن ذلك وحده هو الذي يتيح بقاءها على سدة الحكم دائماً.

وإذ أن رياح التغيير لا تلتزم بجهة أو زاوية محددة، فإن ما خطط له ليكون ضمانة للبقاء والديمومة عصفت به هذه الرياح التي هبّت من إتجاه غير متوقع ونزلت نزول الصاعقة لتعصف بأنظمة حسبت أنها قد أحكمت خططها. وتولت جهات لا تنتمي للأحزاب التقليدية أو الجهات المنافسة التي تتخوف منها الأنظمة لكي تعد لثوارث شعبية عارمة اختلفت دوافعها في كل بلد، غير أنها اتفقت جميعاً على تغيير أنظمة الحكم وكل تركاتها الثقيلة.

ولأن جميع الحركات القومية وغيرها وفلول الإنقلابيين العسكريين والمغامرين المحليين قد أخذوا دورهم ولم ينتجوا إلّا الفساد والتخلف

والدكتاتورية، فقد بقيت جهة وحيدة لم تأخذ دورها في مسلسل السيادة والسيطرة على الحكم منذ غياب الدولة العثمانية منذ قرابة قرن. . . . وهي **(الحركة الإسلامية)** إذ أن أحداً لا يمكن أن يقول إن الدولة العثمانية كانت تجسد الإسلام أو تحكم باسمه حقاً. . . كما أنه لا يمكن القول أن (الحركة الإسلامية) هي حركة واحدة أو متّحدة وأن لها نفس البرامج والرؤى. . . فهي حركات تدعي نفس الإنتماء الواحد وترفع نفس الشعارات العامة التي لها موقع خاص في نفوس المسلمين.

ولأن هذه الحركات غالباً ماتكون أسيرة التوجه المذهبي لقادتها وزعمائها والمنتمين إليها وتكون ضحية اختلافات وتنافس قادتها فيما بينهم ولعدم وجود برامج مفصّلة للحكم والإدارة لديها، فإنها تخوض معركة غير محسوبة العواقب إذا ما نجحت في تسلم دفة الحكم في بلدانها.

ولأنها لم تجرّب من قبل الشعوب لمعرفة حلوها من مرّها، فإنها لاتزال تمثل أملاً باقياً بعد خيبات الأمل العديدة التي منيت بها، خصوصاً وأن دعاة نشيطين يروِّجون لأحزابهم ومنظماتهم الإسلامية ويعرضونها كبديل وحيد وحل أمثل لأزمات ومشاكل المستقبل، لأنّ للإسلام مكانته الكبيرة في نفوس المسلمين. وهذا ما يشكل رصيداً كبيراً لها - لحد الآن - يضاف لصالحها إلى أن يثبت نجاحها من عدمه إذا ما استلمت السلطة في بلدانها أو كانت لها مشاركة واسعة فيها. والى أن يتم خوض هذه التجربة ومعرفة نتائجها، فإن تداعيات كثيرة أو مغامرات غير مضمونة النتائج قد تضيف مشاكل أخرى لهذه البلدان هي في غنى عنها ولا تستطيع تحمل المزيد منها.

وسيظل الجميع يترقب المفاجآت وصواعق السماء غير المتوقعة في غمرة الفوضى الناتجة عن غياب التخطيط والفلسفات الحياتية والتربوية العامة.

○ ○ ○

لقد ادّت تداعيات فشل هذه الأنظمة إلى هيمنة التيارات والأحزاب الإسلامية على فئات واسعة من المسلمين، وقد أرادت هذه التيارات السباق مع الزمن ومع الخصوم لاستلام الحكم. . . وإذ أن التنافس لن يتم بأجواء مثالية كالاحتكام للتصويت وصناديق الإقتراع مثلاً فإن العنف والعنف البديل سيكون سيد الساحة وستسود أجواء من التوتر والعداوة وانعدام الحوار وغياب التسامح والديمقراطية وسيصبح شعار الجميع: إمّا معنا وإما علينا.

إن تمرير مفاهيم وثقافة كل طرف لا بد أن تتم عبر أنظمة تعليمية عامة **(تشرف عليها الدولة)** وخاصة تمولها وتشرف عليها المؤسسات الدينية التي قد تكون تابعة للدولة أو غير تابعة لها مثل الأحزاب التي تكون ممنوعة عادة أو غير مصرّح لها بالعمل العلني.

ولا يمكن تطابق نظامين أو حزبين في نظرتهما وفلسفتهما العامة والتربوية. وقد يكون هناك تناقض واضح بين ما تبثه الدولة من أفكار ومفاهيم دينية وإجتماعية وبين ما هو سائد في المجتمعات - خصوصاً أحادية الثقافة والتوجه المذهبي الخاص - والذي تحاول الأحزاب الدينية التماهي معه أو استثماره لاستمالة من تريد ضمّهم إلى صفوفها. . . .

إن فشل النظم التعليمية السائدة لم ينتج مثقفين ومؤسسات ثقافية وبحثية تتمتع برصيد جيد. فهي لم تنجح في تطور المجتمعات وفشلت في محو الأمية بل وفاقمتها وكان دورها إنتاج متعلمين بسطاء قد يكونون ماهرين في مجال خاص إلّا إنهم لا يصلون إلى مستوى المثقف الذي يحمل هموم مجتمعه ولديه القدرة على النهوض به. . . واستمرار هذه النظم يولد ردة فعل كبيرة مصدرها اليأس مما تقوم به الدول الراعية لهذه النظم والتي قد لايملك حتى قادتها القدر الكافي من الوعي أو الإرادة أو القدرة على القيام بأي تغيير إيجابي بنّاء مشابه لذلك الذي يحدث في الدول المتحضرة والمتقدمة.

ولما كان هذا النمط من التعليم هو السائد والمفروض من قبل هذه الدول حتى بعد ادعّاء تحررها من أيّ هيمنة أو تبعية، ولما كان لم ينتج غير الجمود والتخلف فإننا لا يمكن أن نتوقع أن يكون مقبولاً إلى ما لانهاية وأن أيّ نقد أوشجب لن يوجه إليه وأن أحداً لن يفكر بأي بديل له.

مع أن هذا البديل قد لايكون أكثر دينامية وعمقاً وتطوراً إلّا أنه بنظر الذين يتبنّونه ويدعون إليه قد يكون الأفضل والأمثل.

○ ○ ○

إن إنتاج (**التطرف**) قد يتم بوتائر نسقية تلقينية في جميع المؤسسات التعليمية العامة أو الخاصة خصوصاً إذا ما سيطر نسيج أو نسق مذهبي أو ثقافي متشنج له ثوابته وقناعاته على مجتمع منغلق جغرافياً وفكرياً. فمن شأن إيقاعه المستديم ورتابته وتكراره أن يجعل تجربة الآباء الحاملين له تجربة معصومة جديرة بالتقليد والإقتداء من قبل الأجيال اللّاحقة.

وإذا ما أقيمت حركة سياسية تنظيمية على أساسه - ونأخذ مثالاً على ذلك الحركة الوهّابية لانطباق ذلك عليها فعلاً - فإن هذه الحركة تحمل كل تشنج وقطيعة هذا المذهب وذهابه إلى حد تكفير المسلمين وإباحة دمائهم وأعراضهم وأموالهم بحجج واهية لا تقتنع بها الأغلبية الساحقة منهم، فضلاً عن إباحة دماء غير المسلمين.

إن دعاوى النهضة والإصلاح التي تحملها الحركة الوهّابية المسيّسة منذ نشأتها والنجاح الظاهري الذي حققته بإقامة ثلاث دول متعاقبة ضمن سلالة حاكمة واحدة وأخرى دينية رديفة وداعمة، لا تزال تلقى استجابة كبيرة من أحفاد الوهّابيين الأوائل الذين ينظر إليهم كسلف صالح جدير بالثناء والتقدير والتقديس أيضاً ويعتبرون قدوات صالحة.

ولأن الوهّابية أصبحت مرجعية فكرية لكافة الحركات **(الجهادية)** المتطرفة، فإن أفراد هذه الحركات ينظرون إلى أنفسهم كمكتشفين وحيدين للحقيقة وقادرين على منع أيّ إنحراف أو خطأ باعتبار أن مرجعيتهم الوهّابية خلاصة نقية للفكر الإسلامي التوحيدي الذي لم يلتفت إليه أحد جيداً طيلة العصور الإسلامية سوى شيخهم، وربما بدا بنظرهم شبيهاً ومثيلاً حتى لنبي الإسلام ﷺ أو صحابته على الأقل.

وقد أصبح مبعث فخر واعتزاز لهم جميعاً طالما إنه حظي بتلك المكانة السامية لدى آبائهم وطالما إن مؤسسات دينية فاعلة ومدعومة مادياً ومعنوياً من السلطة الغنية قد روجت لأفكاره بشكل غير اعتيادي ونشرتها في كل أنحاء العالم... وهذا الدعم متبادل طبعاً إذ منحت هذه المؤسسات الدينية السلطة له شرعية الوجود والبقاء مقابل هذا الدعم.

❍ ❍ ❍

إن نمط التعليم السائد في المملكة السعودية - ونأخذها مثالاً لأنها أنتجت عوامل التطرف والتعصب - لا يمكن اعتباره قائماً على فلسفة تربوية مدروسة، سواء الرسمي منه أو الخاص الذي يتعلق بمدارس تحفيظ القرآن الكريم أو الخطب الدينية والمحاضرات التي تلقى مباشرة أو خلال الكاسيتات أو القنوات الفضائية أو الإنترنت فيما بعد أو في المدارس والمعاهد والكليات الدينية الخاصة بتدريس الأفكارالوهّابية.

كما لا يمكن اعتبار المدارس والكتاتيب والمراكز الثقافية والمساجد التي نشرتها المملكة والجمعيات التابعة أو المؤيدة لها في الخارج (أفغانستان - باكستان - المغرب العربي) وغيرها، مدارس ذات محتوى تنويري إصلاحي حقيقي، إذ لايتم فيها سوى تلقين الأفكار الوهّابية إلى جانب تحفيظ القرآن الكريم بشكل ببغائي وتفسيره تفسيراً سطحياً ينسجم مع قراءتها إلا أن وجودها

قد يكون فعلاً مقابلاً أو معاكساً لأداء المدارس الحكومية. غير أن نمط المدرستين أحادي لايؤمن بالتنوع والتطور كما أنه مبني على رؤية محدودة وأساليب لا تنتمي لهذا العصر أساساً.

○ ○ ○

وربما كانت المملكة السعودية هي آخر بلد عربي التحق بركب التعليم الحكومي (النظامي)، وقد كان ذلك بصورة متعثرة. فقبل عام ١٩٢٦ (وهو تأريخ الإستيلاء على الحجاز لم تشهد أيّ منطقة من مناطق الجزيرة أيّ نوع من أنواع المدارس وكانت مهمة (الإرشاد) تعود إلى رجال الدين والمطاوعة في كل بلدة. ومع ان منطقة الحجاز قبل إحتلالها من قبل السعوديين كانت متطورة نسبياً وخرّجت مدارسها المئات من الطلاب الذين أكملوا دراساتهم في الخارج وعادوا لتسلم مناصب رفيعة وكان لها إدارة حكومية للإشراف على التعليم فإن عدد مدارسها سنة ١٩٣٦م لم تبلغ إلّا ٢٧ مدرسة تقع في الوجه الغربي من البلاد، أما عدد المدارس الاهلية فقد كان ٢٢ مدرسة أما مجموع طلبة هذه المدارس فكان ٩٤٦٢[١].

ولم تفتح إلّا مدرسة واحدة في كل المناطق الأخرى (نجد والأحساء والجنوب والرياض وحائل وبريدة وعنيزة والمجمعة والقطيف والجبيل) حتى بداية عام ١٩٣٧.

ولم يهتم الملك عبدالعزيز الّا بفتح مدرسة خاصة للأمراء في الرياض، وأنشأ نائبه في الحجاز فيصل مدرسة مشابهة أخرى في الطائف (نقلت فيما بعد إلى جدة) واعتمدت العائلة المالكة على مدرسين خصوصيّين لتعليم أبنائها.

---

(١) القحطاني، فهد: «صراع الأجنحة». ص ٤٩٧ و٤٩٨. (ط ١، الصفا للنشر والتوزيع، لندن، ١٩٨٨م). عن: حمزة، فؤاد: «البلاد العربية السعودية». ص٢٢٨-٢٣٠.

وحتى عام ١٩٥٣ وهو تأريخ وفاة عبد العزيز لم يكن في المملكة إلا ٣٢٦ مدرسة، عدد المدرسين العاملين فيها ١٦٥٢ (أي معدل ٣ مدرسين أو معلمين في كل مدرسة) أما عدد التلاميذ فلم يكن يبلغ الّا ٤٣٧٣٤ طالباً[(١)].

إنّ هذه النسبة الضئيلة في الأعداد يقابلها ضعف واضح في المواد الدراسية حتى أن الجامعات المصرية رفضت حاملي شهادة الثانوية العامة السعودية (لعدم دراستهم المواد العلمية والتي لم تكن مقررة في المناهج. . . والذين يحسنون القراءة والكتابة عام ١٩٨٤ لاتزيد نسبتهم عن ٢٥٪ من السكان. . . ونسبة الذين تتراوح اعمارهم بين ٦-١١ سنة والذين لم يلتحقوا بالمدارس أصلاً فهي ٣٦٪. أما نسبة طلبة الثانوية للأعمار من (٢٠-٢٤) سنة إلى المجموع الكلي فهي ٧٪[(٢)].

إن المؤسسة الدينية السعودية لاترى أنها مجرد منافس للمؤسسات التعليمية في المدارس والجامعات بل اعتبرت نفسها الأصل وانها الجهة المؤهلة الوحيدة لتخريج (**العلماء**) أيّ المتفوقين في استيعاب اكبر قدر من مناهجها التي تروج لثقافة القطيعة والعنف.

○ ○ ○

وإذ أن للمنهج الوهّابي سطوته الطاغية على متلقّي (العلم) في المدارس الحكومية والدينية فإن وقفة طويلة ينبغي ان تكون مع مفرادته وأليات تلقينه وتلقّيه. . . وهو ما أفردنا له أكثر صفحات هذا الفصل، الذي نشير فيه إلى إشكالية شراكة المملكة السعودية مع الغرب والولايات المتحدة في مجال الثروات والنفط والتقاطع الثقافي الواضح معها حتى تُجبر هذه الأخيرة ربما

---

(١) ن. م. ص ٤٩٨-٤٩٩ عن: الزركلي، خير الدين: «شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبدالعزيز». م ٢، ص ٦٣٤ - ٦٣٦.

(٢) ن. م. ص٤٩٩-٥٠١.

تحت ضغوط شعبية على مطالبة السعودية بحذف الفقرات الكثيرة في مناهجها التي تدعو للعنف وقتل الآخر بحجة الكفر أو الشرك. . . وربما تذهب إلى حد تحميل النصوص القرآنية المقدسة مسؤولية ذلك، كما تعرضه القراءة الوهّابية، حتى أن البعض يطالب ربما لغرض غير بريء حذف بعض هذه النصوص من القرآن نفسه، وكأن ذلك أمر متاح لأي فرد أو سلطة من داخل الدائرة الإسلامية حتى وإن كانت منحرفة أو غير ملتزمة بالمنهج الإسلامي عموماً.

وسنترك الحديث عن المشروع السعودي التعليمي مؤقتاً لنستأنفه فيما بعد في هذا الفصل.

إنّ الذي رسم السياسة التعليمية في البلدان العربية قبل مرحلة مايسمى بالاستقلال، لم يكن أبناء هذه البلدان ووفق إرادة حرة ومصلحة حقيقة وإنما من قبل المستعمر الإنجليزي والفرنسي الذي لم يكن معنياً بإرساء أسس تعليمية متينة كتلك التي اعتمدت في بريطانيا أو فرنسا تستجيب لعوامل التطور والتنمية. وتتيح حراكاً واسعاً في مجال البحث العلمي والدراسات الإنسانية والأدب والفنون وغيرها.

وكان اهتمام المستعمر ينصب على إقامة حد أدنى من التعليم يستوعب أعداداً من الطلاب تكفي لمساعدته في تمشية أعماله المدنية يكونون موظفين غير فاعلين وغير معنيين بخطط التنمية والتطوير.

○ ○ ○

ولن نتحدث في هذه الدراسة المحدودة عن حالة كل بلد عربي بالتفصيل، وإنما سنتناول بإيجاز أيضاً - كمثال آخر - حالة التعليم في العراق بعد مرحلة ماسمي بالحكم الوطني أي بعد عام ١٩٢١ في ظل الإحتلال البريطاني ومرحلة الإستقلال الإسمية ثم بعد حركة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ وإزاحة الملكية والحركات اللاحقة في ٦٣ و٦٨ إلى يومنا هذا.

لقد كانت السياسة التربوية في العراق أسيرة خطط مدروسة للمحتل البريطاني ممثلة بمستشار الوزارة الإنجليزي ومدير المعارف العام (**ساطع الحصري**)(١) الذي كان العقل المسيّر لوزارة المعارف العراقية منذ عام ١٩٢١ ولمدة تقارب العشرين عاماً عاصر خلالها عدة وزراء ربما كانوا كذلك بالإسم.

وقد كانت المناهج الموضوعة في عهده تمهد لتعزيز الغباء والجهل إذ يدرس الطلبة في كل المراحل الدراسية مواداً لاعلاقة لها بتأريخهم أو جغرافية بلادهم وتضخ في أدمغتهم معلومات كثيرة تضمها كتب ضخمة في الكيمياء والفيزياء والرياضيات. . . وكانت نتيجة ذلك رسوب أو هروب أعداد كبيرة من طلّاب المدارس وتدني المستوى التعليمي وقطيعة بين الطلبة ولغتهم العربية وآدابها.

كما انه ساهم بوضع قوانين وتعليمات تبيح طرد الطلبة وفصلهم وضربهم وجلدهم وإهانتهم بعلم من السلطات البريطانية والمستشارين الذين كانوا يديرون الوزارات والدولة فعلاً.

---

(١) مفكر (عروبي) (قومي) امتاز بعدائه للعروبة وتراثها التأريخي. ولم تعرف أصوله العرقية أو القومية. تعلم اللغة العربية بعد تعيينه من قبل دائرة الإستخبارات البريطانية مع فيصل مديراً لمعارف الحكومة السورية عام ١٩٢٠م والتحاقه بالعراق عام ١٩٢١م. وكان يتحدث التركية والفرنسية. عين مديراً عاماً للمعارف العراقية قرابة عشرين عاماً. وقد كان عضواً فاعلاً في المؤسسة التي رسمت سياسة العراق لارتباطه المباشر مع الموظفين الإنجليز الأساسيين. عرف بتوجه طائفي لا يقوم على دوافع دينية أو حب لأي رمز إسلامي معروف وسبّب مشاكل وسجالات عديدة في أوساط المجتمع العراقي أدت إلى تعميق النهج الطائفي غير المبرر. ورغم إنه اعتمد منظراً للبعثيين فيما بعد مع ميشيل عفلق إلا أن (فكره) تأملي ظاهري لايقوم على حقائق التأريخ والجغرافيا واللغة والدين، فعاش مسكوناً بهاجس تحطيم اللغة العربية والتراث العربي وتأخير العراق في المجال العلمي والتربوي. وقد نجح في مهمته إلى أقصى حد حيث أن العراق لا يزال يعيش حتى الآن التداعيات المؤسفة لسياسته التربوية.

ومع كل هذا لم يمتنع المروّجون لأفكاره (القومية) الفضفاضة التي لاتقوم على أساس معرفي واضح بتسميته بـ(**أبو التربية العربية الحديثة**)[١].

وقد وصف منهج التعليم الذي وضعه الحصري بكونه يعرض الطلبة للإرهاق الفكري الناتج عن كثرة المواد وسعة مفرداتها. فقد أثقل على الطلبة في المرحلة الإبتدائية ٣٦ ساعة مدرسية أسبوعياً في محاولة لإشغال الطلبة ضمن برنامج إبعادهم عن السياسة.

والواقع ان تحميل الطلبة مناهج ثقيلة جعلهم ينظرون إلى السلطة نظرة من يريد الانتقام منهم لامن يسعى إلى تربيتهم وتعليمهم. وقد توسعت هذه النظرة أكثر بتأثير نظام الامتحانات المدرسية.

فقد حولت الادارة البريطانية الامتحانات التي هي أحد اختبارات القدرة العلمية للطلبة إلى معركة حقيقة ضد عدو تتحايل الأسئلة الإمتحانية على دحره. وكان من نتائج هذه السياسة أن معدلات الرسوب في المدارس العراقية لحد هذا اليوم، تفوق النسب المتعارف عليها. . . وظل نظام الإمتحانات في العراق أداة ليس لقياس درجة الذكاء والمعرفة، بل لإثارة الرعب والإرهاب في نفوس الطلبة. ولكن نتيجة غير محسوبة ظهرت بإتجاه معاكس لأهدافه السياسية في مبدأ ترسيب الطلبة. إذ أصبح هؤلاء الطلبة الراسبون مادة أساسية للأحزاب والحركات السرية الخاصة)[٢].

إن ضخ المواد الدراسية غير اللّازمة في أدمغة الطلبة أخذ بعداً غير معقول لم تحتمه أية ضرورة. وإذا ما علمنا ان مستشار وزارة المعارف هو إنجليزي لا بد أن يكون متخصصاً أو له إلمام ما بأساليب ووسائل ومناهج التربية في بلده

---

(١) العلوي، حسن: «الشيعة والدولة القومية». ص ٣٠٠. (ط دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٨٩).

(٢) ن. م. ص٣٠٠-٣٠١.

(بريطانيا)، أدركنا إن المساعي المشتركة للمحتل بمساعدة وزارة المعارف العراقية ومديرها التنفيذي العام الذي يفترض أن يكون وطنياً عراقياً ومن أهل البلد جعل الحركة التعليمية تسير بإتجاه مناقض لما يجري في الدولة المحتلة نفسها والتي تتسنم مركزاً عاليا في مجال التعليم المتطور.

فأي شأن لطالب السادس الابتدائي في مدرسة عراقية وزميله طالب الثالث المتوسط أو الخامس الاعدادي بدراسات تفصيلية للتأريخ الاوربي ليلزموا بحفظ عدة مئات من الصفحات عن هذا التأريخ ويجبروا على إهمال تأريخ بلدهم وبلدان الشرق الأخرى المجاورة له.

إن مثل هذه المواد في الدول المتحضرة والمتفوقة علمياً وأكاديمياً تترك لإدارات المدارس ليقرّروا مايدرس طلابهم منها ولايتعدى ذلك حدود الدراسات المحلية. وقد رأيت في عدة مدارس أميركية مصداق ذلك إذ أتاحت هذه المدارس طرقاً وأساليب مريحة لجلب اهتمام الطلبة إلى تأريخهم وتراثهم وعدم إلزامهم بحفظ نصوص عن تواريخ وأرقام لحوادث تأريخية قديمة وجعل ذلك من أدوات الإختبار النهائية لكشف ذكائهم أو معلوماتهم.

لقد (ظهر أن الطالب العراقي يدرس في جميع المراحل من التأريخ الأوروبي أربعة أضعاف مايدرسه الطالب البريطاني من تأريخه وتأريخ أوربا)(١).

والأمر نفسه ينطبق على مناهج الجغرافية، فقد (كرس الحصري جهوده لتعميم وتوسيع الجغرافيا الاوروبية للدراسة المتوسطة والثانوية. فخصّص لطلبة الثاني المتوسط (من أعمار ١٣ سنة) كتاباً يشمل دراسة جغرافية أوروبا وأقطارها مع إلزامهم برسم خرائط تلك الأقطار ومعرفة تفاصيل قد لايتوفرون على معرفة مثيلها في الجغرافيا العربية.

---

(١) ن. م. ص٢٩٦.

وفي مجال دراسة اللغة القومية تكفي الإشارة إلى أن حصيلة سنوات مرهقة تنتهي بخريجي المدارس العراقية إلى الحالة التي هم عليها منذ سبعين عاماً. فقد أخفق المتعلمون العراقيون في إتقان لغتهم، بل في إيجاد علاقة طيبة بينهم وبين لغتهم الأم. ولعله أمر مفزع أن يتهرب أبناء قومية ما من لغتهم القومية. . .)[١].

○ ○ ○

ومن الغريب أن تستمر مدرسة ساطع الحصري ونحن ننهي العقد الأول من القرن الأول من الألفية الثالثة وبيننا وبينه برزخ سبعين عاماً، ونرى سطوتها على تفكير الإدارات التربوية في وزارة التربية رغم أنهم لايتبنّون ثقافته وتفكيره، بل ينتمون إلى مدارس ثقافية أخرى! فقد ترسخت مباديء هذه المدرسة الحصرية في العقل الباطن للوزراء المسؤولين طيلة هذه المدة وبدت لهم أنها هي المباديء الصحيحة. وسبب ذلك برأينا يعود إلى أن متسلمي وزارة التربية ليسوا من التربويين المتخصصين وليس في أذهانهم أيّ تصور عن إدارة وزارتهم وفق منظور يأخذ بنظر الإعتبار ثورة المناهج في العالم ومقتضيات التنمية والتطور.

وبمراجعة بسيطة إلى مناهج الدراسة ترينا أنها لم تتغير في جوهرها لحد الآن إذ يجد الطالب فيها عبئاً على ذاكرته ودماغه ويجد في الإمتحان الدراسي عدواً مرعباً يجب التحايل أو القضاء عليه بمختلف الوسائل.

أما الحل فيقتضي إرادة وطنية حازمة تجعل إدارة التعليم بيد أكفاء متخصّصين وذوي خبرة وكفاءة بمجريات الحركة التعليمية في العالم المتطور لابيد فئات أو أحزاب لاتجيد الّا التآمر على بعضهاوإقصاء الآخر ولاتمتلك القدرة على التأسيس والبناء.

○ ○ ○

---

(١) ن. م. ص ٢٩٧.

وإذ أنّ همّ من أعطيت لهم السلطة في السابق أن يبقوا فيها حتى وإن نالوا القسط الأقل منها ونال الشريك الأجنبي القسط الأوفر فإنهم تركوا الزمام لهذا الشريك لكي ينفذ مشروعه الذي لا يمكن أن يكون هو نفسه في بلده الأم. (فقد كيفّوا بشكل جعل همهم ومطمحهم ليس الإنفراد بالسلطة بل اقتسامها مع القوى الأجنبية من خلال الأحزاب أو الحركات السياسية الدينية: آل سعود والفكر الوهّابي في العربية السعودية على وجه التحديد. وبالنظر للتطورات اللّاحقة والتي جعلت الغرب بعد الحرب العالمية الثانية يمنح هذه الدول استقلالها، فإنه لم يكن يشغل بال أعيان المنطقة غير مسألة الإنتزاء بالثروة، أما الشق السياسي، فقد اكتفوا باقتسام السلطة مع قوى الإحتلال التقليدية... وفي الوقت الذي احتل أبناء الأعيان أعلى مراكز السلطة في المنطقة العربية، فإن أهم المناصب الخاصة بإعداد البرامج العلمية والتعليمية بقيت في أيدي أبناء الأقليات والخبراء الأوروبيين)[1].

إن ازدواجية النظم التعليمية في البلدان العربية، تلك التي تدّعي التحديث والتطوير والأخرى التقليدية التي تدعي الوصاية على التراث والدين والأنساق الإجتماعية المألوفة... وقيام بعض الدول - كما في العراق ومصر مثلاً - بتعيين خريجي المدارس الحكومية في وظائف لا تتاح لخريجي وطلبة المدارس التقليدية وأغلبها مدارس دينية تنتمي للأزهر أو النجف، أوجد حالة من النفور العام والتذمر من أداء الإدارات الحكومية ونظرتها الدونية للمؤسسات الدينية بفعل استعلائي كما في مصر وطائفي كما في العراق - رسخته مدرسة ساطع الحصري والنخب السياسية المتعاونة مع البريطانيين. ومع ذلك فلم يقم أحد بجهود فاعلة بردم الثغرة حتى بعد الإستقلال التام...

(١) أبو صَوّة، محمود أحمد: «صناعة الإرهاب، قراءة في استراتيجية الهيمنة». ص ٦٠. (ط إشراقات للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٥).

وبقي الأداء السابق الذي أضيف إليه - بالنسبة للمدارس والمؤسسات الحكومية الإهتمام بالبرامج الحديثة في مجال العلوم التطبيقية مع إغفال شبه تام لمناهج الدراسات الإنسانية والعلوم الإجتماعية. فقد حرصت الجامعات العربية (على استبعاد البحث العلمي في مجال العلوم الإجتماعية، وحصر دور الأساتذة في هذا الحقل على التلقين)[١]. إن هذا النظام التعليمي الحديث أنتج بالفعل «**باحثين مميزين**» في الفيزياء والكيمياء والطب أيضاً ولكنه فشل في جعل هؤلاء مثقفين.

❍ ❍ ❍

قد لانجد في المدارس العربية منهجاً متجانساً بل نجد تخبطاً واختلافاً كبيرين أنتجا في النهاية اختلافات واسعة وصراعات خرجت من بُعْدها النظري وأدّت إلى معارك دموية.

إن المدارس الدينية التقليدية في (**الأزهر**) أو (**النجف**) لم تنتج تطرفاً - رغم مغايرة مناهجها للمناهج الرسمية الحكومية ورغم الغبن الذي ألحق بخرّيجيها والدارسين فيها في التعيين والوظائف والأجور. . . لكن المدرسة التقليدية (**الوهّابية**) في السعودية اعتمدت التطرف أساساً لفعالياتها وفق أفكار مؤسسات (**الشيخ محمد بن عبد الوهّاب**). فالمسألة عموماً لا تتعلق بمنهج ديني أو رسمي بقدر ما تتعلق بالمتبنّيات (**المذهبية**) وقيامها على التسامح أو عدمه. لذلك لايمكن تعميم حالة واحدة على الجميع دون النظر إلى كل حالة على حدة. وبدون ذلك فإننا لن نمتلك الدقة في التشخيص ومعرفة الظواهر وعلاجها فيما بعد.

❍ ❍ ❍

---

(١) ن. م. ص٦٦-٧٢.

وإذ أن للمصالح والتحالفات مقتضياتها، وإذ أن الدولة السعودية التي أقامت شرعيتها على ذرائع وهابية تتصدر قائمة ممولي البترول للولايات المتحدة ودول الغرب يجعل هذه الدول تغض النظر عن استفحال النظرة العدائية التي تؤجِّجها الوهّابية ضد الآخر (**المسلم المشرك والمسيحي الكافر**)، **فإن أقصى ماتقوم به هذه الدول هو دعوات خجولة لتغيير بعض** المناهج الدينية وحذف بعض الآيات القرآنية منها، وكأنها بذلك تحسم المشكلة إلى الأبد مع أنها لا تفعل شيئاً سوى مفاقمتها وتأجيل الإنفجار الكبير. فهذه المرجعية السلفية التي مولت ودعمت في مراحل عديدة من تأريخها جعل أتباعها على يقين من قدرتها على البقاء والقيادة كبديل لأنظمة الحكم الحالية خصوصاً وانها اعتقدت أنها هي وحدها التي حققت نجاحاً في أفغانستان وجعلت القوات السوفيتية تخرج منه، كما أن الصورة التي رسمت لها في المخيال الشعبي العام صورة برّاقة لحركة إصلاحية جادة قادرة على التغيير نحو الأحسن وإعادة العصور (**الإسلامية الزاهرة**) بقيادتها هي.

إن قناعة الوهّابيين بمعتقداتهم وثوابتهم التي لا تنسجم كلية مع المعتقدات العامة للمسلمين جعلتهم بمنأى عن أيّ تقارب يتيحه أيّ حوار منفتح. فآراء شيخهم لها سطوة واضحة عليهم ولاتلوح في الأفق أية بوادر تدل على إمكانية التخلي عنها أو على تسامح متوقع أو قبول للآخر، مسلماً أو غير مسلم.

○ ○ ○

إنّ الظاهرة الوهّابية، وإن لم تكن مستنسخة تماماً بقدر واحد في أغلب الأحزاب المتأسلمة تحاول التموضع خارج الحاضنة الأم، وتحاول أن تجد لها ملاذاً في مصر وبلاد المغرب العربي ومنطقة الشرق الأوسط وفي بعض الدول الإسلامية. ويبدو من تحركها الدؤوب في كل مكان حتى في أوربا والولايات المتحدة أنها تحقق توسعاً ملحوظاً وتكسب انصاراً فاعلين في كل

مكان. . . ويبدو أن ثمار التعليم في دول المشرق العربي والإسلامي الذي لم يكن ناضجاً أو فعّالاً ولم ينجح في تحقيق تنمية وتطور حقيقيين خلال قرن كامل وكان فجاً وناقصاً قد أنتج فئات يمكن أن تقبل فكرها المحدود الذي يقارب الأفكار الحسيَّة الطفولية والتي يمكن وصفها بأنها غير ناضجة وغير قادرة على مجاراة روح العصر وتحقيق أيّ قدر من الإبداع والفاعلية. إنها تعيش عصراً منكفئاً لايمت إلينا بصلة ويحمل أفكاراً ظلامية جديرة بعزلها ومنعها من الإنتشار.

ومع ذلك فقد أتاحت وسائل النشر والإتصالات الحديثة السهلة والمجانية أحياناً مجالاً واسعاً لانتشار الأفكار المتطرفة. فلم تعد المدرسة المنتج الوحيد لها وإنما أصبحت تسوّق من قبل خطباء ومعلمين متحمّسين ومبلّغين وناشطين حزبيين بشتى الوسائل والأساليب. وهذا ما سنتحدث عنه في عدّة مباحث لاحقة.

○ ○ ○

المتشددّون: مهارات في التضليل

يحاول المتشدّدون الذين يتبنّون التوجه الأحادي المتزمت، الدفاع عن ثوابتهم وقناعاتهم - الموروثة غالباً - بالإدّعاء: أنّ ما يوّجه إليهم من نقد إنما يقصد به نقد ثوابت الإسلام والإساءة للمسلمين عموماً وأنّ حرباًصليبيّة جديدة تشابه الحروب الصليبية الأولى تشنّ ضدهم بشكل وأسلوب جديدين. وبذلك فإنهم يحاولون نقل المعركة معهم خاصة إلى عموم الساحة الإسلامية ليكسبوا إلى جانبهم جبهة عريضة من المسلمين وليضمنوا الفوز والتعاطف ويتجنّبوا الهزيمة أو يقلّلوا خسائرهم على الأقل.

وهي خطة تتسم بقدر كبير من البراعة والحذق خصوصاً وأنهم يمتلكون

آليات تسويقها وترويجها وإقناع جماهير واسعة من المسلمين بها مثل وسائل الإعلام والمؤسسات والجمعيات الدينية والخيريَّة الخبيرة والمتمرسّة ووسائل الدعم المادي غير المحدود. إنهم بذلك يتحصنون خلف مليار مسلم ويجعلون منهم دروعاً بشرية عندما يحاولون تصوير الحرب الدائرة كحروب (مقدسة) بين الأديان ويحاولون زج الجميع فيها.

وإذ أنهم خطّطوا لكي تستمر معاركهم وسجالاتهم لأمد غير معروف في المستقبل مستخدمين (**أيديولوجيا**) تبرّر لهم كل فعالياتهم التي غالباً ما تتسم بالعنف والتزمت، فقد جعلوا من أولوياتهم تنشئة أجيال تتبنّى نهجهم، لكي تكون مادة دائمة ورئيسية ذات حيويّة لتنفيذ كل الفعاليات والخطط والبرامج التي لا يُنتَظَر أن تنتهي أو تقف عن حد منظور.

وإذا ما حسمت الحرب ضد الإرهاب في بعض الميادين، فإن ميادين واسعة أخرى تظل مفتوحة لإنتاج المتطرفين وذلك بإنتاج أفكار التطرف، والسند (**الأيديولوجي**) الذي يبرّرها ويجعلها مشروعة، بل واجبة.

ولعّل الميدان الأوسع يكمن في المنظومة التربوية العامة المنتجة للأفكار والإتجاهات ابتداء من مؤسسة العائلة الصغيرة وانتهاء بالمؤسسات الإجتماعية والتربوية والدينية والثقافية المهيمنة والسائدة.

ويبدو أن الإمساك بزمام هذه المؤسسات وتوجيهها لصالح النهج المتشدد قد أتاح بسط سلطانه لا في الجغرافية المعروفة للمتشددين التقليديين وإنما في أماكن متعددة في العالم العربي والإسلامي وما ورآءهما. وهو الذي سيتيح في المستقبل كسب المزيد من الاتباع والمعجبين. وربما سيجد العالم نفسه إزاء دوامات من العنف والمعارك التي لا يمكن التكهن بنتائجها الآن.

○ ○ ○

معركة المناهج الدراسية

إن لهؤلاء الآن سطوتهم في أقطار عديدة في العالم الإسلامي ومنها دول الخليج (**المملكة السعودية وأخواتها**). وقد أثمرت جهودهم في العقود السابقة في إنتاج برامج ومناهج تربوية عامة وخاصة تلقّن في المدارس والمراكز الدينية تميزت بإيقاعها المتشدد والمؤثر.

وإذ أنهم حسبوا أنّ مشروعهم التربوي قد أعطى ثماره وفق ما يشتهون، وأنتج شباباً مغرمين بأفكار (**الصحوة الإسلامية**)، فإنهم يقاومون بشراسة كل محاولة لتغييره، خصوصاً في الحاضنة الأم. وقد اتخذت مقاومتهم أبعاداً عديدة. ذكرنا أن منها الإيحاء لعموم المسلمين أن الغرض من تعديل المناهج هو النيل من ثوابت وأساسيات الدين الإسلامي. وادعوا بتمويه مضلّل آخر أنهم يغيرون المناهج الدراسية فعلاً كل بضعة سنين. ولعل ذلك قد تم بتغيير صورة الملك التي يضعونها قبل الصفحة الأولى عندما يعتلي سدة الحكم ملك جديد. كما إنهم يجرون تغييرات شكلية في فصول وأجزاء الكتب الدينية والتأريخية لا تمس جوهر المعلومات المقصود إعطاؤها للطلبة والتي تمهد لتكوين البيئة الإرهابية.

إن الداعين لتغيير هذه المناهج - من غير المسلمين - يحسون بشكل غير مباشر وغير دقيق بتأثير هذه المناهج على عقول الطلبة وأنّ خللاً ما يجعل منها أداة لتكريس الأفكار التي تساهم في إيجاد أجواء تحريضية تعبوية (**ضد الآخر في الدين أو المذهب**) وكأن المدرسة مركز قتالي في موقع عسكري متقدم. غير أنهم لا يشخِّصون مواقع الإثارة في مواد هذه المناهج. ولعل ثقافتهم المحدودة بآليات الخطاب الإسلامي العام تجعلهم يتخبطون أيضاً ويحمّلون الإسلام بعض المسؤولية عن الأفكار المتشددة. ولذلك فإن المسلمين أنفسهم أقدر على التشخيص الدقيق لمواضع الخلل في هذه المناهج ووضع بدائل

تتناسب مع قدرات التلاميذ واستيعابهم الذهني في كل مرحلة عمرية لا تدخل في متاهات الجدل الفقهي والاشكالات التأريخية التي أنتجتها سياسات اللاعبين التأريخيين وحكام الإمبراطوريات السابقة.

○ ○ ○

المناهج الدراسية وعمليات غسل الأدمغة

تُصنَّف العمليات الإرهابية من قبل المجتمعات الإنسانية - على اختلاف توجهاتها وثقافاتها، على أنها من الجرائم الكبرى التي لا يمكن تبريرها أو منحها هوية عقائدية عليا لأي دين سماوي أو فكر بشري معقول. ومع ذلك يتمسك الإرهابيون بنهجهم غير المبرر وغير المقبول بدعوى أنه الأسلوب الوحيد الذي يحسم الأمور لصالحهم وأنه يمثل قمة الإخلاص لقيم وعقائد دينية أو إنسانية (صحيحة) على الناس جميعاً أن يؤمنوا بها دون نقاش أو تفكير.

إنّ هذا يثير التساؤل عن طبيعة الجذور الفكرية أو التربوية أو الثقافية لأولئك الذين اتخذوا عمليات العنف وسيلة لبسط رؤيتهم ونفوذهم على مناطق العالم الإسلامي. وهذا يتيح لنا النظر في طبيعة التعبئة والشحن الفكري التي يعمد إليها هؤلاء من خلال استغلال مناهج التربية الإسلامية والإجتماعية والتأريخ في المدارس وطبيعة البُنية الثقافية للقائمين على تدريس هذه المناهج وتلقين محتوياتها لليافعين والشباب منذ مرحلة الدراسة الإبتدائية ثم المتوسطة والثانوية حتى المراحل الجامعية في بعض الأقطار.

فهؤلاء الشباب - وخصوصاً في المراحل الأولى - يكونون خاماً قابلاً للتشكيل والتلوين، يمكن التأثير فيهم بفعالية و(خلقهم) فكرياً وفق رؤى واضعي المناهج والمدرسين ومن يقف ورآءهم.

ولعلنا ندس الرؤوس في الرمال إذا ما تصورنا أنّ العمليات الإرهابية مجرد عمليات عشوائية غير مدروسة أو أنها مجرد ردود أفعال على ما يجري في بعض البلدان أو في عموم العالم.

ولعل من الجهل الفاضح أن نخلط دائماً بين الذين ينفذون هذه العمليات والذين يخطّطون لها. فالمخططون الذين يستطيعون إرهاب شعب بأكمله أو إقلاق راحة العالم كله، لا بد أن يكونوا ذوي مؤهلات فكرية عالية وينتمون لما يمكن تسميتها طبقة (المثقفين) ولديهم القدرة لجعل الإرهاب بنظر الناس العاديين مشروعاً ومبرراً ويمنحونه الحياة والديمومة لأمد طويل وفق تنظيم ومهارات مهنيّة عالية. وبالتأكيد فإن هذه القدرة لاتتاح للعاديين البسطاء الذين يتأثرون بهؤلاء ويُقادون من قبلهم. فهم يمنحون الإرهاب مادة حياتية فعّالة تغذّيه وتديمه ويلجأون إلى وسائل تربوية وإعلامية وفكرية مؤثرة لجعل بواعثه وأهدافه مبرّرة ومقبولة ومستساغة.

إنّ ما يحاول هؤلاء وضعه في متناول أيديهم والإتكاء عليه واستخدامه بطريقة مموَّهة وحذق هو إبتكار وخلق (شرعية) دينية مزيفة وتطويع بعض النصوص المقدسة من القرآن والحديث لتلبية أهدافهم وإقناع من يمكن أن يستخدموهم لتنفيذ فعالياتهم الإرهابية وأغلبهم من الناس العاديين أو البسطاء.

وغالباً ما يحاولون إقناعهم أنّ ما يقومون به يندرج في خانة الأعمال السامية التي يدعو لها الدين وأنها تشكّل أرقى أشكال (الجهاد) الذي يتيح لهم الفوز الأكيد بالجنة أو تحقيق النصر لأوطانهم ودينهم ويجعلهم في مصاف الصحابة الأوائل الذين رسموا لهم في مخيّلاتهم أجمل الصور..

إن من يمتلك القدرة الفائقة على غسل أدمغة عدد كبير من الناس وجعلهم ينخرطون بحماس منقطع النظير في الأعمال التي لا يمكن أن تصنف إلّا في خانة الأعمال الإجرامية البعيدة عن كل القيم والقواعد والمباديء الإنسانية

والدينية، لا بد أنه يوظف أيديولوجية دينية ويعرضهابشكل مقنع ولديه القدرة على تغيير وتشويه القيم الدينية في أذهان هؤلاء، وجعلهم يفقدون القدرة على التمييز بينها وبين الأعمال الإجرامية الأخرى التي لا يمكن وصف بشاعتها، وإلصاقها بالدين عنوة.

ولعل تجاهل أمثال هؤلاء أو الإستهانة بهم لا تتيح لنا فرصة ردعهم أو إيقافهم. كما أنّ السعي المتأخر لمعالجة آثار أعمالهم سيكون أكثر كلفة.

○ ○ ○

مواجهة الإنحراف منذ البداية: إعداد المناهج المناسبة لحماية الطفل..

إن التصدي لهؤلاء ينبغي أن يتمثل أولاً في الجهود المبكرة لإعداد برامج وفعاليات تربوية ومناهج في جميع المدارس ومنذ المراحل الأولى تؤكد على أن الإنسان هو القيمة العليا وأنه الرأسمال الأثمن في الوجود وأنّ أيّ استهانة به وأيّ عنف يمارس ضده غير مبرر وغير مشروع على الإطلاق. وأن ما ينبغي السعي لأجله هو تأكيد حقوق الناس جميعاً وأهمية حياة كل فرد كمنحة إلهية خاصة ينبغي أن تستثمر وفق مقاييس العدالة والقيم البنّاءة والحرية والإحترام، وأنّ الدين لا يمكن أن يستخدم ذريعة لانتهاك أيّ من هذه الحقوق. وينبغي التأكيد على الممارسات التربوية العملية التي تؤكد ذلك وعدم الإكتفاء بترديد الأقوال والشعارات. وبذلك فإننا - منذ البداية - نقطع الطريق على إمداد الإرهاب بالمادة الحيّة الخام والطازجة ونجفف منابعه الأولى والأساسية ونفضح المروجين والداعين إليه مهما كانت ذرائعهم أو وسائلهم.

إن هذه المناهج الدينية والتربوية ينبغي أن تعدّ وفق ديناميكية تنسجم مع متطلبات الحياة ومتغيراتها وآلياتها المتطورة، وأن تتم معها عملية إشراف فعالة ويقظة على الفعاليات الدينية والتربوية العامة والإجتماعية للمدارس

والجميعات والمؤسسات الدينية والإعلامية. وإلّا فإن منبعاً رئيسياً من منابع العنف والإرهاب والقطيعة سيظل يتدفق بغزارة ما دام المخططون المحنكون للعمليات الإرهابية يلجأون إلى استخدام وتوظيف بعض القيم والمفاهيم الدينية لتبرير وتمرير عملياتهم على هذا الأساس ضمن مشروعهم المضلّل الذي يخلط بين المشروع الديني (**المقدس**) والسياسي (**البشري**) وإعطاء (**السياسي**) غطاء دينياً وهميّاً خادعاً. وعادة ما يكون هؤلاء أشخاصاً فاعلين وذوي مراكز كبيرة ضمن القيادات الدينية أو التربوية أو الحاكمة في بعض الأقطار الإسلامية.

ويستثمر هؤلاء المخططون حالات الإحباط واليأس من الأيديولوجيات التي سادت في بعض هذه الاقطار كالأيديولوجيات القومية أو الاشتراكية والتي بسطت سطوتها لعشرات السنين على قطاعات واسعة من الناس وادّعت أنها بتوجهها الشمولي الأحادي الجانب كفيلة بحل أزمات المجتمع ومشاكله، والتي بدت في نهاية المطاف مهزومة أمام الأحداث الخطيرة والمتلاحقة التي حصلت في النصف الثاني من القرن الماضي.

إنهم يحاولون الآن الإدلاء بدلوهم، وعرض الإسلام (**وفق رؤيتهم هم**) على أنه البديل لتلك الأيديولوجيات رغم أنهم لا يملكون مخططات أو رؤية عملية لتحقيق شعاراتهم التي تبدو ضبابية وساذجة، تصعدّها في أذهانهم أحلام إقامة إمبراطورية مشابهة للإمبراطوريات (**الإسلامية**) القديمة.

وما لم يتم التعامل وفق آليات مناسبة وإعادة النظر بالمنهج الدراسي الرسمي السائد في أغلب دول العالم الإسلامي والتأكيد على حقوق الإنسان واستثمار طاقاته وفعالياته بشكل بنّاء وتعزيز قيم العدالة الإجتماعية والحرية والديمقراطية، فإن هؤلاء المخططين الذين يدعون للأخذ برؤيتهم والذين أصبحوا يمتلكون كفاءات فكرية ومعرفية وقدرات تآمرية كبيرة ونفوذاً هائلاً بين

أوساط الشباب سيتمكنون من تحقيق الكثير من أجنداتهم وخططهم، وسيعرضون أنفسهم على أنهم أصحاب فكر مجتمعي حديث وتقدمي يلبي مطالب كل المجتمعات العربية والإسلامية إلى أن ينكشف فشلهم في نهاية المطاف.

فلهؤلاء أيديولوجيتهم ونموذجهم الخاص في الحكم والحياة ويدّعون إمكانية تحقيقه بعد فشل أغلب أنظمة الحكم والأحزاب والمنظمات المقربة من هذه الأنظمة تحقيق مطالب واحتياجات الناس. إنّ لهم تأثيرهم الفاعل على خلق تيار يؤمن بمساعيهم لإقامة نظام أحادي التوجه، شمولي بديل عن الأنظمة السائدة أو السابقة. كما أنهم يبدون عزيمة منقطعة النظير لتزيين مشروعهم وعرضه بشكل جذاب وكأنّ فيه الخلاص الحقيقي من كل المشكلات والأزمات، مع أنّ ما سيفعلونه هو أنهم سيفاقمونها إذا ما تمكنوا من السيطرة والنفوذ.

وإلى أن يتخلص العالم من تداعيات أنظمة يقيمها هؤلاء وفق رؤيتهم وإجتهاداتهم التي ليس لها أيّ سند ديني أو قانوني سليم، وإلى أن تكتشف حقيقتهم بعد وقت متأخر وبعد الوقوع في مطبات ما سيقومون به من أعمال، فإن الثمن الذي يدفع سيكون باهضاً. وإذن فلا مجال للتجارب الفاشلة أو القاصرة التي يسعى لها المغامرون والمقامرون، ولا بد من مواجهة حازمة تناسب مايقومون به من جهد هائل.

○ ○ ○

المدرسة: نسق تنظيمي لبناء الثقافة والتوجّه

إنّ التعليم المبرمج والموضوع وفق فلسفات ورؤى تربوية لدول ومؤسسات متنفَّذة وفاعلة يلعب دوراً أساسياً في تشكيل البناءات والتنظيمات

الإجتماعية في تلك الدول المتقدمة والنامية على السواء لتداخل هذه التنظيمات مع بعضها وإرتباطها بالمنظومة الإجتماعية العامة في كل بلد.

ومعلوم أنّ المدرسة هي أكثر هذه التنظيمات الإجتماعية والتربوية تأثيراً وفاعلية لارتباطها الوثيق والمباشر مع كل الأنساق المجتمعية الأخرى.

إنّ مفهوم (**التعليم**) بدلالته النصيَّة والإصطلاحية يرتبط بمفهوم الثقافة الأوسع والأشمل الذي تشكلّه منظومة القيم والعادات والتقاليد والدين والأخلاق والمعارف وكل ما يمكن أن يتأثر به الفرد أو يكتسبه خلال فترات نموّه ونشوئه. لذلك يمكن اعتباره المؤثر الأول في تأسيس أنماط الشخصية وعمليات النضوج الإنفعالي والعقلي والسلوكي.

وإذا ما أدركنا ارتباط التعليم بعملية التفاعل الإجتماعي والدور الإجتماعي والمركز الإجتماعي والبناء الإجتماعي وغيرها من المفاهيم التي تعكس ما يسمى بالوظيفة الإجتماعية للتعليم في المجتمع[1] استطعنا فهم فعالية التعليم في كل مفاصل الحياة. وقد أصبح ذلك من الأمور البديهية المعروفة للمهتمين والدارسين في شؤون التربية والتعليم.

إن الإهتمام بدور المدرسة (**المكان الذي يتم فيه التعليم المبرمج**)، له ما يبرّره، إذا ما أردنا تحليل جذور بعض الظواهر الإجتماعية. لأنّ فهم هذا الدور يساهم في فهم القضايا والمشكلات الإجتماعية. فالدور المتبادل بين المدرسة كمجتمع قائم على بناء تنظيمي خاص والمجتمع الأوسع بكل أنساقه وتداخلاته وتركيباته يجعل من المدرسة الكيان الأكثر تأثيراً في مفاصل المجتمع من ناحية، والمتأثر بنفس الوقت بآليات وإيقاع العمل الذي تفرزه

(١) عبد الرحمن، محمد عبد الله: «علم إجتماع المدرسة». ص ٢٨. (ط ١، المعرفة الجامعية، مصر).

الحياة اليومية داخل المدرسة **(مثل آليات أداء الأساتذة والمعلمين والمناهج)** والمجتمع بنفس الوقت، ويعكس العلاقات الواقعية بين اهتمامات السلطة والناس عموماً أو الجماعات وكذلك الأفراد على اختلاف توجّهاتهم ومواقعهم الإجتماعية وطرائق تفكيرهم وسلوكهم.

○ ○ ○

الدولة الوهّابية: توظيف التعليم الديني

إن المدارس في عالمنا المعاصر لا تخضع لآليات موحدة في الأداء والبرامج والمناهج. فلكل بلد (فلسفته) التعليمية والتربوية وأجندته الخاصة في التعامل مع الأجيال وفق سياسات الحكام والقادة. ونحن لا نتوقع أن تكون المناهج متشابهة في كل أنماط المدارس في العالم. ويتأكد ذلك لدينا إذا ما علمنا أن الإمكانات المتاحة في كل بلد والخبرات التربوية والتعليمية وحتى الموارد المالية يجعل الفارق كبيراً بين ما تحقّقه كل دولة على حدة.

وبهذا، فلا يمكننا التعامل بمعايير واحدة عند التحدّث مثلاً عن مدرسة في الولايات المتحدة أو في فرنسا أو في أيّ بلد أوربي له نظام حر غير مقيد أومدرسة في ظل حكام وراثيين دائميين تمارس نشاطها ضمن أسوار خاصة لمذهب ديني متشدد يعتبرون الشعب قطيعاً (رعية) لهم، عليه الطاعة والإلتزام بالأوامر والسكوت عن نزواتهم والتفاني في خدمتهم حتى وإن أوغلوا في الظلم والإستبداد.

إن ديناً خاصاً قد صمم على مقاس هؤلاء لتطويع الشعب وجعله أخرساً، وإلباس تصرفاته التي أريد لها ان تكون خانعة، لباس التقوى والخشوع والطاعة العمياء باعتبارها طاعة لله ما دام قد جعلهم - كما يدّعون - ولاة أمر معصومين لا تجوز مناقشة تصرفاتهم وأفعالهم.

ومن الطبيعي أن تكون المدرسة الأداة الإجتماعية (**التربوية**) الفعالة لإنشاء أجيال تتوارث ثقافة الطاعة العمياء للحاكم وتتبنّى المفاهيم والأفكار والتفسيرات والمناهج التي تضعها الدولة لتكون سائدة ومقبولة.

وإذا ما أضفنا إلى ذلك انتشار المدارس الدينية ذات الثقافة المعلّبة الجاهزة والمؤطرة بوجهة نظر دينية خاصة تروج لمذهب متزمت ينتهج نهجاً تقاطعياً مع بقية المذاهب الإسلامية، ويكفر أغلب المسلمين بدعاوى باطلة ويدعو لمقاطعة أبناء الديانات الأخرى، أدركنا أنّ هناك سعياً مدروساً لتحقيق هدف خاص غير معلن عنه إلا في الأدبيات الخاصة لكنه معروف ضمناً.

إن اتساع أعداد هذه المدارس الدينية في المملكة السعودية وغيرها مثل (**أفغانستان**) و(**باكستان**) وغيرها، بسعي دؤوب من المؤسسة السلفية الوهّابية والجمعيات (**الخيرية**) ذات التأثير الفاعل والإمكانات المالية الكبيرة، أريد منه جعل هذه المدارس بؤراً لنشر الفكر المتطرف، أحادي النظرة والتوجّه، وقد أسهمت آليات العمل فيها وطبيعة المناهج والمدرسون في تشكيل أجواء خاصة أصبحت مقبولة ومستساغة ومتوارثة في محيط متماه ومتجاوب معها وفي حدود جغرافية مذهبية مغلقة.

إنها تعنى بتلقين مفاهيم المذهب الوهّابي بأداء نسقي تلقيني صارم تديره المؤسسة الوهّابية المتنفّذة. ونحن هنا نركز على هذا الموضوع لأنه أساس المشكلة. فالمنهج العام لهذه المؤسسة يصعد وتائر الشحن والتحريض والتفسير الكيفي للنصوص الدينية والتعامل معها بطريقة إنتقائية تعسفية. غير أن تركز وتائر العمل ضمن مناهج مدروسة ومعدّة في مدارس الدولة وغيرها، جعل من هذه المدارس بؤرة تنظيمية وحاضنة مثالية لاستقطاب ونشر الفكر الوهّابي المتطرف تمهد الأجواء لخلق بيئات مشابهة في أماكن أخرى في المجتمع. فمن الصعوبة حتى للباحثين والمتخصصين عزل النظام التعليمي عن

بقية النظم الإجتماعية الأخرى، سواء كان ذلك في المجتمعات النامية أو المتقدمة خاصة وان تلك النظم تتداخل مع بعضها، وهذا يفسر سبب صعوبة دراسة وفهم الظواهر والمشكلات الإجتماعية الناجمة عن حدوث خلل ملحوظ في طبيعة الأدوار الأساسية والوظائف المتعددة لهذه النظم.

ooo

الهيمنة على النظام التعليمي لتكريس سيادة الدولة

يرتبط التعليم الديني في دولة الحاضنة الأولى للفكر السلفي الوهّابي **(سواء في المدارس الدينية البحتة أو المدارس الحكومية العامة)** بالتوجّه الديني العام الذي تتبنّاه الدولة دون ترك أية مساحة لأي توجه آخر. إذ تحاول تسويق وجهة النظر الوحيدة التي تتبّناها ونشرها باعتبارها التجسيد الحقيقي للإسلام وتلغي ما عداها بشكل إقصائي عنيف لا يتيح أيّ مجال لأي تفاهم.

إن العاملين في كل مفاصل المؤسسات التربوية في هذه الدولة ابتداء من المدرسة الإبتدائية والمدارس الخاصة مثل الكتاتيب ومدارس تحفيظ القرآن والمعاهد الدينية يدأبون على حماية المناهج الثقافية المتوارثة لجعلها أساساً للتوجيه والتربية الإجتماعية والدينية وفق متبنياتهم المذهبية. وظلت المقررات الدينية والثقافية والأخلاقية الوهّابية في مقام الصدارة رافضة أن تزاحمها أية مفاهيم ثقافية أخرى حتى ضمن إطار الثقافة الإسلامية العامة **(لكن المنتمية لمذهب آخر)** أيّ من خارج إطار الوهّابية.

إن المدرسة نسق أو تنظيم فرعي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالأنساق المجتمعية الأخرى. ومهمتها إعداد وتحويل الطفل إلى **(تلميذ)** وتدريبه على مواجهة حياته المستقبلية وأخذ دور فاعل في المجتمع حسب متطلباته واحتياجاته. غير

أنّ وظيفتها تختلف طبقاً لتوجّهها العام والسياسة التربوية والإستراتيجية العامة للنظام. ومن هنا فلا يمكن أن نضع في خانة واحدة المدارس الحكومية والمدارس الخاصة، مع أن هناك توجهاً موحداً في المناهج في الدول الحاضنة للفكر المتطرف يسعى لتكريس نهج هذه الدول وتوجهها الفكري وسياساتها. خصوصاً إذا ما كانت قائمة على ذرائع أو (شرعية) مستمدة من حقوق إلهية أو عائلية يروّج لها ولشرعيتها فقهاء التطرف على مرّ السنين.

إنّ هناك تأكيداً واضحاً على نفس الستراتيجية التي وضعها مؤسس الوهّابية وخلفاؤه وأقطاب مدرسته المسيطرون على كل مفاصل الدولة لترسيخها وتشكيل الأهداف والبناءات الإجتماعية التنظيمية طبقاً للنظام التعليمي والتربوي السائد والذي يهيمن على كل مؤسسات التعليم والمدارس سواء كانت حكومية أو خاصة.

ولذلك فإن هذه المدارس الحكومية، اضافة لما تقوم به من تطوير لقدرات التلاميذ لاستيعاب المعارف والعلوم العامة، فإنها تضخ في أذهانهم مفاهيمها ورؤيتها الأخلاقية والدينية.

○ ○ ○

الهيمنة على العائلة للهيمنة على الطفل

إن الحاضنة العائلية - قبل المدرسة وأثنائها - والموجهة بثوابت الفكر الوهّابي المتوارث، تجعل مهمة المدرسة في القيام بعملية الشحن العقائدي للطفل مستساغة ومقبولة من قبله. وتصبح مهمة تشكيله وتوجيهه سهلة وطبيعية وغير متناشزة مع الإيقاع العام لثقافة المجتمع التي تقوم المدرسة بنقلها والحفاظ عليها، رغم كل ما تتضمنه من أمور ايجابية وسلبية في مجمل العادات والتقاليد والرموز والخرافات أو مايسمى عموماً بالمحتوى الثقافي.

وإذا ما علمنا أن عقل وذاكرة الطفل في السنوات الأولى تتسم بقدر كبير من البساطة وقدرة فائقة على الاستذكار والإدراك، بانت لنا سهولة شحنه وتنشئته وفق التوجه المراد.

إن ترسيخ المفاهيم الثقافية الأولى في أذهان التلاميذ عن طريق العائلة أو المجتمع أو المدرسة يجعل لها أساساً متيناً في المراحل اللاحقة ويجعل مهمة اقتلاعها أو تغييرها صعبة طالما أن هناك تشجيعاً من قبل الدولة والمجتمع بعد أن أصبحت في ذهنه من التراث المقدس للآباء والأجداد المرموقين الذين تنظر إليهم الأجيال الجديدة باحترام باعتبارهم فئة حكيمة معصومة أبعد ما تكون عن الخطأ.

وربما يقيَّم التلاميذ الأكثر حماساً واستيعاباً للمتبنّيات الثقافية للدولة والمجتمع والتي يتلقنونها في مختلف المراحل الدراسية، على أنهم الأكثر كفاءة وقدرة على قيادة المجتمع وتوجيهه في المستقبل، ويتم وضعهم بعد اجتياز المراحل الدراسية في مراكز حساسة سواء في إدارة التعليم أو في المؤسسات الدينية أو اللجان التي تراقب سلوك المجتمع والتي تسمى لجان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو غيرها.

إن عشرات السنين التي تم فيها بنشاط ملحوظ بث الثقافة الوهّابية في مجتمع منغلق وأحادي التوجه جعلت منه حاضنة نشطة لكل أفكار التطرف التي تنزف بها هذه الثقافة وصورة مثالية لمجتمع فاضل كما صورته أدبياتها.

○ ○ ○

وإذ أن العلاقة بين المدرسة والمجتمع تبادلية ذات أبعاد وآليات متشابكة، فإن علينا الإلتفات إلى التباين ما بين ما ينبغي أن تكون عليه العملية التربوية وبين الواقع الفعلي الذي تفرزه معطيات التحرك الوهّابي. إن هناك تحركاً

دؤوباً لردم الهوّة بين معطيات العملية التربوية القائمة في المدارس وإفرازات المؤسسة الدينية المهيمنة على المجتمع وإيجاد نوع من التماهي والتطابق بين ثقافة المدرسة والمؤسسة الدينية.

ويمكن القول إن المدرسة في كل مراحلها حتى الجامعية منها، توظف لتحقيق أهداف المجتمع المراد (ترهيبه) والمؤسسة الوهّابية القائمة لجعله مجتمعاً متجانساً على هذا الأساس.

○ ○ ○

استغلال «الكتاتيب» لنشر العنف

إننا نجد سباقاً محموماً بين المدارس ومؤسسات المجتمع المرتبطة بشكل أو بآخر بالدولة أو بالمؤسسة الدينية المتغلغلة في كل مفاصل المجتمع والمسيطرة عليه للإمساك بزمام التثقيف على أساس فكر الشيخ الوهّابي.

لقد امتد تأثير الفكر السلفي (**حسب فهم هذا الشيخ**) إلى دول الجوار في الخليج وبعض دول المغرب العربي ومصر وسوريا والأردن وفلسطين واليمن (**والعراق مؤخراً**) وإلى أقطار أخرى مثل أفغانستان وباكستان والصومال وأندونيسيا وحتى في بعض مناطق أوربا واميركا الشمالية وغيرها بفعل الحملات التبشيرية والإعلام القوي للمؤسسة السلفية الوهّابية ومجاميع المتطوعين من الدعاة والخطباء والكتّاب وكذلك الجمعيات الخيرية الرديفة للمؤسسات الدينية المسيّسة والمسيّرة من قبل الدولة الوهّابية والدول التي تقترب منها في التوجه.

وقد وظفت التبرعات للمحتاجين والأيتام والجياع وغيرهم لتأسيس مراكز (وهابية) لنشر أفكارها وأدبياتها المتقاطعة مع كل ثقافات العالم، حتى الإسلامية منها.

ويمكن القول أنّ تجربة استساخ تجربة الكتاتيب[1] كما عرفها المسلمون في المراحل الأولى والتي سادت في عهود عديدة لم تكن مستلزمات الدراسة النظامية فيها متوفرة، قد اتسعت وأقيمت آلاف منها في بعض المناطق الفقيرة في أفغانستان وباكستان لقلة كلفتها وبساطة آليات إنشائها في تلك المجتمعات الفقيرة.

لقد استُغلت هذه الكتاتيب لا لغرض تعليم القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن وحسب، وإنما لبث الأفكار والتعاليم الوهّابية في صفوف الأطفال واليافعين، مرفقة بصحن شوربة ورغيف خبز وبعض المساعدات البسيطة لضمان التحاقهم بها وتبنّي هذه الأفكار والتعاليم [2].

○ ○ ○

(١) الكتاتيب: جمع كتّاب. وهي صفوف أولية يديرها معلم واحد وفق مزاجه ومحدودياته. وقد لا يملك أية مؤهلات تربوية أو تعليمية. وتنحصر مهمتها الآن بتحفيظ القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية. وتحاول الجمعيات والمؤسسات الوهّابية تسريب أفكارها إلى هذه المدارس البدائية بحجة الحفاظ على القرآن والقيم الإسلامية وتعين أشخاص متشددين لإدارتها والتدريس فيها واستغلالها لنشر مفاهيم التطرف بذرائع إسلامية ملفّقة.

(٢) ونأخذ على سبيل المثال (**جمعية إحياء التراث الإسلامي**) في الكويت، كما ورد في دليل المشاريع الإسلامية، الإصدار التاسع ٢٠٠٦م. حيث قامت هذه الجمعية إضافة لما قامت به من مشاريع أخرى بنشر كلّ كتب الشيخ محمد بن عبد الوهّاب وشروحه: (فتح المجيد في كتاب التوحيد)، (كتاب التوحيد)، (مختصر سيرة الرسول)، (متن الأصول الثلاثة)، (متن كشف الشبهات)، (متن كتاب التوحيد)، (شرح كشف الشبهات) وغيرها.
كما وزعت ما يقارب من خمسة ملايين كتيب تقول الجمعية عنها (انها تهدف لتبني إرسال المكتبات إلى انحاء العالم الإسلامي، والتي تحتوي على مجموعة طيبة متكاملة من الكتب والمراجع والإسلامية النقية! في كلّ مجالات العلوم الشرعية كالتوحيد والتفسير والحديث والسيرة والتراجم..).
وقد تم إرسال أكثر من خمسة آلاف مكتبة إلى مختلف دول العالم، وتتراوح قيمة المكتبة من (٣٠٠) إلى (٢٥٠٠) دينار كويتي أي (١١٠٠) إلى (٩٥٠٠) دولاراً والمساهمة في هذا المشروع مفتوحة دون تحديد. =

تلقين المفاهيم وزرع الأفكار

إن الدور الواقعي الذي يمارسه التلاميذ يظهر من خلال ما يكتسبونه من ثقافة وقيم في عملية التنشئة الإجتماعية المستمرة والتي تبدو فعالة في المراحل

= كما تم تجهيز مكتبات صوتية تضم الواحدة منها العديد من المحاضرات في العلوم الشرعية المختلفة (العقيدة - الفقه - السيرة. . إلخ) ويتم إرسالها للمراكز الإسلامية والمساجد والمدارس، حيث أثبت الشريط المسموع فعاليته كوسيلة لتبليغ الدعوة!.

إن استغلال الفقر والجهل في العالم والنفاذ من خلال وجبات الأكل البسيطة، يتيح ارسال ونشر الملايين من هذه الكتب والاشرطة الصوتية وضخها بهذه الاعداد الهائلة للاماكن الفقيرة والمحرومة والجاهلة في العالم.

إن عشرات الجمعيات مثل جمعية احياء التراث تقوم بنشاطات مماثلة تفوق ما تقوم به هذه الجمعية والذي تحدثت عنه في أحد بياناتها الذي تحث فيه الناس على التبرع والتطوع للعمل في مشاريعها (الخيرية).

ومعلوم أنّ لهذه الجمعية مشروع وقفي كبير ومشاريع (خيرية) مثل بناء مدارس ومعاهد وحفر آبار مياه ومزارع ومراكز تدريب حرفي وتفريغ (دعاة) وطباعة كتب ومكتبات إسلامية شاملة، وسيارات لتنقل الدعاة وانشاء مدارس ومعاهد وجامعات إسلامية (حيث تم تنفيذ أكثر من ٦٢٦ مشروعاً ما بين معهد إسلامي ومدرسة موزعة في القارة الأفريقية. وتشير إحصائيات باعداد اللجان العاملة أن هناك ٢٢٧ منها في القارة الأفريقية، ٢١٤ في جنوب شرقي آسيا، ١٥٠ في القارة الهندية، ٢٥ في العالم العربي، ٣ في آسيا الوسطى، ٧ في أوربا والأمريكيتين، وهناك مشاريع للصدقة والخدمات وتفريغ الدعاة. . إلخ.

ولم يلتفت المعنيون بمواجهة قضايا الإرهاب إلى طبيعة نشاطات هذه الجمعية إلا مؤخراً، فأدرجوها ضمن المنظمات الداعمة للإرهاب. ورغم ذلك فإن هذه الجمعية التي تفوق إمكاناتها إمكانات دولة نامية، لا تزال تعمل في الكويت وأفغانستان وباكستان وأندونيسيا وبعض الدول الأفريقية وغيرها بحرية وكفاءة وبكامل طاقتها تحت ذرائع جمع الأموال والزكاة للأيتام والفقراء وما إلى ذلك. وتنتشر فروعها في كافة أحياء الكويت بمسمّيات جديدة.

إنّ هناك قرابة ٣٩٠٠٠ مدرسة دينية في باكستان وأفغانستان تبرعت بإنشائها الجمعيات والهيئات الخيرية والحكومية في السعودية ودول الخليج العربي، تدرس الفكر الوهّابي وتدعو لفهم القرآن حسب فهمها وقراءاتها.

العمرية الأخرى. وتساهم المدرسة كتنظيم إجتماعي متطور في بلورة الثقافة والقيم الإجتماعية والدينية. وإذا ما كان هناك توجهاً أحادياً في مجتمعات منغلقة ذات جغرافيا مذهبية واحدة، فإن المؤسسة الدينية الفاعلة والنشطة الأقرب للتوجه القبلي، تهيمن عادة على مثل هذه المجتمعات وتفرض ثقافتها وضوابطها وقيمها ومعاييرها.

وتبدو هذه المؤسسة فخورة عادة بما تحققه من إنجازات على الصعيد الإجتماعي سواء داخل المدرسة أو خارجها، خصوصاً وأنها تجد نفسها في الظاهر مهيمنة على المظاهر السلوكية العامة وتلمس تجاوباً ظاهرياً من المجتمع سواء بدافع الخضوع للدولة التي تريد كبح كل مظهر (لا تراه مشروعاً) أو بدافع الإقناع.

إن نجاحها الظاهري في مهمتها المتشعبة يقودها إلى المزيد من الحماس وتصعيد وتائر العمل بإتجاه تحقيق مشروعها الذي يبدو أنه لايقف عند حد.

ويؤدي ضخ المفاهيم والمعايير الوهّابية في أذهان التلاميذ داخل المدرسة أو خارجها بأسلوب تلقيني نسقي وبأداء متواصل وإصرار على التكرار والإعادة إلى اكتسابهم شبه المؤكد للقيم والمفاهيم والأفكارالوهّابية والى تشكّل نمط العلاقات الشخصية والإجتماعية العامة وفق هذه القيم.

وإذا ما لاحظنا وجود ممارسات وفعاليات يشترك فيها المدرسون والطلاب سوية مثل إقامة المعسكرات الترفيهية والتثقيفيّة وعقد الندوات وإلقاء المحاضرات والحث على اعتماد كتيبات ابن عبد الوهّاب وأقطاب مدرسته أساساً فكرياً وعقائدياً، أدركنا أن عملية الهيمنة من قبل المدرسين والموجهين الدينيّين على تلاميذهم تكاد تكون شبه تامة بعد تأسيس علاقة صداقة وتقارب بينهم خصوصاً إذا كان هؤلاء المدرسون يتمتعون بكارزما إجتماعية مؤثرة وقدرة على التوجيه والإقناع.

○ ○ ○

المدرسون والطلبة: رؤية متجانسة

إن التقارب والإنسجام بين الطلاب الكبار والمدرسين في المراحل المدرسية المتقدمة يتيح للطلاب إبراز أنفسهم قادة وقدوة لزملائهم الأصغر سناً ويؤسس لنسق ثقافي وأخلاقي متماثل خصوصاً إذا ما أقاموا علاقاتهم على رابطة دينية أخوية متضامنة.

إن هاجس المؤسسات الوهّابية اليوم منع تسرب التوجهات الاخلاقية أو الثقافية العامة أو التيارات السياسية إلى المجتمع الذي تحاول خنقه بالثوابت الوهّابية المتزمته والمبنية على نفاق غير مكشوف لكتم حقيقتها وأساسها الهش.

وإذ أن التلميذ حلقة وصل بين المدرسة والبيت وأنه مادة إجتماعية لها حضور متميز سواء داخل محيط البيت والحياة الأسرية أو داخل الدائرة الإجتماعية الواسعة، فإن تأثيره الإجتماعي يتزايد بتزايد ما يتلقاه من دعم وتشجيع ومساندة اساتذته ومربيه ووالديه.

وفي ظل مؤسسة متسلطة ذات إمكانات هائلة ونفوذ كبير على الجميع، تمارس عملية ضبط إجتماعي مفتعلة ذات توجه ديني ظاهري ويستتبع ذلك إيقاع صارم ووسائل متشنجة لإخضاع الجميع وجعلهم يتماشون معه حتى ولو لم يكن أغلبيتهم مقتنعة به. إن ذلك لا يتم بدافع الحرص على الدين أو حمايته من التيارات الوافدة وإنما لحماية النظام الإجتماعي السائد والذي يراد له أن يستقر على هذه الحال وكحصانة للمألوف ضد المتغير المجهول الذي قد يشكل تهديداً حقيقياً.

إن أجواء التفاهم والود التي أريد لها أن تسود بين المدرسين والطلاب على أساس الإنتماء المذهبي الواحد تتيح تحقيق نوع من الإنضباط القائم على

الإلتزام بأساسيات المذهب ومظاهره. غير أن ذلك قد يمهد لحصول تكتلات وتجمّعات تتماهى مع هذه الأساسيات غير أنها قد تنشط بإتجاه حركي تنظيمي لا يتماشى مع المألوف السائد كما حدث منذ ثمانينات الزمن الماضي وتداعيات الأحداث في تلك الفترة التي انتجت فيما بعد تنظيم (القاعدة) وغيره.

ولم تكن المؤسسة الحاكمة ورديفتها الدينية تتصوران أنّ تطور الأحداث سينتهي إلى إفراز تنظيمات تشكك بشرعيتها وصلاحيتها (لقيادة أمور المسلمين) بل اعتقدتا أنهما ستظلان ممسكتين بزمام المبادرة في جميع الأوقات ومسيطرتين على الجماعات المتحمسة التي بدأت تنتبه وتنقب عن حقيقتهما.

إن فقدان أو ضعف الرقابة على هذه المدارس وخضوعها لإدارات ومدرسين متحمسين للمشروع الوهّابي الأول يجعل منها بؤراً قابلة للإنفجار وحاضنات لإنتاج الفكر المتطرف.

وإذ أننا نتحدث هنا عن مدرسة في دولة لم تقم على أدبيات أو توجهات ثقافية عامة وإنما على نسق ثقافي ديني ومذهبي أحادي النظرة يريد فرض رؤيته وهيمنته على كل المفاصل الثقافية والإجتماعية فإننا نتوقع ان تكون هذه المدرسة الأداة الضاربة لبسط هذه الرؤية وإجبار الجميع على تبنّيها واعتبار كل معارض لها عدواً ينبغي القضاء عليه ومحاربته.

○ ○ ○

لعل الامر يبدو أكثر سوءً في المدارس الأولية (الكتاتيب) التي تدار بأبسط الأساليب البدائية. فلا توجد خطط أو مناهج محددة والعمل فيها مرهون بثقافة وكفاءة المعلم الوحيد أو العدد القليل من المعلمين ذوي الخبرات والإمكانات البسيطة. وإذا كانت الجهات المانحة لهؤلاء كأجور

ورواتب وهبات تتبنى الثقافة الوهّابية ومنهجها في التعليم والتوجيه، أدركنا أن هؤلاء لا بد أن يستجيبوا لما تفرضه هذه الجهات، بل ويندفعوا إلى ذلك بحماس لاكتساب رضا هذه الجهات والحصول على المزيد من المكاسب.

❍ ❍ ❍

الكتاتيب: أداة للشحن الطائفي والتشدد

ولا يقتصر نشاط الأعداد الهائلة من الكتاتيب المنتشرة في أجزاء واسعة من **(أفغانستان)** و**(باكستان)** على وجه الخصوص وغيرها على تحفيظ القرآن وتعليم الأبجدية وحسب - وهو الهدف المعلن - وإنما يسير بإتجاه شحن طائفي وديني يدعي العصمة للمذهب المتبنى والمتخذ كواجهة للوهابية وأنه الوحيد الذي يمتلك حقيقة التوحيد. وهكذا فإن الترويج للمذهب الوهّابي أصبحت المهمة الرئيسية لأغلب هذه الكتاتيب والمدارس المماثلة لها. وإذ رأينا إمكانات جمعية واحدة **(وهي جمعية التراث الإسلامي)** وحرصها بهذا الإتجاه ومثابرتها في التعبئة للمذهب الوهّابي، فلنا أن نتصور حجم الجهود المبذولة من قبل المجموعة الثرّيه من دول البترول وعشرات الجمعيات والمؤسسات الأخرى وحجم إنجازها في هذا المجال.

❍ ❍ ❍

لسنا هنا بصدد التحريض على منع الأساليب البدائية **(المتاحة)**، إذ أنها الطريقة الوحيدة لتعليم الأبجدية ومباديء القراءة في بعض الأماكن. لكننا نشير إلى أن أغلب القائمين على هذا النمط سيعمدون إلى استغلال الأطفال اليافعين لشحنهم بالأفكار والقيم التي يتبنّونها وسيمهدون منذ المراحل المبكرة من حياة هؤلاء لنشر ثقافة القطيعة والخصومة والعداوة. لذلك فإن هذه المدارس - بدون مراقبة فاعلة - ستكون وسيلة كبرى لإعداد أجيال متفاعلة مع هذه

القيم إلى أقصى حد. فما يقدم في بداية حياة الطفل يظل ذا أثر فاعل على أفكاره وتوجهاته طيلة حياته.

وإذا ما أضيف إلى ذلك وجود هؤلاء في بيئات إجتماعية متجانسة ذات عادات ومواقف وتقاليد وسلوكيات تتقبل هذه القيم أدركنا أن ثقافة الطفل منذ بدايتها لا بد أن تكون قابلة للإنصهار في بودقة النسيج الإجتماعي الكامل الذي يحمل هذه القيم والسلوكيات، إذ لا يمكن إهمال مسألة التفاعل الإجتماعي سواء داخل المدرسة أو خارجها.

إن المدرسة الأولية (**الأفغانية**) و(**الباكستانية**) وغيرها. أريد لها أن تستعيد التجربة الوهّابية لنشر ثقافتها بنفس الآليات ونفس الطريقة[1] مع أن أهدافها

---

(١) لقد أدرك (**محمد بن عبد الوهّاب**) منذ البداية أن تلقين تعاليمه الواردة في منشوره (التوحيد) لا يمكن أن يتم إلا وفق حملة عامة تهيأ لها أمكنة عمومية كالمساجد. وأراد أن يعطيها طابعاً تراثياً خاصاً لتشبه مسجد الرسول ﷺ. فقد أمر عبد العزيز محمد بن سعود بقوله: (**ابنوا لنا مسجداً كبيراً ليحضر جميع رجال القرية فيه عند كل صلاة، فإن الدين لا يسع غير هذا. فأمر محمد بن سعود ببنائه وهمّ كل أهل الوادي بالبناء حتى تم. فقال: ينبغي أن لا يفرش في هذا المسجد إلّا الحصّيات لأنّ مسجد الرسول كان كذلك. فأخذ يأمر الناس بالذهاب إلى المسجد لأجل الصلاة فيه جماعة. وكان يقول ابتداء: كل من لا يحضر الجماعة مع قدرته عليها عزّرناه...**).

وعندما جعل حضور الصلاة جماعة في المسجد إلزامياً، جعل حضور درسه بعد الصلاة إلزامياً كذلك.. (**ثم أنه وضع كتاب (التوحيد) في المسجد صباحاً ومساءً كل يوم. وكان يأمر النساء والصبيان بحضور الدرس ليستمعوا قواعد التوحيد منه**) فقد كان يعد لشبه حملة شاملة لتلقين تعاليمه والزام الناس، حتى النساء والصبيان بالحضور بحجة ضرورة أداء الصلاة جماعة. وقد عاقب أحد (**أهل الوادي ما كان يحضر الدرس فأمر محمد بن عبد الوهّاب بإحضاره، فقال له: لم لا تحضر الجماعة للدرس؟ فأخذ الرجل يتعذر فقال محمد بن عبد الوهّاب: لا بد لقبول توبتك من أن تحلق لحيتك أو تغرم مائة ذهب. وكان الرجل متوسط الحال، فرضي بأداء المال لأن حلق اللحية أقبح مايكون شرعاً وعرفاً عربياً**). مجهول، المؤلف: «لَمْعُ الشّهاب في سيرة محمد بن عبدالوهّاب»، تحقيق د. محمد مصطفى أبو حاكمة. ص ٢٢. (ط دار الثقافة، بيروت). وهكذا نجد أن =

العامة تبدو بريئة من ذلك وتعلن أنها لاتريد تعليم سوى مبادىء القراءة والكتابة. فهي تتحصن خلف هذه الأهداف كلما توجهت الأنظار إلى حصيلة نشاطها، مدعية أنها لاتنشد أهدافاً غيرها، وأنها تحارب العنف والتشدد.

إنها تستمد حصانتها من بيئة تتعاطف مع أهدافها المعلنة وغير المعلنة، تلك التي تمهد لسيادة الغلو والتطرف في نفوس اليافعين لتنشأ متسلحة بها وبالنظرة الأحادية الإقصائية المتعصبة التي لا تريد الإستماع للآخر أو الإطلاع على ما لديه.

ولعل تعاطفاً خاصاً ورابطة إجتماعية شبه سرّية ومقدسة ستنشأ بين تلاميذ الصف الواحد قائمة على أساس تبنّي تلك النظرة. بل لعل سباقاً محموماً يقوم بين أفرادها لإقامة تنظيمات حركية حزبية لتجسيد معطيات كل تلك الجهود. وربما سيكون بعض أولئك التلاميذ مشاريع لعمليات إرهابية في المستقبل تعتمد على الجرعة العقائدية المقدمة لهم والتي تبرر لهم ذلك وتجعل قناعتهم بها محسومه ونهائية.

○ ○ ○

المعلم: البوابّة إلى العالم

إن من البديهيات المعروفة في علمي التربية والإجتماع أن الشريحة الإجتماعية الأكثر قابلية للتشكّل والتطويع هي الشريحة التي تضم أصغر الأطفال عمراً والأقل خبرة. فغالباً ما يقع هؤلاء تحت تأثير وسلطان معلميهم باعتبارهم الذين يملكون الخزين الكبير من المعرفة الذي سيتزود به هؤلاء.

ويعلم هؤلاء (المربّون) أنّ من أودع بأيديهم من الصغار هم بمثابة (رعيّة)

= حضور الناس للمسجد جميعاً كان أسهل وسيلة لتلقينهم مبادىء التعاليم الوهّابية، وهو ما نزال نراه سائداً حتى اليوم.

مستسلمة سهلة القياد، أمروا من قبل أهليهم أن يطيعوا معلميهم و(رعاتهم) ويكونوا لهم عبيداً وإن جلدوهم أو ضربوهم أو عاملوهم بمنتهى القسوة... فهذا كله سيكون لمصلحتهم، وأن مستقبلهم سيتوقف على هؤلاء المربّين.

إنّ العلاقة بين هؤلاء جميعاً ستتخذ طابعاً تنظيمياً متفقاً عليه مع أنه غير معلن، تسوده أجواء غامضة لعلاقات **(أخوية)** قائمة على مبادىء حزب سري أو مذهب خاص. وفي أمثال هذه المدارس غالباً ما يكون المعلم هو النجم المتألق إجتماعياً خصوصاً وهو يحضى بدعم إجتماعي ورعاية خاصة من قبل المؤسسة الدينية المتنفذة التي بيدها مفاتيح الثقافة السائدة، باعتباره المؤتمن على هذه الثقافة. إنه سيحرص على بذل أقصى الجهود لتحقيق النجاح لكي يظل دائماً موضع رضا الجميع وهذه المؤسسة، ولكي يحتل مركزاً إجتماعياً مرموقاً في المستقبل.

ونجد أنّ أعداداً هائلة من أشباه الجهلة والأميين وعديمي الثقافة، تستنفر للعمل في هذه الكتاتيب والإشراف عليها وذلك لرغبة الداعمين والمانحين من دول الخليج النفطية و**(الجمعيات الخيرية)** والشخصيات المتأثرة والحاملة للفكر الوهّابي على أن تكون هذه المدارس المنطلق الأول لبث هذا الفكر ونشر إيقاعه المتشنج وأساليبه التحريضية المكفرة لعموم المجتمعات البشرية المسلمة وغيرها.

○ ○ ○

مدارس عامة أم معاهد دينية

وتعتمد أساليب تلقينية نسقية لتعليم الأطفال الصغار تتمثل بأدائهم العام وطريقة جلوسهم وحركات رؤوسهم - إلى الإمام والى الخلف - وانحناءات أجسادهم وهم يرددون ترديداً ببغائياً خلف معلميهم المقاطع والأصوات

والجمل عدة مرات لترسيخها وطبعها في الذاكرة البيضاء الغضة التي غالباً ما تكون قادرة على استيعاب ما يزّج فيها بسهولة.

ويبدو نجاح المعلمين ظاهرياً وملموساً، وهم يضخّون في الأدمغة الصغيرة كماً كبيراً من آيات القرآن الكريم و(الأحاديث النبوية). غير أن التفسير يأتي مغايراً للمعاني الحقيقية المقصودة في القرآن ومتجانساً مع التفسيرات الفوضوية السابقة (للسلف من الخوارج) وأمثالهم.

وبذلك فإن تضليلاً مقصوداً يمارس في هذه المدارس من خلال حرف التفسير والقيام به حسب الطريقة الوهّابية الإنتقائية وخصوصاً فيما يخص شرح آيات التوحيد الذي يناقض كل قراءات المدارس والمذاهب الإسلامية. فمن شأن النظرة الناقصة للتوحيد إذا ما ترسخت في الأذهان الغضة منذ وقت مبكر أن تؤصّل لثقافة التكفير والحكم على كل المجتمعات الأخرى بالإعدام. . وكانت هي السبب في تجنيد العديد من الشباب كإنتحاريين وأعضاء في خلايا قتالية تستهدف تدمير كل شيء.

لقد اعترف أحد هؤلاء الذين جندوا في أواسط الثمانينات من القرن الماضي للقتال في أفغانستان، في لقاء أجرته معه قناة العربية الفضائية في ٠٢/ ٠٣/ ٢٠١٠م أن الجهات الداعمة والمؤيدة للقاعدة والمنظمات القتالية في أفغانستان كانت تعمل على تجنيد أطفال يانعين حتى في سن العاشرة وتحاول شحنهم بالأفكار المتطرفة وإعدادهم لتقبل القيام بأعمال إنتحارية. وهو الأمر الذي ما كان ليتم لولا محاولات إيجاد دوافع (أيديولوجية) قائمة على فهم خاص للدين تترسخ القناعة به في نفوس هؤلاء حتى ولو لم يكونوا قد حصلوا على حد أدنى من التعليم الابتدائي أو الديني الأولي الذي يتيح لهم قراءة الإسلام قراءة صحيحة.

فـ (الجهاد) قد فُهِمَ على أنه وجوب قتل الآخرين بذرائع مفتعلة قائمة على

ما أفرزه التراث الوهّابي المولع بالدم والقتل وثقافة الغزو كما اثبت ذلك تأريخهم طوال دولهم الثلاث منذ قرنين ونصف والذي تحدث عن سجالاتهم الدموية التي أوقعت عشرات الآلاف من الضحايا في شبه الجزيرة العربية وجاراتها.

ooo

تشويه التأريخ

ويعرض الوهّابيون تأريخهم القتالي الدموي حتى في المناهج الدراسية لأطفال المدارس على أنه تأريخ تحقيق الأمجاد و(**الفتوحات الإسلامية**) وأنّه العلامة الأكثر توهجاً وعطاء في تأريخ المسلمين، ويعرضون حركتهم على أنها إصلاحية طالما انتظرها المسلمون بفارغ الصبر، وأنها أعادت للإسلام نقاءه بعد كل عهود الشرك، (**ويقصدون بها كل العهود الإسلامية السابقة**) التي ادعوا أن المسلمين أشركوا فيها لأنهم شيدوا القباب والمساجد قرب قبر الرسول وقبور الصالحين والأولياء)[1].

---

(١) ونجد تمجيداً مبالغاً فيه للحركة الوهّابية في المناهج المدرسية تعرض فيه بشكل دراماتيكي مسرحي كحامية للشريعة الإسلامية وداعية للجهاد في سبيل الله، علماً أن جميع سكان شبه الجزيرة العربية هم من المسلمين. ولا ندري كيف يكون الجهاد ضد هؤلاء وكلهم موحدون، اللهم إلا في الأدبيات الوهّابية التي تعتبر كل من لا ينتمي إلى (التوحيد الوهّابي) مشركاً. وهكذا ترسخ هذه المفاهيم لدى تلاميذ المدارس منذ نعومة أظفارهم.
ونذكر على سبيل المثال ما ورد في كتاب (تأريخ المملكة العربية السعودية. منهج المرحلة المتوسطة، الصف الثالث ص٦٥) وعندما بايع الأميرعلى دين الله ورسوله، والجهاد في سبيل الله، وإقامة شرائع الإسلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، طلب الأمير من الشيخ ألا يرتحل عنهم. ولا يزال هذا العهد قائماً بين البيتين - بيت آل سعود وبيت آل الشيخ - إلى يومنا هذا وهكذا تم الإتفاق بينهما على الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة التوحيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا إتفاق شرعي معقول، كان الأساس =

وإذ ان الأبناء في ظل هيمنة إعلامية وإجتماعية طاغية يتأثرون عادة بالآباء و(**الآباء الروحانيين**) من المدرسين والمرشدين الدينيين، وإذ أن هناك تماهياً في العقيدة بين أغلب قطاعات مجتمع شبه الجزيرة وخصوصاً مناطق نجد (**المتوهِّبة**) منذ البداية - عدا بعض المناطق المنتمية لمذاهب إسلامية أخرى، فأننا نجد شبه إجماع على تمجيد المذهب الذي أصبح رسمياً له سطوته في حدود جغرافيته التي أفرزتها الحنبلية السلفية وجذَّرتها أفكار وتعليمات ابن تيميّة ثم ابن عبد الوهّاب الذي أصبح نجم القرون الثلاثة الأخيرة المتألق وأريد له أن يحوز إعجاباً متصاعداً في نفوس الجميع، وخصوصاً الأبناء الذين ورثوا ذلك عن الآباء. ولم يعد من السهل إقناع أيّ منهم أنهم ليسوا على حق في إعجابهم بالشيخ ومسيرته ونمط تفكيره، وستبدو هذه المهمة ثقيلة بل وشبه مستحيلة تجاه شرائح عديدة منهم.

○ ○ ○

المواجهة الايديولوجية أولاً

ما لم يتعرف الجميع على حقيقة الوهّابية وما لم تتخل الدولة الحامية نفسها عن كل ثوابتها بشأنها وما لم تشن حملة إعلامية واسعة في سياق الحرب العالمية على الفكر المتطرف وتبنّي معركة أيديولوجية لمواجهة هذا الفكر، فإن المواجهة ستكون كالعمل في الظلام.

= الذي رفعت عليه قواعد الدولة السعودية، وكان فاتحة هذا التطور العظيم في الجزيرة العربية. . .».

ونترك للقاريء التعليق على مايشهده من تطور مظهري بفضل أموال البترول. إذ لولا ذلك لظلت جماعات البدو في نجد تتصارع فيما بينها ولا شأن لأحد بها لعدم أهميتها. ولشهدت الجزيرة قيادات أخرى قد تفكر بإصلاحات شاملة أو جزئية ولعلها تواصلت مع العالم على الأقل.

ومعلوم أن هذه المواجهة لن يقدر عليها أو ينجح فيها إلا المسلمون أنفسهم، لأنهم أعرف بمفردات دينهم وثقافتهم، ولأنهم اكتووا قبل غيرهم بنار هذه الحركة الطارئة التي لا تنتمي للإسلام، ويدركون هشاشة أفكارها وأسباب لجوئها إلى العنف ونبذ الحوار، هرباً من المآزق التي قد يوقعهم فيها تحاورهم مع الآخرين.

ومن المفروض أن يأخذ المسلمون دورهم كاملاً في هذه المواجهة ولا يترك لهذه الحركة التمادي في نشاطاتها العنفية التي يدفع المسلمون ثمنها في نهاية المطاف. إذ لو قام غير المسلمين لوحدهم بذلك فانهم سيتخبطون أولاً بسبب ثقافتهم ورؤيتهم ولأن الإرهابيين المنضوين ظاهرياً تحت مظلة العمل الإسلامي سيعمدون إلى تصوير كل عمل ضدّهم وكأنها حرب دينية تشن ضد الإسلام، وسيحاولون استقطاب مجاميع قتالية جديدة وخلق خلايا إرهابية في مختلف أنحاء العالم، وبذلك فإن أزمات عديدة لا بد أن تنجم جراء ذلك.

○ ○ ○

المدرسة: مؤسسة تنظيمية، بيئة مناسبة لعمل حركي منظّم

ولأنّ المدرسة مؤسسة تنظيمية ذات أنساق خاصة في العمل، ولأنّ التعليم فيها يرتبط بمفهوم الثقافة الأوسع والأشمل الذي تشكله منظومة القيم والعادات والتقاليد والدين والأخلاق - كما أسلفنا - فإن بروز التأثير الإجتماعي الخارجي في أداء معلميها وطلبتها يتخذ جانباً تنظيمياً محبباً ومقبولاً يستمد طاقته وقوته في الدولة الوهّابية ونظيرتها، من الرابطة الأقوى وهي الولاء للوهابية ورمزها الأول (الشيخ محمد بن عبد الوهّاب).

لقد أصبح هذا الولاء غير منصبّ على أنماط التحركات المظهرية الخارجية، أو على أنساق العلاقات العامة المألوفة وحسب، وإنما جعلته

الرابطة الوهّابية نوعاً من أخوية سرية خاصة وقعت في فخاخ وشباك أولئك الذين يحملون أجندات ومشاريع مدمرة والذين يسارعون إلى استغلال النزعة الدينية لتنفيذ مشاريعهم، كما حدث اثناء تأسيس الدولة السعودية الأولى (والذي تحدثنا عنها بالتفصيل) والثانية وأثناء إقامة الدولة الثالثة منذ بداية حكم عبد العزيز بن عبد الرحمن بن سعود في مطلع القرن الماضي، والذي جعل (الإخوان) رابطة حركية قتالية أدارها بشكل مباشر وغير مباشر من ورآء الكواليس وأعطاها دعماً غير محدود عندما اتخذها مطية لتنفيذ مشروعاته التوسعية، ثم قضى عليها عندما وجد أنها بدأت تتجاوز الأدوار الموكلة إليها وتحاول فرض رؤيتها الخاصة.

لا يمكن أن تكون هناك بيئة مناسبة لعمل حركي أو حزبي منظم كالمدرسة في الشرق والعالم الثالث، فالغرب بلور آليات ديمقراطيّاته، وأبناؤه يعملون في النور، أما هناك فإن في ظل التغيرات والانقلابات والأنظمة القمعية والتعسفية، توجد بيئة خصبة لنشوء الأحزاب والتنظيمات السرّية.

فأين يجد (السياسيون) بيئات مثل هذه تعج بذوي الخبرة القليلة والعلم الأقل والحماس الأكثر إن لم يجدوها في المدارس. إن من يكتسب القليل من العلوم أو المعارف الأولية يجد أنه قد بلغ درجة عليا وأن لا أحد يدانيه في علمه. وربما اعتقد أنه يكتشف حقيقة العالم من جديد ويصل إلى مالم يصل إليه سواه.

البراءة والإندفاع والإقتناع السريع بالعروض المغرية والجذابة يجعله جندياً ممتازاً في تنظيم يعزف على وتر تطلعاته وتوجهاته الدينية التي هي في بداية تشكّلها ويضع أمامه أهدافاً تبدو في ظاهرها براقة جميلة وذات أهداف سامية.

إن إيجاد مجاميع مقتنعة بتوجه سياسي يجعل من الدين وسيلة لتحقيق

أهدافه ومن مذهب أحادي تروّج له الدولة إضافة لمؤسسات دينية محنكة وذات خبرة في التوجيه والتبليغ، يسهل عملية تجنيد أفراد عديدين يذهبون إلى حد الموت والإنتحار إذا ما اقتضى الأمر لتنفيذ أوامر القادة والمفتين في الحركات الإسلامية المتشدّدة. فإسقاطات الفكر الأحادي الشمولي تسير عادة تجاه إيجاد قناعات مطلقة بمصداقيته وقدرته على تحقيق الحياة المثالية كما يراها وتحقيق السعادة للبشرية! كما أنّ استثمار الدين بأساليب تعبوية متقدمة وذات إيقاع مؤثر وفعال في مجتمع يتبنّى قناعات المؤسسة الدينية، يجعل مهمة تجنيد الأعضاء الحزبيين سهلة ومقبولة بل وممتعة وأقرب إلى الممارسة الإحتفالية.

وقد شهد العالم استنفاراً غير مسبوق في أوساط المؤسسة الدينية السعودية وبدعم معلن من الدولة لخلق أجواء حماسية سهلت تجنيد آلاف المتطوعين للقتال في أفغانستان في أواسط الثمانينات من القرن الماضي، ثم شهد بعد ٢٠٠٣م استنفاراً مماثلاً لتجنيد إنتحاريين يتبنون نفس الإتجاه السلفي الوهّابي وفكر القاعدة الناتج عنه، للقتال في العراق بذريعة إخراج المحتل الأميركي منه. ولعل هذه المؤسسة أرادت ضرب عصفورين بحجر واحد، الأول هو ما أعلنته من ضرورة جهاد **(الكافر المحتل)** والثاني هو ضرب **(المشرك الشيعي)** الذي قَبِل الإحتلال ومهّد له! مع أن المسبب الحقيقي لذلك هو المؤسسة البعثية المغامرة البائدة التي حكمت العراق بأسلوب قمعي لم يشهد له التأريخ مثيلاً.

وقد اتسع نشاط الجهات الداعمة للإرهابيين المجندين في العراق في إتجاهين رئيسين:

الأول: فتح محطات جديدة للتعبئة الفكرية والعسكرية في المساجد والمدارس والأماكن الخاصة والعامة في أقطار أخرى مثل سوريا والأردن ومصر والمغرب العربي واليمن وغيرها، أيّ خارج الحدود الجغرافية للحاضنة

الأم للفكر الوهّابي السلفي عن طريق خطباء ومبلغين وحركيّين حزبيين وسياسيين، وخلق أجواء حماسية تتيح التأثير في بعض الشرائح الأكثر قبولاً لهذا لفكر.

والثاني: التنسيق مع الداعمين الماليين والمتبرعين الذين يمولون هذه العمليات القتالية التي تكلف مبالغ طائلة وكذلك مع الجهات المستفيدة من نتائج هذه العمليات كالبعثيين المتضررين من التغيير في العراق وبعض الدول التي تريد تعطيل المشروع الاميركي حتى لا تطالها يد التغيير وتفرض عليها الديمقراطية فيما بعد.

والملاحظ أن أغلب المجنّدين الإنتحاريين - من جميع الأقطار - هم من صغار السن الأقل علماً وثقافة والأكثر حماساً. فالثعالب العجائز المحكنة لا توقع أنفسها في الفخاخ بسهولة وتترك للأقل خبرة أن يقع فيها ويكون فريسة لها.

ooo

بين الحصيلة المعرفية والأميّة الثقافية

لن تمنع حصيلة علمية أو معرفية متفوقة في مجال ما، لدى أيّ شخص من وقوعه في أمية ثقافية أو جمود عقلي مبني على معطيات متخلفة قد تكون متوارثه عن آباء لديهم رصيد كبير لديه. وقد يتساءل البعض عن سر التحاق بعض الطلبة في المراحل الدراسية المتقدمة والجامعية والذين يتعاملون مع بعض مصادر التقنيات المتطورة بالمجاميع الإنتحارية المسلحة واندفاعهم لتنفيذ مشاريع الإرهابيين الدموية.

والواقع إنه لا يمكن الربط دائماً بين التفوق في التحصيل الدراسي والنأي عن المجتمعات المشحونة بالعداوة أو المسلحة بالكراهية التي تجند

الإنتحاريين والخلايا النائمة أو الإقتراب منها. فهذه مسألة مرهونة بمدى استجابتهم العقائدية أو العاطفية والقناعات التي تكونت لديهم خلال فترة الشحن والمفاتحة والإعداد لإقناعهم بتقديم أنفسهم ضحايا طوعيين لعمليات الإبادة والتفجيرات التي سيقومون بها بالإشتراك مع المجاميع المسلحة.

ولا عجب إذا ما وجد أمثال هؤلاء الطلبة المتقدمين دراسياً في قوائم الإرهابيين. فهذا لايدل على صواب توجههم وقدرتهم على التمييز في كل المجالات كما في المجال الدراسي الذي تخصصوا فيه، بقدر ما يدل على ضعف نضجهم الإجتماعي أو العاطفي أو الفكري العام وعلى قراءتهم المغلوطة لبعض المفاهيم مثل مفهوم (**الجهاد**) وتأثرهم بالآلة الإعلامية الضخمة للمؤسسة الوهّابية ذات الإمكانات المادية الهائلة والتي تستخدم خبراء في التضليل والتمويه..

وقد نستطيع الجزم أنّ سلطان الأفكار والمفاهيم الوهّابية بنسختها الاستدمائية الأولى كما عرضها الشيخ المؤسس محمد بن عبد الوهّاب لا يزال مهيمناً على الملايين من أتباع هذا الخط القدامى والجدد وأنه يعيش عصراً مزدهراً وذهبياً آخر في أغلب بقاع العالم الإسلامي وغيره[١]. فلا أحد يعيق انتشاره الآن رغم الحرب العالمية الراهنة على الإرهاب التي لا تدار بجدارة

---

(١) مع ان الوهّابيين يصرّحون دائماً أنّ مذهبهم ليس خاصاً وانه يمثل توجه عموم أهل السنة والمذاهب الإسلامية الاربعة. إلا أن المعطيات التأريخية والواقعية تؤكد تقاطعه ورفضه لكل من لايؤمن بأفكار الشيخ وتكفيره لجميع المسلمين مع أن أتباعه يدَّعون وصايتهم ورعايتهم واحترامهم لهذه المذاهب في محاولة لاختراق صفوف أتباعها وكسب المزيد إلى جانبهم. ويبدو أنهم ينجحون إلى حد ما في هذه المحاولة ويجنّدون بعض المبهورين والمتوهبين الجدد لتنفيذ بعض العمليات القتالية والإنتحارية في مختلف بقاع العالم. ونتوقع أن ينجحوا في المستقبل أيضاً لاستقطاب مجاميع جديدة قد تطيح بأمن العالم واستقراره.

ومهنية. فالمؤسسات الداعمة للعنف مثل المؤسسات المالية والجمعيات والأحزاب والتنظيمات والأشخاص والدوائر الحكومية المتنفذة لاتزال تعمل بحرية وتمد يد العون للإرهابيين وتمول عملياتهم ونشاطاتهم وتتحايل بشتى الأساليب لإيصال المساعدات السخية لهم ولعوائلهم ولمنظماتهم وتسهل تحركاتهم القتالية. وقد تمكنت من إزالة العوائق والعقبات التي وضعت أمامهم ليكون العالم كله مكشوفاً لهم. ولا أحد يتكهن الآن بما يمكن أن تقوم به **(القاعدة: التنظيم والخلايا النائمة)** والجهات المتعاونة معها من توجيه ضربات ماحقة للأبرياء في أيّ بلد في العالم والاسلوب التي ستلجأ إليه. والمواجهة الآن مع عدو خفي متستر قد يكون أقرب إلينا مما ينبغي.

❍ ❍ ❍

نعم: لنقد التطرّف، لا: لاتّهام الإسلام

يبدو أن لا أحد بمقدوره الآن أن يقف بوجه انتشار أفكار الشيخ ابن عبد الوهّاب، ولا توجد برامج أو خطط لذلك. ويتم الأمر بمجمله بطريقة متخبطة تتمثل بمواجهات عنيفة مع المتطرفين أو الطلب من السعودية لتخفيف إيقاعها المعادي أو اتهام الإسلام كله بالعدوانية والتطرف ومحاولة نقد القرآن أو الطلب بحذف آيات منه **(وهذه هي الحماقة الكبرى، إذ كيف يستطيع مسلم يعتقد بالقرآن كتاباً منزّلاً من عند الله على نبيه محمد ثم يقدم على مثل ذلك؟)**، أو نقد القراءة المتطرفة والتفسير الكيفي له، أو بث دعوة الإسلام للتسامح والحوار في المناهج المدرسية والدينية. . أما كيف يتم ذلك! فيمكن القول أنه لاتوجد آليات محدّدة أو خطوة للأمام لإنجاز مثل هذا العمل.

فكل شيء لا يزال على حاله، والحركات المتطرفة تجد في أفكار الشيخ الوهّابي معيناً لاينضب وأساساً لتبرير كل فعالياتها القتالية التي تريد استئصال

العالم وتدميره. ويبدو في ظل هذه المواجهة الفاترة وغير الجدّية معها أن لا أمل يلوح في الأفق لتخفيف وطأتها أو تداعيات أعمالها العنيفة.

❍ ❍ ❍

المدرسة والثقافة الأحادية: إكمال لدور المؤسسة الدينيّة

إن أحد أهم أهداف المدرسة (**أحادية التوجه الثقافي أو الإجتماعي أو الديني**)، إضافة للتركيز على زيادة المعرفة العامة أو تعميق الفهم العقلي للتلاميذ، نشر الأفكار المتبنّاة من قبل الدولة.

وطبيعي أن يكون الدين (**ونحن نتحدث عن دولة ترفع شعارات دينية**) هو المنفذ الأول لتعريف هذه الأفكار وبثها بين التلاميذ لتحديد نوع السلوك المرغوب. فالثقافة المدرسية إحدى الفعاليات التي تستخدم في إعادة تشكيل وبلورة المفاهيم العامة وخصوصاً الدينية منها وتلقينها كحقائق.

وإذا تبنّت الدولة ذلك من خلال مؤسسات متمرسة ومقتنعة بما تقوم به وذات إمكانات كبيرة، في مجتمع له رؤية قريبة من رؤيتها الدينية، أصبحت أكثر قابلية على التحكم بتصدير وبلورة المفاهيم التي تريد بثّها وأكثر قابلية على اخضاع المجتمع وإسكات الأصوات (**النشاز**) التي قد تنتبه إلى بعض جوانب الشذوذ في الأداء العام لقادتها. وهي مهمة لها أولوية في الدول ذات الحكم الكيفي المطلق.

إن وسائل الثقافة المتطورة تساعد على التأثير على مدركات التلاميذ إنطلاقاً من الضغوط الثقافية التي تمارس عليهم وعلى المدرسين أيضاً. فالتلاميذ أول المتأثرين بنمط الثقافة العامة التي تتمتع بغطاء ديني، للجماعة الإجتماعية التي ينتمون إليها. وهي هنا الثقافة (**الدينية**) الوهّابية الشائعة والوحيدة، ليكون لها نفوذ أخلاقي كبير من خلال المظاهر المتعددة للأنشطة والفعاليات الأخلاقية والدينية التي تتبنّاها الدولة وتروّج لها.

إن الدولة تهدف إلى بسط نفوذ كامل على مواطنيها، وأول المستهدفين تلاميذ المدارس باعتبارهم شريحة واعدة، فتحاول تشكيل أفكارهم وتصوراتهم الثقافية والدينية على أساس تصوراتها ومتبنياتها وتريد للثقافة المدرسية أن تعكس ثقافتها وأن تكون في مقدمة المؤسسات العاملة على نشر هذه الثقافة. . وهي (**الوهّابية هنا**) سواء في المركز والحاضنة الأم أو في أقطار أخرى.

وتبدو مهمة المدرسة مكملة لدور المؤسسة الدينية والمؤسسة الحاكمة، فتحاول إكساب التلاميذ مزيداً من الأدوار إضافة لما سبق أن تعلّموه من أُسَرِهِمْ قبل سن المدرسة.

وإذ أن بناء الدور الإجتماعي للمدرسة يتحدد طبقاً للأنماط الثقافية المقررة من قبل الدولة، فإن هذا الدور يكون فاعلاً في مجتمع أحادي النمط أو التوجه كما هو الحال في المملكة السعودية. . مع أن قطاعات واسعة من المجتمع تحاول الآن الخروج عن هيمنة التيار المذهبي الأحادي وسطوته والتمرد عليه.

ويبدو أن الدولة السعودية قد اكتشفت منذ نشأتها المفتاح الذي يمكن أن تدير به الأمور وتبسط سلطانها على الجميع. ولطالما استخدمت الدين - كما فعلت دول سابقة - لغرض الهيمنة والتسلط. فالتراث الملفق أريد له أن يكون الأداة التي تستخدم بهذا المجال[١].

❍ ❍ ❍

---

(١) ومن المناسب أن نذكر هنا أن وزارة التربية السعودية وضعت مسابقة للتلاميذ رصدت فيها جوائز كبيرة لمن يحفظ مائة حديث (نبوي) تحث على إطاعة الحاكم أو (وليّ الأمر). والغرض معروف من أمثال هذه الأحاديث الموضوعة والمسابقات التي تستهدف شحن الأذهان للإستسلام للحكام ولو كانوا مستبدين أو غير عادلين أو فاسقين.

ثقافة قهرية وأساليب قسرية

لقد أصبح مفهوماً لدى علماء الإجتماع والتربية أنّ البناء الإجتماعي للمدرسة يتحدد طبقاً لأنماط الثقافة المدرسية السائدة، وإذ أن هذا النمط السائد أو الذي أريد له أن يسود في حاضنة الفكر المتطرف هو نمط أحادي لا يقبل الثنائية والمزاوجة، وإنه قد حقق لحد الآن إنجازاً ملموساً في إخضاع شعب بأكمله للسلطة الحاكمة وأتاح وجود حلفاء ومعجبين حتى في دول أخرى بالأداء الديني الذي تحققه المؤسسة الدينية بكل فروعها - رغم أنه أداء مظهري، فقد أتاح ذلك نشر رؤيته بشكل واسع خارج حدود جغرافيته المذهبية التقليدية - كما أشرنا في هذا الفصل.

إن النمط الإجتماعي القائم على الثقافة الدينية والمذهبية الخاصة والأحادية ساعد على صهر التلاميذ في مختلف مستوياتهم ومراحلهم الدراسية في غمار هذا النمط المتوارث وجعل المدرسة في مقدمة الأدوات التي أريد لها أن تستوعب وتنشر هذه الثقافة، وذلك ضمن مناهج دراسية مطلوب حفظها واستيعاب معانيها الظاهرية ليكونوا عناصر فاعلة لنشرها وتسويقها وفق منهج تراتبيّ بين أفراد المجتمع الآخرين الذي يتماهون معهم في نمط الثقافة المحمول.

إن نظاماً قهرياً تسلطياً يفرض ثقافته بدأب ومواصلة لا بد أن يحاول تكريس فعاليات المدرسة التي تديرها مؤسسات تعليمية تابعة له ولمؤسسته الدينية للقيام بجهد (تربوي) يعزّز نفوذه وسطوته. مع إنه لا يمكن القول أن كل التلاميذ يستجيبون استجابة تامة لأنماط الأساليب التربوية المفروضة، رغم أن الجميع ينصاع بشكل ظاهري لما يراد ضخّه في الأذهان. وقد تنشأ هناك أنواع من الصراعات غير المكشوفة داخل مجتمع المدرسة أو خارجها. وقد تلجأ السلطة المهيمنة على شؤون التعليم إلى فرض أنواع من القوة والسيطرة لفرض

ثقافتها بالإكراه وإلزام الجميع بتبنّيها أو التظاهر بذلك على الأقل لغرض اجتياز الإمتحانات المدرسية.

إن الإدارة المدرسية في ظل الأجواء التي تلوح فيها بوادر التمرد والنزعة الإستقلالية والتفكير الحر بعيداً عن الوصاية التقليدية، قد تكون مؤسسة تسلطية لا تتيح أيّ مجال للحرية أو للمارسة الديمقراطية داخل فصول المدرسة أو حتى بين المدرسين.

وإذا ما أخذنا بعين الإعتبار نظرة التلاميذ إلى المدارسة وأهميتها وجدواها في مستقبلهم وهم يعيشون في مجتمع لا يعتمد الكفاءة وحدها عند منح الوظائف أو المهن، فإننا نتوقع أن تنشأ من ذلك نظرات عداء وسخط وتمرد تقود إلى العنف والمقاومة والفوضى. ولعل حركة صراع خفية ستبدأ بالتكون داخل مختلف البيئات سواء في الدرسة أو البيت أو محيط الجيران أو في البيئات المحلية وقد تظهر على شكل تنظيمات معادية.

إن حياة المدرسة تختزن - رغم أنها تظهر تجانساً وتوافقاً خارجياً بين مكونها الأساسي وهم التلاميذ خضوعاً ظاهرياً للقوانين والأنظمة - عداوة كامنة وعنفاً وفوضى وشعوراً بالغربة وضرورة المقاومة.

ومايزيد في تناقضات الحياة في أجواء كهذه إطلاع التلاميذ على ما يجري في العالم واستماعهم إلى النقد الموجه لمؤسسة الحكم في بلدهم والدوائر التابعة لها واطلاعهم على جوانب الفساد التي ظلت مخفية عن عيون الناس طيلة عقود من الزمن، وإدراكهم الهوّة التي تفصل بينهم وبين الشعوب المتقدمة وإحساسهم بتخلف بلدهم بفعل مقصود رغم المظاهر الخارجية البراقة التي توحي بوجود نهضة حضارية.

إن المجتمعات أحادية الثقافة تميل إلى استنساخ التجارب السابقة للآباء كما هي بحجة المحافظة على تراثهم. وقد يتم السعي لذلك بمساع وجهود

سلطوية تهدف في نهاية المطاف إلى الاحتفاظ بالمألوف المرغوب طالما إنه يحقق مكاسب للسلطة الراعية. كما إن أدنى محاولة للتغيير أو التفكير بتغيير بعض ثوابت ركائز الثقافة المتوارثة من شأنه أن يثير القائمين على السلطات السياسية والدينية والإجتماعية باعتباره محاولة لتغيير المقدس أو تحطيمه.

ومن شأن النظرة الأحادية (**الشمولية عادة**) أن تكرس لفرض توجهها وتسعى لتلميع ماتريد أن يؤمن به أو يعتنقه الآخرون. وهي بذلك تكسب حراس ورعاة الخط التقليدي الذي غالباً ما يأخذ بالتحجر ويصبح غير قابل للتغيير، كما تكسب الجماهير المتأثرة به. وبذلك فانها تقاوم بعنف أيّ محاولة للتغيير والتي قد تأتي من قبل أجيال جديدة. وقد تلجأ إلى أشد الاساليب شراسة لقمع أو منع من يفكرون بالتغيير أو مناقشة الثقافة السائدة.

○ ○ ○

جيل الشباب والكسب الحزبي

وإذ أن جيل الشباب اقدر على الإنفتاح على الثقافات والتجارب والوسائل الحضارية العالمية وأكثر استجابة ومرونة، فلابد إنه سيلاحظ الفرق بين نمط الحياة التقليدي الجامد المتحجِّر وبين انسيابيّة الحياة في العالم. ولا بد أن يفكر بنقل هذا النمط التقليدي إلى آخر متحرك وقابل للتغيير.

إن الأجيال الجديدة تبدو وكأنما تستكشف العالم من جديد. ويجعل انبهارها الطفولي وإعجابها الدائم بما تراه، تعتقد أنها دون غيرها قد أدركت حقيقة هذه الحياة وقد تحكم على من سبقها بالجمود والتخلف خصوصاً إذا ما كان الأمر كذلك فعلاً.

وحتى نظرتها للدين وفهمها له قد تريد تجسيده بآليات أخرى قد تكون حركية حزبية ترفع شعارات الإصلاح الديني أو تغيير المجتمع بالقوة وما إلى ذلك من الشعارات.

وإذ أن للدين، وقيمه وممارساته العبادية المتوارثة مكانته المرموقة دائماً، وإذ أن هناك تناقضاً بين حقيقته وجوهره وبين أغلب الممارسات الإجتماعية، فإن من يطالبون بالتغيير عن طريق التنظيمات الحزبية سيجدون تجاوباً وتفاعلاً من قبل جيل الشباب. وهكذا نجد أن البيئات المناسبة للكسب الحزبي هي بيئات المدارس على اختلاف مراحلها المتوسطة والإعدادية أو المراحل الجامعية الأولية. فهنا نرى حراكاً نشطاً بين صفوف هذه المراحل.

فمن شأن الخبرات القليلة والساذجة لهؤلاء الذين يواجهون الحياة لأول مرة أن تتيح لغيرهم التأثير عليهم وضمهم إلى تنظيماتهم الحزبية (السريَّة) عادة. أو إلى النشاطات غير المألوفة.

ولابد أن يمر الطفل أو الشاب في هذه المجتمعات المغلقة أو أحادية الثقافة بمرحلة مخاض صعبة أو صراع قد تطول أو تقصر حسب استجابته وقدراته ووعيه والظروف التي تمر به. إنّه قد يتجه إلى الانفلات حتى من الضوابط الأخلاقية أو الدينية العامة المتعارف عليها، وقد يتجه إتجاهاً متشدداً لفرض التغيير على المجتمع بالقوة، وذلك يحدث وفقاً للمؤثرات العامة التي تحيط به. وإذا ما علمنا أنّ هذه المؤثرات تتسع وتتكاثر في ظل أجواء العولمة وانتشار الانترنيت والقنوات الفضائية ووسائل الإتصال السريعة التي تتيح الاطلاع على ما كان يعتبر في الماضي من الخفايا والاسرار التي لا يمكن الوصول إليها أو الإطلاع عليها، أصبح من السهل علينا أن ندرك سطوة هذه المؤثرات على من يتعاملون بها وقدرتها على أحداث تغييرات كبيرة في حياتهم.

○ ○ ○

لنلاحظ هنا أننا نتحدث عن مجتمع شرقي له شبكة علاقات عائلية وعشائرية وعامة تكاد تجعل الجميع ينتظمون في سلسلة علاقات متشابكة قد لا

تكون موجودة في مجتمعات أخرى كالمجتمعات الاوربية.. وهذا أمر له دلالته الكبيرة هنا. إذ بدون فهم هذه الدلالة قد يكون الحديث عن النقاط التي أوردناها غير مفهوم لدى القارئ الغربي.

❍ ❍ ❍

أخوة دينية... أم حزب سياسي

إنّ تأثير الأقران على بعضهم ومن هم أكبر سناً على الفئات العمرية الأصغر لا يمكن أن ينظر إليه بمعزل عن الظروف والمؤثرات الإجتماعية الأخرى.

لقد وجدت على إمتداد الأوطان الإسلامية عشرات الأحزاب والقوى السياسية الدينية وغيرها **(خلال مايزيد عن نصف قرن)** عرفت بتأثيرها الكبير على قطاعات واسعة من الشباب بشكل خاص عندما استهدفتهم تنظيمياً لضمهم إلى صفوفها كونهم الأقل خبرة وتجربة ومعرفة بالحياة وبالتالي أكثر استجابة وحماسة والأقل تساؤلاً ووسواساً حول مايراد زجّهم فيه. وقد اندفعت موجات هائلة منهم - أشبه بمد كبير - للإنضمام إلى أحزاب علمانية **(شيوعية وقومية وغيرها)** وأحزاب دينية مالبث أن انحسر بعضها فيما بعد واستمرت فعاليات البعض الآخر مستغلة الدين وشعاراته للترويج لأهدافها ومبادئها. ولاندري إن كانت ستنحسر أم ستتواصل. ولعل ذلك يعتمد على طريقة أدائها وتأثيرها في الشارع وعلى جدوى ما تلوِّح به من شعارات وأهداف وقدرة على تحقيقها.

❍ ❍ ❍

آليات الكسب الحزبي في غياب الديمقراطية

لابد من ملاحظة أن العمل الحزبي في البلدان الشرقية (**الإسلامية**) وفي ظل قوائم المحظورات والممنوعات يتم وفق أداء سري تآمري يتخذ طابع الكر والفر مع السلطة، وغالباً مايكتشف وتلحق بأعضائه عقوبات صارمة تصل حد الإعدام.

وفي ظل منع لممارسة الديمقراطية أو الحرية بمفهومها الأوسع، وفي ظل أنظمة حكم شمولية أو عائلية وراثية لايبدو أن هناك مستقبلاً واعداً لعمل حزبي على نمط مايجري في أوربا أو كندا أو الولايات المتحدة أو أستراليا أو غيرها من أنظمة الحكم الديمقراطي الأخرى. فالهاجس التآمري والخشية من انقضاض الأحزاب على السلطة والقيام بانقلاب مسلح أو من انقضاض مقابل من السلطة على الأحزاب يظل دائمياً يقلق الجميع. ولعل مرد ذلك يعود إلى تشابه نمط التفكير لدى الجميع واليأس من إحداث أيّ تغيير عن طريق الأنماط الديمقراطية المعروفة في العالم.

وطالما أن الكل يدعي امتلاك الحقيقة والقدرة على القيادة فهاجس التشبث بالمواقع التي وصل إليها الجميع والتمسك بالآليات التي تتيح لكل واحد البقاء في موقعه يظل يسكن رؤوس الجميع، ولا أمل يلوح باقتلاعه منها على المدى المنظور.

❍ ❍ ❍

لعل الجميع في البلاد الشرقية يعترفون أن ما تعلموه واستدرجوا إليه في مطلع حياتهم الدراسية الثانوية أو الجامعية ينحصر في أمرين رئيسيين يظلون يدفعون ثمنهما غالياً في النهاية:

أولهما: إعتياد التدخين.

وثانيهما: الدخول في الحياة الحزبية السّرية.

وهما أمران قد يبدوان طريقان أو غريبان لدى المتابعين الغربيّين!

فكيف يمكن زج أطفال اعتادوا النوم قرب أمهاتهم ولا يزال بعضهم يخشى الظلام لمواجهة سلطة مدججة بالسلاح والرعب وقد تعمد إلى استعمال أشد أساليب البطش لقمعهم والقضاء عليهم؟

لا شكّ أنّ من يجند هؤلاء اليافعين يراهن على الفوز في معركته كما تراهن معلمة روضة الأطفال على تشكيل فصيل مدرع من أطفال روضتها والفوز في معركة مسلحة على مغاوير متمرسين في التدريب والقتال.

إننا لانتحدث عن مجتمعات متجانسة تسير وفق إيقاع واحد. فابن الصحراء ليس كابن الطين والماء. فَقِيَمَهُمَا ليست هي نفسها ونمط حياتهما ليس واحداً. . غير أنهم جميعاً يعانون من تخلف مفروض عليهم. ولا يمكن أن تكون الإيماضات المبدعة لدى بعضهم دليلاً على تغيرهم واجتيازهم سواتر وعقبات التحدي الحضاري القائم.

إن أبناء الصحراء وحافات المناطق النائية مثل بعض مناطق أفغانستان وباكستان والجزائر وغيرها، ربما يجدون خلاصهم في تخلفهم ومألوفهم وتقوقعهم وانغلاقهم عن الثقافات القائمة. وهكذا وجدت دعوة متخلفة كالوهّابية متسترة بالشعارات الدينية صدى مناسباً في أذهانهم التي بقيت تتطلع إلى فترات التخلف على أنها فترات إزدهار.

ولا أحد يستطيع إنكار ما للإسلام من قوة وحيوية وقدرة على إنتاج حضارة متفوقة لا يزال العالم يستفيد من معطياتها. غير أن حملته الحقيقيين لا يمكن أن يكونوا ضمن أولئك المتحصنين خلف محيطات الصحراء وكثبان الرمال.

❍ ❍ ❍

تسخير العلوم الحديثة لخدمة الموروث المتخلف

إننا نشير هنا إلى مرحلة نصف قرن الماضية، وهي مرحلة **(قديمة)** بنظر من يعيشون الآن عصر الإنترنيت والتكنولوجيا المعلوماتية المتطورة ويستخدمونها، غيرأنها تلقي بظلالها على الجيل الحالي الذي تشرب بالموروث الثقافي الجامد ويريد الآن أن يوظف ما تعلمه للدفاع عن هذا الموروث المؤطر بالرؤية المحدودة والقراءة الواحدة للإسلام. وهي قراءة ذات بعد واحد وتقف عند حدود معينة، وقد وصمت الآخرين بالإلحاد والمروق عن الدين وحكمت عليهم بالإبادة والموت.

ومن هنا فإن علينا النظر إلى الأفكار المتطرفة التي أنتجتها لا على أنها مجرد معتقدات لا شأن لها بالآخرين تندرج ضمن الإهتمامات الخاصة، بل على أنها قنابل موقوتة قد تنفجر في أية لحظة أو أيّ مكان من العالم.

إن حملة هذه الأفكار يعرضون أنفسهم كأوصياء مسؤولين عن شؤون المجتمع البشري كله ومن حقهم (ردع) أو إبادة من تسول له نفسه الخروج عن إطار أفكارهم ومعتقداتهم حتى وإن كانوا من القريب المذهبي، ويعمدون إلى تصعيد وتائر حماسهم ونفوذهم على أجيال أريد لها ان تنفعل وتتأثر بهم وبآرائهم. وغالباً ما تكون هذه الأجيال من التي لم تنل إلا قسطاً أولياً من التعليم في المدارس الثانوية أو الأوليّة الجامعية. فهذه الأجيال ترى أنفسها المكتشف الجديد للعالم، وأنها رأت مالم يره الآخرون وتوصلت إلى حلول جميع المشاكل بأساليب العمل المتشددة التي فرضتها المدرسة الوهّابية التي أصبحت مرجعية لأغلب الحركات السياسية المتأسلمة، غير ملتفتة إلى رؤية المدارس الإسلامية الأخرى التي تتبنى منهجاً واقعياً في الحوار والعمل قائم على الدعوة بالحسنى وأسلوب التعارف.

○ ○ ○

المدرّس وتكوين الإتجاهات

على أن العامل الأخطر والأهم في عملية التربية والتعليم هو المدرّس. إذ لا يمكن تجاهل تأثيره على تلاميذه. وإذا ما استبعدنا مدرِّسي العلوم العامة والتطبيقات العملية من ذلك بسبب نوعية المناهج التي يدرسونها، وركزنا على مدرسي التربية الدينية واللغة العربية والدراسات الإنسانية كالتأريخ أو التربية الإجتماعية وتتبّعنا جذور ثقافتهم ومتبنّياتهم الفكرية والسياسية، أدركنا أهمية دورهم في تكوين إتجاهات التلاميذ وبسط رؤيتهم وفرض ثقافتهم عليهم. لقد كان لهؤلاء على الدوام دور فاعل في عملية التكوين الفكري للتلاميذ وغسل أدمغتهم وتحديد إتجاهاتهم.

وإذا ما اعتبرنا المدرسة عضواً إجتماعياً وإنها وحدة تشكّل نسيجاً حياً بين الشخصيات التي ترتبط فيما بينها عن طريق نمط أو أنماطٍ من التفاعل أو العلاقات الشخصية والمشاركة أو كنوع من التنظيم العضوي الإجتماعي أدركنا أن أشكال العلاقات وتفاعل أعضائها فيما بينهم تختلف بنتيجة اختلافات البناء السياسي لها وكذلك بنتيجة تباين أنماط العلاقات الإجتماعية العامة أو الخاصة.

وهنا ينبغي ملاحظة أن تلاميذ الفصل الواحد في مدارس المناطق الريفية ربما يشكلون وحدة متضامنة متفاعلة لها علاقات خاصة ربما تجعلهم يختلفون عن أبناء المدن الكبرى. والأمر نفسه بالنسبة للمدارس في المناطق البدوية رغم مظهر التحديث في أبنية ومظاهر تلك المدارس. ومع يكون الأمر نفسه أيضاً مع تلك الموجودة في المناطق الجبلية النائية البعيدة عن مراكز المدن.

أما المدارس الخاصة والتي قد تكون الكتاتيب أحد أشكالها، فقد نجد فيها نوعاً من التجانس الإجتماعي والثقافي وربما الاقتصادي أيضاً مما ينعكس

على جميع أفراد المدرسة الذين يعيشون حياة إجتماعية واحدة في محيط مدرستهم وبالقرب من بعضهم وربما ينتمون لعائلة كبيرة أو قبيلة واحدة.

وإذا ما أرادت جهات ما أن تُنشىء طلابها وفق إتجاه معين بالتركيز على أساليب وآليات مناسبة للعمل نرى سهولة المهمة التي تقوم بها، فلا حاجة لها بإقناع كل عضو فيها على حدة.

لم تكن (**المدرسة بما فيها من تلاميذ ومناهج ومدرسين**) موضوعنا الوحيد في هذا الكتاب، غير اننا أردنا لفت الأنظار إلى دورها التربوي والتعبوي في مهمة التنظيم الحركي الفاعل. فلسنا نستطيع فهم الكيان الإجتماعي للمدرسة مالم نفهم مجمل العلاقات العامة داخلها وخارجها أيّ خارج حدودها، مع المجتمع الأقرب.

وقد أحببنا أن نشير إلى أنه لا يمكن إغفال أهمية الانشطة العامة فيها والمناهج الدراسية والفعاليات الخاصة للمدرسين وواقع البيئة الثقافية حتى نستطيع أن نتعامل بجد مع موضوع المناهج الدراسية وإشكالاتها وتداعياتها وكيفية الدعوة لتفعيلها بالشكل الذي يتلاءم مع التوجه الإنساني العام لا مع توجه متشدد له رؤية قاصرة ومحدودة.

○ ○ ○

المناهج الدينية:إنتاج الفكر المتطرف

يحاول أغلب المسؤولين عن السياسات العامة والتربوية في بعض البلدان العربية والإسلامية إبقاء التعليم الديني على نفس وتيرته الحالية متجاهلين ومنكرين دور مناهجه في خلق وإنتاج مناخ إرهابي متشدد. مع أنها كُتِبَتْ بأسلوب تحريضي واضح يمنع تقبل فكرة حق الإختلاف والحوار ولا يتيح قواعد التواصل مع الآخرين وقبولهم. وحسمت المسألة بشأن (**الآخر**) باعتباره (**كافراً، مشركاً مبتدعاً**) وتعمقت فكرة إقصائه بشكل تام لا رجعة فيه.

وإذ أن فكرة الإقصاء هذه يترتب عليها اتخاذ موقف **(العداوة)**، فقد أصبح البعيد الديني أو المذهبي مشروعاً للإبادة والقتل بنظر المتأثرين بمفردات هذه المناهج **(وهم الطلاب)**.

وهذا أمر لا ينبغي الإستهانة به أو التقليل من مخاطره إذا ما أردنا ضمان مستقبل خال من ألغام الغلو والتطرف، فلا يمكن أن يظل العالم رهين دوامة العنف إلى ما لانهاية لأسباب مفتعلة مبالغ فيها ولا تمت إلى الحياة الواقعية بصلة.

ويحاول هؤلاء المسؤولون التحصن خلف ذريعة أن المطالبة بهذا التغيير قد أتت من الخارج، ومن الولايات المتحدة بالذات وأنّ الإستجابة هي بمثابة خضوع للإدارة الأميركية. وإذا ما وجدت حاجة للتغيير فإن هذا ينبغي أن يتم بمعزل عن الضغوط الخارجية.

فالإشكالية الآن ليست في كيفية القيام بهذا التغيير وانما بالاستجابة له باعتباره يمثل رغبة العالم غير الإسلامي **(الكافر)**. وينبغي أن لا يتم إلّا متى ما وقفت الدعوات إليه من الآخرين.

إنهم يثيرون جدلاً بيزنطياً جديداً لإدارة دفة الجدل إلى نقطة جانبية لتجنب الموضوع الرئيسي ويطرحون سؤالاً قد لا يمكن الإجابة عنه سريعاً وهو: **هل نقوم بتغيير المناهج لإننا نريد ذلك وأن هناك حاجة ماسة إليه، أم نعطل المشروع إلى أن تتوقف الدعوات الأجنبية التي تريد اختطاف الأضواء والفرص لصالح مشروعها الخاص؟** وإذ أن المطالبة بالتغيير من الخارج لن تتوقف للحاجة الماسّة لذلك، فإن تشبث المسؤولين ببقائها سيتخذ شكل معارك وسجالات عديدة.

وكتمهيد لهذه المعركة فقد حذرت ١٥٦ شخصية دينية من التيار السلفي الوهّابي عام ٢٠٠٥ في بيان أصدرته من خطورة تعديل المناهج التعليمية

معتبرين ذلك بداية للإفساد، وهذا يؤكد للمتابعين تمسك المؤسسة الدينية الوهّابية بنهجها وثوابتها.

وستأخذ السجالات بهذا الصدد وقتاً طويلاً يتاح فيه للمسؤولين عن السياسة التربوية والدينية على وجه الخصوص التقاط أنفاسهم لإيجاد مناهج **(بديلة)** لا تختلف عن سابقاتها إلا في صياغة العبارات. كنوع من المسكّنات التي لا تدخل كعلاج جذري حقيقي.

إن المتتبع لمفردات المناهج الدينية في المراحل الدراسية العامة المختلفة **(ونأخذ المملكة السعودية مثالاً)** تبدو وكأنها تريد تخريج متخصصين في مختلف جوانب الفقه والشريعة والتأريخ، لا مواطنين مدعوين لفهم أساسيات دينهم ضمن منهج دراسي معقول. ولهم أن يتوسعوا في ذلك إن أرادوا من خلال قراءات ومتابعات شخصية في بيوتهم أو المكتبات العامة أو غيرها. ولأنها حصيلة تراكم تأريخي طويل أفرز خلافات دموية بين السلفيين الوهّابيين وغيرهم من المدارس الإسلامية، فإنها تحفل بمواضيع تمسّ حقوق المسلمين الذي يخالفونهم الرأي وكذلك غير المسلمين من أهل الكتاب وتفتقر إلى أصول وآليات التعامل الصحيح معهم ومع المنجزات الحضارية التي تفرض وجودها وتنتشر في كل أنحاء العالم. فنجد أن مشروعها الرئيسي هو تزكية التطرف الديني والتحريض على التكفير والتفسيق والتبديع ومايستتبعه من الإستهانة بالدماء والأموال والحرمات والحقوق. ولذلك فإنها ولدت مناخاً مشحوناً ومشغولاً بقضايا النزاعات الفكرية والثقافية خلال أكثر من ستين عاماً.

وإذا ما تذرع بعض المسؤولين بحجة ان هذه المناهج لاترتبط أو تدعو مباشرة للعنف فإن من المؤكد - إذا ما فحصت جيداً - أن يلمس الجميع أنها تولّد أجواء غائمة وغامضة في مسائل أساسية تمهد لقبول أفكار العنف والتطرف والغلو.

إن مصطلح (**السلفية**) مصطلح حديث إذا ما أخذنا بنظر الإعتبار تأريخ الفرق والمذاهب الدينية والكلامية، لايضيف شيئاً إلى مفردات الإسلام الأساسية إلا كالقول: نحن مسلمون مثلما كان أجدادنا في السابق. أو نحن سلفيون مثلما كان أجدادنا، فهذا لا يمكن أن يضيف شيئاً فالجميع - بهذا المعنى - سلفيون أو مسلمون ولا فضل لأحد على الآخر. لكن هذا المصطلح استخدم لتغذية الخلافات المذهبية والطائفية وتأجيجها ولا يحمل أيّ قدر من المصداقية العلمية. لذلك فإن الوقوف تحت مظلّته لا يعني إيجاد أو تطوير رؤية لبناء الحياة بقدر ما يساهم في تعطيل عمل الإسلام بتوسيع دائرة المحرم وتضييق دوائر المباح وتعطيل حركة الحياة. فلا ينبغي ابداء المزيد من الفخر بمنظومة (**مبتدعة**) لا لزوم لها. تقف موقفاً تحاربياً مع كل مخالفيها في الرأي والعقيدة. اذ لم توجد سابقة تأريخية - حتى في المجتمعات الإسلامية قيام مشروع إصلاحي في مجتمع أحادي الطيف، وانما اشتركت كل عناصر المجتمع بكل أطيافها ومعتقداتها في عمليات البناء والإصلاح والتطور.

إن مناهج التعليم تشكل العامل الأول في صياغة وفكر وشخصية الطالب. ولعل صياغتها الحالية ستسبب زعزعة أفكاره بخصوص حقوق المسلمين (**الآخرين**) وغير المسلمين من أهل الكتاب وغيرهم وهو أمر يخالف أصول الشريعة لذلك فيمكن اعتبارها مقصرة بحق أبنائنا ومجتمعاتنا.

إنّ الأسلوب التحريضي المضمر ضد (**الكفار**) و(**المشركين**) يمهد لعداوة متأصلة مع العالم[١] حتى من خلال الوصف المجرد لهم والذي قد يثيرهم

---

(١) وقد برر أحد أقطاب التيار السلفي الوهّابي وهو محمد العبد الكريم (أستاذ بجامعة محمد ابن سعود الإسلامية) في مقابلة مع قناة العربية في ١٥ كانون الأول ٢٠٠٦ استعمال هذه التسمية وقوله: «عندنا امتيازات حتى للكفار الذين يعملون عندنا» و«إن الكفار هو مصطلح شرعي لا غير».

ويستفزهم. وإذا لم تكن هناك حاجة ملحة للجوء إليه بمناسبة أو بدون مناسبة، فما الذي يدعو لإعطاء الإمتيازات (**للكفار**) واستعمال الوصف التحقيري ونبزهم (**بالكفار**) بنفس الوقت.

إنّ الإدمان على توصيف المخالفين بالدين أو المذهب بالكفار والمشركين يوقع الطلاب في تشتت فكري ويولّد فيهم شعوراً بأنهم يواجهون عالماً معادياً ينبغي مواجهته بالمثل. لذلك فإننا نرى لغة المناهج الدينية مشحونة بلغة عدائية تحريضية.

لقد بلغ الأمر أن جعلت في مفردات المناهج الدراسية في كلية الشريعة في الكويت مواضيع موسعة عن (**الفرق الضّالة**). وإذا ما علمنا أن هذه الكلية ومثيلاتها تأسست لأسباب سياسية لغرض كسب الجماعات المتطرفة أدركنا أن ذلك قد يكون مبعثه إرتباط الفكر الديني بالنظام السياسي وخصوصاً في دولة حاضنة للوهّابية الأم، المملكة السعودية التي شجعت تصدير الفكر الوهّابي إلى جاراتها في الخليج والى بلدان عديدة في العالم. لكن جميع هذه الدول - بما فيها الحاضنة الأم - بدأت تدفع فاتورة رعايتها وتحالفاتها مع حملة هذا الفكر المتطرف.

○ ○ ○

لقد اتسعت مفردات المناهج الدينية في المدارس حتى خصص أكثر من كتاب للصف الواحد، وكأن المدارس الإبتدائية أو المتوسطة تستهدف تخريج فقهاء متخصصين بمختلف المواضيع التي يسمونها (**شرعية**). ومن الطريف أن بعضهم قد طالب - رغم كثرة هذه المفردات - بتكثيفها وزيادتها.

وقد توسع واضعو المناهج المدرسية لبحث مواضيع معقدة مثيرة للجدل مثل (**الولاء والبراء**) و(**الجهاد**) وحوّلوها من مفاهيم اعتقادية إلى مفاهيم ذات

طابع عسكري تعبوي، وكان الأجدر أن تفسر وفق التفسيرات الصحيحة والواقعية لا أن تعمق الإقصاء والعداوة مع جميع المجتمعات الإنسانية.

ورغم ادعاء الجهات السعودية مثل مجلس الشورى السعودي بأن الإعتدال هو جوهر الدين الإسلامي في المناهج الدراسية ودعوته الطلاب إلى أساليب الحوار، إلّا إنه لم يتم وضع آليات لتجسيد ذلك بشكل عملي، ما يعني أنها ليست سوى شعارات وقتية تماشياً مع الظروف الراهنة.

إنّ الدعوات لإصلاح المناهج التي تساهم في الإحتقان قائمة حتى في الدولة السعودية التي أقامت شرعيتها على أسس دينية مفتعلة. فالإصلاح لا بد أن يتم الآن أو في المستقبل ولا بد أن يكون ذلك بدافع الشعور بحاجة حقيقية له، وأن لا يتم بشكل ترقيعي ناقص دون أن يؤدي إلى نتائج حقيقية مثمرة. ولعله سيكون ذا جدوى كبيرة إذا ما تم الآن ورفع التسييس الذي وقعت فيه المناهج منذ بداية وضعها. وقد أصبحت تشكل أزمة خطيرة إذ لا يمكن أن تستقر الأمور على هذا النسق.

○ ○ ○

إصلاح المناهج الدراسية الدينيّة: مقترحات

لابد لقطع الطريق على أولئك الداعين للثبات على المناهج الحالية التي تؤجج نيران العداوة مع الآخر - أن يأخذوا زمام المبادرة منذ البداية حتى لايضيع الوقت في مماحكات كلامية ومعارك تحول دون إنجاز هذا المشروع، خصوصاً وإننا نجد أصواتاً معتدلة من داخل الدولة السعودية نفسها تدعو إلى إعادة صياغة هذه المناهج. ولا نعتقد أنهم يطالبون بذلك بدافع إرضاء الجهات الغربية والأميركية على وجه الخصوص، وإنما لشعورهم الخاص بضرورة ذلك وبأن أبناءهم يدرسون مواداً ليسوا بحاجة إليها وتسوّق أغلب

مفرداتها إليهم بطريقة انتقائية غير معقولة ولأن مخرجات التعليم لا تتناسب مع احتياجات سوق العمل، فالمجتمع ليس بحاجة إلى (فقيه) مجتهد في كل بيت أو مرفق. والطالب يلقن مواد لا يحتاج أغلبها ولايدخل إلى سوق العمل أو الحياة الإجتماعية بكفاءة مطلوبة. لأنه ليس معنياً بدراسة مسائل الخلاف في الصفات والإسماء الحسنى والقدر بشكل تخصصي أو دراسة مقررات تؤكد على قتل (المبتدع) و(المشرك) لأسباب ملفقة لا شأن لأحد بها سوى الخالق نفسه. ووفق أحاديث ملفّقة على أساس مجادلات كلامية تدفعه لخوض معارك (إنكار المنكر) بطرق عشوائية ووفق رؤيا محدودة لمذهب متطرّف[١].

ولأن الناس بحاجة إلى مواقف واضحة في القضايا الأساسية ولأن الثقافة استغلت سياسياً باعتبار أن تجميع السلطات أو النفوذ يترتب عليه استخدام الدين أو الأفكار أو الكتابة، فإن تنمية الشعور بتوضيح المواقف والأفكار التي أنتجها الفكر التكفيري ينبغي أن تكون مسألة قائمة وأن تؤخذ على محمل الجد. خصوصاً وأن هناك بنية تحتية متأصلة دعمت التكفير وصعدت قضيّته. وعلى طريق إصلاح هذه المناهج ينبغي التحدث عن محاور تتعلق بضرورة التغيير وشرعيته وصلة المناهج بالعنف وأجندات القائمين بوضع هذه المناهج وآليات الإصلاح وكيفيته، وملاحظة الايجابيات الموجودة والتأكيد عليها.

ولايفوتنا أن نذكر بملاحظة المناهج الرديفة التي تدعو للعنف والتطرف

---

(١) وهذا ما يلاحظ في بعض دول الخليج النفطية وغيرها مثل باكستان التي تتصاعد فيها حركات التطرف. فقد قام عشرات من طلبة المدارس القرآنية في إسلام آباد في عام ٢٠٠٦ بحملة للنهي عن (المنكر) في الأحياء الشعبية للعاصمة الباكستانية وهم مسلحون بقضبان من الخيزران على غرار ماكان يفعله الطالبان في أفغانستان في التسعينات. وقد أسموا انفسهم (ألوية النهي عن المنكر). وعبرت الصحافة المحلية عن قلقها إزاء هذه التطورات وصنفتها في خانة النزعة الطالبانية المتنامية في البلاد والتي تصل إلى المناطق الحدودية لأفغانستان.

والتي تحفل بها المكتبات المدرسية والمكتبات الأخرى ووسائل الثقافة الخاصة والعامة مثل الفضائيات ومواقع الإنترنت. . .الخ.

وهنا نضع أمام المختصين إشارات عامة على طريق إصلاح المناهج الدينية في كل مراحل الدراسة ومنها الدراسة الدينية.

وقبل إدراج هذه الملاحظات العامة لا بد من التذكير جيداً بكون الوهّابية قد كرست - دون المذاهب الإسلامية الأخرى - نشر أفكار التطرف والغلو في أوساط واسعة من المجتمعات الإسلامية وخصوصاً في المجتمع السعودي. ولا بد من مراجعة شاملة لأفكار الشيخ محمد بن عبد الوهّاب، فهو إن عدّ مجتهداً كغيره فلابد أن يكون هناك مجال لمناقشة إيراداته واجتهاداته. فقد كان التشبث بها لحد الآن قد تم لأسباب سياسية وذلك لأن شرعية قيام الدولة السعودية قد تم على أساسها. وقد برّرت كل فعالياتها القتالية وعمليات الغزو ضد جيرانها طيلة قرنين ونصف. وإذ ان ركائز إستقرار الدولة الآن ودوامها لا يمكن أن يتم وفق التبريرات والتحالفات السابقة وأنها مضطرة أن تلحق بركب الدول الأخرى إن أرادت البقاء والإستمرار بتعزيز نهج ديمقراطي ما وإفساح المجال أمام الحريات التي يقرها العالم ويدعو إليها، والعمل وفق نظام مؤسساتي يتيح للشعب مشاركة واسعة فيه، فإن عليها أن تعيد النظر بتحالفها مع الشريك التقليدي قبل أن يفلت الزمام.

وعلى صعيد إصلاح المناهج الدينية المدرسية نورد هذه الإشارات السريعة:

١ - الإستفادة من التيار السلفي المعتدل عند وضع المناهج لرفع الشكوك إذا ما وضعت من قبل جهات لاتنتمي لهذا التيار. ولابأس من إشراك المتخصصين معهم. فقد لوحظ أن بعض دعوات الإصلاح قد تصاعدت من قبل أفراد من التيار السلفي نفسه.

٢ - **العمل على تطوير رؤية عامة لبناء الحياة الإجتماعية** ونحن على أعتاب ألفية ثالثة تحفل بالعديد من التغيرات والتطورات السريعة. وبناء فلسفة تربوية بناءة وواقعية والإبتعاد عن تسييس المناهج، وتعريض مستقبل الطلاب للحظر.

٣ - **الإكتفاء بالأساسيات وماينفع الطلاب في حياتهم العملية** وتجنب الدخول في الإشكالات الفقهية والمذهبية والتأريخية وبناء المواقف الحياتية العامة على أساسها، والتمهيد لتربية الطالب ليكون عنصراً مثمراً ومساهماً في بناء المجتمع.

٤ - **تجنب التعرض لبعض المواضيع الحساسة** مثل مفاهيم الولاء والبراء والجهاد وتحويلها من مفاهيم اعتقادية إلى قتالية عسكرية وتجنب تدريسها لتلاميذ مبتدئين قد تتشوه معانيها في أذهانهم.

٥ - **إعادة النظر بالإجتهادات التي يعتبرها الخط الديني السلفي ملزمة**، والتي كانت مقررة في المراحل السابقة.

٦ - **الإبتعاد عن عرض الأحكام بشكل تحريضي تعبوي.**

٧ - **تأكيد مسألة الخضوع لله تعالى** واحترام إرادته وحكمته في مخلوقاته والتركيز على الآداب الإسلامية العامة وقيم العدالة والخير والتسامح والبناء واحترام حرية الآخر وتجنب ثقافة التكفير والتشريك والتبديع وغيرها مما يساهم في التأكيد على عصمة الدماء التي هي الأصل الشرعي.

٨ - **الإنفتاح على التجارب الأخرى** في تدريس المواد الدينية والإجتماعية والإستفادة منها.

٩ - **القيام بتحليل مضمون مواد الفقه والحديث** قبل عرض ما يفيد الطلاب منها في حياتهم العملية وتجنب الدخول في متاهات الفتاوى المتضاربة

وخاصة تلك التي تدعو للقتل والعقوبات الشديدة لكي لا تسود أجواء العنف.

١٠ - **إبعاد المناهج المدرسية عن الصراع المذهبي والفقهي** والمعارك الكلامية في مجال العقائد.

١١ - **تقريب المواد الأساسية الضروية واللازمة** لتمكين الطالب من القدرة على الجدل والحوار السليم والبنّاء في تعامله مع الآخرين، وتوفير آليات وأدوات الحوار بالتي هي أحسن ليتدرب على قواعد وأساليب وأدب الحوار الديني.

١٢ - **التخلي عن إنتاج الأحكام وأسلوب الفتوى** الذي من شأنه أن يشحن الطلبة بإتجاه عدائي.

١٣ - **التأكيد على فقه الأولويات والضرورات** وفقه العصر لتخريج طلبة يتمتعون بالحد المطلوب من الثقافة الدينية.

١٤ - **المتابعة المستمرة للمناهج** بأعتبارها وسائل قابلة للتغيير والتعديل والتطوير.

إن المتخصصين الذين يدركون أكثر من غيرهم حالة التداعيات المؤسفة للمناهج الدراسية التي تشيع أجواء التوتر والخلاف أقدر على وضع أيديهم على مواضع الخلل في تلك المناهج واستبدالها بالمفردات الصحيحة. وينبغي أن تتاح لهم الفرصة في حملات وطنية شاملة وجريئة للقيام بعملية الإصلاح الضرورية واللازمة.

○ ○ ○

المعلم: السلطة الأولى

قد يكون المعلم، بالمفهوم الحرفي لوظيفته، دليل التلميذ إلى المنهج أو الكتاب المدرسي المقرر، ينقل محتواه للتلميذ بأسلوب مبسط مقبول. فعندما يكون فهم النص هو المشكلة، فإن تفسيره بشكل واضح هو الحل إذا ما تم بجدارة وأمانة. فالنص أداة جامدة والإنسان وحده هو الذي ينطقه ويفسره. ومن هنا الحاجة إلى المعلم طالما أن التلميذ لا يستطيع أن يتعامل مع النص ويفسره بسهولة.

ومع أن أحداً لا يستطيع إغفال وظيفته التربوية ودوره الإيجابي كمؤثر أول في صياغة شخصية التلميذ وتوجيهه إجتماعياً وفكرياً ضمن ضوابط الفلسفة التربوية الموضوعة من قبل الدولة، إلا أن ما يلاحظ قيام العديد من المعلمين انطلاقاً من متبنياتهم الفكرية أو المذهبية الخاصة، بإسناد مهمات إضافية لأنفسهم أدت إلى جعل المدارس حاضنات مناسبة للفكر المتطرف.

إن هذه المهمات الإضافية تمثلت بقيام هؤلاء باختطاف الدور الأبوي كله وإعطاء أنفسهم حق الموجّه والراعي والمربي والمفتي لجعل التلميذ أداة فاقدة الإرداة بين أيديهم وجعل أنفسهم بوصلة وحيدة تحدد كل نشاطاته ومساراته. ولم يقتصر الأمر حول الأمور الأخلاقية العامة التي تتعلق بأنماط السلوك الإجتماعي العادية، وإنما في أمور حساسة تتعلق بأدق التفصيلات الإعتقادية الدينية التي لايتاح أمر مناقشتها والحديث فيها عادة إلّا لكبار العلماء المتخصصين.

وعادة مايعتبر من يتمتع بقدر بسيط من المعرفة أو التعليم نفسه في ظل أجواء جهل سائدة قدوة ومثلاً أعلى! ونحن نتحدث عن هذه الأجواء في بيئات الجهل الصحراوية التي لم تتعرف على التعليم إلا بشكل متأخر. ومن هنا فإن

من يحتل درجة معلم في المدرسة الإبتدائية أو الثانوية يعتبر نفسه إلهاً مصغراً ويريد تلاميذه أن ينظروا إليه على أنه كذلك.

وقد ساعدت أجواء انفلات حماسي وفوضى صاخبة سادت ساحات المدارس والمساجد والبيوت خلال عملية التعبئة لإرسال متطوعين **(ونأخذ السعودية مثلاً)** إلى أفغانستان في أواسط الثمانينات، والحث على تقديم المساعدات للشعب الافغاني الذي كان يواجه **(الملحدين السوفييت)** على توجيه مسيرة الجميع بإتجاه واحد. وتوحدت فتاوى **(كبار العلماء)** مع تلك التي صدرت عن مفتيي القنوات الإعلامية وخطباء المساجد ومعلمي المدارس وحتى ربات البيوت المتحمسات للدعوة إلى **(الجهاد)**، طالما أنها كانت تصب في مصب واحد.. ولم يلمس أحد أيّ نشاز فيها. وقد ساعدت أجواء الإثارة العامة على استفحال ظاهرة إنتاج الفتوى في المدارس خاصة، وأصبح معلم التوحيد الوهّابي، يتسابق مع معلم التأريخ أو الرياضيات ومؤذن المسجد وحتى فرّاش المدرسة لصياغة مشاعره الحماسية في فتوى ملزمة توجب مساعدة المجاهدين بالروح والمال وكل وسيلة مناسبة.

وربما بدأنا نشهد من تلك الفترة بداية سيل جارف لفوضى غير خلّاقة نصب الجميع فيها أنفسهم فقهاء يفتون وفق **(مباني الشريعة)** تساعدهم على ذلك حصيلة كبيرة من آيات قرآنية تناسب كل فتوى وأحاديث نبوية منتقاة لترويج أفكارهم وقناعاتهم. فحفظ القرآن الكريم دون وعيه وفهمه أتاح للعديدين أن ينطلقوا دون حرج لتفسير آياته بشكل كيفي وقلب معانيه الحقيقية وتوظيف كل ذلك لمنهج جديد في التكفير والتبديع وما إلى ذلك.

إن وضع سلاح الإفتاء بيد المعلمين - وهم الفئة الأكثر تأثيراً في الأوساط الإجتماعية - جعلهم يبتعدون عن مهماتهم التربوية الأساسية إلى مهمات ليست من اختصاصهم، ألبسوها ثوباً دينياً براقاً للتأثير على التلاميذ

وشحن أذهانهم بمفاهيم وقيم جعلوها ملزمة لغرض زجّهم في فعاليات تخرج عن حدود الفعاليات المدرسية المألوفة. وقد تكون بإتجاه عمل تنظيمي حزبي تساعد عليه أجواء المدرسة وتقبل احتضانه ورعايته.

لقد اتخذت المناهج الدينية وسيلة لتمرير أفكار التطرف واستغلال تفسير نصوصها والتوسع في ذلك وطريقة عرضها لوضع مناهج بديلة أو رديفة من قبل المعلم نفسه مما أوجد حراكاً غير منضبط اعتقد التلميذ فيه أنه هو نفسه قادر على مثل هذا التفسير الكيفي وإنتاج فتاوى مماثلة. . . وإلا كيف نفسر سطوة القرارات أو الفتاوى التي يصدرها مفتي إحدى الخلايا النائمة أو إمارة دينية صغيرة في قرية نائية وهو لايملك حتى معلومات تلميذ مدرسة إبتدائية؟

○ ○ ○

لا شكّ إن المستفيد الأول من إضافة رصيد جيد إلى حسابه الإجتماعي في أجواء التوتر المحمومة هو المعلم بفعل تعامله مع الشريحة العمرية الأوسع والأسرع تأثراً وبفعل هيمنته الثقافية ومركزه الوظيفي.

وإذا ما كانت حصيلة جهوده حمداً وثناء وإعجاباً من قبل التلاميذ وأولياء أمورهم وكذلك من قبل المسؤولين والجهات الدينية المتنفذة، فإن نتائج ذلك سيصعّد من وتيرة تلك الجهود، وسيكون من الصعب إيقاف الحماس المتصاعد دفعة واحدة بعد فورته المتدفقة.

وربما يمكن اعتبار تلك المرحلة إعادة لمرحلة الإخوان الأولى التي صعّد فيها الملك عبد العزيز وتائر حماسهم لخوض غزوات مراثونية ضد جيرانهم كما تحدثنا عن ذلك من قبل، ثم قضى عليهم بعد أن تمادوا في حماسهم ووصلوا إلى حد محاسبته شخصياً عن الكثير من تصرفاته وبعد أن انتفت حاجته إليهم.

إنّ تنامي ظاهرة المد (**الجهادي**) قبل ربع قرن في السعودية ودول الخليج العربي وانتشار ظاهرة الفتوى والخطب الحماسية المؤيدة (**للجهاد**) في أفغانستان والتي دعمتها قوى عالمية في مقدمتها الولايات المتحدة، جعل الجميع يكتشفون في أنفسهم القدرة على إنتاج (**الفتوى**). ومن الطبيعي أن يكون في مقدمة هؤلاء المفتين المتحمّسين معلمو المدارس وخطباء المساجد وأضرابهم.. وربما وجدوا أن لديهم متلقّين يتقبّلون أفكارهم ويستجيبون لها. وربما انتقلت عدوى ذلك إلى المتلقّين من تلاميذ المدارس وغيرهم.

ولا يخفى أن أعداداً غير قليلة من هؤلاء المعلمين - وتحت عناوين متعددة - يبتعثون الى مختلف دول العالم بما فيها الدول الغربية لتغطية (**حاجات**) المدارس والمساجد والمراكز الإسلامية التي فاق عددها أربعة آلاف موقع حتى اليوم(١).

لقد بلغت أزمة المعلمين (**المفتين**) أوجها الآن، إذ اعتقد هؤلاء إنهم بالمعلومات الدينية التي حصلوا عليها أصبح بإمكانهم إصدار الفتوى وأحكام التحليل والتحريم. كما أن دورهم بترجمة وتفسير المناهج جعلهم يبتعدون عن أدوارهم التربوية المرسومة. وقد مهدوا لزرع التطرف في نفوس التلاميذ بمدخلات دينية قائمة على أساس الفكر الوهّابي السائد والذي يلقى رواجاً غير عادي لحد الآن بفضل الدعم غير المحدود لدول البترودولار في الخليج العربي.

إن غالبية حملة الفكر الوهّابي تتمثل بالخريجين من المدارس الدينية وكليات الشريعة.. وربما حسب هؤلاء أنفسهم بالمؤهلات القليلة التي

(١) وما يلفت الإنتباه ومنذ أحداث الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١ وحتى اليوم لم تسجل حالة أو يسمع أحد من هذه المراكز أو المدارس أي إدانة صريحة لإبن لادن، أو الطالبان، أو المذهب الوهابي.

يمتلكونها أنهم أصبحوا قادرين على الإمساك بزمام الفتوى خصوصاً إذا ما أصبح لهم جمهور كبير من المعجبين أو المشجعين.

ولعل معادلة واضحة ستتيح لنا فهم كيفية تسرب أفكار التطرف في المدارس طرفاها **منهج تكفيري ومعلم متفاعل ومقتنع بهذا المنهج** ويحاول إقناع تلاميذه بمفرداته بكل وسيلة.

○ ○ ○

المطالبون بتغير المناهج **(من الأميركان وغيرهم) على حق في مطالبتهم.** غير أنهم لايعرفون مايريدون. أما حاملو نفس الثقافة الإسلامية الذين يمثلون **(الآخر المذهبي وهم كل أبناء المذاهب الإسلامية الأخرى)** وكذلك القريب المذهبي أيّ بعض المنتمين للمذهب الوهّابي نفسه فيمكن ان يشخصوا مواقع الخلل في هذا المناهج ومعالجتها بموضوعية وواقعية وفق الحاجات الأساسية للتلاميذ. ويمكن أن يعالجوا الخلل الناتج عن تمادي معلمي التربية الدينية وخروجهم عن حدود المناهج.

وحتى لاتخرج عملية التغيير عن إطارها السليم، فينبغي أن تدار من قبل دول القرار بحكمة وتتخذ الإجراءات المناسبة للمباشرة بها من قبل لجان وطنية متخصصة كي لايقال أن التغيير قد تم إستجابة لإرادة دولية غربية، وحتى لاتدور معارك جانبية قد تعطل المشروع.



الفصل السابع

الوهّابية:
الغطاء الأيدلوجي لحركات التطرف وخلايا الإرهاب النائمة

حركات التطرف: أسلمة الشعارات وأدلجة العنف[١]

يدل حِراك الجماعات والأحزاب ذات التوجه المتطرف، مثل (**القاعدة**) و(**طالبان**) وكذلك الحركات والتنظيمات المسيّسة المتماهية معها في المغرب العربي ومصر وباكستان وغيرها والتي تجعل من (**الوهّابية**) مرجعية مذهبية وسياسية، أنها تسعى للهيمنة على الأقطار الإسلامية، وفرض نفسها بالقوة، بديلاً عن كل أنظمة الحكم القائمة فيها والمؤسسات الإسلامية التي تخالف توجهاتها، وتتهم الجميع بالكفر والخروج عن الإسلام.

إنها تحاول جعل خطابها الأيديولوجي ذي الطابع التعبوي الإنفعالي منتجاً وفاعلاً في أوساط المجتمعات الإسلامية لتحقيق أجنداتها في التغيير الذي تراه. وتدّعي امتلاكها الرؤية الصحيحة وفهم حقيقة الإسلام، وأنها - دون غيرها - اكتشفت الوسائل التي تؤدي إلى تفعيله وتطبيقه وبعثه من جديد في كل مفاصل الحياة إذا ما تولّت هي القيادة والتوجيه. وقد أعلنت في أدبياتها انها الجهة الوحيدة التي تمثل (**أهل الحل والعقد**)، أي الهيئة الإستشارية والتنفيذية العليا التي تمثّل المطلق (**الإرادة الإلهية**)، والتي لها حق

(١) المقصود بذلك إعطاء وصف إسلامي تلفيقي من مزيجَي الدين والتراث للشعارات السياسية التي ترفعها هذه الحركات وعرضها بشكل جذاب لتضليل الشارع الإسلامي واستمالته إلى جانبهم، وإعطاء العنف بعداً أيديولوجياً وجعله من صلب العقيدة والترويج له كوسيلة فعالة وسريعة للتغيير، والتنظير (لمشروعيته) على أساس (سوابق) تأريخية لبعض حكام المسلمين. وقد اعتبرت هذه الحركات العنف على أنه الوسيلة الأسرع والسلاح الأكثر فاعلية للوصول إلى السلطة دون اعتبار للأذى والترويع الذي تلحقه بالأبرياء الذين لاعلاقة لهم بأي لون من ألوان الصراع.

قيادة المسلمين والبشرية فيما بعد، وحق تفسير وشرح وتطبيق النصوص الإسلامية وفق رؤية زعمائها وقادتها.

لقد رأت نفسها مؤهلة لذلك بعد تجربة (طالبان) الفقيرة في (أفغانستان) عندما أسست إمارة فولكلورية (١٩٦٦ - ٢٠٠١م) ادعت أنها تطابق النموذج الأول الذي أقيم في (**المدينة**) على عهد النبي محمد ﷺ منذ حوالي ١٤٠٠ عام. وهو ما جعلها حتى بعد سقوط هذه التجربة المتخلّفة، على يقين من قدرتها على إعادتها وتحقيق مشروع (**الخلافة**) في أماكن أخرى مع أنه لاتوجد لها خطط أو برامج عملية مكتوبة لدستور إسلامي ذي بنود واضحة يحدد شكل هذه الدولة وتفاصيل عمل مؤسساتها.

لقد أصبح أحد شعاراتها الأيديولوجية المفضلة الذي اكتشفته مؤخراً، (**الإسلام دين ودولة**) جذّاباً بشكل خاص وذا بريق لافت. وقد جعلته إحدى وسائلها لكسب الأنصار، مع أن إقامة دولة إسلامية في كل مراحل التأريخ قد غاب عنها المقدس وتمت وفق (**إجتهادات**) لعبت فيها الطموحات الفردية دوراً كبيراً. وقد أقصي الأفراد المؤهلون لقيادة مثل هذه الدولة في مراحل مبكرة وأصبح شكل الحكم كيفياً ومتوارثاً وإستبدادياً في كل مراحله.

ومع ذلك، ومع كل شواهد التأريخ التي تثبت عدم قيادة دولة دينية - وإن استخدم الدين غطاء للدول والإمبراطوريات المقامة - تتغنى هذه الجماعات بالدولة الدينية الثيوقراطية التي يتزعمها (**خليفة = أمير المؤمنين**) معصوم يحفّ به مجلس شورى من أشباه الملائكة يسددون مسيرة دولة الخلافة المرتقبة وتتغنى بخلفاء الاستبداد السابقين وتشيد بأيامهم كنقاط مضيئة في تأريخ الإنسانية.

إنها تستحضر الآن تجربة (**طالبان**) المتخلفة التي لاتنتمي لأية حضارة والتي تبدو وكأنّها ولدت في مراحل ما قبل التأريخ، وكذلك تجربة (**الدّرْعِيَّة**)

القديمة منذ نحو ٢٥٠ سنة في (**منطقة نجد**) الصحراوية البعيدة عن تخوم الحضارة أيضاً والتي قادها شريكان طموحان هما (**شيخ الدين محمد بن عبد الوهّاب وشيخ القرية محمد بن سعود**)، وتجعل منهما مثالاً على مصداقيّتها وقدرتها على إعادة تجربة إقامة إمارة دينية مماثلة. إنّ هذا سيظل هاجس هذه الجماعات الأبديّ إلى أن تتحقق من عقم ذلك واستحالته.

ومع أنّ هاتين التجربتين قد فشلتا وفق المقاييس الإسلامية، وكان دورهما مقتصراً على تعزيز القطيعة والنفور وإشاعة أجواء لا عقلانية، متوترة ووحشيّة، فإنهما شخصتا في مخيال الحركات التي تتبنّى الرؤية الوهّابية المتأزمة والمتشنجة كأكثر الأحداث توهجاً ومبعثاً على الفخر وكأنهما حققتا الحلم الذي انتظره جميع المسلمين في العالم. وقد رتّبت على أساس ذلك مسؤولية إعادتهما كأمر ممكن التحقيق.

وفي هذا المسار أخذت تستخدم بشكل لافت ومفتعل بعض الشعائر والطقوس والمفردات الكلامية ذات الرنين الخاص والتي كانت متداولة في السابق مثل الإسماء والكنى والألقاب (**أبو قتادة، أبو مصعب، أبو عمر، أبو القعقاع، أبو اليزيد**، . . .الخ) والأشكال التراثية (**الملابس القصيرة واللحى الطويلة وغيرها**)، باعتبار أن ذلك عودة محمودة إلى الماضي المجيد ولغرض تعزيز مواقعها ونفوذها في قلوب الأتباع والأنصار الذين أرادتهم، بأداء تلقيني وتحريضي واضح أن يكونوا مبهورين ومنفعلين دائماً بما تعرضه عليهم من صور (**خلّابة**) فهي تستحضرها بكل أشكالها وتلويناتها. وكأنه لم يتبقَّ - لإكمال مشروع إقامة خلافتهم الإسلامية - سوى هذه اللمسات الأخيرة.

إن استحضار أداء الغزاة الوهّابيين في كل الأدوار، والذي امتاز بوحشية مبالغ فيها. وتقليد غلوِّهم المفرط الذي رافق حراكهم العنيد والمثابر الذي لم يتخلوا فيه عن شعار تكفير جميع المسلمين واعتبارهم اعداء ينبغي قتلهم

ومصادرة أموالهم والإستحواذ على نسائهم وأطفالهم كعبيد يحق لهم التصرف فيهم. أُريد له أن يبرز كعمل بطولي رائد جدير أن يقتدي به كلُّ مَنْ يريد تحقيق دولة (**الخلافة الإسلامية**). .

كما أنّ إسقاطات هذه الشعارات الحماسية الصاخبة التي لاتدل على أيّ فهم للإسلام أو وعي بحقيقته أنتجت ما يمكن أن يسمى أيديولوجية مفخخة تعتمد العنف بلا حدود وتستخدم الإرهاب كجزء من سياسة ستراتيجة وكسلاح فعّال ومخيف لإشاعة الرعب بين صفوف مخالفيهم ومنعهم من التفكير بمواجهتهم أو التصدي لهم.

وهذا السلاح إذا ما استخدم من قبل أشخاص إنتحارين ضمن مجموعات محاربة متشددة أو خلايا نائمة مجهرية غير مرصودة، فإنه كفيل بإحداث آثار مروعة وزعزعة الشعور بالأمن والإستقرار والثقة في أماكن عديدة من العالم.

إنّ ستراتيجية الإرهاب يمكن أن تلجأ إلى تكتيكات عسكرية غير مألوفة لا يمكن أن تخطر على بال أحد إذ أن المواجهات التقليدية المباشرة محفوفة بالمخاطر، ولن تحقق نصراً سريعاً، وربما أطاحت بالذين يلجأون إليها وألحقت بهم أضراراً فادحة.

○ ○ ○

الأيديولوجيا أولاً

ربما تنشأ الأيديولوجيا نتيجة معلومات متلقاة حول موضوع بعينه، ديني أو سياسي أو إجتماعي أو عاطفي. وفي عصرنا هذا قد تلعب وسائل إعلام متطورة ومتخصصة بما فيها المؤسسات والجمعيات والأحزاب الدينية دور المروّج لمنظومة معلوماتية لتقوم بدورها بترويج ثقافتها وأفكارها وضخّها في عقول أجيال يافعة قليلة الخبرة. وهو الأمر الذي ينبغي مراقبته من قبل الدول والجهات التربوية والثقافية الحريصة على هذه الأجيال.

إنّ قوة وضعف مشاعر الشباب على وجه الخصوص يرتبط بمدى تاثرهم واهتماهم بما يطرح عليهم أو يتلقونه لكي يتفاعلوا وينسجموا معه. وقد يولّد هذا ما يمكن أن يسمّى عقيدة أو أيديولوجية، والتي ستتخذ فيما بعد نسقاً متجانساً مقبولاً في أذهانهم. وذلك يعتمد على قوة الآلة الإعلامية المرّوجة لهذه الأيديولوجيا وبراعتها وكفاءة القائمين عليها وعلى مدى حذق المؤسسات الراعية لها.

وعلى هذا الصعيد ينبغي أن لاتغفل الخصائص الفردية وامتياز بعض الأشخاص على غيرهم في مستوى الوعي والطموح وتباين التأثر بالأفكار التي تطرح. ولسنا بحاجة للإسهاب في الحديث عن المطبّات والفخاخ التي قد يقع فيها متلقّو هذه الأفكار إذا ما كانت قائمة على أسس غير مقبولة وذات أرضية هشّة أو مبنيّة على مجرَّد حماس أو تعصب ديني أو مذهبي.

على إنه قد لا يمكن في البداية ملاحظة تكوّن إتجاهات واضحة لدى الأفراد بشكل مباشر، غير أنه يمكن استنتاج ذلك من ملاحظة مجمل سلوكهم وآرائهم في المواقف المختلفة.

وتساعد جغرافيا الإنتماء السياسي أو الديني أو المذهبي الواحد (خاصة) على تأصيل القيم والعقائد السائدة وتوريثها لأجيال جديدة، أريد لها منذ البداية أن تكون معجبة ومبهورة بالسائد الموروث، وكذلك ببعض القادة والرموز الذين شخّصوا قدوةً، معصومين أو قليلي الأخطاء.

وفي حدود الجغرافيا المغلقة يقاوم الناس تغيير إتجاهاتهم أو يغيرونها ببطء. فالحدود الدينية والمذهبية القائمة ذات السطوة على الأغلبية تساعد على تعزيز هذه المقاومة وتأصيل هذه الإتجاهات وكسب الآخرين إلى جانبها وتسويقها كإتجاهات وحيدة ليس لها بديل لتسيطر على قيم وأخلاق المجتمع ذو التوجه الواحد.

ونؤكد هنا: إن ذلك لايتم بتلقائية ودون تدخّل. فوجود القادة الدينيين والسياسيّين المتحمسين وذوي القناعات الثابتة والمحرضين على سيادة ومفاهيم وقيم بعينها، سيكون عاملاً فعالاً لبسط أيديولوجيتهم وإقناع الآخرين بتبنّيها.

ولايهم المنتسب لأية أيدلوجية، وخصوصاً الشموليّة التي تدعي قدرتها على حل كل مشاكل المجتمع، أن يقتنع الآخرون أو لايقتنعون بمتبنّياته أو حتى إذا حاربوها ووجدوا عليها بعض المآخذ والطعون، فسيعزو ذلك إلى جهلهم أو نقص معلوماتهم أو تعصبهم و(ضلالهم).

إنّ دوائر الإنتماء العائلي والقبلي والإجتماعي تحصّن أبناءها من كل جديد وافد، وترى فيه خطراً عليها لذلك فانها تعزّز الحدود المذهبية وتجعل منها طوقاً خديدياً غير قابل للإختراق.

○ ○ ○

وفي مراحل مبكرة من حياته، قد يكون الفرد مجرد متلقّ للقيم والمعتقدات الموروثة، لايملك حصيلة معرفية أو عقلية كافية لمناقشة صحتها أو تحليلها. وإذ أنه يرى تمسك واهتمام ذويه أو مجتمعه بها، فإن ذلك ينعكس عليه، لتكون في مخياله بمنزلة المقدّس الذي لا يمكن التنازل عنه حتى وإن أصبح فيما بعد يمتلك القدرة على المناقشة والتحليل واكتشف أخطاء فادحة وثغرات كبيرة فيها.

إنه بدلاً عن قيامه بمناقشة ذلك وتصحيح الخطأ، سيوظف قدراته العقلية ومعلوماته للبحث عن براهين جديدة لترسيخه لكي يستطيع توريثه لأولاده وأحفاده فيما بعد وإقناعهم بشكل (جازم) بصحته.

إنّ المجتمع المغلق على دائرة دينية أو مذهبية أو سياسية ينتج وليداً

مشابهاً للآخرين. وسيتسابق معهم لإثبات فرادته في مجال واحد فقط، وهو الأسلوب الذي سيلجأ إليه في التعبير عن قناعاته المتوارثة وماسيلجأ إليه من خطط لرسم أسلوبه الخاص الذي يتّجه إلى نفس المصبّ.

إن الأمور بدأت الآن تتغير وبدت بعض جدران الحدود تتساقط، وتلاحظ فيها العديد من الثغرات بعد أنْ بدأت مدن العالم تتقلص إلى بلدة واحدة صغيرة، بفعل وسائط الإتصال المعلوماتية والفضائيات الحديثة والتنقّل السريع وغيرها. ولا بد أن يرتّب ذلك مسؤوليات إضافية على من اعتبروا أنفسهم حرساً قديماً أو دائمياً وكذلك على المؤسسات التابعة لهم أيضاً بإتجاه التشبث بالموروث المتعارف والحفاظ عليه. ولا بد أنّ العولمة قد ألقت بأحجارها في المياه الراكدة وجعلت الكثيرين يشعرون بالقلق والخوف، وأن يكون أكثرهم شعوراً بذلك مَنْ يعلمون ضعف حصانتهم تجاه ما انهمر ويُتوقع أن ينهمر عليهم من سماء هذه العولمة. إنّ بعض هذه المخاوف مبررة على أيّ حال. غير أن ردود الفعل على كل ذلك لن يكون واحداً من الجميع. فمن يشعرون بالضعف وقلّة الحصانة سيلجأون إلى أساليب (**دفاعية**) قد تفاقم الأمور سوءاً حتى لو اقتضى الأمر اللجوء إلى العنف وأساليب الردع، وستؤدي هذه الأساليب التي لن تكون مقبولة أو متحمّلة دائماً إلى المزيد من الإنفجارات والثورات.

وقد بدأ التناقض نتيجة كل ذلك يلاحظ في بعض المجتمعات الإسلامية (**ونأخذ مجتمعات شبه الجزيرة العربية في السعودية وإمارت الخليج مثالاً**)، إذ بدأنا نشهد خروجاً واضحاً عن المألوف لدى بعض الشباب وتشبثاً مفرطاً به لدى البعض الآخر. وإذ أن الجانب المتشدد الذي يحاول التمسك حتى بآليات هذا المألوف الموروث لا يزال هو الأقوى بفعل الدعم الإجتماعي والمالي من قبل الكبار فإنه سيظلّ قادراً - ولو إلى أمد محدود - على تصدير

رؤيته بالوسائل التي تتيحها العولمة ووسائط المعلومات الحديثة أيضاً إلى فئات واسعة من الشعوب الإسلامية الفقيرة المبهورة بأدائه الظاهري للطقوس وكثرة مساجده. فهو لا يزال بنظرها (**الحارس الأمين**) للإسلام.

والواقع إن المسلمين الذي يستحضرون الجوانب الحضارية البنّاءة للإسلام والذين لايرون فيه تناقضاً مع معطيات العصر الحديث ووسائله ومتغيراته، لن يشعروا بأي قلق حيال التغيّرات السريعة في العالم وسيجدون الوسائل اللازمة للتفاعل معها والإفادة منها. بل إنهم يدركون قبل غيرهم أنّ الخطر عليهم هو من داخل مؤسستهم الإسلامية نفسها ومن قبل التيارات الدينية المتخلّفة التي أعطت لنفسها حق الوصاية عليهم جميعاً.

○ ○ ○

إنتشار أفكار التطرف على أساس أيديولوجي

إنّ إدراك مضمون وبُنْية أية أيديولوجية، هو الذي يتيح فهمها والتعامل معها ومواجهتها بآليات عمل مناسبة. وهذا لا يمكن أن يتم من خلال التعرف على الشعارات المرفوعة فقط، والتي قد تكون مموّهة أو استعراضية حماسية مضلّلة، دون الإلتفات إلى حقيقة النتاج الواقعي الذي تفرزه. فقد تكون هذه الشعارات نقيضاً لحقيقتها.

وإذ أن موضوع دراستنا هو: (**الوهّابية**)، المرجعية الأساسية لكل حركات التطرف التي تحمل شعارات إسلامية برّاقة ومضلّلة مثل (**القاعدة**) و(**طالبان**) وبعض حركات التطرف والخلايا الرديفة والمشابهة في السعودية والمغرب العربي ومصر والصومال واليمن وبعض إمارات الخليج وأماكن عديدة أخرى من العالم الإسلامي وغيره، فإن أيديولوجية هذا الخط ينبغي أن تسلط عليها الأضواء وتدرس بعناية لكي تمكن مواجهتها وتفنيد الأسس القائمة عليها.

ولعل ما قام به الوهّابيون الذين لايمثلون إلا أقليّة ضئيلة من المسلمين لاتتجاوز خمسة بالمائة من فعاليات قتالية وحروب وغزوات دموية ضد مسلمي شبه الجزيرة العربية وغيرهم بحجج واهية طوال تأريخهم، ومنذ تأسيس الإمارة السعو-وهابية الأولى سنة ١٧٤٥م وحتى الآن، أصبح هو النهج والأسلوب المفضّل الذي تتبنّاه حركات العنف المعاصرة.

ورغم قلة هذه النسبة، إلّا أنها تثير قلق ومخاوف الجميع، مسلمين وغير مسلمين، لأنهم قد وضعوا الجميع في خانة المنبوذين حسب تصنيفهم الوهّابي. إنها نسبة تضم بضعة ملايين مسلح بثقافة الكراهية وأيديولوجيا العنف يساندهم داعم قوي وغني متمثل بحكومات وشركات مالية عملاقة وجمعيات وأفراد والآت اعلامية فعالة. وهذا لا يمكن أن يستهان به أو ينظر إليه باستخفاف.

إنّ محاولات الوهّابيين عرض عقيدتهم كأيديولوجية إنقلابية جذرية تستهدف الإصلاح وتستند إلى مباديء الإسلام الصحيحة، لاتصمد أمام واقعهم المتأزم والمقطوع عن الجذر الإسلامي العام وأمام تأريخ فعالياتها العنيفة وسجالاتها ومعاركها مع الأغلبية من المسلمين، فهي حركة نزيلة نشأت وفق فهم ورؤية منحرفين وسطحيين.

إنها لم تكتف بعدم تقديم الرؤية الصحيحة للإسلام وحسب بل حاولت تشويه الرؤية القائمة. وهذا ما ينبغي الإلتفات إليه جيداً.

○ ○ ○

«الوسطية»: ادّعاء مضلل لتمرير فعاليات المتطرفين

غير أن هذه لا يمكن أن تصنّف في عداد الأيديولوجيات الإنقلابية الكبرى التي أنتجت أنماطاً حياتية جديدة أو فاعلة، بل أنها بالتأكيد أيديولوجيا نابعة عن رؤية شخصية محدودة لمؤسسها الذي حمل أجندة خفية لتخريب القيم

الدينية والذي لم يجتهد في حدود ضوابط وأدبيات وأصول الفقه والحضارة الإسلاميتين، ولم ينتم إلى أية مدرسة فقهية معروفة، وقد اكتسب سمعة سيئة، طالما كانت مدعاة فخر لأتباعه، في مجال الإرهاب والردع والتطرف. وربما يحاول هؤلاء الآن تحت وطأة استهجان العالم لما يقوم به الوهّابيون الحركيون وأعضاء الخلايا النائمة، التنصل من هذه التهمة وعرض مذهبهم بديلاً مقبولاً عن المذاهب الإسلامية - السنيّة على وجه الخصوص - وانه حركة تمثل الإعتدال و(الوسطية)، وذلك لتضليل الرأي العام والمؤسسات البحثية المعنيَّة والدول الكبرى المتصدية لفعاليات الإرهابيين والتي تحيرها حقيقة الوهّابية خصوصاً وان الدولة والمؤسسات الراعية والحاضنة لها في السعودية وإمارات الخليج تقيم أطيب العلاقات مع الغرب وتدعي الشراكة معه لمواجهة الإرهاب. إن الجميع يخوضون عملية نفاق محسوسة ومتبادلة إلّا انها غير ظاهرة للسطح لجس النبض والتربص بالآخر، مع ان الوقت قد ينفذ ولايتسع لمثل هذه المواقف التي تنم عن خداع مبيّت، وقد يمهد لتطورات سريعة ربما تلحق أفدح الأضرار خصوصاً وأن خلايا الإرهاب النائمة والمتحفِّزة التي لا يمكن الحد من فعالياتها وضرباتها بأساليب الردع العادية، قد تنشط في أماكن غير متوقعة لتنفيذ ضربات مؤلمة تطيح بأمن العالم وإستقراره.

○ ○ ○

تمرّد الوحش الوهّابي

لقد أدرك المسلمون ممّن اكتووا قبل غيرهم بنار الوهّابية مخاطر توجهاتها الموغلة بالعنف والقائمة على أيديولوجية مُصممَّة على انتهاج البشاعة والشدة لتنفيذ مشروعها وجعل القوة والعمليات المسلحة والقتل أساساً لكل فعالياتها الأخرى. وقد بدت، أنها لا تريد أن تتخلى عن خيارها المفضل هذا في كل

مراحل وجودها وحراكها المثابر والحماسي. إضافة لما اعتمدته من نهج تلقيني لأفكار مؤسسها وتعاليمه.

وتبدو حاضنة التطرف الأولى وراعيته، المملكة السعودية، التي أقامت كيانها وشرعيتها على أساس الرؤية الوهّابية متورطة ومثقلة بأعباء وتداعيات الفعاليات العنيفة لأنصار هذه الرؤية، وبدت عاجزة عن السيطرة عليها بقيودها التقليدية التي استطاعت تكبيله بها من قبل. فقد بدأ أنصار الوهابية يراقبون بعين متيقظة قادة وأمراء الدولة أنفسهم ويحاسبوهم بصرامة لخروجهم الواضح عن الموروث الوهّابي المتزمت والجامد والتي لُقِّنَها بشكل نمطي مكرور خلال مائتي وخمسين عاماً وأصبحت تشكل عصب ثقافته ورؤيته، وأصبحت لتعاليم شيخه الأول قداسة تعاليم النبي محمد ﷺ نفسه. إن أحداثاً سابقة جعلت المملكة السعودية مهزوزة وعلى حافة الإنهيار مثل الإنشقاقات العائلية التي أطاحت بدولتها الأولى والثانية وتمرد (الإخوان) على مؤسس الدولة السعودية الثالثة[1] سنة ١٩٢٩ وحادثة الحرم المكّي[2] سنة ١٩٧٩ والتي لم تستطع فيها

---

(١) حاولت الوهّابية إضفاء الشرعية على حكم آل سعود وبررت استخدام العنف. وقد جنّد عبد العزيز آل سعود مؤسس المملكة الثالثة (الإخوان) وهم قوة عسكرية قتالية من البدو بموجب فتاوى أصدرها رجال الدين المتحالفين معه. وقد تطلع هؤلاء الإخوان لتوسيع عملياتهم القتالية خارج المملكة، مما أغضب الإنجليز، فأصدروا أوامرهم لمنعهم من ذلك فلم يقتنعوا وقد استصدر عبد العزيز فتاوى دينية أخرى تجيز قتالهم فتم القضاء عليهم بمساعدة القبائل الموالية والقوات الإنجليزية في عدة معارك سنة ١٩٢٩ بعد أن توسع نفوذهم وخطرهم.

(٢) التي أسميت بحادثة مكة حيث سيطرت مجموعة من الجيل المتأخر للوهابيين المنشقين الذين هم إمتداد (للاخوان) على رأسها جهيمان بن محمد العتيبي على الحرم المكي واعتصمت بداخله ونددت بحكم آل سعود ودعت للثورة عليه، وكادت أن تنجح بزعزعة العرش السعودي لولا استعانته بقوات فرنسية وألمانية ضاربة اجتاحت الحرم وقضت على الثائرين المعتصمين.

القضاء على بضعة عشرات ممّن قاموا بحركة تمرد لو لم تستدع قوات فرنسية وأجنبية أخرى خاصة لهذا الغرض!.

إن قادة هذه الدولة يرتجفون فزعاً إذا ما تصوروا حصول أحداث مشابهة، فقد لا تتاح لهم فرصة ضرب خصومهم في داخل الخط الوهّابي نفسه لسببين رئيسيين:

١ - **أنها ستفقد شرعيتها** بنظر أعوان هذا الخط نفسه والتي أقامتها على أساس الإلتزام بتعليمات الشيخ محمد بن عبد الوهّاب وستحدث انشقاقات ومعارك جانبية بينهم.

٢ - **عدم قدرتها على التصدي** لنقد أفكار هذا الشيخ المتبناة من قبل الجميع وقد عرضته هي كأعظم مصلح إسلامي لا ترقى إليه معايير النقد والشك في حملات ثقافية متتالية.

وبدا الجيل الوهّابي الأحدث أكثر صرامة في التعامل مع تعليماته وأكثر ميلاً لمحاسبة رموز المملكة وأقطابها وأمرائها الذين تبلغ أعدادهم الآن عدة آلاف ينغمس أغلبهم في عمليات فساد وإنحراف وترف فاضح وغير مقبول. وسيعمد هذا الجيل لتطبيق المعايير الصارمة لأفكار الشيخ على تصرفات الأمراء والمسؤولين وستتيح فرص النقد لجميع أفراد المملكة لهؤلاء. وهذا من الممنوعات الكبرى التي لا تسمح بها حتى في الأحلام. ربما ستجد المملكة نفسها مجبرة على تفكيك الوهّابية وخلق خطوط وتيارات مضادة لها في الداخل غير أن هذا يمكن أن يحصل في وقت متأخر وربما بعد فوات الأوان وهذا ماسيوقعها بإرباك أشد إذا مالم تعمد إلى خطة حازمة ومدروسة وعاجلة لتحسين أوضاع مواطنيها واقتلاع أفكار الشيخ الوهّابي وإيقاف تلك الصورة المزورة له والتي دأبت على تقديمها طيلة كل هذه السنين، أو عرضه على الأقل كواحد من الفقهاء المجتهدين الذين ليس بالضرورة الإلتزام بآرائه

وفتاويه، ليفسح المجال لحرية دينية حقيقية يستطيعون فيها أداء شعائرهم وطقوسهم حسب قناعاتهم.

○ ○ ○

إدمان العنف: أيديولوجيا متوارثة

لفهم أيديولوجية الوهابيين لا بد من معرفة منظومة الأفكار والمثل التي تبنّوها منذ بداية نشأتهم والتي أصبحت نسقاً متجانساً مقبولاً من جماهيرهم في مزيج من أفكار ومثل دينية وقبلية زاوج بينها الشيخ لتصبح خلال مسيرة طويلة مقبولة لدى أتباعه وأغلبهم من البدو الذين شكّلوا عماد حركته. ولم تكن الوهّابية التي قامت على أكتاف هؤلاء وبسيوفهم حركة إصلاحية حقيقية وإنما حركة جمعت بين التوجه البدائي والطفولي. إنها مزيج بين نزعة قبلية تقليدية ونزعة قبلية مبتكرة قائمة على أخوية دينية متضامنة أصبحت بديلة عن القبائل الأم. فالبدوي يجد أن عليه لكي يحافظ على وجوده وحياته، أن ينصهر مع جماعة يتجانس معها ويحمل تطلعاتها ويرى ماتراه ويذوب فيها كما يذوب في قبيلته الأصلية، وكان التجمع (الأخوي) الديني البديل النموذجي الذي أرضى شتات البدو المعجبين بتعاليم محمد بن عبد الوهّاب التي ستلبي حاجاتهم عن طريق الغزو لنيل خيرات الدنيا والآخرة.

إنّ الذين ألفوا الحياة المدنيّة واعتادوا الإلتزام بقوانينها، لن يُتاح لهم بسهولة فهم طبيعة الحياة القبلية الأقرب للبدائية وفهم كل طقوسها وفعالياتها. ولن يتفهموا سر الخضوع العام من قِبل كل فرد فيها للمجموع، فمثل هذا الخضوع لقيم القبيلة العامة والتي هي مزيج من موروث قبلي وديني يحفظ القبيلة بنظر كل فرد فيها من التمزق والاختلاف وأن تصبح لقمة للقبائل الأخرى..

إنّ عقل القبيلة غالباً مايكون واحداً، عقل قطيع متجانس، وحتى الطقوس البدائية قد تبدو ضرورية لديمومة ماتؤمن به. وقسوة الحياة والبيئة تقابلها قسوة مماثلة من أبناء تلك البيئة. وهكذا فإن قانوناً قديماً متوراثاً للغزو أصبح مشروعاً بل وضرورياً، فقد حكم الصحراء منذ آلاف السنين وتحكم في عقول أبنائها حتى أصبح متحكماً بغرائزهم. فهم يعلمون أنهم مأكولون إن لم يأكلوا غيرهم. وعلمهم في سبب ذلك لا يتجاوز علم أيّ ذئب أو مخلوق آخر من مخلوقات الصحراء. قيم الصحراء تبقى حتى وإن تبدّل مظهر الحياة وسكن البدوي في مدينة حديثة.

وإذ أنّ الوهّابية حملت منذ نشأتها مشروع إقامة دولة أو إمارة **(إسلامية)**، فإنها أرادت توظيف الموروث الديني في إطار الجغرافية المذهبية في منطقة النشوء وهي **(نجد)** في شبه الجزيرة العربية، وأعلنت أن مشروعها ديني إصلاحي بحت يهدف إلى تخليص الدين من مظاهر **(الشرك)** وإعادته إلى حقيقته التي ادعوا أنها قد غُيّرت، وهي حجة مفتعلة بالطبع. كما ادّعوا أنّ ما يقومون بتأسيسه في **(إمارة الدّرْعِيَّة)** الناشئة ماهو إلّا تطبيق فعلي لمشروع الدولة الإسلامية وأنهم يريدون توسيعها وبسط نفوذها في كل مكان فيما بعد.

وطبيعي أن تكون في مقدمة الآليات التي أعلنوا عنها واعتمدوها فيما بعد هي الغزو المسلح والقضاء المبرم على العدو المغلوب وتدميره وفق فتاوى وأحكام دينية جهزها الشيخ محمد بن عبد الوهّاب وهي غير قابلة للنقاش أو المراجعة.

إن اللعب بورقة الدين لإقامة دولة كان عملاً يدل على حنكة اللاعبين وبراعتهم، فهذه ليست سابقة أولى، وقد لجأ إليها العديد من الطموحين العرب الذين أسسوا ممالك وإمبراطوريات في السابق، فلم يكن ممكناً لهم

إبعاد الشعارات الدينية على الأقل وهم يقومون بمثل تلك المشاريع الكبيرة. وقد أشار إلى ذلك مفكر عربي قديم هو ابن خلدون في (**المقدمة**) بقوله:

«**إن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوَّة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين**»(١).

لقد كان محمد بن عبد الوهّاب مخططاً ستراتيجياً بارعاً إذ كان يمّهد لبسط أفكاره المقطوعة الجذور عن الفكر الإسلامي العام والتمهيد لغزو فكري رديف لغزواته العسكرية التي اتسمت بطابعها الدموي المرعب حالما استطاع تكثير أتباعه من شباب البدو الذين امتازوا بفقرهم الثقافي والمعرفي وعدم ميلهم إلى التفاهم واندفاعهم الأهوج، مما جعلهم ينالون سمعة اسطورية بالفتك وفنون الإرهاب التي تحدثت عنها الأمهات والقصاصون وناقلوا سير ويوميات الغزو الوهّابي، وأعطيت لوناً من ألوان القصص الشعبي المثير.

ولا شكّ أن العنف الذي اعتمده شيخ الوهّابيين وشركاؤه هو عودة للبدائية الأولى في أشد أشكالها همجية، إذ لم يكن بوسعهم اعتماد الحوار والاقناع لاستمالة الآخرين أو تشجيعهم للاستجابة له طالما أنهم لايملكون المؤهلات اللازمة لذلك.

لقد جعلت الوهّابية العنف طابعاً عقائدياً قائماً على التعصب التام لأفكار الشيخ محمد بن عبد الوهّاب وأيدلوجيته المذهبية ذات الأفق المحدود والمؤطر برؤيته الشخصية للدين. وقد أصبح هذا الطابع متوارثاً عبر الأجيال.

إن مؤرخي يوميات الغزو الوهّابي مثل (**ابن غنام**) و(**ابن بشر**) ومؤلف (**لَمْعُ الشّهاب**) بدوا على الدوام فخورين إلى حد التبجح بأعداد ضحايا

---

(١) عناني، محمد. وسرحان، سمير: «المختار من مقدمة ابن خلدون». ص ٩٨ (ط ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م).

الغزوات التي تصاعدت بشكل ملحوظ أيام عبد العزيز بن محمد بن سعود وابنه سعود. وقد أصبح ماقاموا به مدعاة لفخر أجيال لاحقة ومعاصرة. وتبدو محاولات الوهّابيين الآن لإعادة العنف واعتماده أساساً للمواجهة مع العالم تقليداً لتجربة الأسلاف واحتفاء بها. وقد أعطوها طابعاً مقدساً وأولوية لبسط نفوذهم بالقوة، طالما ان المجتمعات الإسلامية التي يصفونها بأنها جاهلية لاتنتمي للإسلام، لم تقتنع بأطروحاتهم الدينية وتجربتهم المحدودة التي لا تلامس إلا العقول البدائية والطفولية المحدودة والعاجزة عن الإقناع والتفاهم. إنّ لجوءهم إلى العنف يشكل إحدى حالات العجز المستعصية التي لا تستطيع حصيلتهم الثقافية والمعرفية تجاوزها أو حلّها.

○ ○ ○

ثقافة العنف، وتجنيد الإنتحاريين

لقد بدا العنف من سِمات الأيدلوجية الوهّابية، التي ستبدو لمعتنقيها غير مستساغة وغير ذات طعم مقبول إذا ما جردت منه وربما تثبت دراسات شاملة انها كانت دائماً مقرونة به وقد أفرزته كحصيلة متوقعة للتعصب العقائدي والنظرة المحدودة التي اتسمت بها، وبدا أسلوبها التلقيني ذو السطوة الآمرة بديلاً مناسباً لأدوات البحث العقلية والمنطقية.

وقد تجيب هذه الدراسة ودراسات تخصصية مماثلة عن التساؤل في أسباب ذلك ومغزاه وكيفية تكونه وعدم قدرة الوهّابيين عن التخلّي عنه. فقد يكون العنف الظاهري الملموس تعبيراً عن عنف أو انفجار نفسي أو روحي مكبوت ناتج عن الشعور بالعجز عن كسب الآخرين بوسائل الإقناع المعروفة. فحالة العجز هذه واستعجال النتائج التي يريدون التوصل إليها قد تجعلهم يلجأون إليه كوسيلة سريعة وفعالة لترويج كفتهم ودحر خصومهم وكسب الأنصار إلى جانبهم.

إنّ هناك من يعتبر العنف - وفقاً للمهمة التي يقوم بها - رجعيا أو تقدمياً(١).

ألم يدَّعي جميع الذين يمارسون العنف أنهم يسعون لتحقيق أهداف تقدمية تتطلع للامام وأنهم يسعون لتحقيق إصلاحات حقيقية وجذرية تهدف إلى إنقاذ شعوبهم وتحريرها من قيود الماضي الذي سيدّعون جميعاً أيضاً أنه ماضي متخلف؟

وإذ أنهم - إذا ما نجحوا - سيكتبون تأريخهم وتأريخ الآخرين وسيعرضون أنفسهم على أنهم دعاة إصلاح حقيقي، وسيتشدقون بإنجازات وهمية وشعارات مغرية ومضللة، وسيجعلون الناس تنسى انتهاكاتهم في خضم ما يستجد من أحداث وبفعل تقادم الزمن وعدم وجود أرشيفات دائمية في أماكن محايدة لتوثيق كل حالات العنف والبطش التي قاموا بها والتي لا يمكن

---

(١) يقول الدكتور نديم البيطار: **«قد يكون العنف في دوره التأريخي، تقدمياً وقد يكون رجعياً، فإن حاول صيانة واستمرار نظم تجاوزتها قوى التأريخ كان رجعياً، وإن حاول تحرير تلك القوى من قيود الماضي، وإنماء نظم جديدة بتهديم نظم تقليدية أصبحت طاغية، كان عنفاً تقدمياً»**. البيطار، نديم: «الآيديولوجية الإنقلابية». ص ٤٣٧. (ط بيسان للنشر، بيروت، ٢٠٠٠م).

وهنا نتساءل عن المعايير التي يمكن بها معرفة صحة ذلك وحقيقة النظم التي تريد الحلول محل سابقاتها ونوايا وأجندات أصحابها؟

على أن هذا المفكر العربي نفسه يعترف بأن هناك أسباباً عديدة تكمن خلف ذلك العنف. يقول: «هناك، ولاشك، أسباب عديدة تكمن ورآء العنف السياسي. فالطموح الشخصي، حب التسلط، الأنانية الفردية، الميول الغرائزية، الخوف، الميل إلى سفك الدم، كسب الغنائم، الانتقام، المنافع التجارية والاقتصادية، مواجهة أزمات خارجية، . . . إلخ. تساهم كلها في توليد العنف ودرجته. . .». ن. م. ص **٤٣٨**.

وبمثل هذا: فهل نستطيع تجريد الحركات التي تدعي التقدمية والإصلاح من هذه العوامل التي أشار إليها لمجرد أن قادتها رفعوا شعارات مضللة براقة أثبت التأريخ زيفها وبطلانها فيما بعد؟

تبريرها بأية ذريعة مقبولة[١]. وربما يمكن قبول فكرة أنّ العنف «**يأخذ أشد أشكاله عادة عندما يكون في خدمة مواقف أيديولوجية**»[٢] إذا ما طبقنا ذلك على الوهّابيين الذين تعصبوا لشيخهم ومذهبهم الذي ابتكره والذي اعتبروه خلاصة للفكر الإنساني الخلّاق المتجدد وطريقاً للخلاص من عهود التخلف والإنحطاط، واعتبروا أنّ ما قاموا به جزءاً من ضرورة تأريخية لا بد منها لكي يحققوا أهدافهم ووصايتهم على الآخرين الذين اعتبروهم قاصرين عقلياً ومضلَّلين لا يمكن علاجهم إلا بالقتل.

○ ○ ○

---

(١) فكيف تبرر أعمال إرهابية مثل غزو كربلاء في نيسان ١٨٠٢م وهي مدينة غير محصَّنة يقطنها حوالي ستة آلاف شخص، كما ذكر: دوكرانسي، لويس: «الوهّابيون». ص ٣٠. (ط ١، دار رياض الريس، بيروت ٢٠٠٣م). ويقول عثمان بن بُشْر النجدي، مؤرخ الدولة السعودية في كتابه «عنوان المجد في تأريخ نجد». ص ٢٢١ و٢٢٢. (ط ١، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، طبع في مجلدين بدون تأريخ)، متفاخراً ومتباهياً (. . . سار سعود بالجيوش المنصورة والخيل والعتاق المشهورة. . . وقصد أرض كربلاء ونازل أهل بلد الحسين، فحشد عليها المسلمون وتسوروا جدرانها وقتلوا غالب أهلها في الأسواق والبيوت، وهدموا القبة. . وأخذوا مافي القبة وماحولها، وأخذوا النصيبة التي وضعوها على القبة وكانت مرصوفة بالزمرد والياقوت والجواهر، وأخذوا جميع ما وجدوا في البلد من أنواع الأموال والسلاح واللباس والفرش والذهب والفضة والمصاحف الثمينة وغير ذلك مما يعجز عنه الحصر، ولم يلبثوا إلّا ضحوة، وخرجوا منها قرب الظهر بجميع تلك الأموال، وقتل من أهلها قريب ألفي رجل» هذا عدا من قتل من أهلها في الأسواق والبيوت. . .
فابن بُشْر يعبّر عن سروره البالغ بما فعلت جيوش الوهّابيين التي فاجأت أهل كربلاء العزل وغالبيتهم من النساء والاطفال، لأن أغلب الرجال ذهبوا إلى زيارة النجف بمناسبة دينية معروفة وقد طالت هؤلاء الأبرياء من النساء والاطفال وحشية الوهّابيين. وربما قتلوا جميع من فيها من الرجال وهم قريب ألفي رجل كما ذكر ابن بشر. إنّ هذه المعلومة التأريخية تدرّس في مدارس المملكة السعودية للتدليل على بأس وشجاعة وإيمان المقاتلين الوهّابيين! وقد أريد لهم أن يكونوا مثلاً أعلى للأجيال اللاحقة

(٢) البيطار، نديم: «الآيديولوجية الإنقلابية». ص ٤٣٨. (ط بيسان للنشر، بيروت، ٢٠٠٠م).

فعالية الخطاب التحريضي في إنتاج العنف

إنّ أتباع مايسمى بالخط السلفي الذين انتهوا إلى التمسك بالوهّابية، وهي النسخة الأخيرة المنقّحة لهذا الخط من قبل الشيخ محمد بن عبد الوهّاب، قد أعلنوا وصايتهم الحصرية للمذهب الحنبلي (**وفيما بعد لكل مذاهب أهل السنّة**)، وادّعوا امتلاكهم الحقيقة ودعوا إلى تبنّي أيديولوجيتهم المبنيَّة على التشدد المفرط الذي أدخلوه ضمن دائرة (**الجهاد**)، وهو مفهوم فضفاض تلاعبوا به لكي يستوعب كل فعاليتهم العنفيَّة.

إن نجاحهم بإقامة إمارتهم القبلية بشعارات إسلامية جعل خطابهم التعبوي والتحريضي مؤثراً وفاعلاً على جماهير أوسع في كل بقاع العالم الإسلامي. وقد استغلوا مواسم الحج والعمرة التي يفد فيها ملايين المسلمين لحج الكعبة وزيارة قبر الرسول، ووجود مؤسسة دينية متحمسة ومتعصبة ومحترفة وغنيّة ليكسبوا العديد من المسلمين إلى صفهم. وقد بدأت الآن تعنى عناية شديدة بإعداد دعاتها (المطوّعين = رجال الشرطة الدينية)، وخطبائها وطلابها ورفع تحصيلهم الدراسي والمعرفي لنشر المفاهيم الوهّابية وتلقينها للطبقات الدنيا الأقل وعياً ومعرفة. وقد برعت جماعات من هؤلاء في أساليب الدعوة والخطابة والإعلام والتوجيه والتحريض الجماهيري.

لقد أراد الوهّابيون على الدوام خلق أجواء مشحونة بايديولوجيا العنف وشغلوا الناس بطقوس بعيدة عن الدين أكثر من انشغالهم بالدين نفسه. . .

وإذا ما أحسنّا الظن بهم نقول أن زعماءهم الذين رفعوا شعارات الإصلاح لم يدركوا حقيقة الدين الإسلامي، فلم يعتمدوا على مناهج واضحة لادراك هذه الحقيقة ليستطيعوا السير على هدي إسلام واضحٍ مقبول. أما لو أدركنا حقيقة الأجندة الخفيَّة ورآء تحركاتهم ودرسنا تأريخهم بدقة فسيتبيّن لنا

ان مشروعهم الحقيقي يستهدف القضاء على النزعة الحضارية التي تدعو للتعارف والحوار والإقناع والتفاهم التي يريد الإسلام ترسيخها لدى معتنقيه.

○ ○ ○

تصدير الوهّابية وإنتاج خلايا الإرهاب

ولأنّ مصطلح (أيديولوجيا) الذي غالباً ما يستخدم في الدراسات الإجتماعية، يحتمل تفسيرات عديدة، فإن من يستعمله من علماء الإجتماع والأنثروبولوجيون يقصد به منظومة القيم الأكثر أهمية في كل مجتمع. ولا بد أن تكون في مقدمتها المعتقدات السائدة في المجتمعات والجماعات. ولا يمكن أن تنفصل هذه القيم عن المنظومة العامة للحياة في كل مجتمع أو جماعة...

وإذ أن هناك زوايا عديدة ينظر منها أتباع كل دين إليه، فإنه يصعب القول أنّ هناك منظومة واحدة من القيم والمعايير حتى لدى جميع أبناء الدين الواحد وإن كان هناك جامع مشترك كبير بين الجغرافية المذهبية التي رسمت حدودها منذ حوالي ألف عام. والتي شهدت منافسات ومواقف عديدة تكشف عنها الصراعات السياسية التي استخدم فيها الدين أو المذهب كورقة أساسية. وقد تكونت نتيجة ذلك وبسعي أطراف سياسية متنفذة وجدت أن الصراع وتأجيج الخلافات المذهبية والطائفية في مصلحتها دائماً، أيديولوجيات عديدة - لا أيديولوجية واحدة - كلها تدعي الإنتساب للإسلام وتمثيله... وبذلك فإن المراقب الغريب عن الإسلام يحيّره الحشد الكبير من الإدعاءات واختلاف وجهات النظر بين المسلمين مع أنه يجد أنهم جميعاً لديهم كتاب واحد يدّعون التمسك به وبنبيّهم ﷺ أيضاً ولديهم طقوس مشتركة..

وهذه في الواقع إشكالية سياسية وليست عقائدية بحتة، فمنذ وقت مبكر،

ربما تبلور بشكل واضح أيام نشوء الإمبراطورية الأموية عام ٦١ للهجرة، إتجاه لتحريف الدين من خلال تزوير معاني القرآن ووضع أحاديث كاذبة على لسان النبي محمد ﷺ، وذلك لتجريد الدين الذي جاء به من روحه الحقيقية التي تدعو للعدالة والمساواة واحترام الإنسان. وطالما تسابقت الإمبراطوريات والدول اللاحقة لتعزيز النهج الأموي التحريفي الذي حاول إيجاد إسلام آخر يستطيعون بواسطته تمرير (شرعية وجودهم) **قادة وحكاماً ورعاة وأولياء أمور وخلفاء وأمراء للمؤمنين** على حد زعمهم.

وقد أدلى الوهّابيون بدلوهم عندما حاولوا إنشاء إمارة أو مملكة بغطاء ديني، وفّرته لهم تعليمات ومساعي الشيخ محمد بن عبد الوهّاب. فتلك كانت الطريقة الوحيدة والمناسبة لاستقطاب شباب البدو المتحمسين لإنشاء مثل تلك المملكة. وكانت الذريعة هي الإصلاح ومحاربة الشرك.

وإذ أن واقع الوهّابيين اليوم - بعد تجربة استمرت حوالي قرنين ونصف - يشير إلى امتلاكهم وسائل التأثير الفعالة مثل الأموال والخطباء المحنكين الذين يتحدثون اللغة العربية بمهارة وعلماء الدين الذين كرسوا جهودهم لثقافة القطيعة مع المسلمين الآخرين، وامتلاك وسائل إعلام متطورة وهيمنة على المراكز المقدسة، فإنهم وظّفوا كل ذلك. بدأب وصبر ومثابرة لتكوين ايدلوجيتهم الخاصة وإرساء مفاهيمهم التي تدعو للعداوة والعنف وقطع كل خيوط الحوار والتفاهم. . .

وهنا يبدو واضحاً تورط الدولة السعودية بالمارد الذي خلقته وربّته بعد أن أصبح عدد أفراد العائلة المالكة أكثر من سكان **(المدينة)** في أيام الرسول ﷺ والذين أصبحوا يشعرون بوطأة النظرات المراقبة لهم من قبل أفراد الشعب الذي أرادوه أن يكون وهابياً حتى النخاع.

إنّ انفجاراً متوقعاً لا بد أن يطيح بالجدار الحديدي الذي يقيمه الوهّابيون

لحماية حدودهم الجغرافية المذهبية، وسيرون أنَّ تصدير الوهّابية بكل آليات العنف والقطيعة التي ترافقها سيعود عليهم بأفدح الأضرار. وأن الرجال الذين أرسلوهم لعمليات قتالية في أفغانستان والعراق وغيرها من دول العالم والذين امتهنوا الحرب والقتل لن يستطيعوا أن يتخلوا عن نهجهم القتالي بسهولة وأنهم إذا ماعادوا - وهذا ماحصل إذ عاد بعضهم فعلاً - سيمارسون هذا النهج في بلدهم بعد ازدياد خبراتهم واختلاطهم بإسلاميين حركيين من بلدان أخرى أكثر وعياً وتجربة منهم.

○ ○ ○

الخلايا النائمة: العدو الخفي

بعد أحداث سبتمبر وتفجيرات لندن ومدريد أصبحت المجتمعات الغربية تعيش حالة هلع وترقب خوفاً من أحداث دامية مماثلة. ولعل أشدّ الناس شعوراً بذلك هم المسؤولون الحكوميون - المنتخبون عادة - والأمنيون الذين أوكلت إليهم مهمة حماية المجتمعات من المخاطر القائمة والمحتملة. فقد ألف الناس حياة الإستقرار وفق آلية تحكمها القوانين والضوابط المتعارف عليها. ومهما يقال في نقد تلك المجتمعات (**إذ لايوجد مجتمع مثالي على الإطلاق**)، فإن مقارنتها بمجتمعات اللّاقانون يعتبر ضرباً من عدم المعرفة، إن لم يكن الغباء. لقد اتخذت الحياة مساراتها واستقرت على المألوف المرغوب الذي أفرزته إرادة تلك المجتمعات ولم تعد الحياة العادية ميداناً للقتال أو العنف.

ولعل الظلام النسبي قد يخيم على المجتمعات الأكثر فقراً وجهلاً، غير أن هذا يراد له أن يختفي وأن لا يلاحظ.

لقد استنفرت الأجهزة الحكومية والأمنية في مدن غربية عديدة وفي الولايات المتحدة لمجرد وجود حقيبة موضوعة في محطة للأنفاق أو قرب

مدرسة أو في سوق عام. ولأن إحتمال الخطر وارد ولو بنسبة واحد في المليون فإن هؤلاء لايرون تجاهل هذه النسبة الضئيلة ولايرون ترك الأمر للإحتمالات فمجتمعاتهم لا تتحمل الترويع والعنف. ويرى الناخبون فيها أنّ من حقهم إزاحة كل مقصر في واجباته في مجال حفظ أمنهم وإستقرارهم وليس من حقه أن يتساءل إن كان ينبغي بذل كل جهوده أو بعضها في سبيل تحقيق ذلك. فهو مكلف من المجتمع وقد قبل التكليف وارتضاه. وعليه أن يبذل كل جهوده لتوفير الأمن فيه.

❍ ❍ ❍

إن عجلة الإقتصاد لاتتحمل وجود الألغام، ولأنها لاينبغي أن تتوقف، فيجب رفع تلك الالغام وجعل الحياة تبدو مستقرة وطبيعية.

ولعلنا بهذه الجملة العرضيّة نشير لأهم ركيزة من ركائز الحياة الغربية وهي الركيزة الاقتصادية. وقد تعرضت للإهتزاز بعد تداعيات الأحداث هناك وفي العالم.

ولعلنا سنترك الإشارة إلى الأجندات الخفية والحديث عن نظرية المؤامرة، عندما نجد أن الأمر يحتاج إلى تبسيط واضح ونتطلع لإيجاد حلول للأزمة التي يجد الغرب نفسه واقعاً فيها وهو يجد أنه محاصر من قبل قوى خفيه أشبه بجيش أشباح منتشرة في كل زاوية لا يمكن الإمساك بأفراده أو حتى رؤيتهم أو تصويرهم.

❍ ❍ ❍

المخاوف من مليار ونصف مليار مسلم أو من المتطرفين؟

لا شكّ هناك مواجهة متخبطة وعبثية وغير متماسكة مع هؤلاء المتطرفين. وهو ما يحدث فعلاً. حيث نجد أن سلوك المتصدِّين والمسؤولين عن مواجهة

الإرهاب في الغرب يلجأون إلى أساليب عقيمة وغير فاعلة تزيد تأزم الأمور وزيادة المخاوف.

فهم قد يثيرون المخاوف من أكثر من مليار مسلم في العالم باعتبارهم مشاريع للعنف والتطرف ويضعون علامات استفهام أمام الدين الإسلامي ويطالبون بالتخلي عن الكثير من ثوابته وحتى النصوص القرآنية المقدسة. وبذلك فإنهم يكشفون عن جهل ستراتيجي فاضح لمواجهة عدوهم الخبير والمتماسك الذي يخوض حرباً نفسية ناجحة ضدهم وقد عجزوا حتى الآن عن تحجيمه أو التقليل من قدراته رغم كل إمكاناتهم العسكرية واللوجستية والإعلامية. كما ان المواجهة الايديولوجية معه لم تتم بشكل تخصصي ينم عن خبرة أو كفاءة مهنيّة مناسبة.

إن كل ما استطاعوا فعله لحد الآن هو أنهم جعلوا شرائح كبيرة من مواطنيهم، من المسلمين تحت المراقبة وأخذوا ينظرون إليهم بعين الشك والريبة. وهذا رغم انه امتهان لحقوقهم وكرامتهم ورغم انه يشكل لوناً من ألوان الاضطهاد والتمييز الديني والعنصري. كما أنه يزيد من الصعوبات التي يواجهونها، فإنه يصعد من وتائر الخوف لدى أبناء المجتمعات الغربية من كل من يرونه غريباً أو طارئاً، رغم ثقافة التسامح والقانون وقبول الآخر التي تسود هذه المجتمعات مع أنه لايقدم حلاً جذرياً للمشكلة.

إن هذا شبيه بالانطباع الذي يترك لدى مشاهد الأفلام العربي وهو يشاهد بعض أفلام الكاوبوي أو عصابات الجريمة المنظمة فيعتقد انه حالما تطأ قدماه الأرض الأميركية فانه سيكون ضحية هذه العصابات. ولذلك فلا يمكن رسم صورة للعربي أو المسلم البشع مقابل صورة الأميركي البشع التي تعرضها بعض وسائل الإعلام.

○ ○ ○

أديان: وليس ديناً واحداً

وإذا ما كان الإنسان العادي يجهل طبيعة (الآخر) ويتخذ منه موقفاً رافضاً منذ البداية، فإن المؤسسات السياسية الكبرى المسؤولة عن إدارة دول عظمى لن يغتفر لها مثل هذا الجهل. ولن يقال عنها - إذا ماعمدت إلى تصرفات تتسم باللّامسؤولية أو اللامبالاة أو العنف، انها قد أخطأت دون أن تتعمد ذلك، وانما ستحمّل مسؤولية تأريخية وأدبية عظمى من قبل جميع الشعوب ومنها شعوبها، وسيقال انّ لها أجندات شريرة أو ذات أهداف خفيّة أرادت تنفيذها بمختلف الذرائع ومنها ذريعة تعرضها للإرهاب.

إن أبسط مطّلع أو دارس للثقافة العامة يعلم أن كل دين يختزل في داخله أدياناً ومذاهب تتقاطع مع بعضها ويصل الأمر بأتباعها إلى شن الحروب (المقدسة). وقد يلاحظ أن السبب الرئيسي في ذلك هو مطامع بعض الأشخاص المتنفذين أو المرموقين الذين يجدون أن أسهل وسيلة لتمرير نواياهم وتحقيق أطماعهم هو الدين، ولن يحتاج الأمر بنظرهم إلا إلى تلميع صورهم ليعرضوا على أنهم الحماة الحقيقيّون للدين وأن الآخرين هم الهراطقة والكفرة الذين لا يستحقون الحياة. بل قد تبلغ العداوة بينهم حد الاقدام على شن الحروب والغزوات واللجوء إلى أشد وسائل البطش قسوة ودموية. . وربما يرون أن (الآخر) المذهبي الذي ينتمي لنفس الدين أشد خطراً وكفراً من (الآخر) الذي لاينتمي لنفس الدين، باعتبار أن الأولويات تقتضي تنظيف البيت الداخلي قبل كل شيء.

ولعل ضحايا الحروب بين المسلمين أنفسهم بهذه الذرائع تفوق عشرات الأضعاف أعداد ضحاياهم على يد غيرهم من المسيحيين والأوربيين (في الحروب الصليبية مثلاً). وقراءة بسيطة في أيّ موسوعة تأريخية عربية تؤكد لنا

صحة ذلك، وتكشف عن البشاعة التي قتل فيها مئات الآلاف من المسلمين في حروب (**إسلامية**) للأسباب التي ذكرناها.

كما أن ضحايا الحروب بين المسيحيين بهذه الذرائع أيضاً تفوق عدد ضحاياهم على أيدي غيرهم. ولعل أيّ دارس للحروب الدينية التي وقعت في ممالك ومقاطعات أوربا في العصور الوسيطة وماقبلها تدهشه البشاعة التي تمت فيها هذه الحروب.

وليس العالم بعيداً الآن عن الحربين العالميتين الأولى والثانية بين المسيحيين والمسيحيين، وكانت أوربا فيها محرقة كبرى أكلت عدة ملايين من أبنائها المسيحيين. غير أن مبررات قيامها هذه المرة لم تكن هي نفسها مبررات الحروب الدينية السابقة.

لعل الدين هو أشد مايكون بعداً عن شن الحروب واللجوء إلى العنف، غير أن الجميع يجدونه مغرياً لتعزيز دوافعهم وتبرير انتهاكاتهم وأطماعهم.

لذلك فإن قولنا أن أتباع ديانة ما قد نظروا جميعهم نظرة عدائية متشددة إلى أتباع دين آخر بدافع ديني محض، كقول سكان كوكب قريب (**إذا ماكان مأهولاً**)، أن سكان الأرض قد ناصبوهم العداء لأنهم سكان كوكب آخر، وعليه فيجب أن يعاقبوا جميعاً لهذا السبب. . .

إن هذا سيبدو غير مقبول بنظر أيّ عاقل. وستبدو الذرائع الدينية لشن الحروب والمعارك الآن غير مبررة وغير مقبولة أيضاً.

وإذ أن المسلمين يعرفون أكثر من غيرهم بؤر التطرف المنتشرة بينهم ويعلمون بشكل قاطع أن لاشأن لأغلبيتهم فيما يحدث، وأنهم يُحمّلون وزر وتبعات جماعات (دينية) متطرفة تتبنى فكراً قائماً على العداوة والنبذ ورفض (الآخر) المذهبي أو الدين، فإن على القوى العالمية التي تزعم أنها تكافح الإرهاب أو التطرف أن تتّجه لمكافحة هذه البؤر بالتعاون مع المسلمين

أنفسهم. كما أن عليها ان تكافح البؤر المتشنّجة الأخرى الموجودة داخل مؤسساتها وبين صفوفها لتخفيف وتائر الصراع وحل الأزمات الناشئة عن أفكار التطرف مهما كان مصدرها.

ولعلنا حينما نشخّص هنا في هذا الكتاب أو في غيره بؤر التطرف في مجتمعاتنا ونطالب بالتعامل معها بالأساليب المناسبة لإيقافها وردعها، فإننا نحمّل تلك القوى مسؤولية تأريخية كبرى عندما نلاحظ أنها تتجاهل ذلك وتتعامل بصداقة وود ملحوظين مع الجهات الراعية للإرهاب وفي حاضنته التأريخية الأولى (**المملكة السعودية**) وتكتفي بدعوات خجولة غير واضحة (**لتعديل المناهج الدراسية**) وتترك كيفية تنفيذ ذلك لنفس المسؤولين الذين وضعوا تلك المناهج.

فهل تعتقد أنها بهذا الضغط الهزلي المضحك الذي تمارسه على حليفها الستراتيجي - كما تعلن على الدوام - قد قطعت الطريق على الفكر المتطرف وأن هذا (**الحليف**) الذي أثبت إنتهازيته ولامبالاته سيقوم بكامل هذه المهمة؟

هذا لا يمكن أن يقتنع به أحد على الإطلاق. فهي أعرف من الآخرين بحقيقة حليفها. وما تقوم به لايندرج ضمن ستراتيجية جادة وحقيقية لمكافحة الإرهاب أو التطرف.

○ ○ ○

العنف صناعة بشرية

وهنا يبدو أن الجميع يلعبون بالنار عندما يتهاونون بهذه المسألة ويبدون كما لو أنهم يؤجلون المباراة الحاسمة أو النهائية لوقت قد لايكون لصالحهم.

إن الجهات العربية التي لجأت إلى وسائل البطش قد فاقمت أزمة الإرهاب وأعطت الإرهابيين شعوراً بالنصر والثقة بالنفس بعد أن أعلنت أنها

ستسحب قواتها من أفغانستان (بؤرة التوتر الحالية في العالم). . . ولعل بياناً واحداً من أصغر أرهابي في أقصى مكان في العالم يهدد فيه بضرب مرفق أو مدينة أوربية أو أميركية يصيب الجهات الأمنية وغيرها بالهلع، فتهرع إلى تعزيزات وإجراءات أمنية قد تعطل أو تشوّه الشكل الطبيعي للحياة وتكلف جهوداً وأموالاً طائلة. بينما التهديدات المقابلة واللجوء إلى الوسائل والأسلحة العسكرية المتطورة التي لا تنال من الإرهابيين بقدر ما تنال من المدنيّين الآمنيين تزيد من حماس هؤلاء الإرهابيين ومن تعاطف البعض معهم، ممن يحملون تصوراتهم المذهبية المحدودة. وإذا ما تساءلنا: أليس من الممكن إعادة تجربة طالبان في أفغانستان وظاهرة الطلبة المسلحين بالعصي في باكستان (رغم وجود دولة مركزية فيه) بدعوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لنجد جواباً على سؤالنا أنها تتكرر في أماكن أخرى وبممارسات عنيفة قد تفجر الأوضاع هناك بشكل غير متوقع. . . وسيأتينا الرد واضحاً أن هذا أمرٌ ممكن بل متوقع. ويمكن ان يحصل بذرائع عقائدية مذهبية أو عنصرية مع أن شعاره العام سيظل هو نفسه: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فما يراه البعض معروفاً يراه الغير منكراً، وبالعكس. فهذه سنّة تأريخية تفرزها تراكم ثقافة الجغرافية الدينية أو المذهبية المحدودة. ولن يمكن التخلص منها إلا بفعل ثقافي جذري ومواجهة أيدلوجية ملحوظة توظف لها إمكانات كبيرة.

○ ○ ○

دوافع الكسب الحزبي، دوافع دينية وإجتماعية

لقد أثبتت بعض الدراسات الجادة ومنها تلك التي قام بها (**مارك سيكمان**) في كتاب «**فهم الشبكات الإرهابية**» التي درس فيها ٥٠٠ حالة لشباب قاموا بعمليات إرهابية، وفجر بعضهم نفسه، أن بعض هؤلاء لم يكونوا

معروفين بأنهم من المتشددين دينياً وان حياتهم كانت مستقرة ومن خلفيات إجتماعية لاتعاني من الفقر أو من مشاكل متفاقمة أخرى. وقد تم كسبهم إلى صفوف التنظيمات الإرهابية على خلفية العلاقات الإجتماعية ومجاميع الأصدقاء الصغيرة (الشِلَلْ)، وهو أمر تحدثنا عنه في هذا الكتاب.

وإذا ما لاحظنا أن أغلب هؤلاء من صغار السن ومن الفئات العمرية التي لاتتجاوز العشرين أو تتجاوزها بقليل، فإن (صديقاً) حميماً له كاريزما وشخصية مؤثرة، يتمتع بقدر من المعرفة أو الذكاء، وينتمي للفكر المتطرف، يمكن أن يكسب إلى تنظيمه بعض أصدقائه أو أفراد شلّته المقربين ويعزز قناعاتهم بهذا التنظيم بمختلف الوسائل المتاحة، ثم يجندهم للقيام بأعمال قتالية ونقلهم - إن اقتضى الأمر - إلى مناطق التوتر لتدريبهم وشحنهم بالمفاهيم المتطرفة. . ثم القتال في صفوف جماعات مشابهة.

إن تجنيد أغلب هؤلاء الشباب في أواسط الثمانينات تم بذريعة دينية مفادها إطاعة ولي الأمر **(أي الحاكم المطلق أو الملك)** الذي يرغب بمواجهة الكفار السوفييت في أفغانستان. وفي ذلك ضمان للجنّة.

وإذ أن الشرائح الأكبر سناً لن تستجيب لمثل هذه الذريعة بسهولة وهو أمر له مبرراته الإجتماعية والنفسية، فإن من استدرجوا كانوا من الفئات العمرية الأصغر. . . وقد كانت استجابتهم مبررة بنظر أغلب الشرائح الإجتماعية بما فيها بعض أهليهم. . . غير أن تداعيات ما بعد خروج السوفييت جعلت من هؤلاء جيلاً قتالياً معطلاً لأن الدول التي جندتهم قد وجدت أن الحاجة قد انتفت إليهم ولم يعد مبرراً بقاؤهم هناك.

وفي عهد طالبان وبعد ضرب برجي مركز التجارة العالمي حاولت الدول التي جندتهم في السابق منعهم من العودة إلى أفغانستان لأنهم كانوا سينضمون لطالبان والقاعدة التي اعلنت مسؤوليتها عن جريمة أيلول الأسود في نيويورك.

وهكذا وجدت الجهات التي جنّدتهم في السابق ضرورة لتجنيد مقاتلين جدد إلى جانبهم للذهاب إلى أفغانستان لمواجهة الأميركان (الكفرة). وحيث أنّ هذا ضدّ إرادة ولي الأمر هذه المرة، فقد كان ينبغي أن يتم بسرية تامة حتى عن الأهل والأقرباء.

○ ○ ○

لماذا ينكرون وجود الفكر المتطرف

إن البعض ينكرون وجود الفكر الإرهابي[١] متذرعين بالمشروع الأميركي السعودي المصري الأول وبمشاركة معظم الدول العربية لإرسال مقاتلين إلى أفغانستان لطرد السوفييت، وأن هؤلاء اندفعوا بدعم وتأييد من تلك الحكومات.

وهذه ليست حجّة كافية لدفع تهمة الإرهاب عنهم. فقد استخدمت تلك الحكومات مناهج الفكر المتطرف لتنفيذ أجنداتها وأنتجت متطرفين ثم تخلت عنهم. غير أنهم لم يتخلوا عنفكرهم المتطرف وحاولوا توسيع فعالياتهم الجهادية ضد جميع (الكفار) وحلفائهم حتى ولو كانوا (**أولياء الأمور** المفروضة طاعتهم في السابق).

إن المشككين بوجود التوجه الإرهابي لدى المتطرفين يقيم شكوكه على أساس أن اندفاع هؤلاء المتطرفين تم بايعاز من الحكومات وتشجيع منها، فهل ينفي هذا وجود التطرف.. وهل أن هذه الحكومات حَمامات سلام أم أنها - نفسها - ترعى التطرف إذا ما وجدت ضرورة لذلك؟

---

(١) مثل المحامي الأردني (سميح خريس)، عضو لجنة الدفاع عن معتقلي غوانتانامو في ندوة قناة العربية الفضائية في ٢٤ ديسمبر ٢٠٠٦ الذي قال: (إنه ليس هناك فكر إرهابي على الإطلاق).

لقد أصبح همها دفع هذه التهمة عن نفسها الآن وحماية الرقع الجغرافية التي تحكمها من عمليات الإرهابيين ليحرقوا الدنيا كلها إذا أرادوا.

أليس هذا ما يلاحظ في دول الخليج العربي الآن؟ عقد سري مكتوب أو غير مكتوب يتعهد فيه الإرهابيون بعدم ممارسة العنف في بلدانهم مقابل سكوت الجهات الحكومية والأمنية عن الدعم الشعبي المقدم إليهم والتبرع بالأموال الطائلة لإدامة نشاطاتهم في بلدان أخرى[١] من قبل الجمعيات والأشخاص.

○ ○ ○

إنبهار الأفغان بالأفكارالوهّابية

لقد جعلت أفغانستان حاضنة مثالية لأفكار التطرف الوهّابية بعد تمركز (القاعدة) ونشوء حركة (طالبان) فيها عقب انتقال آلاف من حملة هذه الأفكار من الحاضنة الأم (السعودية) ومن أقطار أخرى حملت فكراً مماثلاً على خلفية أحزاب إسلامية حركية ذات خبرة تنظيمية كبيرة.

لقد انبهر الأفغانيون بهذه الأفكار وقد عكست توجهاتهم القبلية المبنيَّة على عزلة تأريخية قديمة وسجلٌ حافل بالمعارك والحروب ضد بعضهم وضد جيرانهم. ووجدوا فيها - كأخوتهم الصحراويين النجديين من قبل - خلاصة صحيحة للإسلام. وقد كانوا أكثر استجابة لأفكار الشيخ محمد بن عبد الوهّاب منهم. وربما دفعهم إلى ذلك الإنبهار بما يرونه من طقوس وشعارات تؤدي بشكل احتفالي أثناء مواسم الحج والعمرة، وقد حسبوا أن ذلك من ثمار الوهّابية ونتيجة لتمسكها بفروض الدين وأصول الشريعة.

(١) مرت الإشارة الى نشاط إحدى الجمعيات (الخيرية) في فصول سابقة من هذا الكتاب.

وكانت الذريعة التي استخدمت لتجنيد الشباب في أفغانستان لمواجهة السوفييت هي نفسها التي استخدمت فيما بعد لمنعهم من الرجوع إليها أثناء المواجهة مع الأميركان. وهي مشيئة **(ولي الأمر)** أيّ الملك السعودي بحسب العرف القائم الذي أصبح يشكل طقساً دينياً قائماً بذاته، فلا يجوز **(الجهاد)** إلا بأمر ولي الأمر ولايجوز رفع لواء إلّا بأمره. الأدبيات الوهّابية منحت السلطة الدينية التي لم تكن حتى للنبي محمد ﷺ للملوك الذين جاءوا من بعده. والواقع إن هذه الأدبيات قد أخذت من عرف متوارث ومطلوب في حكم السلالات الملكية ابتداء من حكم الأمويين والى يومنا هذا(١).

ولما كان الخروج عن مشيئة (ولي الأمر: الملك) يعد خروجاً عن الإسلام! وأن مشيئته اقتضت أن لا يعود أحد إلى أفغانستان! ولأنّ وعياً متزايداً ومن نوع جديد بدأ يظهر لدى **(المجاهدين)** نتيجة اختلاطهم بأفراد الحركات الإسلامية المصرية وغيرهم الأكثر وعياً والأقل استجابة لإرادة الحكام، فإنهم رأوا أن لايستجيبوا هم أيضاً لرغبة **(ولي الأمر)** الذي وضع قيوداً دون ذهابهم مرة ثانية إلى أفغانستان. فكان لا بد أن يتكتموا على

---

(١) وقد التفت إلى هذه الظاهرة أحد المفكرين والأدباء الكبار في العصر العباسي وهو (عبدالله بن المقفّع) الذي ولد سنة ١٠٦ هـ وقتل في حوالي الثلاثين من عمره إثر كتابته (رسالة الصحابة) التي كتبها للمنصور العباسي. وقد جاء فيها: **«أماّ من يدّعي لزوم السُّنة منهم، فيجعل ما ليس سنّةً سنّة، حتى يبلغ ذلك به إلى أن يسفك الدم بغير بيّنة ولا حجّة على الأمر الذي يزعم أنّه سنّة. وإذا سُئل عن ذلك لم يستطع أن يقول: أهريق فيه دمٌ على عهد رسول الله ﷺ، أو أئمة الهدى من بعده. وإذا قيل له: أيُّ دم سفك على هذه السنّة التي تزعُمون؟ قال: فعل ذلك عبد الملك بن مروان، أو أمير من بعض أولئك الأمراء... وهو مقرٌ أنه رأي منه لا يحتجّ بكتاب أو سنّة...»** وهي إشارة ذكية إلى سوابق بعض الحكام التي جُعلت سنّة فيما بعد واعتمدت لترسيخ أنظمة الحكم اللّاحقة. راجع: ابن المقفع، أبو محمد عبد الله: «رسالة الصحابة». ط ١، ص ٢٠٧ و٢٠٨. (ط دار البيان، بيروت، ١٩٦٠م).

تحركاتهم ويعملوا بعيداً عن عيون الرقباء بسرية وخفاء، وهو ما فعلوه. إذ أتاح لهم هذا الأسلوب وتعاطف شرائح واسعة من المجتمع معهم الرجوع ثانية والانخراط فعلياً في الأعمال القتالية وترويج الأفكار المتشددة التي تبنتها **(طالبان)** و**(القاعدة)**، كما أتاح لهم القيام بحملة واسعة للتغرير بالشباب الصغار للإنخراط في تنظيماتهم.

وقد بدوا فخورين بسجلّهم **(الجهادي)** الحافل. ولعل فخر أيّ مجاهد بمشاركته في معركة بدر التأريخية الأولى تحت لواء النبي محمد ﷺ لن يصل إلى ما يشعر به هؤلاء من زهو وإعجاب كونهم الجيل الأول من المقاتلين الذي أسموا بالعرب الأفغان وربما حسبوا أنفسهم كجيل الصحابة الأول في الإسلام.

ويعترف جميع الباحثين في شؤون التطرف أنَّ هؤلاء ينطلقون من مفاهيم خاطئة. إلا أن أحداً لم يشخص بدقة طبيعة هذه المفاهيم ومصدرها. ونؤكد **هنا إن مصدر هذه المفاهيم هي الأيديولوجية التي ألبست من قبل الوهّابية لكل** ممارسات العنف غير المنضبطة. فلماذا لم يشأ أحدٌ الإعراب عن ذلك بصراحة؟

○ ○ ○

الأصغر عمراً والأقل خبرةً أكثر استجابة

وإذ أن قضية الإرهاب هي من أشد المشاكل تعقيداً لتداخل العوامل السياسية والإجتماعية والنفسية والدينية فيها، ولا يمكن النظر إلى كل عامل بمعزل عن العوامل الأخرى. فربما يشترك أكثر من واحد بتكوين الإتجاه الإرهابي لدى بعض الناس.

وقد يمكن التساؤل: لماذا يركز على الفئات العمرية الأصغر؟ وكذلك

على الفئات الأقل علماً ووعياً لزجّهم في تنظيمات التطرف والخلايا النائمة؟ لماذا لا يفاتح طلبة الدراسات العليا بعد أن يستكملوا نضجهم ومسيرتهم المعرفية؟ والجواب لأن هؤلاء لا يستجيبون بسهولة لأمثال هذه الدعوات بسبب اتساع مداركهم ووعيهم. أما طلبة الدراسات الأولية أو ذووا الثقافة أو الحصيلة العلمية المحدودة فإنهم لا يصمدون أمام وسائل الإقناع التي يلجأ إليها من يريدون زجهم في هذه التنظيمات. وهذه ظاهرة - كما تحدثنا من قبل - لا تشمل المنخرطين في الحركات أو الأحزاب الدينية وحسب وإنما في جميع الأحزاب التي عرفتها البلدان العربية وبعض البلدان الإسلامية.

❍ ❍ ❍

إن الإغراق في الإرهاب واستهداف المدنييّن العزّل ليس له ما يبرّره في الأدبيات العامة لجميع المجتمعات الإنسانية غير أن له مبرراته في أدبيات الإرهابيين الذين امتهنوا العنف وأدمنوا عليه حتى أصبح جزءاً من ثقافتهم وواقعهم. وقد وجدوا تبريرات (فقهية) لمفتين جهلة استخدموا النصوص القرآنية وبعض الأحاديث النبوية لجعل العالم بأجمعه في حالة حرب وإغراقه في الفوضى والخوف.

❍ ❍ ❍

المرجعيات الدينية المتطرفة وإنتاج خلايا الإرهاب

إن المرجعيات الدينية المتطرفة التي أوجدتها الوهّابية لاتزال تعمل بنفس الأداء التحريضي المتصاعد، رغم استنكار عموم المسلمين لذلك. فهي تجد دعماً كبيراً من جهات حكومية متنفذة وسياسيين وجمعيات وشركات مالية ضخمة ومؤسسات تربوية وإعلامية عديدة. ولايبدو أنها ستتوقف في المدى المنظور عن تنظيراتها التي تدعو للتشدد والعنف وعدم قبول (الآخر).

ورغم ظهور تيارات إصلاحية معتدلة داخل هذه المؤسسة تتصرف بواقعية وتمتلك قدراً من الحكمة وبعد النظر، إلا أن أصوات المتطرفين من داخل هذه المؤسسة نفسها لايتيح لهذه التيارات أن تعرض برامجها الإصلاحية بوضوح أو تبسطها على أرض الواقع.

لقد صرح هنري كرسبتون (**المنسق الأميركي لمكافحة الإرهاب**) بقوله: إن كانت هناك خلية إرهابية في أيّ مكان في العالم، بما فيها جنوبي شرق آسيا، فيمكن أن يكون لها وقع في لندن أو موسكو أو الولايات المتحدة. أيّ أن وقع أو تأثير العمليات التي يمكن أن يقوم بها أعضاء أية خلية يمكن أن يصل إلى أيّ مكان في العالم. وهذا أمر صحيح إلى حد ما، إذ تستنفر القوى الأمنية جميعها وتتخذ احتياطات طوارىء عاجلة بمجرد وقوع حادث إرهابي أو وجود مخطط للقيام بمثل هذا الحادث في أيّ بلد ويظل الهاجس الأمني يراود الأجهزة المسؤولة ابتداء من رؤساء الدول وحتى أصغر شرطي. فكأن العالم كله في حالة حرب يترقب انفجاراً صاعقاً لا يعلم أحد متى ستحل ساعته. وهذا أمر لا يمكن الإستهانة به أو النظر إليه بلا مبالاة. فالخلايا النائمة لها خبرات متطورة في صناعة الأسلحة الكيمائية والمتفجرات الشديدة التي يمكن أن تسبب دماراً هائلاً كما أن لها قدرة في فنون الترويع والتخويف.

لقد ساعد الإعلام الغربي - بشكل مقصود - في تهويل صور الإرهابيين المشاركين بهذه الخلايا، وعرضهم كأصحاب قوى خارقة. كما أن إجراءات قوى الأمن في المطارات وغيرها، عززت الشعور بالخوف وتصعيد وتائره بين المدنييّن من هؤلاء الإرهابييّن المتخفّين والذين لايعرف أحد مَن هم وماهم.

إنّ عرض بعض الصور البشعة التي يقوم بها الإرهابيون في بعض وسائل الإعلام مثل قطع الرؤوس على المشاهد العادي والسماح بنشرها من قبل

المتطرفين في بعض المواقع الألكترونية دون ملاحقة جديّة أو بعد ملاحقة غير مجدية قد يراد منه إرسال رسالة تبيّن ما يمكن أن يقدم عليه هؤلاء من أعمال وحشية مريعة إذا ما أتيحت لهم الفرصة لذلك، فهم يمكن أن يبيدوا البشرية إذا ما امتلكوا أسلحة دمار شامل. وبذلك فإن هذا الإعلام يعطي شرعية مواجهة هؤلاء الإرهابيين بأقصى الوسائل وأشدها ردعاً وشن حروب مقابلة عليهم قد تطال الأبرياء ايضاً. فلابد من استمالة الرأي العام ليساند العمليات القتالية التي تقوم بها الدول الغربية والتي قد تستدعي احتلال بلدان مثل أفغانستان والعراق والتواجد في أماكن أخرى مثل باكستان وبعض مناطق الخليج وربما اليمن أو أندونيسيا أو غيرها في المستقبل. مع أن ذلك لن يحل المشلكة مع الإرهابيين بل سيزيدها تأزماً، كما هو حاصل الآن.

○ ○ ○

عودة إلى «المصطلح»،

«الخلايا النائمة»: المجموعات الصغيرة لتنظيم القاعدة

تحدثنا عن الخلفية التأريخية التي استخدم فيها هذا المصطلح خلال حقبة الحرب الباردة بين الإتحاد السوفيتي من جهة وأوربا والولايات المتحدة من جهة ثانية. غير أن هذا المصطلح يتغير في حرب المواجهة الحالية بين تنظيم **(القاعدة)**، المتشابك والمتشعب الآن وبين الولايات المتحدة والغرب، ليعني آلاف التنظيمات الصغيرة، الملحوظة وغير الملحوظة للتنظيم الأم **(القاعدة)** والتي تشكل القاعدة الأيديولوجية والقوة الضاربة بنفس الوقت. فأولويات كل من الطرفين المتحاربين تتمثل بالقضاء على الطرف المقابل بأية وسيلة. ووسيلة القاعدة لتحقيق خططها الهجومية هي هذه الخلايا المتسترة والكامنة التي تنتهز الفرصة وتترقب الوقت الملائم للقيام بضرباتها التي تحاول أن تكون صاعقة

لإرهاب الطرف الآخر وتخويفه لغرض تحييده عن الصراع الذي تخوضه لاستلام السلطة في العالم العربي والإسلامي.

إن أدبيات **(القاعدة)** والأحزاب القتالية المتماهية والمتحالفة معها أو التي تشترك معها بنفس الرؤية تجعلها على يقين من كونها الوريث الشرعي والبديل لأنظمة الحكم القائمة. وقد أدى فشل المشروع القومي والاشتراكي إلى توليد هذا اليقين بجدارة الخط **(الإسلامي)** الحركي وقدرة حملته وقادته الحاليين لقيادة المجتمعات الإسلامية وتحقيق الدولة الإسلامية.

وقد جعل اعتقاد نجاحها في طرد السوفييت من أفغانستان **(الذي ما كان ليتم لولا تظافر إرادة دولية عامة قادتها الولايات المتحدة)** ثم قيامها بإنشاء دولة طالبان، متيقنة من قدرتها على إعادة التجربة في كل مكان. مع أن **(طالبان)** بالمقاييس العادية لم تكن سوى أنقاض دولة تنتظر من يرفعها لبناء دولة لها المقومات البنيوية والدستورية المطلوبة.

ولن تسعد الأغلبية المطلقة من المسلمين إذا ما عاشت في ظل أنظمة حكم متخلفة كتلك التي شهدها الأفغان أيام حكم طالبان. وهكذا نرى أن القاعدة تريد استلاب حق المسلمين في الحكم والحياة وإقامة الحياة الديمقراطية والوصاية عليهم وفرض هيمنتها بالقوة والاكراه بدعوى حق مزعوم في القيادة والحكم أعطته هي لنفسها يماثل ذلك **(الحق الإلهي)** الذي أعطاه بعض الحكام السابقين لأنفسهم طوال قرون عديدة.

إنّ الخلايا النائمة التي تنتشر انتشاراً سرطانياً في أغلب أنحاء العالم، والتي تتواصل مع التنظيم الأم عن طريق وسائل الإنترنيت المتطورة وغيرها وتتابع مستجدات الحياة اليومية وتفاصيل العمل تكمن وتتحفز بانتظارِ القيام بعمليات إرهابية متى رأت الظرف مناسباً لذلك.

ومن هذا المنظور يمكن اعتبارها القاعدة الواسعة والقوة الضاربة للقاعدة

التي لم تنخرط في التنظيم وفق آليات العمل التقليدية السابقة وإنما وفق آليات مبتكرة أتاحها التطور الكبير لوسائل الإتصالات الحديثة وفي مقدمتها «الإنترنيت».

○ ○ ○

وهنا نؤكد الإشارة إلى ان استعمال هذا المصطلح يعني الإشارة إلى أعضاء القاعدة الحاليين أو المحتمل انخراطهم فيها في المستقبل ونريد استخدامه هنا حصراً لكي لا ينسحب الحديث عن المنظمات الإرهابية الأخرى وخلاياها والتي تنتشر في أغلب مناطق العالم أيضاً، لخصوصية هذا البحث المكرس عن الفكر القاعدي المتطرف ومرجعيته الدينية(١).

○ ○ ○

اجتياح العراق: تفجر العنف وانتشار الخلايا النائمة

لقد أشغلت العالم إشكالية لم يتوصل الكثيرون إلى حلها لحد الآن والمتعلقة بسقوط النظام الديكتاتوري من قبل الولايات المتحدة.

إن أحد أسباب هذه الإشكالية يعود إلى أنّ العراق في مخيال أغلبية

---

(١) فمن المعلوم لكافة الباحثين في شؤون التطرف أن هناك جهات واشخاصاً ومنظمات ارهابية (غير القاعدة) تنتشر في أغلب مناطق العالم ونذكر على سبيل المثال: **جماعة أوم شرينكوا** في اليابان التي قامت عام ١٩٩٥ بضخ غاز السارين السام في مترو أنفاق طوكيو، **والنازيين الجدد وحليقي الرؤوس** في ألمانيا الذين يهدّدون بحرب عالمية ثالثة، والجماعات العنصرية المتطرفة في الولايات المتحدة مثل منظمات **الأمة الآرية** التي تمتد بسرعة وتتواجد في أغلب الولايات والمليشيات المسلحة التي تطورت إلى طوائف دينية قوية مثل **حركة ديفيد كورش** التي تأثر بها **تيموثي ماكفيه** مفجّر أوكلاهما عام ١٩٩٥ **والجيش السري الأيرلندي** الذي قام بأعمال عنف وتفجيرات طوال عدة عقود من القرن الماضي.

المسلمين يمثل مركز (**الخلافة الإسلامية**) والإمبراطورية التي سيطرت على نصف العالم وتحققت خلال حكمها نهضة حضارية كبيرة. وقد أصبحت عهداً زاهراً ينظر إليه بحب وشغف. . . ثم أصبحت بغداد صدّام بنظر بعضهم كبغداد الرشيد (**الذي يتمتع بتقدير لديهم مع أنه كان مستبداً وسفاحاً أيضاً**). . . فقد عرض نفسه قائداً للأمة العربية ومدافعاً عن الإسلام. واستمال إلى جانبه أقطاب التيار الديني السلفي (**الوهّابي**) الذين أفتوا بنصرته ومساندته خلال حربه مع ايران لدوافع طائفية ثم تخلوا عنه ظاهرياً بعد غزو الكويت.

لقد أصبح بنظر فئات واسعة من العرب والمسلمين - بفضل مساندة هؤلاء وما كان يمنحه لجهات إعلامية وسياسية متنفذة في مختلف أنحاء العالم - بطلاً قومياً وقائداً إسلامياً على غرار (**الأبطال**) التأريخيين الذين رسمت لهم أبدع الصور. . . كما أصبح أملاً في أن تتحقق على يديه الإصلاحات المنشودة وتعود شمس الإسلام إلى سابق عهدها!

وقد لوحظ أنه خلال سني حكِمه الأخيرة قد استقطب أعداداً كبيرة من المقاتلين العرب العائدين من أفغانستان وغيرهم وأدخلهم للعراق بذريعة الدفاع عن مركز الخلافة القديم والموقع المتقدم للمجاهدين المسلمين وما إلى ذلك من مسمّيات لها سطوتها ووقعها المؤثر على الشباب المتحمس لمثل هذه الأفكار.

إن هؤلاء لم يتعرفوا على صدام ولم يكتووا بنيران ديكتاتوريته من قبل كما اكتوت أغلبية أبناء الشعب العراقي وبدا لهم مدافعاً مخلصاً عن القيم التي آمنوا بها. . . وقد أزمعوا أن يدافعوا تحت رايته كدفاعهم تحت راية قائد تأريخي من جيل الصحابة أو غيرهم. . . واعتبروا معركته معركتهم. . . وقد عملت وسائل الدعاية والإعلام والتعبئة المتطورة على زج هؤلاء وإرسالهم للعراق بذريعة دفاعهم عن الإسلام.

وكان السقوط المفاجيء والسريع وغياب صدّام عن الساحة واختفائه مع جيشه دون قتال أو مقاومة سقوطاً لآمال هؤلاء الشباب المتحمسين الذين كانوا يحسبون أن (**البطل**) سيكون في مقدمة المدافعين عن العراق. . .

غير أن ما وقع قد وقع، وزج هؤلاء في أرض غريبة. ولا بد أن تكون لهم حاضنات تحميهم. ويمكن القول أنه لم يفكر أحد طوال ستة أشهر بعد سقوط النظام بمقاومة الإحتلال وأصبح الوضع القائم أمراً واقعاً. إلا أنّ أجواء تسيب وجمود لم يقدم فيها أحد للمحاسبة أو المحاكمة في ظروف (**فوضى خلّاقة**) غير مسبوقة أريد لها أن تسود العراق لسبب أو لآخر كانت إشارة واضحة لتعود المؤسسات والأشخاص الفاعلون في النظام المنهار لتجميع صفوفهم وليكونوا هم الحاضنة التي تؤوي (**المجاهدين**) العرب. فمن غير المعقول عندما لايشعر - عشرات الآلاف - من رجال النظام السابق بخوف من الملاحقة القانونية عندما يلقون دعماً مالياً ومعنوياً ولوجستياً من (**أشقاء**) في العالم العربي القريب ويرون أمامهم رجالاً من القاعدة أو الذين يحملون أفكارهم مستعدين لتفجير أنفسهم في عمليات إنتحارية لتأزيم الوضع في العراق الجديد، أن لا يقوموا (**بالمقاومة**) ويضحوا بآخر (**مجاهد من القاعدة**). ولعلهم يضحكون في سرهم من غفلتهم الواضحة. فكيف لم يفكر أحد منهم ويتساءل: لماذا لم يفجر أيّ بعثي نفسه ويترك ذلك لهم فقط؟ إن هذا وحده يمكن أن يشير إلى أن رجال الحكم السابق لايرون أمامهم قضية تستحق التضحية بالحياة وتركوا أمر ذلك (**للمغفلين**) الوافدين. مع أن الجميع رفعوا الشعارات الإسلامية، وكان أكثرهم صخباً اولئك الذين لم يروا من داع لأن يموتوا هم.

○ ○ ○

إنّ سقوط (صدام) كان أمراً محزناً لكثيرين. وخصوصاً الإدارات

الحكومية العربية التي اعتبرته (**مارقاً**)، إلا أنها رغم ذلك تعتبره رأساً من رؤوسها. . . والإطاحة به قد يكون تمهيداً للإطاحة بالبعض منها. وكذلك من قبل الذين اعتبروه رمزاً (**للجهاد**) والمقاومة واعتبروا العراق مركزاً **للخلافة الغابرة**، والذين ربما رأوا أنه إذا ما كانت هناك ضرورة للتغيير، فينبغي أن يقوموا هم بذلك ولايتركوا ذلك للشعب العراقي الذي اعتبروا أن أغلب فئاته ضالة ومنحرفة ومشركة وكافرة أن يشارك في إدارة شؤونه وفق أداء يتيح الفرص للجميع.

فالورقة الطائفية استخدمها اللاعبون السياسيون على الدوام لصالحهم وقد لعبوها في القرن الواحد والعشرين كما كان يلعب بها أسلافهم خلال قرون عديدة.

○ ○ ○

والواقع إن العراق جعل جبهة لمحاربة متطرفي القاعدة، وجعل مصيدة للإرهابيين. فقد استخدمت ايحاءات مضللة بخطرهم وقوتهم لاستدراجهم وجعلهم يقتنعون أنهم سينجون في معركتهم ويسيطرون على العراق[١].

لقد ابتلع رجال القاعدة والشباب المتلهفون (**للجهاد**) هذا الطعم وحسبوا أن الولايات المتحدة قد تورطت حقاً في العراق، وأنها تمر بأكبر نكسة سياسية في تأريخها نتيجة هذه (**الورطة**) وأنهم سيكونون (**البديل**) لها إذا ما خرجت من العراق. لكن هذا الطعم كان قاتلاً وربما سيكون العراق مقبرة لهذه الموجة من الإنتحاريين بعد تناقص أعدادهم ومقتل الآلاف منهم. وربما سيمهد لاستدراج

---

(١) وقد صرح مايكل شوبر (رئيس سابق لوحدة بن لادن «سي أي إيه» في ديسمبر ٢٠٠٦م قائلاً: «**إن العراق بمثابة مضاعف هائل لقوات بن لادن والقاعدة وحلفائها، والتي سينجم عنها على الأرجح أفدح كارثة في السياسة الخارجية على مرّ ٢٥٠ سنة من التأريخ الأميركي**».

الإنتحاريين المتحمسين إلى بلد آخر كاليمن أو الصومال ويستعمل كمصيدة أخرى. وهذا ماقد نلاحظه في السنوات وربما الأشهر القادمة.

○ ○ ○

الخلايا النائمة: منظمات إرهابية صغيرة،مرتبطة فكرياً، مستقلة تنظيمياً

يلاحظ المراقبون نشاطاً مضاعفاً للعمليات الإرهابية يتزامن مع الأحداث المهمة مثل اجتياح أفغانستان أو العراق. فسخونة الأحداث لا بد أن تزيد من نشاط الخلايا الإرهابية، لأن القيادة الرئيسية لها تتبنى الوصاية على العالم الإسلامي وتجعل من نفسها حامية لها. ولا بد أن تكون هذه الخلايا اليد الضاربة التي تنفذ رغبات هذه القيادة.

وقد لاتكون هذه الخلايا النائمة بالضرورة تابعة تنظيمياً للقاعدة وإنما لتنظيمات أخرى مشابهة، غير أن وحدة الهدف والإنتماء الفكري يحفزها لتنشط في وقت واحد يتزامن مع أحداث ساخنة.

وفي ظل المراقبة الشديدة لفعاليات الإرهابيين لا يمكن أن تكون هناك - عملياً - قيادة مركزية واحدة لهذه التنظيمات التي استلهمت أفكار القاعدة وأساليبها التمويهية في العمل.

فالقاعدة تمثلت بالأشخاص الذين عملوا مع أسامة بن لادن أو المقربين منه في أفغانستان وعادوا إلى بلدانهم أو بقوا هناك كما تمثلت بالتنظيمات المحلية التي ظهرت في جنوب شرق اسيا مثل الجماعة الإسلامية أو المغرب أو السعودية أو بعد ذلك في العراق...

إن تشابه الأسلوب والهدف والتوجه الفكري لكل أفراد هذه التنظيمات جعل منها أشبه بمنظمة واحدة. فهي لم تصل إلى الحد الذي تمسك فيه بزمام

السلطة حتى تتناحر أو تختلف فيما بينها. . . وانما تبدو متماسكة في الظاهر وذات قوة تنظيمية عالية قادرة على اختراق كل التحصينات الأمنية للدول المتقدمة.

إن الفكر القاعدي ينتشر الآن كبثرة خبيثة. وإذا لم تكن آليات العمل وقواعد التنظيم في القاعدة تعتمد الآن لدى أفراد الخلايا والمجاميع الإرهابية المتوزعة في كل انحاء العالم وخاصة في مناطق التوتر الأمني أو السياسي، فإن هذا الفكر يوحد بينها ويمهد لاحتضانها من قبل الجماعات الأخرى غير الحركية لكن الحاملة للفكر نفسه. وكما وجدت القاعدة معقلاً لها في أفغانستان بفعل تعاطف هذه الجماعات، فانها وجدت معقلاً آخر في العراق الذي بدا مستقبلها فيه واعداً بعد ما حققته من الضربات التي طال أغلبها المدنيين الأبرياء.

لكنها تبدو الآن محبطة بعد ما لاقته في هذا البلد الذي لم يستجب لهم استجابة تامة. إن (القاعدة) التي تعتبر نفسها راعياً لشؤون المسلمين وجبهة متقدمة للدفاع عنهم تحاول أن تنتج نوعاً من التضامن بينها وبين الجماعات التي تتبع نفس المرجعية الدينية السلفية والتي تحمل نفس تصوراتها وتحاول إعادة تجربة أفغانستان في العراق أو اليمن أو أي بلد آخر باعتبار أن المسلمين وحدة واحدة وإن تعرض أيّ بلد إسلامي لعدوان أو خطر يرتب على ابناء البلدان الإسلامية الأخرى واجب الدفاع عنه. وإذ أنهم اعتبروا - وفق مقاييسهم - إن تجربتهم في أفغانستان كانت ناجحة وموفقة وفي الإتجاه الصحيح، فإن إعادتها وإنجاحها في العراق ستمثل نصراً تأريخياً حاسماً.

إن القاعدة تتناسى أنها قد نمت وكبرت في أفغانستان بفضل دعم أعداء اليوم من الأميركان الذين كانوا بالأمس من الحلفاء القريبين، كما أنها تتجاهل وضع كل بلد وثقافاته وتركيبته الإجتماعية. ولذلك فإنها لا يمكن أن تستنسخ تجربتها في كل بلد تعمل فيه.

إننا نجد أنها - رغم كل أخطائها - قد استفادت من بعض تلك الأخطاء والتجارب السابقة في العمل وقد نجحت في نشر فكرها المتطرف بفضل وسائل الإتصالات الالكترونية المتطورة وبفضل الداعمين الرئيسيين لها في العالم وخصوصاً في منطقة الخليج العربي.

ورغم انحسار نشاط القاعدة في العراق فإن انتشاره على صعيد الفكر قد تزايد ووجد قبولاً من بعض الاشخاص والجهات ويمكن أن يمهد لنشوء خلايا جديدة في المستقبل.

ان المرجعية الدينية السلفية لإرهابيي القاعدة وخلاياها النائمة، رغم انها تدّعي محاربتها للتطرف، إلا أنها لا تتخذ موقفاً واضحاً من خلال بيانات تفصيلية أو فتاوى واضحة وتتصرف بنفاق مع المتطرفين كما تفعل بعض الحكومات بالضبط. ولذلك فإنها تساعد على نشر الأفكار المتطرفة التي هي جزء من أدبياتها الأساسية. ولو أنها كانت جادة في ادعائها بمكافحة الإرهاب لساهمت على الأقل بتعديل المناهج الدراسية أو التربية الدينية التي تحرض على الكراهية والعنف.

ويمكن القول إن موقف المؤسسة الدينية العليا في المملكة السعودية يتوافق مع موقف المؤسسة الحاكمة التي لم تتخذ مواقف حاسمة بهذا الشأن.

❍ ❍ ❍

شبكات الإنترنت: الصديق الحميم لشبكات التطرف

يمكن اعتبار الإنترنت الهدية الجميلة التي قدمت للبشرية خلال ربع القرن الماضي. فقد أتاحت وسائل إتصال ممتازة وسريعة وساهمت في ترسيخ معالم ثورة معلوماتية للجميع، متخطية حدود المكان ومتجاوزة الموانع والسدود ووسائل الرقابة التقليدية.

غير أن هذه الشبكة العنكبوتية أصبحت ألغاماً موضوعة في كل زاوية وأداة يستفيد منها الإرهابيون ومنظمات التطرف لتمرير وسائلهم المبتكرة في تجنيد المتطوعين الجدد وتحريضهم وتدريبهم حتى أصبح **(الجهاد الالكتروني)** أسلوباً سائداً تستخدمه التنظيمات المسلحة وفي مقدمتها تنظيم القاعدة. وقد رصد أكثر من ٤٥٠٠ موقع إلكتروني بعد إسقاط النظام الدكتاتوري في العراق تعمل لصالح هذا التنظيم وتروج له.

وقد حرصت هذه المواقع على التحريض على الإرهاب المنظم ونشر أدبيات وأفكار وثقافة المنظمات المتطرفة باستخدام آليات متطورة في التخفي والمراوغة. ويستهدف بث هذه الأفكار بشكل نسقي متكرر ترسيخها لدى المتلقين لحثهم على الانخراط في المنظمات الإرهابية ميدانياً أو فكرياً وليصبحوا أكثر استعداداً بمرور الوقت لتنفيذ العمليات القتالية.

لقد وجدت هذه المنظمات في المواقع الإلكترونية ملاذات آمنة وقد لجأت إليها كوسيلة فعّالة للوصول إلى الشباب والتأثير عليهم وتجنيدهم والوصول إليهم بدون وسطاء باعتبار أنهم أكثر الشرائح الإجتماعية استخداماً له وفق تقنيات عالية محترفة مما يؤدي بالتالي إلى تغيير قناعاتهم وانخراطهم في فعالياتها ونشاطاتها.

وإذ أنه من المستحيل منع مواقع الإنترنت من نشر ما تريد نشره، فإن الإرهابيين جعلوا منه الوسيلة الأولى في عملية تجنيد الشباب، كما إنهم استطاعوا تجنيب معرفة أو كشف الشخصيات القيادية الفاعلة في التنظيم وتجنب تعريضهم للخطر.

إن القاعدة تتبع الآن أكثر التكتيكات التعبوية تقدماً رغم أنها تنظيم ملاحق ومطلوب للعدالة عبر نشر ثقافتها في مواقع الانترنيت التابعة أو المتعاونة معها.

إن هذا الكم الهائل من المواد التحريضية عبر مئات من شبكات الإنتريت كفيل بإنتاج فرق أو خلايا إنتحارية تستطيع الإطلاع بشكل مباشر على جميع اللوائح التنظيمية للقاعدة وآليات العمل السائدة فيها والتواصل معها دون الحاجة لأعضاء ارتباط أو اشخاص تصلها بالمسؤولين الأعلى حزبياً. إن هذا ما يمكن أن يحدث فعلاً في المستقبل القريب.

غير أن الجزء الأهم في عملية التنظيم قد تمّ فعلاً وساهمت في تحقيقه بعض مواقع الإنترنت وهو المتعلق بالشحن العقائدي أو الفكري.

ويبدو أن للقاعدة ستراتيجية طويلة الأمد قد تمتد لعشرات السنين في المستقبل، تستطيع خلالها تجنيد الشباب لا من خلال الطرق التقليدية في المدارس أو المساجد وإنما من خلال مواقع الإنترنت التي يتوقع أن تتطور تطوراً نوعياً كلما تقدم الزمن.

لقد تحولت القاعدة من تنظيم محدود في أفغانستان إلى أيديولوجيا شاملة في كل بقاع الأرض يمكن أن تدير رأس أيّ شاب بفضل الإنترنت الذي يضخ أفكارها وتصوراتها وقيمها.

إن تطور خدمات وبرامج الشبكة العنكبوتية أتاحت التواصل المستمر مع تنظيم القاعدة ومنتدياته وأجواء الحياة اليومية لأفراده وهمومهم وتطلعاتهم ونمط حياتهم وتحركاتهم. فهذا عالم معرفي كامل يضاهي ما تقدمه الجامعات في سنوات عديدة بفضل التقنيات المتطورة التي توظفها القاعدة لصالح عملياتها.

إن المواجهة الفكرية تضمن تحصين الشباب وعدم انزلاقهم في مستنقعات الإرهاب. ولن تتاح هذه المواجهة إلا بتجفيف المنابع الأولى التي أصبحت إرثاً تقافياً مقبولاً بل ومقدساً والمتمثل بالأفكار والآراء المتطرفة للمرجعية

الوهّابية. إذ ينبغي أن يعاد النظر جدياً بها باعتبارها تمثل قراءة معينة ووجهة نظر وإجتهاداً شخصياً لفقيه واحد قد يتفوق عليه أو يماثله عشرات أو مئات غيره.

ولابد للمواجهة الفكرية أو الايديولوجية من خطط وبرامج يشترك فيها متخصصون وخبراء من جميع أنحاء العالم وإلّا فإنها ستكون ناقصة وغير مجدية.

قائمة باسماء المصادر

١ - إبراهيم، محمد إبراهيم: «**مواجهة المواجهة**». (ط دار ثابت، ١٩٩٤م).

٢ - ابن الأثير الشيباني، أبو الحسن علي بن محمد: «**الكامل في التأريخ**». (ط بيروت، ١٩٦٥م).

٣ - ابن الجوزي، الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن. «**سيرة عمر بن عبدالعزيز**». (ط مصر، ١٣٣١هـ).

٤ - ابن المقفع، أبو محمد عبد الله: «**رسالة الصحابة**». (ط دار البيان، بيروت، ١٩٦٠م).

٥ - ابن خلدون الحضرمي، ولي الدين أبو زيد: «**مقدمة ابن خلدون**»، مختارات من إعداد الدكتور محمد عناني. (ط ١، القاهرة، ١٩٩٧م).

٦ - ابن غنّام، حسين: «**تأريخ نجد أو روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام**»، تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد. (ط ٤، دار الشروق، بيروت/ القاهرة، ١٩٩٤م).

٧ - ابن كثير، إسماعيل بن عمر: «**البداية والنهاية**». (ط دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م).

٨ - ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي بن أبي الفضل جمال الدين: «**لسان العرب**».

٩ - ابن هشام، «**السيرة النبوية**». (ط مصر، ١٩٥٥م).

١٠ - أبو صَوّة، محمود أحمد: «**صناعة الإرهاب، قراءة في استراتيجية الهيمنة**». (ط إشراقات للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٥).

١١ - الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل: «**مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**». (ط القاهرة، ١٩٦٩م).

١٢ - الآلوسي، محمود شكري: «**تأريخ نجد**».

١٣ - الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «**نهج البلاغة**» جمع الشريف الرضي، بشرح

ابن أبي الحديد المعتزلي، وتحقيق عز الدين عبدالحميد المدائني ومحمد أبو الفضل إبراهيم. (ط البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٥م).

١٤ - إمام، عبدالفتاح: «**الطاغية**». (ط سلسلة عالم المعرفة، الكويت).

١٥ - الأمين العاملي، السيد محسن: «**كشف الإرتياب في أتباع محمد بن عبد الوهّاب**». (ط بيروت، ١٩٩١م).

١٦ - البغدادي، عبدالقادر بن طاهر: «**مختصر كتاب الفَرق بين الفِرَق**». (ط القاهرة، ١٩٢٤).

١٧ - البيطار، نديم: «**الآيديولوجية الإنقلابية**». (ط بيسان للنشر، بيروت، ٢٠٠٠م).

١٨ - تأريخ المملكة العربية السعودية. منهج المرحلة المتوسطة، الصف الثالث.

١٩ - الجبرتي، عبد الرحمن: «**تأريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار**». (ط القاهرة).

٢٠ - الجوادي، علاء: «**بحث بعنوان Selected Case Studies أي القيادات الإسلامية والموقف من الإرهاب**». (مجلة العهد، معهد الدراسات العربية والإسلامية، لندن، بريطانيا).

٢١ - حسين، طه. «**من تأريخ الأدب العربي**». (ط دار العلم للملايين، بيروت).

٢٢ - حمزة، فؤاد: «**البلاد العربية السعودية**».

٢٣ - الحيدري البغدادي، إبراهيم فصيح بن السيد صبغة الله: «**عنوان المجد في أحوال بغداد والبصرة ونجد**». (ط ١، دار الحكمة، لندن، ١٩٩٨م).

٢٤ - دحلان، السيد أحمد بن زيني: «**فتنة الوهابية**». (ط استنابول، ١٩٧٨م).

٢٥ - دوكرانسي، لويس: «**الوهّابيون**». (ط ١، دار رياض الريس، بيروت ٢٠٠٣م).

٢٦ - الدينوري، ابن قتيبة أبو محمد عبدالله بن مسلم: «**الإمامة والسياسة أو تأريخ الخلفاء**». (ط مصر، ١٩٦٧م).

٢٧ - الدينوري، أبو حنيفة: «**الأخبار الطوال**». (ط القاهرة، ١٩٦٠م).

٢٨ - الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر: «**مختار الصحاح**». (ط دار الكتاب العربي، بيروت).

٢٩ - الريحاني، أمين: «**تأريخ نجد الحديث**». (ط ٦، دار الجيل، بيروت ١٩٨٨م).

٣٠ - الريحاني، أمين: «**ملوك العرب**»، المجموعة الكاملة. (ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠م).

٣١ - الزبيدي، المرتضى: «**تاج العروس من جواهر القاموس**».

٣٢ - الزمخشري، محمود بن عمر الخوارزمي: «**أساس البلاغة**».

٣٣ - سعيد، أمين: «**تأريخ الدولة السعودية**». (ط الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٤م).

٣٤ - سيد الأهل، عبد العزيز: «**داعية التوحيد**». (ط دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٤م).

٣٥ - الطباطبائي، محمد حسين: «**الميزان في تفسير القرآن**». (ط بيروت، ١٩٩٧م).

٣٦ - الطبري، ابن جرير: «**تأريخ الأمم والملوك**». (ط ٢، الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م).

٣٧ - الطبري، ابن جرير: «**تأريخ الأمم والملوك**». (ط القاهرة، ١٨٨٥ - ١٨٨٩م).

٣٨ - الطبري، ابن جرير: «**تأريخ الأمم والملوك**». (ط القاهرة، ١٩٣٩م).

٣٩ - عبد الرحمن، محمد عبد الله: «**علم إجتماع المدرسة**». (ط المعرفة الجامعية، مصر).

٤٠ - عبد الوهّاب، محمد: «**مختصر سيرة الرسول**». (ط ١، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض).

٤١ - عبد الوهّاب، محمد: «**مختصر سيرة الرسول**»، تحقيق هناء ماجد جزماتي. (ط دار الكتاب العربي، بيروت).

٤٢ - العزّام، الدكتور عبد الله: «**آيات الرحمن**». (ط دار الدعوة، الاسكندرية، ١٩٨٥م).

٤٣ - العسقلاني، ابن حجر: «**فتح الباري بشرح صحيح البخاري**». (ط البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٩م).

٤٤ - عطوان، حسين: «**الفرق الإسلامية في بلاد الشام في العصر الأموي**». (ط دار الجليل، بيروت، ١٩٨٦).

٤٥ - العكرة، أدونيس: «**الإرهاب السياسي**»، بحث في أصول الظاهرة وأبعادها الإنسانية. (ط دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٣م).

٤٦ - العلوي، حسن: «**الشيعة والدولة القومية**». (ط دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٨٩).

٤٧ - عناني، محمد. وسرحان، سمير: «**المختار من مقدمة ابن خلدون**». (ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م).

٤٨ - عيد، عبدالفتاح: «**سدنة هياكل الوهم، يوسف القرضاوي**». (ط ١، دار الطلبة، بيروت، ٢٠٠٥م).

٤٩ - القحطاني، فهد: «**صراع الأجنحة**». (ط ١، الصفا للنشر والتوزيع، لندن، ١٩٨٨م).

٥٠ - كشك، محمد جلال: «**السعوديون والحل الإسلامي**».

٥١ - كوستز، جوزيف: «**العربية السعودية من القبلية إلى الملكية**». (ط مكتبة مدبولي، القاهرة/ ١٩٩٦م).

٥٢ - المبرّد، أبو العباس محمد بن يزيد: «**الكامل في اللغة والأدب**». (ط مصر، ١٩٣٧م).

٥٣ - مجهول، المؤلف: «**لَمْعُ الشّهاب في سيرة محمد بن عبدالوهّاب**»، تحقيق د. محمد مصطفى أبو حاكمة. (ط دار الثقافة، بيروت).

٥٤ - المختار، صلاح الدين: «**تأريخ المملكة السعودية في ماضيها وحاضرها**». (ط مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٥٧م).

٥٥ - المستر همفر: «**المذكرات**». ترجمة الدكتور ج. خ. (مجهول الناشر ومكان وزمان الطبع).

٥٦ - المسلّم، محمد سعيد: «**ساحل الذهب الأسود**».

٥٧ - معروف، نايف: «**الخوارج**». (ط ٣، بيروت).

٥٨ - المقدسي، مطهر بن طاهر: «**البدء والتأريخ**». (ط باريس، ١٩١٦م).

٥٩ - مكيافيلي، نيقولا: «**الأمير**». (ط ٢٢، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٩٩م).

٦٠ - الناشيء الأكبر، عبدالله بن محمد: «**مسائل الإمامة**». (ط المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت، ١٩٧١م).

٦١ - النجدي، سليمان بن سَحمان: «**تنبيه ذوي الألباب السليمة وتبرئة الشيخين الإمامين**». (ط ٢، الرياض، ١٤١٠هـ).

٦٢ - النجدي، سليمان بن عبد الوهاب: «**الصواعق الإلهية في الرد على الوهّابية**». (ط ١، بيروت، ١٩٩٨م).

٦٣ - النجدي، عثمان بن بُشْر: «**عنوان المجد في تأريخ نجد**». (ط ١، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض،طبع في مجلدين بدون تأريخ).

٦٤ - النووي، محي الدين أبو زكريا: «**شرح صحيح مسلم**». (ط القاهرة، ١٩٣٠م).

٦٥ - اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب: «**تأريخ اليعقوبي**». (ط بيروت، ١٩٦٠م).

٦٦ - اليماني، الهيثم: مقال «**آل سعود**». (مجلة الوحدة الإسلامية، العدد ٦٠، آب ١٩٨٧م).

من وصايا محمد بن عبد الوهاب، إلى محمد بن سعود:

«لا تبق أحداً تظفر به إلا قطعت رأسه، لأنّ القتل الشنيع هو الذي ذلّل لنا رقاب قبائل نجد».

لَمَعُ الشّهاب، ص٦٥.

الفهرس

الموضوع **الصفحة**